(١)

ميشيل زيفاكو

جوهان الشجاع

ابن باردليان



دار البحار

ميشال زيفاكو

ابن باردليان

جوهان الشجاع

رواية تاريخية غرامية حربية هائلة
جرت حوادثها على زمن
الملك هنريكوس
الرابع ملك فرنسا

الجزء الأول

دار ومكتبة الهلال
بيروت. ص.ب ١٥/٥٠٠٣

المقدمة

هذه القصة ليست من وحي الخيـال ولا دبجتها اقلام أي كاتب كان خيالي ام غير خيالي .

فقصة ابن باردليان مشهورة ومعروفة لكل من طالع قصة باردليان وأتى على نهايتها عندما عرض ملك فرنسا على البطل باردليان بان يختار ما يشاء تقديراً لخدماته التي قام بها بالدفاع عن ملك فرنسا في ذلك الحين .

فكان جواب باردليان للملك أني أريد ان تأذن لي بالانصراف للبحث عن ولد فدهش الملك لما تفوه به البطل باردليان وقال ولد من ايها الفارس؟ فأجاب باردليان بعد أن لكز جواده وسار مودعاً الملك ولدي ... ولدي انا يا صاحب الجلالة ...

فقصة ابن باردليان قصة تاريخية معروفة لا نغالي ان قلنا انها قصة رائعة وهي اشهر قصة للكاتب الكبير زيفاكو .
ويكفي ان يكون بطلها جوهان الشجاع ابن باردليان والذي يجهل الابن اباه كما ان الأب يجهل ابنه .

وسيطالع القارىء كيف ان جوهان يبـارز أباه ويتفوق عليه دون أن يعرف كلاهما من هو خصمه حتى اعجب باردليان ببراعة هذا الشاب الفارس القوي !

الفصل الاول

العاشق

ننتقل وقراءنا الكرام الى باريس عاصمة المملكة الفرنسية في يوم من ايام شهر ايار الجميل وذلك ابان حكم الملك هنريكوس الرابع الذي كانت ايامه بردا وسلاما على الامة الفرنسية .

فتحت نافذة في منزل حقير المظاهر والمطل على شارع الشجرة اليابسة وظهرت على شرفته فتاة حسناء تأخذ الالباب بمحاسنها وتسبي العقول بجمالها الفتان وكانت أشعـة الشمس تنعكس على شعرها الذهبي فتزيدها بهجة ورونقا وعيناهـا الزرقاويتان ترسلان أشعة كهربائية وهي ذات قامة ممشوقـة كالغصن الرديني غير ان ملامح الحزن والكآبة بادية على محياها الوسيم .

وقفت برهة في مكانها جامدة لا تبدي حراكا وكأنهـا دفعت بقوة غير منظورة فرفعت رأسها الجميل بوجل ونظرت الى المنزل الذي كان أمامهـا فابصرت شاباً في مقتبل العمر

وريمان الشباب واقفاً في مكانه وهو مكتف الذراعين ينظر اليها نظرات التدله والاعجاب .

احمرت وجنتا الفتاة خجلاً ثم اصفرتا وجلاً وحدقت برهة بذلك الشاب الغريب ثم عادت الى غرفتها وقفلت نافذتها بعد ان تنهدت تنهداً خرج من أعماق فؤادها كأنها تأسفت لعدم بقائها في ذلك المكان .

*

وكان في الشارع رجل تدل ظواهره على الفقر والمسكنة واقفاً في احدى الزوايا بحيث يرى ولا يرى فلم يكد يقع بصره على تلك الحسناء حتى اتقدت عيناه باشعة غريبة وبدت على محياه ملامح البهجة والسرور فضم يديه الى بعضها وناجى نفسه بقوله :

— يا الله ما ابدعها ..

ولم يكد يتلفظ بهذه الكلمات حتى شعر بجسم غريب الشكل قد سقط على مقربة منه وانتصب أمامه شخص كأنه سقط اليه من السماء قذفته الأرض من جوفها وقال له :

— لا تزال أيها الأخ رافالياك كعادتك مستغرقاً بافكارك السقيمة التي لا معنى لها .

فارتجف الاخ جان فرانسوا رافالياك لسماعه هذا الصوت وانقلبت ملامحه فجأة من السرور العظيم الى الحزن الذي لا يوصف وقال لمخاطبه بمزيد التأدب :

— عم صباحاً أيها الاخ كولار الكامل ..

وفي تلك اللحظة أقفلت الحسناء نافذتها ولم يخطر ببالها ان تلقي نظرة الى الشارع لترى ما هو جار فيه فتنهد رافالياك من اعماق صدره وابتعد من مكانه ذاهباً نحو شارع سانت هونوري الذي كان على مقربة من ذلك المكان وأخذ معه الأخ كولار الكامل الذي سره كثيراً الاجتماع مع رفيقه .

وكان ذلك الراهب قد نظر الى تلك الحسناء بطرف خفي وسمع التنهد الذي صدر من صدر رافالياك ولكنه لم يتظاهر بوقوفه على شيء من هذه الاسرار وظل كعادته يبتسم ابتسامة تشف عن المكر والدهاء .

وبينما هما سائران صادفا رجلاً تدل ملامحه على أنه من علية القوم ومن كبار الاغنياء وقد كان يخاطب احدى القرويات بجفاء وخشونة فلما مرا بالقرب منه ابدا للراهب اشارة سرية جاوبه عليها بحركة خفية من جفنيه فلم ينتبه رافالياك ولا القروية الى هذه الاشارة المزدوجة .

وظل الرجل الغريب والقروية سائرين حتى وقفا امام باب المنزل الحقير الذي رأينا حسنائنا واقفة على شرفته وهما يتحدثان بحماس يتزايد من حين الى آخر ولم ينتبها الى شخص كان مختبئاً في احدى الزوايا وقد سمع حديثهما مع ان كلامهما كان همساً لا يكاد يسمع .

أما الشاب الذي رأيناه في فاتحة روايتنا واقفاً في نافذتـه وقد نظرت اليه حسناؤنا بمنتهى الشغف والتدله فقد ظل واقفاً في مكانه ولعل وقوفه كان على أمل ان يبصر شبح الفتاة التي أحبها واستأثرت لبه .

ونظر العاشق السعيد الى الطريق ولكنه لم يكد يرى ذلك الرجل الذي كان جامداً في مكانه حتى صرخ صوتاً دل على فرط غضبة وزمجر قائلاً :

— أرى فوكه اللعين قد عاد الى هنا فما الذي يعمله امام بابه ومن الذي يناديه ؟

وفي تلك اللحظة نادى الرجل الذي دعـاه العاشق باسم فوكه السيدة التي كانت على وشك دخول منزلها وتحدث معهـا همساً فأثر عمله على فؤاد الشاب تأثيراً غريباً لأنه لم يلبث ان غادر النافذة التي كان على مقربة منها وناجى نفسه بقوله :

— اراه تكلم سراً مع السيدة كولنيكل فلا بدلي من معرفة ما قاله لها والويل له من شقي سينال جزاءه مني .

قال هذا واندفع في السلالم كقنبلة وفي ذات اللحظة وقف ثلاثة شبان امام باب منزله وكانت ملامحهم تدل على الشر وهم متسلحون بسيوف طويلة يجرونها من ورائهم على الأرض ولكنهم وقفوا مترددين أمام الباب ولم يجسروا على طرقه الى ان قـال أحدهم مخاطباً رفيقيه :

— انك يا كرنابل باريسي المولد وتحسن التكلم و...

— ما معنى هذه المقدمة يا اسكركاس وأنت تفوقني زلاقة ومهارة غير اني أرى ان كار كان هو الوحيد فيما بيننا للقيام بهذه المهمة الخطيرة .

— يا لكما من رفيقين غريبي الطباع فانتما تريدان أن اتعرض لوحدي الى غضب الرئيس الذي حظر علينا المجيء الى عنده من غير رضاه او بدون دعوة منه وهل تخالني غراً الى درجة اقتحام غضبه دونكما .

— كيف العمل والواجب يقضي علينا بأن نخبره ان السيد كونسيني يريد مقابلته هذا اليوم .

— فلتحمل الشياطين هذا الرجل وقد كان بامكانه تكليف سوانا بهذه المهمة .

— إذا لم يكن بد من قضائها فلنتول القيام بها سوية فلا ينال الواحد منا الا القليل من غضب الرئيس .

ولما اتفقوا على هذا الامر رفعوا سوية ايديهم الى البـاب ليقرعوه وإذا به قد انفتح امامهم فجأة واندفع منـه شخص فرقهم يمنة ويسرة وهذا الشخص هو صديقنا العاشق الذي اخذ يعدو في الطريق كالمجانين فصرخ اسكركاس برفيقه قائلاً :

— هذا هو رئيسنا وقد عرفته من تحيته الغريبة لنا .

قال هذا ووضع يده على حنكه لتألمه من ضربة شديدة اصابته عليه وأعول كرنكايل قائلا :

– الويل لي لقد أصابتني منه ضربة حطمت بعض اضلاعي

– هيا بنا ولنتبعه الى حيث يذهب .

واسرعوا بالجري خلف الرجل الذي دعوه رئيسهم وظهر من هيئتهم انهم كانوا يرهبون جانبه الى درجة تفوق الوصف .

اما العاشق الغريب فكان يسير توا الى أمامه لا يلوي على شيء وهو غير مبال باصوات الاحتجاج واللعنات التي كان يتفوه بها كل من اصابته أحد ضرباته الشديدة .

وبعد ان اجتاز نحو خمسين متراً وهو على هذه الحال صدم رجلا كان يسير أمامه بتمهل فلم يلتفت اليه ولا اعتذر بل ظل مندفعاً الى الامام ولكنه اخطأ في حسابه هذه المرة لأن الرجل صرخ به قائلا :

– أيه أيها المستعجل قف قليلا لالقنك درساً في الأدب .

فلم يقف العاشق ولالبى هذا النداء كأنه لم يسمعه وإذا بيد قد وضعت على كتفه بشدة فلم يلتفت الى واضعها بل انه كان معتمداً على قوته العضلية فهز جسده بعنف ليتخلص من اليد الموضوعة على كتفه ولكن الضغط زاد عليه حتى اضطر

الوقوف في مكانه فالتفت الى الرجل الذي اعترضه في سيره وهو يصرف باسنانه من فرط حنقه .

وتناظر الرجلان برهة وجيزة وهما صامتان وكانت امارات الدهشة والخجل والاعجاب والغضب واليأس تبدو على ملامح الشاب اما الرجل فكان ينظر اليه بسكينة تامة كأنه يستطلع افكاره ويقرأها في كتاب مفتوح ولم يلبث ان ظهرت عليه امارات الشفقة واللطف المقرونة بالعظمة وقال له :

– أرى ياسيدي اني بايقافي إياك رغماً عنك قد أجر عليك مصاباً يسوءني تعرضك له لذلك يسرني أن اتناسى فظاظتك فاذهب ايها الشاب واعلم بأن باردليان قد نسي أمرك .

فانتفض العاشق كمن لسعته أفعى وأبرقت عيناه باشعة غريبة وقبض بيده على سيفه كأنه يريد امتشاقه في الحال ولكنه عدل عن عزمه وقال :

لا ليس لي من وقت أضيعه سدى .

ثم اقترب من باردليان حتى كاد يلامسه وحدق به بعينين تتوهجان غضباً وقال :

– إذا كنت تريد أن تعفو عني فاعلم باني انا جوهان الملقب بالشجاع لن اعفو قط عن الاهانة التي الحقتها بي ولا بد لي من قتلك فاذهب وتمتع بالساعات القليلة التي أجود عليك بها وسأنتظرك في الساعة التاسعة من صباح الغد قرب دير الرهبان

الشاريرو وإذا خطر لك ان تتناسى هذا الموعد فسأظفر بك ولو اختفيت في السحاب أو نزلت الى الجحيم .

قال هذا واندفع راكضاً الى الامام كالمجانين فخطر لبارديليان ان يستوقفه مرة ثانية ولكنه توقف عن عزمه وهز كتفيه بغير مبالاة وسار في طريقه وهو يغني لحناً كان معروفاً في تلك الايام .

الفصل الثاني

جوهان وسياتا

بينا كان جوهان الشجاع وهو اللقب الذي اطلقه صديقنا العاشق على ذاته مندفعاً في أثر فوكه كان هذا الرجـــل يسير بسكينة في شارع سانت هونوري فمر بجانب الراهب كولار الكامل وأبدى له اشارة خفية وعاود سيره نحو اللوفر .

ولم يكد يبتعد عن الراهب حتى لكز هذا رفيقه بكتفـه وقال له :

ـ أرأيت هذا الرجل الماشي أمامنا فهو فوكه ماركيز دي لافارين الذي يثق به صاحب الجلالة مليكنا المعظم كل الثقة لأنه معتمده في سروره وملاهيه .

وأبرقت عينا رافالياك بأشعة غريبة كأنه تذكر امراً كان قد نسيه فضحك وقال :

ـ لقد صادفناه قبل الآن في هذه الليلة بينما كان واقفاً مع السيدة كولنبكل صاحبة المنزل الصغير الذي نراه امامنا ...

ولقد أدركت الآن سر مقابلتها فان هذه السيدة مؤجرة في منزلها ملاكاً في منتهى الظرف والجمال ولا شك بأن صاحبنا الماركيز قد أحب الوقوف على أفكار صاحبة المنزل واذا أحببت فأنا اراهنك على ان مليكنا سيمر من هذا المكان في هذه الليلة وغداً نسمع بخليلة جديدة له .

ولما ابتعد المركيز فوكه دي لافارين عن السيدة كولنيكل التي كان يحادثها خرج الرجل الذي كان يسمع حديثهما من مخبأه وهو رجل في مقتبل العمر ومنتهى القوة تدل ملامحه على القسوة فتوقف برهة متأملا ومحدقاً في نافذة جوهان الشجاع حتى إذا رآه خرج من منزله ومر أمامه كالسهم المارق تبعه ببصره وهو ينظر اليه نظرات رهيبه ويبتسم ابتسامة غريبة ثم تقدم بخطى ثابتة نحو شارع سانت هونوري ودخل منزلا يدل ظاهره على بسطة عيش ساكنة وسعتهم وهو المنزل الذي يقيم فيه السيد كونسيني .

بقي الرجل نحو نصف ساعة في هذا المنزل ثم خرج منه وأخذ يتمشى بسكينة ظاهرة نحو شارع الشجرة اليابسة وإذا به يرى جوهان الشجاع يسير على عجلته التي ذكرناها فالتقدت عيناه باشمة غريبة ودنا منه بخفة ووضع يده على كتفه فالتفت الشاب الى الرجل الذي اعترضه في سيره وقد بدت عليه امارات الاستياء ولكنه لما عرفه تظاهر بالابتسام وقال له :

– هذا انت يا سيانا ... لقد كنت ارجو ..

– ما الذي تبحث عنه وما الذي كنت ترجوه يا ولدي ؟

فانقلبت ملامح جوهان الشجاع لسماعه هذا الجواب وبدت عليه امارات الاضطراب ورفع رأسه بشدة وقال :

– لماذا تدعوني ولدك وأنا لست ابنك وأنت على يقين من اني لا أستطيع مناداتك بهذا اللقب .

– صدقت فأنا لست والدك ولكني لما التقطتك منذ ثماني عشرة سنة وأنت تكاد تموت من البرد والجوع إذ كنت ملقى على قارعة الطريق ولم تكن تتجاوز وقتئذ السنة الثانية من عمرك فلو لم اعتن بك وأسهر عليك ليلا ونهاراً لكانت أودت بك الحمى التي كنت مصاباً بها . ولما كبرت وشببت اعتنيت بأمرك فجعلتك رجلا قوياً شجاعاً وأنا الذي وضعت في يدك هذا السيف وعلمتك امتشاقه حتى أصبحت لا يباريك فيه أحد من الناس وصرت رئيساً على جماعة لا ترهب الشياطين في جحيمنا ولكنهم يخافونك ولا يجسرون على مخالفة أمر من اوامرك وهم يرهبون جانبك ويخشون بأسك وهم ينتظرون كلمة منك لينادوا بك ملكاً عليهم .. قل لي بربك من الذي اوصلك إلى هذه الدرجة الرفيعة ؟ الست أنا ؟ وإذا لم أكن والدك الحقيقي،أفلست مديناً لي بشيء من الشكر كما يقضي به الواجب .

– صدقت .. صدقت .. وان ما تقوله هو الحقيقة التي لا مرية فيها ولكن أخال ذاتي حين أخاطبك وحشاً كاسراً

فإنك حين تسدد إلي نظراتك الهائلة يخال لي أنك ألد أعدائي وانك لم توصلني إلى هذه الحالة الا لمقصد خفي تكتمه عني وعندئذ أشعر بميل داخلي يدفعني الى قتلك بلا شفقة ولا رحمة .

– وما الذي يمنعك عن تنفيذ مرأبك وسيفك في يدك كما أن سيفي في يدي .. لقد كنت فيما مضى معلماً لك ولكنك قد فقتني بدرجات وصرت استاذي الأكبر .

– يا للهول يا لشقائي فانك علمتني كل ضروب الشقاء والدعارة ولكني لا أتدانى لأن أكون قاتلاً سفاكاً وحمداً لله لم أتلقن هذا الدرس على يدك .

– انك رقيق الشعور وما ذنبك إذا كانت الطبيعة اوجدتك في هذا الخلق الغريب أما أنا فقاسي الفؤاد لا يتأثر قلبي لشيء من المؤثرات التي يسمونها العواطف الكاذبة لذلك قل من يحبني من معارفي ولكنني غير مخطىء إذا لم اتبع غير آمالي وقد بذلت جهدي لأجعلك شجاعاً بكل معنى الكلمة وما كان وايم الحق يخطر ببالي انك ستتخلق باخلاق النبلاء وإني سأضطر لمخاطبتك بلهجة لم أتعود عليها

وألقى على الشاب نظرة ملؤها العطف والحنان وقد اغرورقت عيناه بالدموع وقال له :

– لقد احببتك حباً جماً فانت الرابطة الوحيدة التي تحببني بهذه الحياة ولم يبق لي في هذه الدنيا سواك وبما اني لا اريد

فقدك او التخلي عنك فأعدك بأني سأبذل كل جهدي لتلطيف اخلاقي معك وهذا كل ما أستطيع وعدك بة .

وظهر على ملامحه انه يبذل عناء كبيراً لينطق بهذه الكلمات التي كانت تخرج من صدره رغماً عنه غير ان الشاب لم يتأثر لحالته بل ظهر عليه الاستياء وحاول ان ينطق بعبارة يلطف بها أشجان مربيه فلم يستطيع التغلب على عواطفه ولا خرجت الكلمة من فمه وكان سياناً قد أدرك من ربيبة ما يكنه في ضميره فقال له وهو يحاول الابتسام :

– لم تتذكر لي شيء من أمانيك وأمالك ولا أطلعتني على ما كنت تبحث عليه .

فضرب جوهان جبهته بيده وصرخ قائلاً .

– تسألني عما كنت ابحث عليه الا فاعلم اني كنت افتش عن وقح .. ولكن قل لي قبل كل شيء الست على ثقة من قوتي العضلية وانك تعتقد كما أعتقد أنا بأنه لا يوجد من يستطيع الثبات أمامي في موقف الخصام بيد أنه لا يسعني أن أكتمك ما جرى لي واني صادفت في هذا الشارع شخصاً وضع يده على كتفي بخفة ولكنه تدرج في العنف فلم أعد استطيع التخلص منه .

– رباه ما الذي اسمعه منك ولدي فاني لا أعرف أحداً في العالم له مثل هذه القوة الا .. الفارس باردليان .

– يا للهول ويا للشقاء فان الرجل الذي ذكرت لي اسمه هو

الذي اعترضني في طريقي ثم ضربت موعداً لمبارزته في صباح الغد .

– ويلاه ويلاه انت صادفت باردليان وتنازعت معه ودعوته لمبارزتك .. ولئن كان الأمر جرى كما توقعت فانك بحثت عن حتفك بيدك .

– أراك تتعمد السخرية معي على غير سبب موجب لها .

– قلت لك ان باردليان هو الرجل الوحيد الذي يفوقك قوة أما انا فلا أريد ان يقتلك فاعد لي قولك ان موعد مبارزتكما هو صباح الغد لاطمئن عليك .

– أجل فاننا لا نتبارز قبل الغد .

– حمداً لله فقد سكنت هواجسي وزالت مخاوفي .

– لم أفهم عليك فزدني ايضاحاً .

– أعلم ان غداً لا يعود لباردليان سبيلاً لأذيتك .

فهمس الشاب في نجواه قائلا :

– يا للعجب مما اسمعه فاني لم ار في حياتي سياناً بمثل هذا التأثر فهو لا ريب يحبني حباً خالصا ولولا ذلك لما جزع علي مثل هذا الجزع فهل بلغ بي الكنود الى درجة اتناسى بها نعماه.

وخاطب مربيه بصوت عال كأنه غير مبال بما سمعه منه :

– هل أنت في حاجة الى نقود ؟.

– كلا ولكني لا أرفض ما تعطيني إياه .

وتناول الكيس الذي أعطاه أياه جوهان وابتعد وهو يناجي نفسه بقوله :

– غداً صباحاً يكون الوقت قد فات ولا يبقى لباردليان مجال اليك لأنك تكون صرت في قبضة الجلاد .

واستغرقته الافكار العميقة فصمت برهة وهو مطرق ثم همس في نجواه قائلا :

– إذا اقتضت الحال فاني أدع باردليان يفتك به ولكني الآن منهمك فيما هو اهم من ذلك فسر يا ابن فوستا وباردليان نحو الهوة التي حفرتها تحت قدميك وأنت غير شاعر بمقاصدي وأعلم بان ساعة انتقامي قد دنت .

والتف بردائه الطويل حتى ستر ملامحه وسار بخطى متمهلة نحو اللوفر .

الفصل الثالث

الملكة والليونورا

كا بلاط الملك قاتماً قاعداً وكل من فيه قلق مضطرب لان الملك لم يتناول طعاماً ولا تعرف جفناه النوم وانقطع عن المباحثة في شؤون المملكة مع وزرائه .

وأخذ يتجنب الاجتماع مع اصدقائه والمخلصين اليه وكان يقضي كل أوقاته منزوياً في غرفته الخاصة فكان البعض يقولون عنه انه مريض والبعض الآخر يأكدون انه عاشق متيم .

واليك ما كان يعلمه خمسة أو ستة من أخصاء الملك المقربين عن حقيقة حاله ولكنهم كانوا يكتمون ما يعرفونه حذراً من تقولات الناس .

رأى الملك فتاة في السادسة عشر من عمرها وهي في منتهى الظرف والجمال فتيمه هواها ولم يستطع الوصول اليها رغماً عن رفعة منزلته فكان يتنكر كل ليلة بزي غريب ويذهب ليقضي لياليه تحت شرفة منزلها الكائن في شارع الشجرة اليابسة .

وكان أخصاء الملك يتزاحمون على الاقبال حول ذلك المنزل الذي صادفت صاحبته استحساناً في نظر مليكهم ليتقربوا اليها ولكنهم لم يعرفوا من أمرها إلا أنها تدعى الآنسة برنيل وأنها لا تغادر منزلها إلا صباح الأحد لتحضر الصلاة في كنيسه قريبة منها وترافقها وقتئذ صاحبة المنزل المدعوة السيدة كولنيكل .

وبعد ظهر اليوم الذى جرت فيه الحوادث التي ذكرناها في الفصلين السابقين كان الملك جالساً في غرفته الخاصة وهو يلاعب نظارتيه بيديه ويناجي نفسه بقوله :

– عجباً ما الذي دعا المركيز دي فارين لهذا التأخير وقد علم اليقين إن هذه الفتاة قد أثرت على فؤادي تأثيراً لم أعرفه من سواها ؟. إنها تدعي برنيل فما اجمل هذا الاسم وما أرقه على المسمع فهل تمنعها عن اجابة رغائبي ناجم عن عفاف ام دلال ؟

وأخذ يتمشى في غرفته وأمارات اليأس الشديد بادية على محياه وإذا به قد توقف فجأة وقال :

– أن مليكة فؤادي تشبه الآنسة دي سوجيس شبهاً عظيماً ولكن معرفتي بها تمتد الى زمن بعيد .. نعم اني لم أعامل تلك الحسناء بمقتضيات اللياقة والأدب ولكن الله جواد غفور وهو لا ريب يسامحني بزلة لم ارتكبها عفواً وعن تعمد . ولكن الغريب بالأمر ان الافكار السيئة تداهمني من كل ناحية فالآنسة دي سوجيس قد ماتت منذ مدة طويلة على أثر ولادتها

طفلا وهو يبلغ اليوم السادسة عشرة من عمره لو كان حياً وهو عمر الآنسة برنيل التي تيمني هواها فهل ولدت دي سوجيس ذكراً ام انثى ؟ والله ما كنت افكر بهذا الامر لولا المشابهة الغريبة التي رأيتها بين الفتاة التي أحبها اليوم والتي أحببتها بالأمس ..

يسرني وايم الحق التخلص من هذا العناء فقد ارتاح فكري الآن واني لا أتأخر اكراماً لخاطر برنيل عن التفتيش على ولد سوجيس سواء كان ذكراً ام انثى ولا بدع إذا قمت بهذه المهمة فما ذلك الولد إلا ولدي ولكن ما الذي يعمله دي لا فارين الآن؟

وبينما هو يتساءل هذا السؤال بعد أن كرره أكثر من مئة مرة دخل عليه لافارين وأمارات البشر والسرور بادية على محياه وصرخ قائلا :

– بشراك يا صاحب الجلالة بشراك .

فاصفر وجه الملك حتى شابه الاموات بلونه ووضع يده على فؤاده وهمس قائلا :

– هل أنت صادق في قولك يا صاح؟ فهل قابلتها وحادثتها وما الذي قالته لك وهل هي تحبني ولو قليلا بربك لا تكتمني أمراً وهل استطيع مقابلتها هذا المساء ومحادثتها ... ألا تكلم وخلصني من هذا العذاب الذي لا يطاق .

– لقد اشتريت صاحبة المنزل بالمال وهي ستفتح بابها هذا المساء .

– وما الذي دفعته لها مقابل ذلك .

– مبلغاً زهيداً في حد ذاته وهو عشرين الف فرنك .

وكان من مميزات الملك هنريكوس الرابع أنه كثير الجود في مسائل الغرام ولكنه شديد البخل مع الذين يخدمونه في غرامه فالتفت الى مخاطبه وقال له :

– لقد سألتني أن تكون مفتشا عاماً على مصلحة البريد وقد منحتك هذه الوظيفة منذ اليوم .

فانحنى لافارين أمام الملك ليشكر له هذه المنحة وناجى نفسه بقوله :

– اني وايم الحق نجحت نجاحاً باهراً لم أكن اؤهله فهذه الوظيفة ستعوض علي اضعاف اضعاف ما اعطيته لتلك اللعينة على أن تفتح لنا بابها .

وبينما كان هذا المركيز يقص على مولاه حكايته جرى في الجهة الثانية من اللوفر حادث خطير لا بد لنا من ذكره لارتباطه بسياق هذه الرواية .

كانت أحدى الحسان وهي في مقتبل العمر ومنتهى الجمال مستلقاة على كرسي طويل وقد زانها شعرها الذهبي الذي كان مسترسلا على كتفيها وما تلك الحسناء إلا ماري دي مسيس ملكة فرنسا .

وكان أمامها على مقعد من المخمل القرمزي فتاة لا تزال شابة ولكنها هزيلة الجسم واسعة الفم احدى كتفيها أعلى من الثانية وهي في منتهى القبح والشناعة أو بالحري على نقيض تام مع الملكة التي كانت تمثل بذاتها كل معنى الجمال .

ولم تكن تلك الفتاة الشنعاء الا ليونورا دوره المعروفة بلقب كاليكاس وهي احدى وصيفات الملكة زوجة كونسيني الشرعية وزوجها لم يكن قد صار مركيزاً ولا مارشالاً ولكنه كان يؤمل كما كانت زوجتة ترجو وصوله الى هذه الدرجة الرفيعة لانه كان خليل الملكة و كفاءةهذا اللقب لتدرجه في معارج الرقي والفلاح .

لم تشعر تلك الشنعاء في حياتها إلا بعاطفة واحدة وهي ان يحصل زوجها على كل الرتب الرفيعة التي كانت تتمناها له ولعلها أملت بهذا الرجاء ان تستأثر له فيغفر لها قبحها وشناعتها لقاء ما تسديه له من ضروب التقدم في مضمار النجاح وسعياً وراء هذه الغاية القت الرجل الذي تحبه محبة تقارب العبادة بين يدي الملكة وهي واثقة بان الملكة تستطيع متى أرادت ان توصله الى الدرجة التي تتمناها .

ولم يكن يعترضها في سبيل ادراكها مـا أرادت الا أمر واحد وهو شديد الخطورة لأنه يتعلق بشخص الملك لذلك عزمت على الفتك به والتخلص منه كما فعلت بسواه وهو أمر

يسهر عليها نظراً لضعف الملكة وجبنها واستسلامها الى الشهوات والاهواء .

والقت على الملكة وهي في تلك الحال نظرة ملؤها الحماس كأنها تريد التسلط على أفكارها بحدة نظراتها وقالت لها :

ـ ما معنى هذا التردد فهو يليق بجماعة العوام .

وظلت ماري دي ميديسيس صامتة واجمة وهي مطرقة تفكر بامرها وأردفت مخاطبتها قائلة بتهكم وتهديد .

ـ لما تطردين من مركزك السامي باحتقار ويعلن ابنك الشرعي دعياً لا أصل له يحل محله ولد السيدة انتريك عندئذ تبكين بدل الدمع دماً وتندمين على ضعفك وجبنك غير أن الوقت يكون قد فات ولا يعود الندم يجديك نفعاً .

ـ وهل أنت على يقين يا اليونورا أنه سيذهب هذا المساء الى شارع الشجرة اليابسة ؟

ـ أجل يا سيدتي .

فاطرقت الملكة برهة وكانت مخاطبتها تنظر اليها باحتقار ظاهر إلى أن تغلبت على عواطفها وسألتها قائلة :

ـ هل أنت واثقة من هذا الشاب ؟.

فلم تجاوبها على سؤالها بل هزت كتفيها بسخرية واردفت الملكة سؤالها بقولها :

ـ لعله يبوح بسرنا بعد أن يدرك مأربه .

– إني أكفله يا سيدتي كما اكفل نفسي وكوني على يقين بان هذا الشاب يضرب من غير تردد وهو لن يبوح بالسر لأنه انما يعمل لحسابه الخاص .

– ابلغ كرهه للملك الى هذه الدرجة .

فتبسمت اليونورا ابتسامة مكر ودهاء وقالت : كلا يا سيدتي فهو لا يكره الملك ولكنه عاشق ولهان وغيور كعادة العشاق ولا يخفاك ان الغيرة تولد البغض بسهولة تامة .

– لا أظن انها تبلغ بصاحبها الى درجة يصبح فيها قاتلا سفاكاً ويلطخ يديه بالدماء الطاهرة .

– بل يفعل أكثر من ذلك إذا كان حاد الطباع وغرامه كغرام هذا الشاب وقد كان هذا الصباح ينظر اليها من خلال النافذة فلما ابصر المركيز دي لافارين يخاطب صاحبة المنزل المقيمة فيه حبيبته اندفع في أثره كالقنبلة التي تقذفها المدافع ولو تمكن من اللحاق به لكان انجز أمره ، وانك وايم الحق تخطئين خطأً فادحاً إذ تنسبين له القتل فهو شاب شجاع الى درجة لا تصدق ولا يأخذ عدوه غيلة بل هو يطعنه من الامام ويقتله ببراز شرعي .

– وما هي الوسيلة التي تعتمدين عليها لاغراء هذا الشاب على القيام بما نريده ؟

– اني اهتم به اهتماماً كبيراً ويحق لي ذلك لأنه ابن بالتبني

لأحد مواطني ولكي اثبت له اهتمامي به اسر في أذنه خبراً خطيراً ولا أكون مذنبة إذا آثار الخبر في نفسه كوامن الحقد والبغضاء ولا أكون مخطئة إذا كان بغضه لا يظهر إلا بسفك الدماء .

وكانت سكينتها مخوفة في حد ذاتها فقالت لها الملكة وقد بد الرعب على ملامحها :

– انك هائلة يا اليونورا .

فتبسمت اليونورا ولم تجاوبها على قولها ودفع الفضول الملكة لسؤالها بقولها :

– من هو هذا الشقي وما هو اسمه ؟

– أنه معروف باسم جوهان الشجاع أما إسم والديه فسر لم يطلع عليه أحد من الناس ، وقد التقطه سياتا وهو طفل صغير ورباه كولده ، ولعله الشخص الوحيد الذي يستطيع الجواب على هذا السؤال ولكنه لا يبوح بكلمة قط لو سئل في هذا الشأن أما أنا فلا أعلم من أمره إلا انه قوي إلى درجة لا تصدق ، ومن سوء حظه أنه غريب الطباع الى درجة الشذوذ .

وفي تلك اللحظة فتح باب الغرفة وظهر منه رأس كاترينا سلفاكيا وصيفة الملكة وأمينة سرها فأبدت اشارة خفيفة الى اليونورا وانسحبت خلسة كما ظهرت ولم يشعر أحد بامرها .

أما الملكة فقد انتصبت على كرسيها وأبرقت عيناها بإشعة السرور وقالت :

– لا ريب بأن القادم هو كونسيني فمري أيتها العزيزة بادخاله الى هنا في الحال .

ثم استطردت اليونورا الحديث قائلة :

– هل يجب عليّ يا سيدتي أن احرك غيرة جوهان الشجاع ؟

– انك هائلة ورهيبة يا اليونورا .

– ما الذي تريدين أن أقوله لك فدعي لي الوقت الكافي للافتكار وما أظن ان الانتظار قليلاً يسوءك .

فنهضت عندئذ اليونورا واقفة وانحنت أمام الملكة بمزيد الاحترام وقالت لها بصوت متهدج :

– التمس من جلالتك أن تسمحي لي بالاستقالة أنا وزوجي كونسيني .

فاصفرت الملكة اصفراراً شديداً حتى شابهت الاموات بلونها وهمست قائلة :

– هل تريدين التخلي عني يا اليونورا ؟

– نعم يا سيدتي وصباح غد نغادر فرنسا .

– لست أسمح لك بذلك .

– عفواً يا مولاتي على الحاحي فان ما قررته بات مبرماً لا أستطيع الرجوع عنه وقد هيأنا معداتنا للرحيل .

– وما قولك إذا كنت لا أريد الإجابة على سؤالك ؟

– سيدتي !

– كفى كلاماً لا معنى له فاني ارفض قبول استقالك فاذهبي من أمامي وإلا فاقسم لك بالعذراء الطاهرة إني أصدر أوامري بالقبض عليك .

فتظاهرت اليونورا بالامتثال لهذا الامر فاحنت رأسها بخجل وانسحبت الى الوراء فندمت الملكة على عنفها معها وتأسفت لأنها ستحرم من زيارة كونسيني .

أما اليونورا فانها ظلت سائرة القهقري حتى وصلت الى الباب فوقفت في مكانها باحترام وقالت :

– لا يسوءك يا سيدتي اذا ذهبت تواً الى جلالة الملك .

– وما الذي تريدينه منه .

– اسأل جلالته أن يمنحنا النعمة التي بخلت علينا بها .

– وهل تجسرين على ذلك رغماً عن إرادتي ؟

– أجل إني أجسر على أعظم من ذلك محافظة على زوجي ولو اضطررت أن أقتحم في هذا السبيل غضب ونقمة مليكتي المعظمة .

– يا لك من خائنة .

ولم تعد الملكة تقوى على الثبات طويلاً وقد كادت تجن لمجرد افتكارها بقرب مفارقتها كونسيني الذي تسلط حبه على فؤادها ولم تعد تحيى إلا به .

وكانت اليونورا تعتمد على هذه العاطفة فقالت :

– ان جلالة الملك سيقبل بسرور استقالتنا التي تخلصه من عبء ثقيل كما تعلمين .

– وما الذي يدعوك الى هذه الاستقالة !.

– أراك تغتفرين للملك كل عمل يأتيه وأنت مستعدة لتبذلي له كل تضحية ولعلك تضحين ذاتك أمام السيدة دي فرنيل الذي بدأ نجم سعدها يسطع في فلك فرنسا .

– وهل أنت خائفة من أن اتخلى عنك .

– نعم يا سيدتي ولو كنت وحيدة في هذا العالم لقلت لك تصرفي في حياتي كما تريدين ولكن هناك زوجي كونسيني الذي أحبه أكثر من حياتي ولا اسمح لاحد أن يمسه بسوء .

– ما زالت في قيد الحياة فلا تمس شعره من رأسه .

– ان جلالة الملك هو الحاكم المطلق يا سيدتي .

– وما قولك إذا كنت في مأمن على حياتك .

– لست ابالي يا سيدتي على حياتي وما عزمت على فراق جلالتك إلا واليأس ملء فؤادي وهيهات ان يذكر حزني بجانب يأس زوجي الذي تعلمين اخلاصه لك .

– أراك محقة في قولك وانه قد آن الوقت المناسب لتحريك الغيرة في فؤاد الرجل الذي تحبينه وتحمينه .

وأصدرت ماري دي مدسيس بهذه الكلمات الوجيزة المبهمة حكمها النهائي على زوجها الشرعي الملك هنريكوس

الرابع فانحنت اليونورا امامها لتكتم الفرح الذي كان يساور فؤادها وقالت لها بسكينة عجيبة :

– سأبعث اليك يا سيدتي زوجي لتتفقي معه .

وخرجت من الغرفة وهي صامتة ولكنها تحمل حكم الموت في ثنيات ثوبها. أما الملكة فكانت تتبسم لمجرد افتكارها بخليلها كونسيني وقد ادركت أهمية الدور الخطير الذي ستضطر على تمثيله في المقتل الفظيع الذي كان أعداء الملك يعتمدون عليه .

★★

الفصل الرابع

ابنه الملك

وكان الملك هنريكوس الرابع قد قرر ان يذهب في الساعة الحادية عشرة مساء الى شارع الشجرة اليابسة ، ولكنه كان غريب الطباع لا يستطيع الصبر على أمر ينوي عليه .

فلم تكد تقرع الساعة التاسعة حتى لم يعد يقوى على الصبر فغادر اللوفر من باب خفي وقد ارتدى لباساً في غاية البساطة كعادته عندما يريد التنكر فكان يبدو بمظهر أحد النبلاء الفقراء ولم يصحبه غير المركيز دي لافارين الذي كان متفقاً معه على تركه عند باب خليلته .

وكان منزل السيدة كولنيكل يطل على شارع الشجرة اليابسة وله باب صغير تعلوه الستائر السميكة ويصعد إلى الباب الرسمي بثلاث درجات وفوقه شرفة طويلة وهي التي رأينا عليها في ذات الصباح الفتاة الحسناء التي كان يحاول ذلك العاشق الغريب أن يدخل خلسه الى منزلها كأحد اللصوص .

ولما وصلا قرب الباب صفق المركيز دي لافارين بيديه

مرتين وهى الاشارة المتفق عليها مع صاحبة المنزل وانحنى على إذن الملك وهمس له قائلا :

– هيا يا مولاي وادخل الحصن فاتحاً .

فوضع الملك رجله على الدرجة الأولى وتمتم قائلاً :

– لم أتأثر في حياتي مثل هذه الليلة .

وفي تلك اللحظة ظهر شبح خلف أحد الأعمدة وانتصب واقفاً أمام الملك وسمع صوتاً لطيفاً يقول له بلهجة الأمر :

– انصرف من هذا المكان أيها الرجل .

وكان المركيز دي لافارين قد ابتعد عن الملك فلما سمع هذا الأمر اسرع بالرجوع الى حيث كان واذا باحد الفرسان يتقدم من ذلك المكان بسكينة حادة فلما سمع صوت الغريب يخاطب الملك بتلك اللهجة وأبصر الشبحين في أسفل السلم وقف على مقربة من الباب مختبئاً لئلا يشعر به أحد وقد دعاه الفضول الى معرفة ما يمكن حدوثه .

تراجع الملك خطوة الى الوراء ووقف المركيز دي لافارين على مقربة منه وقال مخاطبه بلهجة السخرية :

– ما الذي تقوله أيها الاحمق ؟

– قلت اني مستعد لعقابكما بما تستحقان إذا لم تبتعدا في الحال عن هذا المكان .

– لا شك يا صاح بانك مجنون لأنك تعترض المارة في سبيلهم وتمنع الناس من الدخول الى منازلهم .

– كذبت أيها الرجل فانك لا تقيم في هذا المنزل .

– حذار لنفسك أيها الأحمق فانك تهين نبيلين ...

– كذبت أيضاً فما انتما من النبلاء ولا ريب انك من اللصوص فاذهب وفتش على البيئة التي تستطيع الاقامة في وسطها .

– يا لك من شقي لئيم .

فضحك الغريب ضحكة استهزاء وأردف حديثه قائلا :

– وكيف يكون رفيقك من النبلاء وهو يحاول أن يدخل خلسة في الليل منزلاً تقيم فيه فتاة لا مدافع لها ليلقى فيه العار والإثم ... إنه ولا شك من صميم النبلاء بل هو صفوتهم لأنه لم يخجل من ارتكاب عمل لا يقدم عليه أسفل العامة .

فشهر المركيز دي لافارين سيفه فجأة وضرب به من الأعلى الى الاسفل وهو يزمجر قائلا :

– خذ ما تستحقه أيها الوقح الغرير .

وأدرك جوهان الشجاع مقصد المركيز قبل ان يرى الضربة التي وجهها اليه المركيز ولكنه لم يبد ولا حركة لأجل اتقائها وبأسرع من لمح البصر رفع رجله ورفس بها المركيز على وجهه وقذف به الى بعد عدة امتار .

وفي تلك اللحظة نزل من مكانه واقترب من الملك وقال له بلهجة الآمر :

–عدني يا سيدي بان لا تحاول مرة ثانية الى مثل هذا العمل السافل لاعفو وأطلق سراحك .

فذعر الملك لهذه المفاجأة التي لم يكن يتوقعها فهز رأسه بشدة وقال بعد أن وضع يده على قبضة سيفه :

– لست اقبل منك أمراً فاشهر حسامك وقابلني إذا كنت من الشجعان .

– فليكن ما أمرت واعلم بأني سأقتلك من غير شفقة ولا رحمة .

– حذار لنفسك أيها الرجل لأنك لا تعرف من تكلمه واني أستطيع بكلمة واحدة أن أعدمك الحياة

ولم يكد الفارس المختبىء يسمع هذا الجواب حتى همس قائلا :

– رباه ما هذا الصوت .. يخال لي اني سمعته قبل الآن .

وتقدم جوهان الشجاع خطوة نحو الملك وألقى عليه نظرة من أعلى رأسه الى أسفل قدمه وقال له بمنتهى السكينة :

– اني على يقين مما تقوله ولكنك قبل ان تخطو خطوة الى الامام أو تبدي ادنى حركة سأغمد هذا السيف بصدرك وأودي بحياتك .

فزال الشك من فكر الملك هنريكوس حين سماعه هذا الجواب المبرم وأدرك بان هذا الخصم العنيد ليس من الذين يستهان بهم ولكنه لم يستسلم إلى الجبن واليأس وتظاهر بالشجاعة ، فقال بجرأته المعتادة :

– كفاك هزلاً أيها الرجل واعلم بأني أريد الدخول الى المنزل وإذا كنت تريد المحافظة على ذاتك ابتعد عن طريقي لئلا تنال

ما يسوءك مني .

– فأجابه جوهان أشهر سيفك وقابلني .

رد عليه الملك أمرتك للمرة الأخيرة بأن تنصرف من هنا لتسلم حياتك .

وأنا أطلب منك للمرة الأخيرة أن تشهر سيفك وتقابلني إذا كنت لا تريد أن احمل عليك واقتلك .

وبلمحة اشتبك السيفان عندها تحقق للملك أن خصمه يفوقه وأنه امهر منه بكثير في امتشاق الحسام وأحس برعشة الموت تسري الى فؤاده والقى على ما حوله نظراً مشتتاً فابصر الفارس الذي اقترب منهما كثيراً وصرخ به قائلا :

– قل لي أيها الرجل هل أنت رفيق لمن ابارزه .

وكان قصد الملك ان يستنجد به إذا لم يكن رفيقاً لعدوه فادرك الفارس مأربه واقترب منهما بسرعة زائدة وتمكن من الوصول في الوقت الملائم ليمنع جوهان الشجاع من الفتك بالملك .

وفي تلك اللحظة فتح باب المنزل الذي جرى ذلك القتال بسببه واندفق منه النور وظهرت منه الآنسة برتيل .

وكان جوهان الشجاع رافعاً سيفه بيده فلما ابصر امامه تلك الآنسة انخفض ذراعه وانقلبت ملامحه من القسوة الشديدة الى اللطف المتناهى وبدأ كأنه يسترحم تلك الفتاة الحسناء .

ومر الملك يده على جبهته التي كان يقطر منها العرق البارد وهمس قائلا :

– يا للهول فقد كدت الامس الموت بيدي

أما الغريب فكان ينظر تارة الى الفتاة وطوراً الى الفتى وقد بدت على فمه ابتسامة دلت على السخرية وناجى نفسه بقوله :

– يا لعجائب الغرام كم يعلي صاحبه ويرفعه فوق منزلة البشر ولولا الحب لما جبير هذا الضعيف على أكراه اقوى ملوك الارض على طلب المساعدة من رجل غريب ... لقد أعجبني كثيراً هذا الشاب الباسل كما راقت في عيني هذه الفتاة الحسناء.

وكانت الآنسة برتيل مرتدية ثياباً بيضاء زادتها حسناً وجمالاً فتقدمت بتمهل الى خارج الباب وكانت السيدة كولنبكل حاملة مشعلا لتنير لها طريقها وذراعها يرتجف من فرط تأثيرها.

وبعد أن شكرت الآنسة برتيل الشجاع شكراً جزيلا لما أتاه من البسالة في دفاعه عن المنزل المقيمة فيه التفتت الى الملك وانحنت أمامه باحترام زائد وقالت له بلهجة ملائكية :

– فليتنازل جلالة الملك ويشرف بحضوره المنزل الحقير الذي تقيم فيه برتيل دي سوجيس النبيلة ؟

ولو انقضت الصاعقة أمام الملك وجوهان الشجاع لما احدثت التأثير الذي احدثته الكلمات القليلة التي فاهت بها الآنسة برتيل فان الملك اسرع بالدنو منها وكاد يفترسها بنظراته ولكنه كان شاحب اللون يرتجف كالقصبة التي تحركها الرياح وسألها قائلا :

– سمعتك تذكرين اسم سوجيس فما علاقتك به .

– انه لقبي يا صاحب الجلالة .

– لقد عرفت فيما مضى من الأيام فتاة من هذه الاسرة وكانت تدعى بلانش فهل هي نسيبتك .

– بل هي أمي .

فزاد اضطراب الملك حتى لم يعد يقوى على الوقوف في مكانه وهمس في نجواه قائلا :

– رحمتك يا رباه فهي ابنتي ... وقد كدت ادنسها بيدي والقى نظرة على جوهان الشجاع الذي كان لا يزال واقفاً في مكانه في الطريق وعاود نجواه بقوله :

– واني احمد الله الذي اوقف هذا الشاب في سبيلي ليمنعني عن ارتكاب جريمة لا أنساها في حياتي .

ورأت الآنسة برتيل الملك صامتاً وهي تجهل عادات أهل البلاط في مخاطبة الملك فسألته قائلة :

– وهل كنت تجهل هذا الأمر يا صاحب الجلالة قبل مجيئك الى هنا ؟

– بل كنت أعرف ذلك يا بنيتي ولكني أردت التحقق بذاتي منه وان اسمع من فمك الجميل هذا الاقرار .

– لم يكن يخطر ببالي قط الحصول على هذا الشرف الاثيل فليتنازل جلالة مولاي ويشرف منزلي الحقير .

فتقدم حينئذ جوهان نحو الملك وقال له بعد أن ضحك ضحكة رهيبة وكتف يديه الى صدره : ادخل يا صاحب الجلالة منزل الآنسة برتيل دي سوجيس التي لم تكن تحلم قبل

هذا المساء بالشرف الاثيل الذي ستناله منك .. ادخل فان مخدع العذراء سيفتح أمامك وهذه الفتاة الطاهرة الذيل التي كانت تتظاهر بالعفاف مستعدة لأن تضحي ذاتها أمامك .

فذعر الملك لسماعه هذا القول وشابهت الآنسة برتيل الأموات بلونها وألقت على ذلك المتحمس الغريب نظرة ملؤها التوبيخ والشفقة .

أما المجنون ونعني به جوهان الشجاع الذي لم يكن يفرق بشيء عن المجانين في تلك الساعة نظراً لفرط حنقه وغضبه فانه أردف حديثه قائلا بصوت كالرعد القاصف .

– حقاً أن حيلتيكما لطيفة للغاية لم تكن تخطر على بالي ويحق لكما أن تسخرا مني أنا الشاب الأحمق الذي خدع بعفاف هذه الآنسة ولم يجبن في سبيل دفاعه من مقاومة الملك واشهار السلاح عليه حتى كاد يفتك به ... اسخرا مني فاني لم أكن أتوقع أن أرى هذه الفتاة ربة الطهر تنتظر الاشارة الأولى لتنطرح بين ذراعي أول رجل يتقدم اليها خاطباً ودها .

وتظاهر الملك هنريكوس بعدم سماعه هذه الأقوال فالتفت الى الفارس الغريب الذي خلصه من جوهان الشجاع الذي كان واقفاً يبتسم لهذا الحماس وناداه قائلا :

– تعالى يا باردليان وادن مني فقد كتب علينا أن في كل مقابلاتنا التي ليست لسوء الحظ عديدة .

— ان جلالتكم ادرى الناس باخلاصي واني في كل الاحايين ان كنت قريباً أو بعيداً فانني من اخلص الخدم .

اني على يقين من ذلك ولكن اخلاصك لا ينفي انك تهمل صديقك كثيراً .

ولم يكن هذا الفارس غير صديقنا باردليان فانحنى أمام الملك والتزم الصمت وتنهد هنريكوس الرابع تنهداً خرج من فؤاده وأردف حديثه قائلا :

— انك لدى كل مقابلة تقدم لي خدمة لا انساها ابد الدهر فتارة تخدمني وطوراً تخلص تاجي من أشد المهالك حتى أكتسبت شكري الاوفر واني اسألك الآن ان تقدم لي خدمة جديدة ..

— مر يا سيدي ترني طوع أمرك .

فانتصب هنريكوس واقفاً وقال :

— احتفظ بهذا الشاب فقد كدت انساه والظاهر انه يتطلب اهتمامي بأمره فحذار ان يفلت منك .

ولما سمع جوهان هذا الامر القى على الفارس الذي وجه اليه الملك عناية خاصة احدى نظراته الرهيبة أما الآنسة برتيل فانها نظرت اليه نظرة توسل واسترحام اما الفارس فتظاهر بعدم ملاحظه هاتين النظرتين وقال :

— ان الاحتفاظ عليه أمر سهل للغاية يا صاحب الجلالة .

— إذن خذه الى قصر اللوفر وسلمه الى قائد حرسي ولا تهتم بالباقي فان ذلك من شوون الجلاد .

وضرب باردليان جبهته بيده كأنه قد تذكر امراً كان قد نسيه وقال :

— ويل للايام التي أثرت علي بعواملها وافقدتني ذاكرتي فقد نسيت امراً في غاية الاهمية وتراني يا صاحب الجلالة في يأس عظيم وكدر لا يوصف لعدم إستطاعتي الامتثال لأوامركم.

— وهل لك ان تطلعني على سبب هذه المخالفة ؟

— لقد تذكرت الآن ان هذا الشاب قد وعدني بالمبارزة معه صباح غد ولا يخفى جلالتكم ان الرجل النبيل لا يستطيع التخلف عن مثل هذا الموعد كي لا يلحق به عاراً كبيراً .

— نرغب اليك اطلاعنا على السبب الحقيقي الذي يدعوك الى هذه المخالفة

— لا أرى ما يمنعني من تلبية هذا الامر وبما ان جلالة الملك لم يدرك حقيقة مقصدي فاطلعه عليه ... اني رجل قضيت حياتي بالاعمال الشريفة ولم أكن قط رسولا للجلاد ولا اريد بعد ان بلغت العقد السادس من عمري ان اتدنى الى مثل هذه السفالة .

— ويحك اتقدم على هذه الجسارة ؟

فصعد باردليان درجتين على السلم حتى أصبح على مساواة من هنريكوس الرابع الذي كانت قامته اقرب الى القصر ونظر اليه بعينين تتوهجان غضباً وقال له بسكينة هائلة :

تسألني إذا كنت أجسر على عصيانك وقد جسرت على أهانتي إذ عرضت عليَّ التدني الى أسفل المهن .

فارتجف الملك من فرط غضبه وكاد يصب جام حنقه على باردليان ولكنه لم يتمكن من ذلك فان جوهان الشجاع الذي كان جامداً في مكانه وملتزماً الصمت تقدم فجأة بدوره وهو غير مبال بالفتاة التي كانت تنظر اليه بمنتهى التذلل وقال بكبر لا مزيد عليه :

– قبل ان يختصم مع هذا النبيل الشجاع الشريف يجب أن تعلم إذا كنت اسمح له بالقبض علي فان للملك وحده الحق بالقبض على جوهان الشجاع فاذهب الآن لأني لا اريد ان اكون سبباً لتأخرك ومتى خرجت من هذا المنزل تجدني عند بابه واقفاً بانتظارك ومستعداً لإتباعك الى اللوفر .

ولما سمعت الفتاة هذا الاقتراح الغريب زاد اضطرابها حتى شابهت الاموات بلونها واغمضت عينيها كأنها تريد ان تحجب عنها منظر العذاب الهائل المعد له .

ودهش الملك من هذا الاقتراح فسأله قائلاً :

– هل تنتظرني هنا وتتبعني بعد ذلك الى اللوفر ؟

– نعم والى أي مكان تحب أن تذهب بي ؟

– هل علمت ان الجلاد يكون بانتظارك ؟

– اني انتظره بسرور زائد .

وألقى على الفتاة نظرة غريبة كأنه يشكوها لوحدها بموته وتظاهر الملك بعدم اهتمامه بما سمعه وقال :

– اني اذكر لك قولك وسنرى اذا كنت تضمن على تنفيذ ما تعهدت به الآن .

– لم يعتد جوهان الشجاع على الاخلال بعهده .

فنظر اليه الملك بدقة كانه غير واثق من سمعه ودخل المنزل ، أما الآنسة برتيل فانها كانت بمنتهى اليأس فنزلت الدرجات التي كانت تفصلها عن جوهان الشجاع وقالت له بصوت ملائكي :

– لماذا وعدت الملك بانتظاره وقد كان باستطاعتك الذهاب من هذا المكان بكل سكينة ؟

– ما الذي يعنيك من أمري وبأي حق تتدخلين في شؤوني وليس بنا رابطة سابقة وأنت لا تعرفين من أنا .

– صدقت بقولك اني لا أعرفك وهذه هي المرة الأولى التي حادثتك بها وأنت ايضاً لا تعرفني ولكنك لم تتردد باشهار سيفك على ملك فونسا لتدافع عن منزل تقطنه فتاة غريبة عنك

– لقد كنت أحسب .. ولكن يا سيدتي .. إن الملك ينتظرك .

– اني أعلم ذلك ولأجلك أترك الملك ينتظرني ، ولكني أراك راغباً في الموت لذلك تراني مكرهة لأن أطلعك دون

سواك على سري الخاص فاعلم بأني لم ار الملك إلا مرة واحدة عن بعد ولم أكلمه قط ولست اعرفه قبل الآن وهو لم يهتم بي ولكنه والدي ولا أستطيع نكرانه .

– عفواً .. عفواً يا سيدتي .

فألقت على المسكين الذي كان ينتحب امامها نظرة ملؤها الاشفاق ولكنها لم تبـد أدنى أشارة لينهض من مكانـه ، وسألته بلطفها المعتاد :

– هل كان بامكاني أن أدعك تقتل والدي ؟

– اني استحقيت اللعنة يا سيدتي فاسحقيني بغضبك .

– أما وقـد وقفت على سر ولادتي فلم يبق لي ما أقوله لك إلا اني توهمت .. فهل كنت مخطئة ؟

– بربك اتمي حديثك .

– لست أدري ما أقوله الآن .. ولكني لا اريد ان تموت لأني أشعر الآن أن موتك يكون سبباً لموتي قالت هذا وعادت وأقفلت الباب وراءها بلطف .

الفصل الخامس

نجاة جوهان من الموت

ولما اصبح جوهان الشجاع لوحده شعر بأن فؤاده يكاد يتمزق في صدره وان الدنيا لم تسعه على رحبها فصرخ قائلا:

– رحماك يارب فإنها تحبني .. ولكن ألم يخدعني سمعي؟ كلا فان نظراتها إلي كانت تشف عن غرام صادق .. فهل أنا في اليقظة ام هي أضغاث احلام ؟

وكاد يطير من مكانه لفرط فرحه وسروره فوضع يده على قبضة سيفه كأنه يسخر من العالم ومن فيـه ، فأبصر عندئـذ الفارس باردليان الذي كان لا يزال واقفاً في مكانه ولكنه لم يلاحظ منه انه كان ينظر اليه وهو يبتسم ابتسامـة الحزن لأن الحادثة التي شهدها جددت في فؤاده تذكارات قديمة لا يمكن نسيانها فتأثر تأثراً عظيمـاً ونسي خصامه مع هـذا وأنه كاد يقتله منذ برهة وجيزة وهو متواعد المبارزة معه في هذا الغد ولم يدرك من أمره إلا انه وقف أمام شاهد سمع حديثه مـع مليكة فؤاده فهو يستطيـع التكلم معه عنها لذلك سر سروراً لا مزيد عليه وسأله قائلا :

– لا ريب بانك سمعت حديثنا واني لم أكن حالماً ، فهي قد قالت لي أنها تموت إذا مت .

فارتجف باردرليان من رأسه الى أخمص قدميه كأن هذا الحديث قد اعاده فجأة الى الحقيقة الراهنة وتمتم قائلا :

– أجل لقد سمعت شيئاً من هذا القبيل .

– قلت لك اني سمعت منها هذا التصريح فقد صرت أرى العالم ملكي ومن فيه عبيدي وسأفتح كنوز العالم وأحوز عليها لاطرحها تحت قدميها ولا بد لي من تاج كريم اضعه على رأسها النبيل وذلك أقل ما تستحقه مليكتي الحسناء .

فتأمله باردليان برهة وأمارات العطف بادية في عينيه ، فرآه شاب معتدل القامة اميل منه الى الطول خفيف الحركات تدل عضلاته على قوة زائدة وتناسب ملامحه تشف عن جمال فتان وعيناه كانت أبدع ما فيه لانهما كانتا ترسلان أشعة غريبة كلما وجه نظراته الى أحد ، وهو عريض الصدر واسعه أبيض اللون اسود شعر الرأس ولم يكن يطير شاربه الاسود وعلى كتفيه وشاح حريري أبيض لأنه لاحظ ان حبيبته الآنسة تفضل اللون الأبيض .

وكان باردليان يحدق بجوهان الشجاع بدقة لا مزيد عليها كأنه يريد الوقوف على حقيقة سره ولكن الشاب العاشق لم يبال بهذه النظرات وقال وقد كاد يجن من فرط فرحه :

– أن الملك ابوها وقد صرحت لي بذلك فهل تعتقد صحة

ما قالته ، أما أنا فأكاد أموت من خجلي لما أتصور اني جسرت على اهانتها ويخطر لي ان انزع لساني من فمي والقيه الى الكلاب جزاء لي على قبحي ووقاحتي .

ولو لم تكن موجوداً يا سيدي لقتلت اباها الملك ، أما الآن وقد اطلعت على هذا السر الرهيب فلم يبق أمامي إلا أن اذهب وأغرق نفسي في مياه السين لاتخلص من شقاء هذه الحياة .

وبينما هما كذلك إذ رأى باردليان شبحاً يتسلل خلسة نحو الشاب ويقترب منه بخفة ثم قفز عليه وكان في يده حسام مصلت يلمع في ظلام الليل وكاد القضاء يحم بعاشقنا المسكين لو لم يلاحظ باردليان هذا الأمر لأن حركة الشبح الغريب كانت القاضية على آماله وأحلامه فلم يتردد باردليان بما يجب عليه عمله فمد يديه القويتين نحو جوهان الشجاع وخطفه الى صدره كما يفعل بطفل صغير .

أما القاتل الغريب فان اندفاعه على عدوه ليفتك به كان قوياً للغاية فلم يصادف أمامه إلا الخلاء وأصاب سيفه احدى الدرجات فانكسر .

وكان جوهان الشجاع معتاداً على اقتحام الاخطار من غير مبالاة ولم تكن هي المرة الاولى التي تعرض فيها لمثل هذا الخطر المداهم لذلك لم يبد عليه شيء من التأثر أو الاضطراب ولما افلته باردليان من يده التفت نحو عدوه المجهول ونزل درجات السلم التي ارتقاها رغماً عنه .

وبأسرع من لمح البصر ورغماً عن الظلام الحالك أدرك لأول وهلة ان خصمه هو أحد القتلة الأشقياء فقد كان واقفاً في مكانه مذهولاً لا يعلم ما الذي يجب عليه عمله وكان السيف المكسور لا يزال في يده وقد كان قابضاً على مسكته بيده المتشنجة

ولما تأكد القاتل فشله ورأى سيفه محطماً في يده زمجر كالرعد وبلاه انه غير الشخص المطلوب .

فاضطرب جوهان الشجاع لسماعه هذا القول وقفز باردليان واقفاً في مكانه ونظر الرجلان كأنهما مدفوعان بفكر واحد إلى المنزل الذي تقطن فيه الآنسة برنيل ذي سوجيس وهو الذي دخله الملك منذ هنيهة .

ولم يطل ترددهما فان جوهان اقترب كالبرق الخاطف من الرجل الذي كان حاول الاعتداء عليه لعله يعرفه ولكنه لم يكد يقع عليه بصره حتى صرخ قائلا :

– رافالياك .

– مولاي جوهان الشجاع فالويل لي من شقي يستحق اللعنة لأني جسرت على رفع سلاحي على الرجل الوحيد الذي اشفق علي ورأف بحالتي .

– إذن فقد كنت يا رافالياك ناوياً على قتلي .

– كلا يا سيدي فانك لم تكن الشخص المقصود .

– كيف كانت الحال فاني لولا هذا السيد النبيل الذي

تكرم بحمايتي لكنت الآن مع سكان القبور فاعلم يا رافالياك اني لو كنت في غير هذه الظروف لانتقمت منك انتقاماً رهيباً على جرأتك وجسارتك ولكن اليوم فان فؤادي طافح سرور وأتمنى خدمة وسعادة جميع البشر ولا أريد الانتقام من رجل مسكين مثلك فاذهب بسلام فانني أعفو عنك .

– شكراً يا سيدي عفوك عني .

– أما وقد سامحتك وعفوت عنك ولكني سمعتك تقول بأني لم أكن الرجل المقصود فمن هو الذي كنت تريد الفتك به .

فبدت امارات التردد على محيا رافالياك وانقلبت هيئته الى حزن عميق وقال :

– منذ يومين لم اتناول طعاماً ومنذ يومين التجول في الاسواق شبه الكلاب الشاردة فهل ادركت حالتي ؟

– يا لك من مسكين . نعم اني ادركت ما تعانيه من الشقاء وانك كنت تسعى للفتك برجل يكون طائل الثروة فتفتك به وتسلمه ما يحمله من الاموال وبذلك تكفل عيشة الرغد والرخاء مدة طويلة من الزمن ... ولكن هذا الرأي لا يدلني على مقصدك بقولك بعد ان عرفتني باني لست الرجل المطلوب .

– لقد كنت اتعقب رجلا توهمت من ملامحه انه ذو ثروة طائلة كما قلت الآن ولست ادري كيف اضعت اثاره ولم ادرك

خطأي إلا بعد أن تعرضت اليك ووقفت امامك وعرفتك لذلك نطقت بهذه العبارة

— ألست تدري يا صاح بان من كان مثلك متمسكاً بمبادئه الدينية حتى لبس السواد ويأتي مثل هذه الأعمال السافلة لا يبشر بمستقبل حسن لأنك لو اكتفيت بسلب المال لكانت جريرتك تغتفر الى درجة ما ولكنك حاولت الفتك به وخطف حياته وهذا ما يدهشني منك .

— ان الجوع يا سيدي رسول الشر والضلال .

— فليكن كما تقول ولكني لا أريد ان يقال انك بقيت هذه الليلة من غير طعام بسببي فخذ هذه الدنانير وهي كل الثروة التي احملها واقض بها حاجاتك وإذا قضي عليك سوء الطالع ان تعود الى هذه الحالة التي لا اريدها لك فتعال وقابلني وكن على يقين باني لا ابخل عليك وقتئذ بما يكون معي لقضاء حاجتك أما الآن فاذهب من حيث أتيت ودع الشكر لي الى فرصة أخرى .

وكان باردليان صاغياً الى هذا الحديث فلما ابتعد رافائيل اقترب من جوهان الشجاع وسأله قائلا :

— اريد أن اعرف منك رأيك في هذا الرجل فهل تعتقد أنه صدقك بقوله ؟

— كلا فهو كاذب بكل معنى الكلمة .

— لقد كان يجمل بنا ان لا نتركه بمثل هذه السهولة .

— أخطأت يا سيدي فاني اليوم في يوم نعيمي ويشق علي

إيذاء اعدى اعدائي ، أما اذا اقتضت الحال فاني استطيع العثور عليه متى أردت .

فليكن كما تريد ولنصفح عن هذا الرجل .

— انك يا سيدي خلصت حياتي هذه الليلة من أشد الاخطار فكيف السبيل لمكافأتك على جميلك .

— كفاك هذا الأمر وقل لي اذا كنت لا ترى ما أراه من وجوب ابتعادك من هنا إذ لم يبق ما يستوقفك في هذا الشارع .

— كيف ذلك يا سيدي وقد سمعت منذ هنيهة وعدي للملك بأن أبقى بانتظاره .

— بل سمعت ما قلته له وهذا هو السبب الذي يدعوني لنصيحتك بسرعة الإنصراف .

— أخطأت يا سيدي لأني لو عملت بنصيحتك اكون كالهارب من قضائه .

— انك لما وعدت الملك بانتظاره على باب هذا المنزل كنت تود الموت ولم تكن تعلم ما تعلمه الآن .

— كفاك يا سيدي تحريك عواطفي فما أنا بالصاغي اليك لأني وعدت الملك بالبقاء والانتظار وسأبقى وانتظر ولست أخالك تحسبني جباناً الى درجة اتركهم يقتلونني فيها كالأرنب .. اني وعدت الملك بأن اتبعه الى مكان يريده وسأنفذ هذا الوعد دون سواه وأرى ان يجدر بك بعد أن جرى لك مع الملك ما جرى ان تنصرف ولا تدعه يراك .

— اني اعرف الملك منذ عهد بعيد وهو يعلم علم اليقين

أن صالحه يقضي عليه بأن لا يتخذني عدواً له وهـو سيفكر بأمره ملياًقبل ان يشهر غضبه علي وأنا على يقين بأنه لن يستعمل معي وسائل العنف والشدة التي تحاذرها .

★ ★

كان المركيز دي لافارين قد عاد الى رشده لما دخل الملك منزل الآنسة برتيل دي سوجيس ولأول وهلة عرف شبح الرجل الذي ضربه تلك الضربة الشديدة التي اوجبت اغماءه وحسب ان باردليان رفيق لذلك الشقي القاتل .

وكانت اخلاق هذا الرجل في غاية السفالة والانحطاط رغماً عن مركزه الرفيع وتقربه من الملك هنريكوس الرابع وقد خلق ليكون جاسوساً فجمد في مكانـه وأخذ يصغي بكل جوارحه الى الحديث الذي كان يسمعه وكاد يجن من فرحه لما تأكد ان الشخص الذي بات يكرهه كره الموت قـد صمم على انتظار الملك في ذلك المكان فوطد عزمه على الانسلال خلسة من مكنه وان يذهب الى قصر اللوفر الذي كان لحسن الحظ قريباً من ذلك وبحجر يصيب هدفين فانه ينتقم من الرجل الذي اهانـه وضربه ويقدم الى جلالة الملك خدمة مأثورة لا ينساها له .

وانتهز فرصة الظلام الحالك واشتغال الرجلين وانهماكهما في الحديث تمكن من الزحف على بطنه والابتعـاد من غير ان يراه ولما حسب ان المسافة كافية في البعد عنهما انتصب واقفاً وأسرع كالسهم المارق نحو قصر اللوفر .

وكان القائد المولج الحراسة تلك الليلة يدعى براسلين أدرك للكلمات الأولى أهمية وخطارة الخدمة التي انتدبه اليهـا نديم الملك وان الدهر قد اسعده بفرصة ثمينة لن يجود عليه بمثلها للحصول على ما كان يؤمله ويرجـوه من الثروة وفي الحـال استدعي عشرة من رجاله تولى قيادتهم وخرجوا من قصر اللوفر والمركيز دي لافارين يتولى ارشادهم ولما وصلوا الى البـاب المقصود أمر براسلين رجاله بالقبض على باردليان وجوهان اللذين كانا واقفين ينظران اليه بمنتهي الاحتقار ولم يكادا يسمعا هذا الامر حتى امتشقا حساميهما كالبرق الخاطف وسمع صوت يقول بسكينة تامة :

ـ أين اضعت أدبك يا براسلين هذه الليلة ؟.

ولما رأى الجنـد استعداد الرجلين للهجـوم عليهم توقفوا مدهوشين لكـن ترددهم لم يطل كثيراً فانهم اشهروا سيوفهم وأرادوا الفتك بهذين الشقيين لو لم يوقفهم قائدهم الذي دهش لسماع اسمه وسأل مخاطبه قائلاً :

ــ من أنت أيها الرجل الذي ناديتني باسمي ؟

ــ اني أدعى الفارس باردليان .

ــ الفارس باردليان ؟ اعني السفير السابق .

ــ انا هو بالذات .

فالتفت القائد براسلين الى المركيز وقال له ذهبت الى اللوفر وأتيت بي وبرجالي للقبض على اخلص الرجال موده لجلالة الملك وأوفاهم عهداً وبذلك تدعني اهين الرجـل الذي يعتبره

مولاي الملك كصفوة النبلاء لذلك أقول لك إني لن اغتفر لك هذا الخطأ الذي دفعتني لارتكابه كما لن يغفر لك الملك عملك هذا .

فارتجف المركيز لسماعه هذا القول لأنه كان قد سمع مولاه يذكر الفارس باردليان وتأكد بأنه سيعاقبه عقاباً صارماً على الخطأ الذي ارتكبه ولكنه كان كثير المكر والاحتيال فلم يلبث أن تمالك روعه سريعاً وقال :

– أذكر لك يا عزيزي اسم الفارس باردليان الذي لم أتشرف بمعرفته وهو لا ريب بعيد عن كل تهمة ولكني ذكرت لك رفيقه وأنا على يقين من صحة ما أقوله .

وكان يتكلم بصوت عال ليسمع باردليان حديثه ويقبل منه اعتذاره فيما بعد ، وقال له القائد :

– صدقت يا سيدي المركيز فهما اثنان .

ثم اقترب من باردليان ورفع قبعته أمامه باحترام وقال له :

– اسألك العفو يا سيدي بارليان فان ما جرى كان ناجماً عن سوء تفاهم ما كان ليحصل لو عرفت الشخص الذي دعيت للتشرف بمقابلته .

– بل أني اسألك العفو على تسرعي ومجاوبتك بهذه اللهجة القاسية .

الفصل السادس

حاكم الملك دي نوفي

وتبادل الرجلان التحية بمزيد الاحترام ، وقال القائد براسلين :

– عفواً يا سيدي باردليان فاني محتاج الى رفيقك .

وأراد جوهان الشجاع مجاوبة القائد ولكن باردليان لم يدع له مجالاً للكلام إذ سبقه بقوله :

– وما الذي تريده من رفيقي ؟

– أريد أن أرجوه اتباعي .

– يستحيل علينا أجابة سؤالك لأني ورفيقي ننتظر جلالة الملك في هذا المكان بأمر منه وبصفتك قائداً في الجندية تقدر معنى هذا الامر اكثر من سواك .

– وهل استطيع معرفة السبب الذي لأجله تنتظران الملك؟

– أجل وذلك اننا نريد مرافقة جلالته الى قصر اللوفر .

– اتقسم لي يا سدي بارليان انك مقيم هنا بناء على أمر جلالة الملك لأجل مرافقته وحراسته ؟

– لقد كان يجب عليك وأنت تعرفني حق المعرفة ان تعلم بأني لا اتدانى الكذب فقد قلت لك اني ورفيقي هنا بانتظار الملك لمرافقة جلالته الى قصر اللوفر وقد كان عليك ان تقتنع مني بهذا التصريح

– أمرك يا سيدي واني ذاهب مع رجالي وأكرر أسفي للدور السافل الذي اكرهوني على تمثيله معك .

وأمر رجاله ان يعودوا معه الى اللوفر وكان وهو سائر يسخط على المركيز دي لافارين الذي كاد يوقعه في عداء عظيم مع هذا الفارس العنيد .

وفي تلك الساعة اقبلت من شارع سانت هونوري فرقة كبيرة من الجند وتقدمت من اول شارع الشجرة اليابسة، وفي ذات الحين ظهرت في مؤخرته فرقة ثانية يقودها أحد الفرسان، وكانت الفرقتان تسيران لمقابلة بعضها، فأصبح الجمع الواقف أمام منزل الآنسة برتيل وبات القائد براسلين ورجاله مضطرين بانسحابهم ان يصادفوا الفرقة التي يقودها الفارس .

وابصر باردليان ورفيقه هاتين الفرقتين فتناظرا برهة وظلا

يتبسمان كعادتهما ولكن ابتسامتهما كانت رهيبة فنزلا درجات السلم وهما صامتين وقال جوهان ضاحكاً .

– عجباً هل تواعد كل جند الحرس على الاجتماع في هذا المكان ؟

وأراد المركيز دي لافارين الانتفاع من هذه المساعدة التي أرسلتها له الاقدار فاسرع نحو الفارس الذي كان يقود احدى الفرقتين وصرخ به قائلا :

– قف في مكانك فالمرور ممنوع . ثم القى على جنده أمراً سريعاً وفي الحال انيرت المشاعل واقتدت الفرقة التي كانت آتية من الجهة المعارضة برفقائها واثارت المشاعل فتأكد عندئذ المركيز دي لافارين بمزيد السرور انه موجود امام المستر دي بيلانكر دي نوفي الحاكم الأعظم لمنزل الملك وقد كان يقود بذاته في تلك الليلة فرقة من الحرس وعرف بدوره نديم الملك وسميره فسأله بصوت اجش من فرط جزعه :

– أين هو جلالة الملك ...

– كن مطمئناً فانه سليم معافى .

– حمداً لله فقد خشيت أن أكون وصلت متأخراً .

ونظر الى ما حوله فرأى القائد براسلين مع رجاله فقال له:

– يظهر لي من وجودك في هذا المكان أيها العزيز ان جلالة الملك قد انذر بالخطر الداهم في الوقت الملائم لأني رغماً عن السرعة التي بذلتها للحضور لم اتمكن من الوصول الى هنا إلا

بعد حدوث المعركة رفع بصره على باردليان وجوهان الشجاع اللذين كانا واقفين كالصنمين وقال :

– أرى ان هذين الرجلين هما القتلة فاقبض عليهما وأعهد اليك أمر العناية لأني على ما أرى لاتجرأ على القيام بهذه المهمة رغماً عن القوة الكافية الموجودة معك .

– أية معركة وأي قتلة تعنيهم يا سيدي ؟

– اني اتكلم عن قتلة جلالة الملك الذين تصدوا للفتك بـه وهما هذان اللصان اللذان لا تحسن السهر عليهما .

– وهل كانا ينويان على قتل الملك .

– ألم تكن مطلعاً على هذا الأمر .

– كلا وهذان الشخصان ليسا من أحرى ولم اتكلف بالمحافظة عليهما أما كونهما من القتلة فان هيئتهما لا تدل على ذلك .

وتبادلا ايضاح أمرهما فقال دي نوفي انه تبلغ في الساعة التاسعة من ذلك المساء بان أحد الاشقياء وهو زعيم عصابة من اللصوص قد عزموا على الفتك بجلالة الملك وان هذا الشقي أو فارس الفريسة [1] وهو شاب في مقتبل العمر يدعى جوهان

(١) كانوا يطلقون هـذا اللقب على النبلاء الذين يتعيشون من كسبهم بالسلاح ومما يحكي أن هنريكوس الرابع كلف وزيره دي سانس ان يحشد له جيشاً ولما لم يكن له مـا يدفع رواتب الجند كمن في الطريق العام لقافلة وسلبها اموالها ودفع رواتب الجيش . وقد فعل ذلك لخدمة الملك .

الشجاع غير ان التقارير التي وردت للحاكم الأعظم بشأنه دعته للارتياب به وقد جاء بها ان تلك الجريمة الفظيعة ستحدث في الحادية عشرة من الليل بينما يكون الملك مع واحد او اثنين من أخصائه في زيارة سيدة تقيم في شارع الشجرة اليابسة فلما وثق من هذا الأمر استدعى خمسين جندياً وأسرع بهم إلى الشجرة اليابسة ورغماً عن بعد المسافة تمكن من الوصول اليه قبل الساعة المضروبة .

وأخذ المركيز دي لافارين الذي جاء هذا الايضاح موافقاً لمرامه يقص على الحضور كيف ان الملك لما عيل صبره خرج من قصر اللوفر قبل الساعة المضروبة فغادره في الساعة التاسعة بدلاً من الساعة الحادية عشرة وقص عليهم خبر اعتداء جوهان الشجاع على جلالة الملك وقد لفق الحكاية حسب مرامه حتى جاءت موافقة لمرواه الحاكم الاعظم وختم حديثه بان اظهر لهم آثار الضرب الذي سقط على رأسه ووجهه .

وقص القائد براسلين على الحاكم الأعظم ما دار بينه وبين باردليان ورفيقه من الحديث وكان كلامهم همساً ولكن باردليان وجوهان الشجاع تمكنا من سماعه .

وحدق باردليان برفيقه برهة وهـو يفحصه من رأسه الى اخمص قدميه وأخذ يناجي نفسه بقوله :

– عجباً أيكون هذا الشاب زعيم عصابة رهيبة من اللصوص ولكن ليس الأمر بالغريب وكثير من النبلاء وفي مقدمتهم ذلك

الطاهي الذي تلقب بالمركيز دي لافارين والحاكم الاعظم الذي يفاخر اكثر من الملك كلهم يعيشون من السرقة واللصوصية ... اني اعتقد بأن السيد نوفي يبالغ قليلاً في حديثه ووصفه هذا الشاب بتلك الاخلاق السافلة لأن ملامحه الشريفة وصفاء وجهه ووضاحة جبهته ونقاوة عينيه كل ذلك من الدلائل التي لا تتفق مع هذه الأوصاف السافلة اما ذنبه الوحيد فيقتصر على أشهار السلاح على الملك ومبارزته وهي عرف القانون جريمة ضد الجلالة فما معنى هذا التعريف الفاسد وما معنى الجلالة؟.. ان هذا الشاب قد دافع عمن يحبها ولم يهتم بمعرفة سارق الشرف إذا كان مليكاً أو اميراً وعلى حسب رأيي أرى أنه عمل بشريعة الطبيعة .. ان الوالد او الزوج او الأخ او الخطيب الذي يسلم ابنته او زوجته او اخته او خطيبته إلى ذي جلالة يغمر بالألقاب والنعم ويكون محسوداً من الجميع والذي يترفع عن السفالة يهان ويحتقر ويتعرض لكل الاخطار فهل هذه هي الشريعة الحقيقية التي يجب السير بمقتضاها ؟ اني فيما مضى من الأيام احببت لسوء الحظ فتاة شريفة طاهرة فتانة الطلعة تشبه الفتاة التي يحبها هذا الشاب بكل معنى الكلمة واضطررت ان ادافع عنها من الوحوش الكاسرة الملقبة بالملوك والامراء وأنا أيضاً طوردت واضطهدت من الجميع ولو لم تكن لي بحمد الله قوة فائقة تمكنت بها من مقاومة اعدائي لكنت مت حتى الآن اكثر من مئة مرة .. هلا نسيت يا باردليان وقائعك الشهيرة مع الامراء والملوك والباباوات وهم ممثلو الشرف والطهر

والديانة في هذه الحياة الدنيا .

أما جوهان الشجاع فكان يناجي نفسه بقوله :

– لقد بلغ الحاكم الاعظم اني سأقتل الملك في الساعة الحادية عشرة من هذا المساء وذكر له المخبر اسمي فمن هو الذي اطلع على سري وافشاه ؟ إني لما وقفت امام هذا المنزل مدافعاً عن ساكنيه لم أكن اعرف من هو الشخص الذي سأتعرض له أما الذي اباح بسري فقد كان يعرفه ... ان لي والحالة هذه عدواً رهيباً يريد موتي ليتخلص مني فمن هو يا ترى ؟.. لم يكن أحد عارفاً بأني سأحضر الى هذا المكان وقد وطدت عزمي على قتل من يحاول دخوله سواء كان بالقوة او بالحيلة ... لم يكن مطلعاً على هذا السر غير اليونورا غاليكاي وهي التي قالت لي أن احد اللصوص ينوي دخول منزل الفتاة التي احبها ليسرق لها شرفها ولكنها لم تذكر اسم هذا اللص مع انها كانت تعرفه معرفة صحيحة فهي التي انذرت الحاكم الاعظم بالأمر ولماذا ؟ وإذا كان الحاكم الاعظم قد وصل متأخراً لتخليص الملك كما كان يظهر ولكنه لم يتأخر للقبض عليّ .. لقد انفتحت الآن عيناي للحقائق وبدت امامي هوة الشرور والفضائح المفتوحة تحت أقدامي فالويل لك يا اليونورا والويل لزوجك كونسيني إذا كنت مصيباً في ظنوني .

ولم تكن هذه المناجاة تمنع باردليان وجوهان الشجاع من مراقبة ما هو جار حولهما وفي أثناء ذلك كان الحاكم الاعظم والقائد براسلين والمركيز دي لافارين يتداولون في الأمر وسأل

القائد رفيقه وهو مسرور من تخلصه من المسؤولية التي كادت تلقى على عاتقه عما ينوبان عمله فصرح له الحاكم الاعظم بأنه ينوي القبض على هذين الرجلين فأجابوا بقوله :

– شأنك وما تريد يا سيدي فان هذه المسألة من مهمات البوليس وهي من جملة اختصاصاتك فلا تحق لي المداخلة بها غير اني ابدي رأيي بصراحة فان جلالة الملك قد دخل هذا المنزل وهو لا يزال فيه ولكن لا بد له من الخروج منه عاجلاً او آجلاً وبما ان هذه الحادثة الغريبة بدت لي بشكل غامض فلست انصرف من هذا المكان وسأبقى هنا الى حين خروجه فارافق جلالته واحرسه وادافع عنه إذا اقتضت الحال لأن هذه من اختصاصاتي .

قال هذا وصف رجاله على جانب وقد وطد عزمه على مراقبة الحوادث وهو ملتزم تمام الحياد فترجل الحاكم الاعظم عن جواده وتقدم من الباب وهو يتظاهر بعدم رؤية جوهان الشجاع ووقف أمام باردليان وبعد أن حياه بمزيد التحية والاحترام قال له :

– يسوءني يا سيدي باردليان ان اراني مضطراً لأن اطلب منك تسليمي سيفك ولا يخفاك ان ما أعمله هو عن احتياط بسيط أقوم به بصورة وقتية .

– يسوءني يا سيدي دي نوفي ان لا استطيع اجابتك الى سؤالك فلا تشق عليك مخالفتي .

– وهل ترفض اطاعة هذا الامر ؟.

– أجل وذلك رغماً عني ولا يخفاك ان ما اعمله هو عبارة عن أخذ الاحتياط لا بد لي منه .

– قل لي إذا كنت لست من رعايا جلالة الملك الامناء المخلصين .

– ان جوابي يتوقف على ظروف الاحوال .

فتغير دي نوفي فجأة لهجته وقال لباردليان ورفيقه بلهجة الآمر :

– سلما سيفكما في الحال .

فلم يستطع جوهان كظم غيظه وصرخ به صوتاً كالرعد القاصف :

– إذا كنت تريد سيفينا فتعال خذهما.

فوضع دي نوفي قدميه على درجة السلم الاولى وكان البرد قارصاً للغاية ، فحسب الحاكم الاعظم انه لا يحتاج إلا الى مد يده ليأخذ سيفي العاصيين ، وقد توهم انه لا يحتاج الى كبير عناء للتوصل الى مأربه ، ولم يخطر بباله قط ان خطراً يتهدده منهما ، بل تصور إنه تحت رعاية رجاله الاشداء .

ثم وضع قدمه على الدرجة الأولى ولكنه لم يتجاوزها ، فانه شعر برأس حسام لامس صدره وسمع جوهان الشجاع يقول له بسكينة لا مزيد عليها :

– إذا تقدمت خطوة الى الامام فأنت رجل هالك لا محالة.

فتوقف الحاكم الاعظم في مكانه وقد اوقفه الخوف

والانذهال ولكنه كان شجاعاً من فطراته فتغلب سريعاً على عواطفه وأراد المرور .

عندئذ شعر برأس الحسام يخترق جسده وأحس بدمه يسيل من صدره وسمع ذات الصوت يقول له بذات اللهجة :

– ارجع الى الوراء أيها الرجل وإلا قتلتك وحق المسيح .

فأدرك عندئذ ان مخاطبه لا يود المزاح معه فتراجع الى الوراء بسكينة مدهشة ونفض عن ثيابه قطرات الدم التي كانت تسيل من جرحه وقال بصوت اجش مخاطباً باردليان :

– اني أحكم باسم جلالة الملك فآمر بان تستسلما إلي في الحال .

– ونحن لا نطيع لك أمراً .

– هل تتظاهر بالعصيان ؟

نعم !

فهز دي نوفي كتفيه باحتقار ووقف جانباً وأمر رجاله بالقبض عليهما وكانت بعض النوافذ مفتوحة فأطلت رؤوس المتفرجين الذين ذعروا مما ابصروا .

رأوا الجند قد هجموا مرة واحدة على باردليان وجوهان الشجاع ولكن المكان لم يكن متسعاً لهذا الأمر ولم يكن يكن يستطيع ان يمرا أكثر من ثلاثة رجال إذا أرادوا ان يكون لهم حرية في حركاتهم .

وكان الشارع حتى تلك الساعة ساكناً هادئاً وإذا به قد امتلأ حركة وضوضاء وكان الاهالي قد استيقظوا من منامهم

مذعورين على هذه الضجة .

أما العاصيان فقد كفا عن الضحك والمزاح ووقفا جامدين كالأصنام وقد اشهرا سيفهما بايديهما وانقضا على الجند المهاجم ، وفي الحال سمعت اصوات الألم من كل جانب فذعر الجند من هذه المباغتة غير المنتظرة وتراجعوا الى الوراء بعجلة وبغير انتظام وساد على الجميع سكون عميق .

مرت بضع ثوان على هذه الحادثة فكان الحاكم الاعظم يزبد من فرط حنقه ودهشتهما عندما تحقق ان ستة من رجاله لم يعودوا صالحين للقتال وان أربعة منهم قد جرحوا اقل خطراً .

بينما السكوت سائداً على الجميع سمع صوت يدل على الألم الشديد وكان صاحب الصرخة هو المركيز دي لافاربن الذي انسل خلسة الى احدى جهات السلم وهو يبذل جهده ليختفي وراء العمود الواقف أمامه جوهان الشجاع فيضربه ضربة شديدة على ساقيه تمنعه من مداومة القتال فمد ذراعه ليضرب به ولم يظهر على ملامح جوهان الشجاع انه شاعر بالخطر الذي كان يتهدده ولكنه في حقيقة الأمر كان يراقبه من طرف خفي فلما شعر بدنوه رفسه برجله رفسة شديدة أصابته في ام وجهه فقلبته على الأرض فانقلب سروره الى ألم لا يوصف وقد أخذ الدم يتصبب بغزارة من الجراح التي اصابته .

وأبدى دي نوفي اشارة من يده فاقترب الجنود من العاصيين وحصروهما في نطاق ضيق وفي الحال سمع صوت يأمر الجميع

بان يخفضوا سلاحهم فتوقف الجند في مكانهم والتفت الحاكم الأعظم الى مصدر الصوت لعله يعرف صاحبه فرأى رجلا يقترب بسرعة من دائرة النور ولم يكن يراه حتى عرفه فرفع قبعته عن رأسه باحترام وفرح قائلا :

– جلالة الملك .

وظل باردليان وجوهان الشجاع واقفين في أماكنهما ولكنهما رفعا سيفهما للتحية ولم يعرف أحد من الحضور إذا كانت هذه التحية موجهة للملك او للجند المغلوب وبسكينة مدهشة اعادوا السيفين الى الاغماد وظلا واقفين وقفة المبارز المدافع غير ان ابتسامة السخرية والامتهان لا تفارق فمهما وقد ظهر من ملامحهما ان كلا منهما مسرور وراض عن الآخر .

الفصل السابع

المكاشفة

قادت الانسة برتيل جلالة الملك بمزيد الاحتفاء والاكرام الى بهو صغير مفروش برياش في غاية البساطة وهو واقع خلف المنزل وليس له الا نافذة واحدة تطل على شارع كورباتون .

وهذا ما يدلنا على السبب الذي دعا الملك للتأخر في المداخلة بين المتخاصمين .

ارتمى الملك على مقعد صادفه امامه وتفرس برهة وهو صامت بالفتاة التي كانت واقفة امامه بمنتهى العظمة وبعد ان حدق بها وتنهد تنهداً خروج من أعماق صدره وقال لها :

– اجلسي يا پنيتي .

فاطاعت الفتاة هذا الامر وجلست على الكرسي الذي دلها عليه الملك الذي عاود تأملها بدقة اكثر من الأولى وتنهد تنهداً أشد من المرة الأولى وسألها قائلاً :

– هل انت حقيقة ابنة بلانش دي سوجيس .

نعم انا هي ابنة بلانش دي سوجيس التي ماتت من ألمها وخجلها يوم وضعتني في هذه الحياة وذلك منذ ستة عشر سنة وخلقتني لقيطه كما يلقبني الأشقياء لأن أمي لم يكن لها زوج شرعي اما ملك والدتي فواقع قرب نوجان ليروا وانا هي الفتاة التي ترتاب بها ووالدي هو .. الشخص الذي تعرفه .

وكانت تتكلم ببساطة مقرونة بالحشمة والكرامة فخجل الملك من حديثها وأحنى رأسه الى الامام وهمس قائلا بصوت خافت :

– ابنتي .

وكان تأثيره ناجماً عن تفكيره بغرامه لهذه الفتاة التي هي ابنته أما خجله وكدره فكان لمقصده السافل بدخوله منزلها .

وتذكر انه دخل فيما مضى من الايام منزل الأم بهذه الطريقة المعيبة وخدعها وغشها كما كان ينوي ان يعمل اليوم مع ابنته ، فأحدثت له هذه الذكرى توبيخاً شديداً في ضميره لأنها ذكرته بذلة كان قد نسيها منذ مدة طويلة .

وبعد ان تفكر ملياً بامره معها جزم بان ما كان يتوهمه حباً وغراماً لم يكن سوى شعوره الوالدي الذي تحرك في فؤاده لما رأى ما بين الفتاة وأمها من المشابهة الغريبة وكان هذا التعليل كافياً لأعادة السكينة الى نفسه المضطربة .

بقيت مسألة الاعتداء وهي مسألة قديمة العهد، ولكن الأمر الذي لا يغتفر من تخليه عن هذه الفتاة مع علمه انها ابنته

ولكن هذه الزلة قابلة للتعويض والتفكير ، لذلك وطد عزمه على الاهتمام بابنة بلانش دي سوجيس اهتماماً ينسيها حزن الماضي .

وكان ينظر خلسة باعجاب الى هذه الفتاة البالغة منتهى الجمال وكان كلما زاد تأملا فيها زاد عزمه توطيداً وغلب عليه تأثره فمد اليها ذراعيه وقال لها :

– تعالي الى صدري يا ابنتي .

وخيل له بانه باعترافه بانها ابنته وفتح ذراعيه لاقتبالها على صدره قد زاد في التلطف والمجاملة معها وانها لا تلبث ان ترتمي بين ذراعيه وتناديه بلقب الوالد وهي شاكرة لمعروفة ، ولكن أمانيه قد خذلته هذه المرة ايضاً ، فان الآنسة برتيل ظلت جامدة في مكانها ولم تتحرك ، بل هزت رأسها بلطف وقالت بحزن لا يوصف :

– لسوء الحظ ليس لي والد ولن يكون لي الى الأبد .

فأخذ الملك هنريكوس يدرس ملامحها بدقة اذ كانت تنظر اليه بحزن عميق ولم تؤثر عليها جلالة الملك ولا السلطة الوالدية وأدرك بان هذه الفتاة التي شبت على الشقاء والتعاسة قد رباها الدهر وعلمها قوة الارادة فلا تخدعها الظواهر الكاذبة ولا تغشها الثروات الطائلة وعلم علم اليقين انه واقف أمام حاكم شديد القسوة ويجب عليه ان يقدم لها حساباً دقيقاً عن اعماله الماضية وانها ليست الفتاة الغرة الساذجة التي توهمها والتي تكتفي بكلمة واحدة لتناسي الماضي .

وكان قد تأمل انه يستطيع التخلص من الايضاحات التي يسوءها سردها باستعمال المواربة والدهاء ولكنه لم يلبث ان تحقق خيبة آماله .

ومن مميزات هذا الملك في اخلاقه انه كان كثير العدل فحكم بان الفتاة محقة بعملها وان استياءها منه في الحاضر لاهماله اياها في الماضي أمر مشروع إذ ليس عليها من سلطة خصوصاً وانه لم يفكر بالاعتراف بها رسمياً والاقرار بانها ابنته الشرعية كما فعل مع باقي اولاده ، وجزم بان لا مسوغ له لاستعمال سلطته الملوكية في مثل هذه الظروف التي تعود عليه بالعار والخجل ، لذلك عزم على مقابلة الكوارث بصبر جميل وان يوضح لها كل المسائل التي تريدها ويظهر لها كل ما يستطيعه من ضروب العطف واللين وان يكتسب فؤادها وثقتها بالحسنى حتى اذ رأى منها عقوقاً زائداً يستعمل سلطته الرهيبة .

وأحب أن يبرهن لها عن اقتناعه باصابة عملها واعترافه بانه كان المسبب لتعاستها الماضية فسألها بلطف ظاهر :

– هل تعذبت كثيراً يا ابنتي ؟

– نعم فقد كنت كثيرة التعاسة يا صاحب الجلالة .

– اني شاعر من نفسي باني كنت سبباً في شقائك وتعاستك ولكن لا يجب ان تنسبي اليّ الذنوب التي ارتكبها او تحسبيني مجرماً اكثر مما أنا هو ، وستعلمين في مستقبل الايام ان الملوك والأمراء لا يعيشون لملذاتهم ولكن للشعوب التي يتولون

حراستها والسهر عليها فهم لا يستطيعون دائماً ان يطيعوا عواطف قلوبهم ولا ان ..

فقاطعت حديثه بشدة قائلة :

– اخطأت يا صاحب الجلالة اذا كنت تحسب اني في جوابي اتعرض لأية شكوى كانت ولم يخطر ببالي قط ان اطلب من الملك أي إيضاح عن سلوكه معي .. ان الملك هو سيدي ومولاي المطلق وليس له ان يبرهن عن اعماله لغير ضميره وليكن على ثقة تامة باني لا انساه أبد الدهر .

ولم يكن الملك يتوقع هذا الجواب الذي سره سماعه لأنه خلصه من مكاشفة تثقل عليه ، وفي الحال عاد الى سروره وانشراحه فقام عن المقعد وأخذ يتمشى في الغرفة ذهاباً وإياباً وهو يفرك يديه دلالة على ارتياحه وقال :

– لقد احسنتي يا بنيتي في هذا الجواب وقد تحققت بمزيد السرور والارتياح ان حكمتك توازي جمالك ولا أريد ان اكون أقل صراحة لذلك فاني اعترف بخطأي السابق معك ولكني أعدك واعداً ملوكياً بان امر مستقبلك سيكون منوطاً بي بعد الآن وسأجعلك أسعد الفتيات فتحسدك اعظم السيدات قدراً ، وكوني منذ الآن على يقين تام باني انفذ كل رغباتك وكل طلباتك مقضية عندي من غير تردد .

– إذا كان الأمر كذلك فاني التمس نعمة واحدة من جلالة الملك وأجعله في حل من كل وعوده لي .

– تكلمي يا بنيتي وإذا كان ما ستطلبينه ليس من المستحيل فهو مقضي منذ الساعة .

– هل استطيع معرفة ما ينويه جلالة الملك نحو الشاب الذي ينتظره عند باب منزلي .

– من انبأك بان الجنون يبلغ به الى حد انتظاري .

– سمعته وعدك بذلك .

– إذن فانت تعرفينه أكثر مني وتعلمين انه من الذين يبرون بوعدهم .

– اخطأت يا سيدي فاني لست اعرفه ولم اتكلم معه قبل هذه الليلة ولو لم يذكر اسمه لجلالتك امامي لما عرفته .

– وما الذي يهمك من هذا الشاب ولماذا تسألين عنه .

– انه اقتحم غضب جلالتك ليدافع عني .

وما الذي يعنيه من هذا الشأن ولماذا يتداخل في أمور لا تعنيه ؟ وكيف يدافع عنك ولم يكن من خطر يتهددك ؟

– هل جلالتك على يقين من هذا الامر .

فارتجف هنريكوس الرابع لسماعه هذا السؤال لأن لهجة الفتاة الملائكية اللطيفة انقلبت فجأة الى لهجة قاسية رنت في أذنيه كشكوى صريحة متوجهة اليه ونظر اليها فرآها تحدق به وعلائم التوبيخ بادية في نظراتها فاحب ان يستر خجله منها لذلك عاود التمشي في الغرفة وهو مدبر لها ظهره وبعد صمت قليل سألها بقوله :

– اخبريني كيف وجد هذا الشاب أمام باب منزلك في هذه الساعة فهل يقضي لياليه على حراستك وإذا كان الامر كذلك فمن الذي خوله هذا الحق .

– لست ادري .

– إذا كنت لا تعرفين فأنا اطلعك على السبب وهو انه يحبك ولا ريب بانك تشاطرينه هذا الحب .

– لماذا أكتم حبًا قد برى جسدي فاني لما كنت أراه يمر تحت نافذتي وعيناه تتقدان حبًا وغرامًا وشجاعة وشهامة كنت أشعر بسعادة عظيمة تساورني ولم اكن اعلم وقتئذ اذا كان يحبني او كنت أحبه .. ولما رأيته واقفًا يدافع عن بابي كالأسد الذي يدافع عن عرينه تولتني السعادة العظمى .. ولما ابصرتك عرفتك في الحال وأنا على يقين إنه عرفك أيضًا ومع ذلك فهو لم يتردد بأمره وقد هدد بحسامه صدر الملك .

– انصحك ايتها العزيزة بان لا تذكريني هذه الحادثة .

– ولما رأيت منه هذا الإقدام تأكدت بانه لولا حبه لي لما جسر على هذه الجرأة الغريبة فكنت واقفة في مكاني انظر بشغف الى اعماله حتى رأيته كاد يفتك بك ولم أكن استطيع تركه يتمكن من قتلك فتداخلت في الوقت الملائم وقد نسب مداخلتي الى صبغتها الحقيقية ولست ادري ما الذي ظنه عندئذ ولكني تأكدت انه احب الموت ، لذلك وعدك بمرافقتك الى قصر اللوفر اذ لم يكن له غير هذه الوسيلة للانجاز وشعرت

عندئذ بان دمي كاد يجمد في عروقي وتحققت باني أموت اذا اصيب بسوء لاني أنا أيضاً احبه .

– اوهام لا يجب ان تفكري بها بعد الآن .

– ما الذي يعنيه بقوله جلالة الملك .

– اردت ان افهمك ان حالتك الماضية كفتاة خاملة وضيعة لا تتفق مع المركز السامي المعد لك في الغد فيجب عليك ان تودعي الماضي الحقير وإن تكوني ذات مطامع عظيمة تتفق مع مركزك الرفيع .

– اني اسأل جلالتك بان لا تهتم بي بعد الآن فان العظمة ورفعة المراتب لا تغريني اقسم لك بان وجودي في البلاط سيكون داعياً للكدر اما حالتي التي توهمتها حقيرة فاني اراها ليس ارفع منها والفقر لا يسوءني بل يسرني كثيراً واراني في غاية السعادة ولست ارجو الا بقائي في حالتي الحاضرة .

– انك تعيشين في فقر مدقع يا ابنتي وسأقدم لك قصراً انيقاً تعيشين فيه كالأميرات ويكون عندك كثير من الوصيفات والخدم والخيول والمركبات وازيدك مائة الف ذهب ايراداً سنوياً ولقباً مجيداً فاجعلك مركيزة اذا احببت وأزوجك امير اختاره لك يكون جميلاً وشجاعاً ففكري بما اعرضه عليك .

– لست اريد شيئاً من الالقاب والايراد والازواج ولست أرجو إلا ان ابقى على ما أنا عليه فان الجواهر التي خلفتها لي والدتي تؤلف ثروة صغيرة واملاكي في سوجيس تكسبني الفي

ذهباً كل سنة ولست انفق نصف هذا المبلغ بل اكرس ما ادخره الى الفقراء فأطلب من جلالتك بكل خضوع وثبات ان تتناساني وتتركني على حالتي لابقى لك شاكرة ابد الدهر .

– ان ما تقوليه ضرب من الجنون وما جنونك إلا لانك صادفت غريباً وتعلقت به وما هو إلا من المتشردين .

– لقد سألت جلالة مولاي ان يطلعني على ما ينوي عمله مع هذا الشاب الذي يدعوه متشرداً .

– هل تعلمين الجريمة التي ارتكبها ؟

– نعم فهو مذنب نحو جلالة الملك .

– إذن فهو ينال العقاب الذي تستحقه هذه الجريمة .

– الا توجد وسيلة لتغير عزمك يا صاحب الجلالة ؟

– كلا .

ان ابنة بلانش دي سوجيس هي التي تلتمس من جلالتك العفو عن الرجل الذي تحبه فما رأيك بذلك ؟

– لو قامت بلانش دي سوجيس من قبرها والتمست مني هذا الامر لقابلت طلبها بالرفض .

– يشهد الله علي يا صاحب الجلالة اني كنت اود عدم التعرض لعار الماضي لئلا تضطرني الحال الذكر عار الحاضر .

– وما الذي تعنيه بقولك ؟

– ستعلم ذلك عن قريب .. لو كنت لوحدي او كان الأمر منوطاً بي دون سواي لسكنت ولكنه يتعلق بالرجل الذي أحبه والذي أصبح تحت طائلة غضبك ، لذلك سأتكلم وإذا

كان ما أقوله سيسحقك خجلا فالذنب يكون عائداً عليك دون سواك لانك انت الذي دفعتني الى هذه الدرجة من اليأس .

– يا لها من كلمات كبيرة صادرة من فم جميل صغير .

– منذ ست عشرة سنة حسب رجل انه يكون ملكاً ولأن الخمره قد أثرت برأسه اصبح يحق له عمل ما يريده، ففي احدى ليالي الربيع انسل خلسة الى منزل احدى الفتيات التي كانت طاهرة من كل وزر.. انك تعرف هذا الرجل يا صاحب الجلالة لأنه لم يكن سواك أما الفتاة الطاهره فقـد كانت والدتي .. لاحظ يا مولاي اني اذكر الحوادث الماضية ولا اعلق عليها شيئاً أمامك انت الذي لا تريد ان تعفو عن أحد المجرمين لأنه قاوم سيفك بمثله كأن سيف الرجل النبيل لا يساوي سيف الملك .. نعم أنا ابنة الفتاة الطاهرة البريئة من العيب التي ذهبت شهيدة الغدر والخيانة اسألك ان تغفر لي زيادة الاسهاب في وصف هذا الرجل وسلوكه .

– شكراً يا عزيزتي الحسناء فأتمي حديثك لاني وجدت أهمية عظمى لكلامك .

– ان الرجل انتهز فرصة قوته ليغدر بالفتاة المسكينة الضعيفة وأظن انا على يقين بان هذه الجريمة أكثر فظاعة من الذنب الذي لا تريد العفو عنه يا سيدي .

واليك ما لا تزال تجهله يا سيدي الملك فان بلانش دي سوجيس كانت مخطوبة .

فارتجف الملك حين سماعه هذا الجواب ولكنها تظاهرت بعدم ملاحظته وأتمت كلامها بقولها :

– لما تلحفت والدتي بالعار لم تجسر على الاباحة بسرها الى الرجل الذي كانت تحبه ولكنها جزمت على ذاتها بانها لم تعد اهلا له فاسترجعت الوعد الذي ابرمته معه وصرفته غير ان ذلك النبيل كان يحب والدتي حباً يقارب العبادة فالح عليها بمزيد الالحاح الى ان تمكن من الوقوف على سرها فجاهر لها بانه لا يزال محافظاً على ولائها وعرض عليها ان يتزوجها رغماً عن الاهانة العظمى التي التحقت بها وكان مثل هذا الاقتراح يشرف قائله كما يشرف الفتاة التي عرض عليها ولكن والدتي كانت لسوء الحظ كثيرة الانفة والفخار فلم تقبل ما عرضه عليها واتفقا على الانتحار سوياً واعداً كل ما يلزم لهذا الانتحار المزدوج ، وبينما كانا على أهبة مفارقة هذه الحياة شعرت بلانش دي سوجيس بانها حامل وستصير اما عن قريب فقررا انتظار ولادة الطفل الصغير الخالي من الوزر لتنفيذ ما نويا عليه ... وفي اليوم الثاني من ولادتي شربت والدتي السم في كأس واحدة مع خطيبها وإذا ذهبت يا سيدي الى سوجيس تجد ضريحاً قائماً فوق صليبان مشتبكان فهنالك ترقد والدتي مع خطيبها الذي احبته وأحبها اكثر من الحياة وقد ذهب كلاهما ضحية طاهرة لأن المجرم هو كان ثملا بخمرة عظمته ففرقهما في الحياة ولكنهما اتحدا في الموت افلا تعتبر يا سيدي هذا العمل قتلا مزدوجاً .

واستولى الحزن والكدر على الملك حين سماعه هذا الجواب وكان يصغي الى ما تقوله ابنته وهو يجهل تلك التفاصيل فلما رأته الآنسة برتيل صامتاً لا يحير جواباً اردفت كلامها قائلة :

– وفي غد ولادتي كنت يتيمة بلا والدين ولكنـي كبرت وصرت افهم مكنونات هذا العالم علمت اني ولدت من والد.. فمن هو ابي وما هي صناعته وما هو مركزه في الهيئة الاجتماعية وما هو اسمه وذلك كله كنت اجهله اما الخادمة العجوز التي نابت مناب والدتي في تربيتي فانها علمتني منذ ابتدأت انطق بالكلمات الاولى ان اصلي لوالدتي التـي هي في السماء ثم علمتني ايضاً ان اصلي لوالدي ليتذكر ان له ابنة ويعود اليها وبواسطة هذه الصلاة التي كنت ارددها يومياً تأكدت ان لي والداً لا يزال على قيد الحياة ولست في حاجة لأن اعيد عليك ما تراكم على مخيلتي من الاسئلة الغريبة لمـا تحققت هذا الأمر ولكني لم أكن القى إلا جواباً واحداً وهـو ان الجرم ابي وان واجبي يقتضي عليّ بمسامحته وتناسي زلته .

– ما الذي يوجبك لتجديد هذه التذكارات المؤلمة لكل منا ؟

– انك انت اردت ذلك ويجب ان تعلم تتمة حكايتي ولو كان فيها مـا يسوءك سماعه فمنذ سنتين اخذتني مربيتي من سوجيس وقادتني الى باريس وقد سالتها عدة مرات عن سبب انقلابها الفجائي فأكدت لي بان والدي موجـود في العاصمة العظمى وبذلك أكون قريبة منه ولعلي اتمكن من رؤيته في أحد

الأيام ومتى رآني يشفق عليّ ويعترف بي اني ابنة له فاطمت ممتثلة لهذا الأمر ولكن والدي لم يتقدم قط رغماً عن تأكيد مربيتي لي بي وقولها انه على مقربة مني .

– اقسم لك بالله العلي العظيم اني لم اطلع قط على شيء من هذه الاسرار .

– قد تكون صادقاً في قولك ولكن مربيتي كانت قد بلغت وقتئذ من الكبر عتياً فماتت وهي توصيني بان اطلع على بعض اوراق سرية اخفتها في محفظة سلمتني اياها قبل وفاتها وقد اطلعت من هذه الاوراق على حكاية والدي ولا يخفاك ما كان في هذه المكاشفة من الضغط والشدة على فتاة لم تبلغ السنة الخامسة عشرة من عمرها وهي تجهل كل معاني الشقاء في هذه الحياة غير ان مربيتي المسكينة كانت قد غرست في ذهني فكرة للعفو والصفح فلم أكد افكر بان العن الرجل الذي هو والدي وكان سبباً لشقائي لأني لم أكن افكر بغير التعرف على والدي الملك. لقد تمكنت بسهولة مما أريده وكان بامكاني أن أعود الى سوجيس ولكني لست ادري نحو العاطفة التي تدفعني إلى البقاء في مكاني .. ثق يا سيدي باني لم اكن ابالي سواء كان الملك او سواه والداً لي غير اني لم أكون اتصور بان ملكاً عظيم الشأن يتدانى الى مثل هذه السفالة ولكني لم أكن استطيع الارتياب باقرار والدتي فاستجمعت الرأيين وحكمت عواطف فؤادي فحكمت بان والدي لم يكن مذنباً الى الدرجة التي اتوهمها. وانه لو تنازل وأظهر لي بادرة من الشفقة

والحنان التي بخل بها علي كل تلك المدة الطويلة لكنت اغتفرت له جريمته مهما كان نوعها ولصفحت عنه باسمي واسم والدتي تلك الشهيدة البريئة من الزلات والعيـــوب . . لم اكن والله لأطمع بان يعترف بي الملك ابنة له ولكن الأمر الوحيد الذي كنت أتوخاه هو ان اتمكن من تقبيله وضمه الى فـؤادي سواء صدقت الاخبار التي بلغتني عنه أو كذبت .

– اني اصدق ما تقولينه فلا موجب للحلف .

– لسوء حظي ان والدي لم يأت كما كنت اؤمله وتوالت علي الأيام حتى امحت ذكراه من مخيلتي .

– اخطأت يا عزيزتي فها قد جئت اليـــك وسواء كان حضوري متقدماً او متأخراً فقد جئت والسلام .

– ليتك لم تكن اتيت فقد كان ذلك خيراً لنا وأبقى .

– ويحك ما الذي تقولينه أيتها الفتاة .

– قلت انك حاولت دخول منزلي كما فعلت ذلك قبل ست عشرة سنة مع والدتي . . أقول اني لو لم ابح باسمك واطلعك على سري لارتكبت معي الجريمة التي أتيتها مع والدتي .

– اراك جننت حتى صرت تهزئين بي !

– اخطأت يا سيدي فيما تقوله وإذا حاولت النكران فقل لي ما معنى الاشارة التي سمعتها من غرفتي إذ رأيتك تصفق بيدك وأنت مختبىء في جنـــح الظلام بل قل لي لماذا تركت السيدة كولنيكل وهي الشهيرة بخوفها باب منزلها مفتوحـــاً

وهي التي تهتم بقفله كل ليلة قبل كل شيء . . بربك مـا الذي اعطيته لها حتى جارتك على هواك وتمكنت من خديعة هـذه المرأة السافلة .

فذعر الملك لهذه المباغتة التي لم يكن يتوقعها ولم يستطـع احتمال نظرات ابنته الحادة ، وعاودت الآنسة برتيل حديثها بقولها :

– لا ريب بانك تتساءل كيف ان فتاة لا تزال في مقتبـل عمرها تتمكن من ادراك هذه الفظائع ولكنك نسيت والحالة هذه اني اطلعت من حياة والدتي المسكينة على أمور رهيبة وقد زدت سلسلة جرائمك حلقة متينة لذلك يحق لي ان اتطلب منك الشيء الكثير ولكني لم افعل . . . اني طلبت منك امراً زهيداً لا يكاد يذكر وهو ان تنسى او تتناسى كلمـة قيلت لك او كلمة سمعتها ولكنك ابيت اجابتي الى سؤالي فليكن ما اردته يا ابتاه واتمم عملك الفظيع واقتل إذا احببت ابنتك فان عذرك واضح يا ذا الجلالة . . . واعلم باني اهنت مثله شخص الملـــك فاربلنا إذا شئت الى العذاب لأني مستعدة على تحمله وكما قتلت الأم وخطيبها في آن واحد اقتل ابنتك والشاب الذي احبته .

وأراد الملك مجاوبتها لتسكين اضطرابها ولكنه سمع حركة بعيدة تشبه حركة القتال فصمت وأصغى وكانت الآنسة برتيل قد سمعت هذه الحركة ايضاً فلم تبال بالملك بل تركته في مكانه واندفعت الى الشرفة وفتحت نافذتها بعجلة زائدة وألقت نظراً

مشتتاً على الطريق وفي الحال عادت نحو الباب بخطى ثابتة ولكن وجهها كان يشبه وجه الاموات باصفراره فصرخ بها الملك قائلاً :

– الى اين تريدين الذهاب يا بنيتي ؟

– اني ذاهبة لأموت معه لأن رجالك يريدون الفتك به .

– اخطأت يا عزيزتي فاني لا اريد موته .واظنك قد ادركت مأربي. ابقي هنا ايتها الآنسة لاني لا اريد ان اتنامى أكثر مما فعلت باني انا الحاكم الوحيد الذي لا يعارض حكمه.

وذهب بدوره ليرى ما هو جار في الطريق وفي أسرع من لمح البصر ادرك حقيقة الحال فأقفل النافذة وهمس قائلاً :

– لا ريب بانهما سيتمكنان من الثبات دقيقتين او ثلاث بعد وسأصل في الوقت الملائم .

والتفت الى الآنسة برتيل وقال لها بلطف :

– انى اسامحك يا بنيتي ولا اذكر ما قلتيه لي وانك تعمدت اهانتي انا أبوك وملكك فاسكتي ودعيني اتم عملي لأني لا اريد اكراهك بوجه من الوجوه وانت التي ستقررين مستقبلك كما تحبين لذلك اطلق لك الحرية التامة وبعد بضعة أيام سأحضر لزيارتك وتكون زيارتي لك في رابعة النهار وأنا مصحوب بحاشيتي ورجال بطانتي فلا ثمة مجال للتقول عليك أو الظن بك اما الآن فدعيني اخرج من هذا المنزل لأن ساعة العمل قد دنت . ولكن هل لمنزلك مخرج غير الباب الذي

دخلنا منه ؟

– نعم وهو باب مؤدي الى شارع كورباتون فتكرم يا صاحب الجلالة واتبعني الى حيث اقودك .

وبعد لحظة وجيزة كان الملك هنريكوس الرابع يجتاز الشارع بخطى واسعة كعادته الى ان وصل في الوقت الملائم ليمنع رجال الحاكم الأعظم من الفتك بباردليان ورفيقه جوهان الشجاع .

الفصل الثامن

نزهة مع الملك

اقبل الملك بمزيد العجلة ووقف في اسفل الدرج ضمن الدائرة التي يسطع فيها نور المشاعل وخاطب الحاكم الاعظم بلهجة دلت على تهكمه به .

– ما الذي حدث من جديد يا نوفي ؟

– لقد اردت يا صاحب الجلالة القبض على هذا الشاب ولكنه ابدى العصيان وأبى الاذعان .

– أجب ايها الشاب على هذه الشكوى .

فتقدم جوهان حتى آخر الدرج وانحنى أمام الملك وقال:

– ان هذا الرجل لا يدرك ما يقوله يا مولاي، واني اؤكد لجلالتكم بانه هو العاصي ولست انا .

– افصح كلامك أيها الشاب .

– ان الأمر بسيط للغاية يا مولاي فان جلالة الملك أمرني بان انتظره أمام هذا الباب ليذهب بي الى اللوفر أو الى محل آخر .

– لا أخالني اني اصدرت اليك مثل هذا الأمر .

– لست انكر ذلك ولكن جلالة الملك قد صادق على قولي فكان مصادقته أمراً صريحاً لي .. وبينما أنا واقف في مكاني جاءني هذا الرجل وطلب مني من غير سؤال ولا جواب ان اغادر هذا المكان الذي امرني جلالة الملك ان انتظره فيه وقد كان الفارس باردليان شاهداً على نزاعنا فأراد ان يطلعه على حقيقة الامر ولكنه لم يصغ له سمعاً وأصر على غيه وأبى ألا أن يمنعني من تنفيذ اوامر الملك فبذلك يكون قد جاهر بعصيانه على جلالته مع ان اول واجباته تقضي عليه بطاعته والامتثال لأوامره اما وقد خالفها فيجب شنقه علناً .

فكاد الحاكم الاعظم يجن لسماعه هذه الوقاحة وصرخ قائلاً :

-- ايسمح لي جلالة الملك بالكلام ؟

والتفت الملك الى باردليان وسأله قائلاً :

-- وانت هل تدعي اني اصدرت اليك أمراً بانتظاري في هذا المكان وانك عملاً بهذا الأمر بقيت هنا الى ان اتيت اليك.

-- نعم يا صاحب الجلالة .

-- ان ما اسمعه منك من الغرابة بمكان فافصح بقولك .

-- لا اظن ان جلالتك امرتني بان اتولج حراسة هذا الشاب فضحك الملك ضحكاً عالياً والتفت الى الحاكم الاعظم وقال له :

– صدق هذا الرجلان بقولهما وما وجودهما في هذا المكان إلا بامري أما أنت يا نوفي فخادم امين ولست انسى لك حسناتك .

– التمس من جلالتك ان تأذن لي بمقابلة مستعجلة ومهمة .

– سأمنحك ما تريده غداً .

فخفض دي نوفي صوته وهمس في اذن الملك قائلا :

– ان الامر يتعلق بهذا الشاب يا صاحب الجلالة فهو ليس من النبلاء كما حسبته

فتردد هنريكوس برهة وتطلع رغماً عنه الى نافذة المنزل الذي تقيم فيه ابنته وقال :

– وعدتك بالمقابلة التي طلبتها في الغد فاذهب الآن .

والتفت الى القائد برسلين وقال له :

– عد أيها القائد العزيز الى اللوفر وتولى حراسته . أما أنا فان هذين النبيلين الشجاعين يتوليان حراستي .

– إذاً فانا ذاهب مرتاح البال لانهما يساويان لوحدهما فرقة كاملة من الجند .

وانحنى أمام الملك باحترام وانصرف مع رجاله وخاطب الملك باردليان وجوهان الشجاع قائلا :

– هيا بنا ايها العزيزان فاني اريد انتهاز هذه الفرصة الثمينة وأتجول قليلا في عاصمتي المحبوبة .

وتأبط الملك ذراع باردليان لأنه كان معتاداً ان لا يمشي إلا متأبطاً ذراع أحد أخصائه وظل سائراً بهما الى جهة اللوفر

وقد بدت عليه أمارات البسط والسرور .

ولم يلمح اثناء الطريق ولا بكلمة واحدة الى ما عمله معه جوهان الشجاع الذي كان يسير عن شماله ولا تعرض لمخالفة باردليان لأوامره والكلمات القاسية التي سمعها منه ولا بالعراك الشديد الذي جرى بينهما وبين الجند وكأن هذه الأمور لم تحدث ولم تخطر بباله بل جعل حديثه دائراً على المبارحة .

ولما وصلا الى آخر الطريق عطف الملك للجهة المعارضة للجهة التي كانوا يسيرون فيها ومروا مرة ثانية أمام منزل الآنسة برتيل وهم يضحكون حتى وصلوا الى شارع سانت هونوري .

وفي منتصف شارع الشجرة اليابسة كانت توجد عين للماء بنيت في أيام الملك فرنسيس الأول .

وكان مختبئاً في ظل هذه العين ثلاثة أشباح جالسين القرفصاء وهم سكوت وأيديهم على قبضات سيوفهم كأنهم يترقبون وصول الملك هنريكوس الرابع ورفيقيه لأجل الفتك بهم .

أما هؤلاء الأشخاص الثلاثة فقد كانوا اسكركاس وكرنكايل وكركان الذين صادفناهم في صباح ذلك اليوم أمام منزل جوهان الشجاع على ما رويناه لقرائنا الكرام .

قلنا ان الملك كان يستند على ذراع باردليان الذي كان يمشي على جهة اليمنى أما جوهان الشجاع فكان على يساره فلما

وصلوا الى قرب العين ذهبوا في الجهة اليمنى فمر الملك وبارداليان ولم يلاحظ الثلاثة الرجال الكامنين في ذلك المكان ، اما جوهان الشجاع فانه فسح مجالاً لمرور رفيقيه ثم توقف برهة عند حافة العين وهمس من فمه بضع كلمات سمعها اولئك الشجعان ثم أسرع خطاه حتى يلحق برفيقيه وعاودوا السير في شارع سانت هونوري .

ولم يكد الملك ورفيقاه يبتعدون عن ذلك المكان حتى هب اولئك الشجعان الثلاثة واقفين في أماكنهم وهم ينظارون الى بعضهم نظرات دهشة واستغراب كأنهم نجوا من خطر عظيم ، وقال اسكركاس :

– اني احمد الله حمداً جزيلاً لخلاصنا من هذه الورطة الوبيلة .

– لولا القليل لكنا هاجمنا رئيسنا الاعظم .

– ولو فعلنا ذلك لنالنا من ضرباته ما لا ننساه ابد الدهر .

– صه يا كرنكايل فاني ارتجف فرقاً لمجرد افتكاري بهذا الأمر .

– لم يكن في وسعنا ان نعرف ان رئيسنا هو القادم علينا .

– قلت لكما أكثر من مرة اني عرفت صوته .

– أما هو فقد رآنا وعرفنا قبل ان يسمع كلامنا .

– يا له من داهية دهماء فكيف تمكن من معرفتنا وقد كنا مختبئين في مكان لا أحد يرانا فيه .

– لا تتعجب أيها الصديق فرئيسنا في الليل كالنهار .

– لقد سمعتما ما أمرنا به رئيسنا الاعظم وذلك بان نتبعه عن بعد على شرط ان لا نلفت الانظار الينا وان نكون على استعداد لنصرته متى ابدى لنا اول اشارة تبدر منه .

وبينما هم يتحادثون غادروا المكان الذين كانوا متسترين فيه ، وكان الملك قد عطف الى الجهة اليسرى المؤدية الى ساحة التويليري حيث كان قائماً قصر اللوفر .

وكان أسقف باريس قد وضع سلمه في ذلك الشارع والظاهر ان آلة العذاب التي اشتهرت في ذلك الحين قد اشتق اسمها منه فوقف هنريكوس الملك برهة أمام ذلك السلم وقال بمزيد البساطة كأنه دليل يرشد الغرباء على غرائب العاصمة الفرنسية .

– في سنة ١٣٤٤ تعلق هنريكوس دي مالنيروا على سلم مثل هذه وقد رجم بالأوحال والاحجار ولكنه قضى نحبه في المرة الثالثة أما الجرم الذي ارتكبه فعصيانه اوامر الملك .

فارتجف رفيقاه لسماعهما هذا التعريض الصريح ، بيد ان الملك تظاهر بعدم المبالاة ، وقال له بارداليان بملء السكينة :

– لحسن الحظ انهم ابطلوا في هذه الايام السعيدة تلك الآلات الهائلة التي تدل على توحش لا مزيد عليه .

وأردف جوهان الشجاع قائلا :

– صدقت يا سيدي ولو كان المجرمون مخطئين نحو الملك .

وكان الملك قد توقف أمام احد ابواب قصر اللوفر وفتحه

بعجلة ثم التفت الى رفيقيه وقال لهما :

– أشكر لكما تلطفكما بالمجيء معي الى هذا القصر .

وخاطب باردليان بتودد لا مزيد عليه :

– اني لا ازال اذكر حسنات خدماتك التي قدمتها لي فيما مضى وأعدك وعد صادق بان اتناسى كل شيء غير ذلك.

فانحنى باردليان أمام الملك باحترام زائد وقال له :

– يسرني ان اقتدي بك يا صاحب الجلالة وان اتناسى ما أردت نسيانه يا مولاي .

فأراد الملك مجاوبته على قولة ولكنه كظم غيظه وخاطب جوهان الشجاع قائلا :

– أما أنت أيها الشاب فاني لست اعرفك من قبل ولكني وعدت بمسامحتك والعفو عنك وسأنجز وعدي هذه المرة ولكني انصحك بان تذهب الى احدى الولايات لتقضي فيها أيامك لأن هواء باريس لا يلائم صحتك .

فاصفر الشاب اصفراراً هائلا وحاول جهده بالتغلب على عواطفه ثم انحنى أمام الملك وقال له :

– انى اشكر بكل خضوع واحترام لجلالة الملك هذه النصيحة الثمينة التي تكرم بان يتحفني بها ويسوءني جداً وأيم الحق ان ابدي لجلالته تخالفي لأوامره لأن شغلي في الوقت الحاضر يتطلب وجودي في باريس فلا يسعني التخلف عنها .

– فليكن كما تريد أيها الشاب ولكني انصحك بان تبذل مجهودك كي لا اسمع بذكراك بعد الآن .

وأبدى الملك الى باردليان اشارة دلت على مزيد تودده اليه ودخل القصر من الباب السري الذي اقفله وراءه بعجلة ولم يدع لجوهان الشجاع مجالاً لمجاوبته على أمره .

الفصل التاسع

الشجعان الثلاثة

ولم يكد الباب يقفل خلف الملك ويصبح باردليان وجوهان الشجاع لوحدهما حتى سأل الاول الثاني .

– ما الذي كنت تعمله لو أمر الملك بالقبض عليك .

فلم يجاوبه جوهان الشجاع على سؤاله بل رفع يده الى العلاء وصرخ قائلاً .

– إلي أيها الشجعان .

وفي الحال اقبل كرنكايل واسكركاس وكركان ووقفوا أمام رئيسهم وكل منهم واضع يده على قبضة سيفه وقد ابرقت عيونهم بلمعة العزم وقوة الارادة كأنهم ينتظرون منه كلمة أو امراً لتنفيذه في الحال فصمت جوهان برهة وسأل باردليان عما يرتأيه فأخذ يصفر كعادته حين يرى امراً يعجبه .

وبعد ان تأمل جوهان برجاله وهو معجب ببسالتهم أمرهم بالانصراف ولما ابتعدوا عنه قال لباردليان :

– أن الملك بات مقدساً في نظري وأنت تعرف السبب وإذا كنت لا انوي إيذاؤه والحاق الضرر بـه فلا يستدل عن ذلك اني اسمح له بقتلي ولا ادافع عن نفسي ولو انهم حاولوا القبض علي لكنت بمساعدة هؤلاء الشجعان حملت عليهم واؤكد بانهم لا يستطيعون الوصول الينا ونحن في قيد الحياة .

– لقد أدركت مأربك لما رأيت هؤلاء الرجال يتبعون أثرنا ولست انكر عليك باني لو كنت مكانك لكنت أتيت ذات العمل .

ثم التفت الى الثلاثة الرفاق الذين كانوا يسمعون هذا الحديث وهم سكوت وقال لهم :

– هل عرفتم من هو الرجل الذي كان معنا ودخل قصر اللوفر والذي كنتم تنوون الحملة عليه ؟ انه الملك .. فهل تزالون مصممين على اطاعة رئيسكم من غير تردد إذا طلب منكم مهاجمته .

فصاحوا كلهم بلى بلى .. اننا نفديه بارواحنا وبكل عزيز لدينا فشكر لهم باردليان اخلاصهم ومحبتهم ثم خاطب جوهان قائلاً :

– هل لك أن تخبرني عما نويت عليه .

– اني عزمت بمساعدة هؤلاء الشجعان ان أحمل على الجميع وافتح لي الطريق القلاء فاما ان ادرك مأربي أو أموت .

أخاف عليك ايها العزيز ان يكون أمامك الحظ الأخير .

– لست أبالي بالموت.. ألم تسمع ما قالته لي يا سيدي وأنها ابنة الملك وربما ان جنوني قد بلغ بي لأن ارفع عيني الى هذه المنزلة الرفيعة فيجب ان اكون اهلا لها ولو ادى بي ذلك الامر لهلاكي .

– سواء كانت ابنة ملك أو ابنة قروي فالحب الصحيح لا تخدعه هذه المؤثرات الكاذبة وتذكر هذه النصيحة قبل ان تقدم على عمل تندم عليه اما الآن وقد انتصف الليل فاستودعك الله لأني في حاجة كبرى الى الراحة .

– لست اتركك يا سيدي إلا متى اوصلتك الى باب منزلك إذا سمحت لي بذلك .

– ان مرافقتك تسرني سروراً عظيماً أيها العزيز واني مقيم في شارع سان دينيس .

فأمر جوهان رفاقه بالانصراف وابتعد مع باردليان .

الفصل العاشر

المؤامرة

ذعر الرفاق لانصراف رئيسهم بمثل هذه السرعة وماشاهدوه على محياه من امارات الجزع فوقفوا في اماكنهم مبهوتين وقد تولتهم الحيرة والانذهال وقال اسكركاس بلهجة الأمر :

– يجب علينا ان نذهب سريعاً من هذا المكان لئلا يظن السيد كونسيني أننا تركنا وتخلينا عنه .

وأخذوا يسيرون بعجلة وهم يتسترون خلف البيوت لأنهم اعتادوا على التكتم وكانوا كلهم آذان صاغية لمعرفة ما هو جار حولهم ويتكلمون مع بعضهم همساً لئلا يسمع أحد من الاغراب حديثهم الى أن وصلوا الى منزل السيد كونسيني وفي الحال ادخلوا الى غرفة متوسطة الكبر وهي مفروشة بالرياش الأنيقة ورأوا فيها شاباً في مقتبل العمر يتمشى ذهاباً وإياباً ليخفي اضطرابه وفروغ صبره .

لما غادرت اليونورا غاليكاني غرفة الملكة وجدت زوجها

كونسيني منتظراً الأمر ليدخل ويقابل الملكة ماري دي مدسيس وكان هذا الرجل ربعة القوام متناسب الاعضاء عريض الجبهة واسع الجبين أسود الشارب .

ومن الغريب انه كان كزوجته براق العينين حـاد البصر ترسل عيناه أشعة مدهشة تدل تارة على القسوة المتناهية وطوراً على اللطف الذي لا مزيد عليه ، اما ملامحه فكانت طوع اشارته تنقلب الى الهيئة التي يريدها ، أما الخيلاء فقد كانت مسطورة بحروف مجسمة على جبهته ، وبالاجمال فقد كان منظره بلباسه الأنيق يدعو إلى الدهشة والاعجاب .

ولما ابصرته اليونورا اتقدت عيناها بأشعة العطف والمحبة أما هو فقد كانت بادية عليه أمارات انشغال الفكر والقلق ، ولكنه حاول أن يكتم اضطرابه بما يقوله من لطيف الحديث ، فانحنى أمامها باحترام كما لو كانت غريبة عنه وقال لها همساً :

ـ لقد جاء الشاب الى المنزل يا اليونورا واني عملا بوصيتك تجنبت مقابلته وهو الآن بانتظاري .

فأخذ فؤاد اليونورا يخفق خفوقاً شديداً وتنهدت تنهداً خرج من أعماق صدرها ودل على مزيد تأثرها ولكنها ظلت محافظة على سكينتها وقالت :

ـ ثق أيها العزيز باني فعلت ذلك وانا مدفوعة اليه باسباب خطيرة .

اسألك إذا كنت تنوي استبقاء هذا الشجاع مدة طويلة

عندك فقد كنت في حاجة قصوى اليه في هذا اليوم .

ـ يخال لي أنك ستضطر للاستغناء عن خدماته بعد الآن وإذا لم تره غداً فكن على يقين بان ذلك يكون آخر موعد لك معه وتتخلص من هذا الشجاع الذي طالما سلقت عليه كبرياؤه.

ـ عجباً أية مهمة خطيرة عهدتها اليه ايتها الرفيقة .

ـ لقد صحت عزائمهم بعد مزيـد التردد وسيتم الحادث الخطير في هذا المساء وكن على حذر يا عزيزي فان للحيطان آذاناً في هذا القصر فاذهب أنت إلى هناك وابذل جهـدك لتستولى على إرادتها فلا تعود عن عزمها الذي قررته .

وسأنام الليلة في قصر اللوفر لأؤدي واجبات خدمتي ولعلك تحسن عملا إذا كنت مثلي هذه الليلة فهل أدركت مني ما أريد قوله لك .

ـ لست أصادق على رأيـك وأرى أن الافضل التمويه على الجميع ليحسبوني قضيت ليلتي في منزلي وسأبذل جهدي لاجيز عليهم هذه الحيلة .

ـ أراك مصيباً في قولك فافعل ما تريده .

وأكرر عليك نصيحتي أيها العزيز بان لا تغادر المنزل هذه الليلة أو بالحري انتظر حتى الساعة الحادية عشرة ونصف أو منتصف الليل لأني على يقين بان الامور تكون قد جرت على رغائبنا في تلك الساعة .

ـ أعدك يا ليونورا اني لاأغادر منزلي سواد الليل .

– اذهب يا عزيزي وقابلها لئلا تمل من الانتظار .

وتبعته اليونورا بنظرها حتى غاب عنها فانقلبت ملامحها من السكينة الى الاضطراب وبدت عليها كل أمارات الغيرة والحزن كأنها استيقظت من سبات عميق فحركت رأسها بحزن وأجهدت قواها لتظل محافظة على عدم المبالاة وأخذت تناجي نفسها بقولها :

– ان كونسيني عاشق مغرم ولم ألاحظ منه هذا الأمر حتى الآن فهل كنت عمياء حتى لم انتبه لأمره ؟.. وهل ما يشعر به غرام صحيح أم هي عاطفة بسيطة لا تلبث أن تزول؟ ذلك سر من أسرار الطبيعة لأن ما اعلمه من أخلاق زوجي لا يدعى لي أملاً كبيراً به وعلى الحالتين يجب ملاقاة هذه العاطفة منه لئلا تتملك فيه وتتغلب عليه لأن نتائجها قد تكون شؤماً علينا .. لسوء الحظ أن كونسيني بات مغرماً في الساعة التي ستصبح فيها ماري دي ميدسيس حرة وتتولى زمام احكام هذا الملك الجميل ونحن الآن في أشد الحاجة اليها وأن نتظاهر لها بالاخلاص التام لتثق بنا وتعهد الينا قيادتها في السبل الموافقة لمصالحنا .. من هي يا ترى الفتاة التي تعلق بها زوجي ؟

لا ريب بأنها ليست من نسوة القصر ولو كانت منهن لكنت عرفت سره في الحال .. الويل لهذه الشقية فقد كفاني ما يلذعني من الغيرة بسبب ماري دي ميدسيس وفؤادي لا يتحمل الغيرة من اثنتين اذهب يا كونسيني وقابلها هذا المساء ولكني

غداً سأعرف اسمها ومحل اقامتها فانجز حسابي معها .

فلندع اليونورا غاليكاي سائرة نحو منزلها وهي تحاول تحريض جوهان الشجاع على الملك هنريكوس الرابع باثارتها عواطف الغيرة في فؤاده وقد عرف قراؤنا الكرام أنها تمكنت من تهييج حنقه على الملك ولكنها فشلت في القسم المهم من الخطة الجهنمية التي وضعتها وهو قتل الملك .

ولندعها منهمكة في أمورها الخاصة وهي اكتشاف غرام زوجها الجديد وهي تدبر الخطط الرهيبة للانتقام من الفتاة التي أحبها زوجها وجاءت لسوء الحظ تعترضها بوجودها في أهم أعمالها ولنعد إلى كونسيني فقد كان عالماً حق العلم حراجة موقفه وأن أقل هفوة يرتكبها تعود عليه بالويل الذي ستكون عاقبته الموت .

وكان يعلم أيضاً ان الملك ما زال في قيد الحياة فان الذي حرض القاتل على الفتك بالملك يكون عرضة لأشد الأخطار فقد يقبض عليه ويسجن ويحاكم ويحكم عليه بالقتل والاعدام .

وكان يعلم أيضاً أنه أصبح آلة حية في يد تلك الامرأة التي قام يمثل أمامها دور العشق والهيام وأنه عن قريب سيضمها بين ذراعيه القويتين ، وسواء تمكن من أقناعها أو لم يتمكن فهي تستطيع بكلمة منها أو اشارة أن ترفعه الى اسمى المراكز أو تنزل به إلى حضيض الذل وتلقيه في الهاوية التي كانت مفتوحة تحت قدميه .

ولما شعر من نفسه أنه أصبح حراً طليقاً بادر مسرعاً إلى منزله في شارع سانت هونوري وهو يتظاهر بالسعادة وكانت اليونورا قد عادت الى قصر اللوفر فاستدعى الرفاق الثلاثة واختلى معهم طويلاً في احدى الغرف وزودهم بالتعليمات الصريحة الدقيقة .

**

لم يكن للملك هنريكوس الرابع بسبب حوادثه الغرامية من رجل ثقة يعتمد عليه باسراره وقد كان عنده عدا المركيز دي لافارين عدة أشخاص يطلعهم على أسراره ويكاشفهم بآماله وما يصبو اليه .

وكان لكل واحد من هؤلاء عدة اصدقاء يكاشفونهم باسرار الملك هذا عدا فئة الجواسيس من رجال ونساء الذين كانوا يعملون لحساب البعض فيراقبون ويسمعون وينظرون كل ما هو جار في قصر الملك وجواره .

ولما أحب الملك الآنسة برتيل كان لا بد له من أطلاع أخصائه على غرامه الجديد فأسرع هؤلاء الى شارع الشجرة اليابسة ليتعرفوا بهذه الحسناء ويتزلفوا اليها ويحصلوا على نعمة التعرف منها ، وتمكنوا من رؤية الآنسة برتيل ولكنهم لم يجسروا على الاقتراب منها .

ولم يكن كونسيني من الاخصاء الذين استحقوا ثقة الملك بل كان له نفر من الجواسيس والرقباء يرفعون اليه تقاريرهم اليومية

فلا تخفاه خفية فاقتدى بغيره وذهب يتجول حول شارع الشجرة اليابسة فأبصر الآنسة برتيل جالسة قرب نافذتها وكان منظرها عليه شبه الصاعقة فانه أحبها في الحال وأقسم يميناً مغلظة بانها ستصير ملكة مهما كلفه الأمر .

وفي تلك الاثناء أقبلت عليه زوجته اليونورا وأخبرته بان الملك سيقتل في ذات الليلة ومتى قتل هنريكوس الرابع يبتدىء دوره في الحكم تحت إسم ماري ميديسيس لذلك أطمأن باله وصمم على خطف الآنسة برتيل في ذات الليلة .

أرسل اسكركاس ورفيقيه إلى شارع الشجرة اليابسة وأمرهم بمراقبة منزلها وأن يعدوا ما يلزم لخطف الفتاة ولم ينس بان الملك سيقتل أمام بابها لذلك أكد لرجاله بأن خطفهم الفتاة لا يمكن أن يتم قبل انتصاف الليل وأنه يجب عليهم أن يأتوا اليه في تلك الساعة ليطلعوه على ما عرفوه .

وكان كونسيني يعلم حق العلم أنه يستطيع الاعتماد على مهارتهم وهو على يقين بأن تقريرهم سيكون مستوفياً في بابه فيقرر ما يجب عليه عمله بعد أطلاعه على تقريرهم فيقرر خطف الفتاة أو يعدل عنه .

الفصل الحادي عشر

منزل كونسيني

كانت الساعة الواحدة بعد انتصاف الليل لما أقبل الرفاق الثلاثة الى منزل كونسيني ودخلوا الى غرفته وكان قد قضى تلك الساعة وهو عرضة للقلق والاضطراب .

ولم يكن الرفاق الثلاثة يظنون أو يعرفون السبب الذي دعاه إلى ذلك القلق فقد كان كلفهم بخطف إحدى الفتيات وهو أمر ليس أبسط منه في عرفهم وخيل لهم أنهم قاموا بالمهمة التي انتدبوا لها وأدوا الوظيفة المطلوبة منهم بما عملوه .

ولما كانوا يعرفون أخلاق سيدهم حق المعرفة تداولوا في أمرهم ملياً وقرروا أن يعهدوا بالكلام إلى أحدهم أسكركاس ويكتفي رفيقاه بالمصادقة على كل ما يقوله :

ومما هو جدير بالذكر أن الرفاق الثلاثة وصلوا إلى جوار منزل الآنسة برتيل بينما كان القائد براسلين يتداول مع باردليان والمركيز دي لافارين فعرفوا لأول وهلة لباس الحرس الملوكي

وقرروا فيما بينهم أنه لا يليق بهم سماع حديث لا تعلق لهم به ، فابتعدوا عن الحرس جهد الامكان وكانوا قد سمعوا ثلاثة أو أربعة أسماء ووصلت إلى آذانهم بعض الجمل المقتضبة ولكنهم آلوا عزيمتهم على نسيان ما سمعوه .

وبينما هم كذلك ابصروا الجند مقبلا نحوهم فأطاعوا عواطفهم الأولى وقد بذلوا مجهودهم للاختباء حيث لا يراهم أحد وكانوا يرون بواسطة المشاعل الجند والحرس يحيطون بذلك الشارع ، وأدركوا عندئذ أنهم عرضوا أنفسهم لخطر عظيم كانوا في غنى عنه وأسرعوا كالسهم المارق نحو العين التي رأيناهم مختبئين على مقربة منها .

وكان السيد كونسيني يهمه كثيراً الوقوف على كل ما هو جار في ذلك الشارع لذلك أرسل هؤلاء الرفاق وأمرهم بحسن الترصد ودقة المراقبة ولكنهم لم يتمكنوا من الوقوف على الشيء المهم ولم يسمعوا إلا كلمات وجيزة وصلت اليهم همساً .

ولما عادت السكينة إلى ذلك الشارع وساد عليه الظلام وانقطعت الحركة منه خرجوا من مكمنهم ليذهبوا نحو المنزل الذي أمروا بمراقبته ، ولكنهم ابصروا بمزيد الاستغراب ثلاثة أشخاص يسيرون الهوينا في الشارع الذي كانوا فيه وهم يتحادثون بمزيد السكينة والطمأنينة وقد كرروا مرورهم عدة مرات أمام المنزل الذي أمروا بمراقبته ، فهل هم مكلفون بذات الوظيفة

التي انتدبوا اليها فضلا عن أن وجود هؤلاء الثلاثة الأغراب في ذلك الشارع يعرقل مساعي السيد كونسيني ويحبط آماله .

ولم يكن هؤلاء الرجال يلبسون ملابس الحرس ولا ثياب الجند بل كانت ظواهرهم تدل على أنهم من النبلاء فحمدوا الله في نجواهم لأن عددهم لم يكن يزيد عنهم وهم يستطيعون القيام بالمهمة التي انتدبوا اليها بكل سهولة خصوصاً وأن هؤلاء الاغراب كانوا ظهروا للمرة الأولى في ذلك الشارع فأرادوا مجازاتهم مجازاة رهيبة كي لا يقدموا مرة ثانية على أزعاج السكان وأقلاقهم .

وكانوا يظنون أنهم بعملهم هذا يؤدون الوظيفة التي انتدبوا إليها فيكافئهم السيد الذي انتدبهم اليها بالعطاء الجزيل فضلا عن أن الاغراب الذين أبصروهم كانت تدل ملامحهم على السعة وبسطة العيش فينالون منهم ما ينالونه وتكون جائزتهم مزدوجة .

وقد رأيناهم في هذه الحال ورأينا أن جوهان الشجاع بمداخلته في أمرهم قد عكس عليهم ما كانوا يؤملونه فلما رآهم السيد كونسيني داخلين إلى غرفته تنهد الفرح والارتياح لأنه أوشك معرفة ما كان يؤمله فتوقف عن مشيه ووقف أمام طاولة عمله وهي ملأى بالاوراق المختلفة والاجناس والانواع فوقف الرفاق الثلاثة أمامه .

وتأمل بهم كونسيني برهة وجيزة كأنه يريد أن يطلع من ملامحهم ما تكنه سرائرهم ثم قال لهم موبخاً :

– الويل لكم أيها الاشقياء فقد تركتموني في انتظاركم ساعة قضيتها على مقالي الجمر .

لقد كنا وايم الحق أيها السيد نشعر بقلق عظيم لتأخرنا عليك في الجواب ولكننا اضطررنا مكرهين على التخلف وما كان تأخرنا إلا رغماً عنا لأننا لم نجد وسيلة للوصول إلى هنا .

– ولم يفهم السيد كونسيني من هذا الحديث إلا أنهم لم يستطيعوا الوصول اليه في الساعة المعينة فأبدى رغماً عنه إشارة دلت على مزيد فرحه وسروره وزمجر قائلا :

– إذن لقد قضي الأمر .

ومنذ الساعة قد عزلتكم من خدمه منزلي لأن خدماتكم لم تعد ترضيني فقصوا علي ماذا جرى لكم من الأمور الغريبة .

فانتصب اسكركاس الذي تولى الحديث عن الجميع وقال :

– لقد حاصر الشارع نحو ثلاثين رجلا من الجند وفي مقدمتهم المسيو دي نوفي فاستحال علينا المرور من جهة الذاهوار ناحية السين كانت محروسة بفريق آخر من الجند وكانوا كثيري العدد فضلا عن الجند الذين جاء بهم القائد براسلين والحرس الذين

استدعاهم المركيز دي لافارين وكانوا يأتون من الحركات المزعجة ما يوهم الناظر أنهم قادمون على عمل عظم أو ان زمن إغتصاب الماضي قد عاد اليوم ولما لم يكن باستطاعتنا الانسحاب بسهولة رأينا أن خير ما نعمله البقاء في أماكننا لأن أقل حركة تصدر منا تعرضنا لخطر القبض علينا والقائنا في أحد السجون .

الفصل الثاني عشر

خطف الانسة برتيل

وبعد أن فكر السيد كونسيني في امره ملياً القى على الرفقاء نظرة رضا لم يكونوا يعهدونها من قبل .

ومد يده إلى درج طاولته وتناول منه كيساً مملوءاً بالذهب أفرغه أمامهم وقال لهم خذوا الذهب مكافأة لكم ولا تحقدوا عليّ .

فنظروا إلى الذهب الملقى أمامهم بانذهال لا مزيد عليه وهم لا يصدقون عيونهم حتى إذا تيقنوا من صحة الهبة الممنوحة لهم تقاسموها أو بالحري تخاطفوها في الحال وقال لهم كونسيني بعد أن أتموا عملهم :

— فلنتكلم الآن عما يهمنا فهل مشروعنا لا يزال في بالكم.

— أجل ولكننا نشترط لانجازه أن لا تكون الطرق مخفورة .

— هل استعديتم لما يلزم من الطوارىء

– نعم .

– فلنذهب إذن .

وقام كونسيني فجأة من مكانه بعد أن أخذ كيساً مفعماً بالذهب فوضعه في جيبه ووضع فيها قناعاً حريرياً أسود اللون وتمنطق بأسلحته السوداء والبيضاء وخرج من المنزل بسرعة زائدة وكان الرفاق أتبع له من ظله .

ولما وصل إلى الشارع القى على ما حوله نظرات دقيقة ولما تحقق من خلو المكان من الرقباء سار متوجهاً نحو شارع الشجرة ورجاله على مقربة منه ولكنهم لم يسيروا أكثر من عشرين خطوة حتى انتصب رجل كان مختفياً في أحد الزوايا وأخذ يسير في أثرهم وهم لا يشعرون به .

وصلوا أمام منزل الآنسة برتيل ولم يصادفوا في طريقهم أحداً من الناس فلحق الثلاثة الرفاق بمولاهم عند وصوله إلى السلم ودلوه على الدم الذي بقيت آثاره هناك بعد المعركة التي نشبت بين جوهان الشجاع وباردليان وبين رجال الحاكم الاعظم وقد أرادوا بذلك أن يثبتوا له صدقهم فلا يرتاب في المستقبل بالتقارير التي يرفعونها له .

فتأمل كونسيني برهة لطخ الدم الموجودة على الدرجات البيضاء ثم دخل في عطفه كورباتون فاقترب منه رجل كان مختفياً في الظلام وانحنى أمامه باحترام وقال:

– مولاي أن الحقة موجودة على مقربة من المكان فأبدى كونسيني أشارة بيده ولم يكد يراها هذا الرجل حتى ابتعد مسرعاً من غير أن يتطلع إلى ورائه وفي شارع الشجرة اليابسة صادف الرقيب الذي كان يتجسس خطوات كونسيني فرآه يتأمل بدقة آثار المعركة فاقترب منه وهمس في أذنه بعض كلمات وعاود سيره نحو شارع هونوري ودخل منزل كونسيني

أما الجاسوس فقد القى نظرة سخرية على شرفة المنزل الذي تقيم فيه الآنسة برتيل وحدج منزل جوهان الشجاع بنظرة ملؤها الحقد وهمس قائلاً في جنح الليل البهيم :

– تودعي من أحلام غرامك أيتها الحمامة الجميلة فان عاشقك قد وقع في الشرك الذي نصبته له وإذا رغبت في مقابلته سوف ترينه في ساحة الاعدام .

واختفى في احدى الزوايا لئلا يراه أحدوناجى نفسه بقوله:

– لقد كان أقصى آمالي وغاية سؤالي ومناي أن تشهد الأميرة الخطيرة وفوستا بورجيا عذاب ولدها.. ليتني استطيع ولو بسفك دمي أن أناديها في أحد الايام وأقول لها : « انظري جيداً أيتها الاميرة فوستا وتأملي ما تشاهدينه فان جوهان الشجاع الذي يعذبه الجلاد وهو وحيدك وأنا انا الذي جعلته لصاً أنه شجاع وأنا الذي اوصلته إلى هذه الحال .

وضحك ضحكة رهيبة لهذه الفكرة الجهنمية وقال :

لقد تأخرت ساعة الانتقام بحلولها ولكنها دنت أخيراً

أونت يا فوستا لا تخسرين شيئاً بانتظارها وسافتش إيطاليا واسبانيا وفرنسا واذهب إلى الجحيم إذا اقتضت الحال لكي أجدك وأبلغك هذه البشرى القاتلة » .

أما كونسيني ورجاله فانهم كانوا يعملون بهمة ونشاط حتى تمكنوا من فتح إحدى النوافذ ودخلوا الغرفة وهي مطبخ واسع كثير النظافة والاتقان وله بابان أحدهما خشبي والثاني زجاجي فتقدموا منه رفتحوه ودخلوا غرفة المنامة .

وفي الحال ظهر وجه صاحبة المنزل السيدة كولنيكل فانها رفعت ستائر السرير ولما ابصرت الاربعة الرجال في غرفتها بدت عليها أمارات الذعر العظيم وأرادت الصراخ والاستنجاد ولكن كونسيني كان أسرع منها فانه قفز نحوها وأزاح ستائر السرير تماماً وقال لها :

— إذا صرخت أو حاولت المقاومة اقتلك بهذا الخنجر أما إذا سكت وطاوعت أعطيك هذه البدرة فاختاري ما تحبين !

— ولما رأت صاحبة المنزل هذا الرجل المقنع هاجماً عليها بخنجره وسمعت صوته الجهوري وتهديده لها .

أغمضت عينيها وقلبت رأسها على الوسادة وقد كاد يغمى عليها وسألته العفو عنها .

ولم يكد كونسيني من قوله لها اختاري ما تحبين حتى خطفت البدرة من يده كأنها مجذوبة بمغناطيس غريب فدهش من مهارتها وجرأتها فاقترب منها كاركان وقال لها ساخراً :

— تكرمي أيتها السيدة المحترمـــة بالنهوض من سريرك بعجلة لأننا لا نريد اضاعة وقتنا سدى وليس الصبر من شيمنا .

فهمست العجوز قائلة بعد أن نزلت عن سريرها .

— لا أخالكم تريدون خطف هذه الانسة المسكينة .

— سناخذها معنا في الحال .

— رباه إذا فعلتم ذلك فما الذي يطرأ علي بعدها أيها السادة؟ أنكم بخطفها تقضون عليّ بالخراب أو بالاحرى بالموت لأني لا أقوى على الحياة إذا غادرت منزلي .

— كفى ثرثرة أيتها العجوز واعلمي بأنك إذا لم تلتزمي الصمت اغمد خنجري في صدرك بدلاً من الذي وعدتك به .

فصعدت إلى الطابق الأعلى وتبعها الرفاق فوقفت أمـــام غرفة الانسة برتيل وقرعت بابها ونادتها باسمها فأجابتها واجمة:

— ما الذي تريدينه مني أيتها العزيزة ؟

— أرجو أن تفتحي لي بابك يا سيدتي فاني مريضة للغاية .

— وهل مرضك شديد إلى هذه الدرجة ؟

— يخال لي اني سأموت فبربك افتحي لي بابك لئلا أظـــن انك غير واثقة بي . !

ورغماً عن عدم ثقة الانسة برتيل بصاحبة المنزل فقد تغلب كرم خلقها وجودة طباعها فذهبت إلى خزانتها وأخذت منهـــا خنجراً صغيراً أخفته في صدرها وعادت إلى الباب وكأن شعورها الخفي كان يدلها على خطر عظيم إذا هي فتحت الباب وقالت لها:

— لقد فتحت باب منزلك إلى الاغراب في هذه الليلة

– وهل كنت أستطيع مخالفة أوامر الملك يا سيدتي ..؟ آه يا رباه كم أتألم الآن فبربك افتحي لي بابك .

وكان العذر الذي قدمته مقبولاً في حد ذاته إذ لم يكن من وسيلة لمخالفة أوامر الملك خصوصاً في ذلك العهد ولكنها تغلبت على عاطفة الشفقة التي بدأت تشعر بها وقالت :

– لعلك تعمدت خيانتي هذه المرة أيضاً وأدخلت بعض الاشقياء إلى منزلك .

– اقسم لك يا سيدتي باعز الاشياء علي اني لوحدي وليس معي أحد فهل تتركيني أموت عند بابك من فرط ألمي .

فلم تقو الفتاة هذه المرة التغلب على عواطف شفقتها لأن تلك العجوز الداهية خدعتها بمكرها فندمت لسوء ظنها وحسبت ذاتها مخطئة لتسلحها بالخنجر فقالت لها :

– معاذ الله أن أدعك تتعذبين يا سيدتي بيد اني إذا أصبت بمكروه تكونين مسؤولة أمام الديان الاعظم .

فتحت الباب بكل سكينة وقد قبضت بيدها اليمنى على خنجرها ولكنها لم تكد تفتحه حتى قبض عليها ذراعان قويان فصرخت صوتاً عظيماً ولكن خاطفها القى على رأسها رداء كبيراً ليمنعها من الصراخ واحبت استعمال الخنجر الذي كان معها غير أن خاطفها حملها بقوة بين ذراعيه ونزل السلالم .

ثم وضعوا الانسة برتيل في المحفة ووقف كونسيني أمام باب المحفة ورفع قبعته عن رأسه وقال لها باحترام زائد .

– إذا تكرمت يا سيدتي بمحادثتك بضع كلمات يهمك سماعها .

فأجابته باستهزاء واحتقار قائلة :

أراك تتكلم كالنبلاء ولكنك لست منهم .

فصعق كونسيني لهذه الاهانة وأراد الرد عليها ولكنها لم تدع له مجالاً للكلام بل اردفت حديثها بقولها :

– أن النبيل الذي يستحق حقيقة هـذا اللقب لا يتدانى لاستعمال العنف مع الفتيات وإذا كنت صادقاً في قولك وانك تعتبر رغائبي بمثابة أوامر فدعني أعود إلى منزلي وأنا أعدك بان أتناسى عملك .

– إنك تسألينني يا سيدتي الامر الوحيد الذي لا أستطيع منحه لك في الوقت الحاضر على الاقل .

– لقد قلت لك إنك لست من النبلاء وكنت صادقة في حكمي إن أعمالك تنم على أخلاقك فأنت الان القوي وانا الضعيفة فافعل بي ما تريده لأني لا أتدانى لمناقشتك الحساب عن أعمالك

– أرجوك يا سيدتي أن تتنازلي لسماع ما أريد قوله لك فأنت لا تعرفين بل لا يمكنك أن تتصوري مبلغ الحب الذي أشعر به لك منذ اليوم الذي رأيتك فيه للمرة الأولى ولا تعلمين باني أصحي الليالي ساهراً وأنا أردد اسمك اللطيف المحبوب .. نعم لست انكر اني أستعملت معك الخديعة والعنف وتنازلت الى عمل بشين النبلاء ولكني علمت عن يقين أن خطراً عظيماً يتهددك فلم أرى غير هذه الوسيلة لتخليصك وأنك وايم الحق

ظالمة بتوجيهك الملام والاحتقار لي لأني اقسم لك يا سيدتي باني لم أشعر في حياتي بحب مثل هذا الحب الصادق الذي أشعر به نحوك .

– أريد أن أعرف منك أمراً واحداً فقل لي هل أنا حرة في أمري أم مقيدة بارادتك .

– بل أنت حرة يا سيدتي وإذا شئت العودة إلى منزلك فافعلي ما تريدينه ولست اسألك مقابل ذلك إلا أمراً زهيداً في حد ذاته وهو أن تلقي علي نظرة تكون أقل قساوة من نظراتك الحاضرة وتقولي لي كلمة واحدة تبعث الأمل في فؤادي ولا أظنني مغالياً في هذا الطلب .

– لقد شفعت خديعتك وعنفك بالاهانة أيها السافل

– تقولين اني سافل فليكن قولك وسأعمل عمل الاسافل

وكانت الفتاة مديرة له ظهرها وأنقض عليها وكممها مرة ثانية قبل أن تتمكن من ابداء أية حركة للدفاع عن نفسها وصرخ برجاله قائلاً :

– سيروا إلى حيث تعلمون .

فتحركت الحفة يخفرها الثلاثة رفاق وسيوفهم مشهرة في أيديهم ومن خلفهم كونسيني الذي انقلبت ملامحه وتقطب جبينه بتهجم زائد وأخذ يناجي نفسه بقوله :

– لقد قلت عني سافل أيتها الحسناء ولكني سأدعك تذرفين بدل الدمع لاهانتك أياي بمثل هذه الجرأة .

الفصل الثالث عشر

انقاذ برتيل

واخذوا يسيرون في الجهة المؤدية الى نهر السين وكان ساتيا قد خرج من مكمنه ولحق بهم .

في تلك اللحظة ظهر فارس من الجهة المعارضة كان يسير بعجلة وهذا الفارس هو جوهان الشجاع عائداً الى منزله فوقف برهة تحت شرفة الآنسة برتيل وكان شعوره قد دله على خطر مداهم فنظر الى ما حوله بدقة زائدة كأنه يتفحص المكان وقد شاهد عن بعد الجمع الذين كانوا يحدقون بالحفة ولكنه أدار عنهم بصره بغير مبالاة وعاد الى قرب المنزل الذي تقيم فيه الحبيبة فلم ير ما يدعو اهتمامه أو يوجب تخوفه بل مدت أمامه السكينة التامه فبقي برهة جامداً في مكانه وهو لا يفارق الشرفة بنظره ثم تنهد تنهداً عميقاً وفتح بابه .

وكان على يقين تام بانه لم ير من أحد ولكنه لزيادة الحرص القى على ما حوله نظراً دقيقاً وبعث بطرف أنامله قبلة خفية

إلى المنزل الذي أودع فيه فؤاده وأخذ يرتقي الدرجات اربعاً اربعاً كأنه اللص يحاذر أن تقبض عليه الشرطة وهو متلبس في جريمته .

أما كونسيني ورجاله فظلوا مواصلين سيرهم حتى وصلوا إلى الجسر الحديدي فاجتازوه ومروا عن يسارهم وهم يقطعون العطفات الضيقة التي يصادفونهـــا في طريقهم حتى وصلوا إلى طريق في منتهى الضيق كانت تدعى شارع الفئران وهي تؤدي إلى شاطئ النهر .

فجاء كونسيني برجاله وبخفته ووقف أمام أحـد الابواب وقرعه قرعاً متفق عليه وفي الحال فتح له فدخله بعد أن خلص برتيل من وثاقها وكامتها ووضعها في غرفة أنيقة الرياش بديعـة الانتظام فابدى أشارة من يده وفي الحال ابتعد الثلاثة الرفاق ولكنهم لما يتلقوا الاوامر بمـا يجب عليهم عمله وظلوا في المنزل منتظرين الاوامر . ثم التفت إلى برتيل ومد لها ذراعيه وقـال لها بصوت متهدج .

أصغي إلى ما أقوله لك أيتها الفتاة فأنت لا تعرفين من أنا وأني أستطيع أن أجعلك أسعد فتاة في العالم فتحسدك كل نساء المملكة على النعمة التي حصلت عليها فاني غني وقادر وفي أمكاني أن أضع تحت أقدامك الجاه والثروة فتحصلين على اثمن الجواهر وأفخر الحلى وتقيمين في قصر دونه قصـــور الملوك وتأكلين أفخر الاطعمة بطباق من ذهب وتتنعمين بنعم القصور .. كل

ذلك أقدمه لك لقاء نظرة واحدة فهل تقبلين مني مـا أعرضه عليك .

ـ أني أفضل أن أبقى مرتدية الاطهار البالية واقتحم الموت إذا اقتضى الامر على العار الذي تعرضه علي بمثل هذه الوقاحة .

ـ وهل بلغ بك كرهي إلى هذه الدرجة ؟

قال هذا وتقدم نحوها خطوتين فحسبت أنه يريد الهجـوم عليها ورفعت ذراعها مهددة .

ـ إذا تقدمت إلى الامام فانت هالك لا محالة .

ـ من يراك وأنت بهذه النحافة لا يعتقد قط ان فيك روح الجبابرة الابطال ولا اكتمك الحق بان هذه الوقفة تليق بـــك أكثر من عادتك وزادتني شوقاً اليك .

فكري فيما اقترحته عليك إذ لا يمكن ان اسبب لك مثـل هذا الكره العظيم او انك تعشقين سواي .

ـ وإذا كان الامر كذلك فماذا يعنيك مني ؟

ـ حذار لنفسك

ـ ما الذي أخافه منك فأنا في قبضة يدك وتراني لا أرهب جانبك .

ـ ولكن استطيع سحق عاشقك .

ـ كفاك أدعاء كاذباً فهو لو ظهر أمامك لهربت كالارنب وما جسرت على الوقوف بوجهه .

ـ لعله أحد الاشقياء إذ لا يليق بمثلك غير الشقي .

– بل هو أشرف وانبل وأشجع رجل وجد على سطح الغبراء ولو درى بأمرك معي لكان أذاقك طعم يده الثقيلة .

لا بد لي من تمزيق فؤاده بيدي وسأشويه على نار خفيفة وهو على قيد الحياة .

– صدقت فانك تحسن تمثيل دور الجلاد .

– بل أريد أن أراه جاثياً أمامي يسألني العفو والرحمة والويل الك وله .

– انه لا يخشاك ولا يخاف من أحد في العالم فهو الشجاعة المجسمة والجرأة التامة وقد لقبوه بحق بلقب الشجاع .

– ماذا تقولين ؟ اعيدي اسمه فقد قلت انه يلقب بالشجاع فهل هو جوهان الشجاع .

– أجل هذا هو اسمه .

– حقاً ان هذه الحكاية مضحكة للغاية فهل تعرفين ايتها الحسناء من هو الذي تفاخرين به وتزعمين انه مثال للشجاعة والمروءة انه لص قاتل وقاطع طرق .

– كذبت .

– بل انت واهمة ولم اذكر لك غير الحقيقة فهو في خدمتي .

– اذا كان الامر فهو الخادم المطيع المنفذ أوامر سيده والعار يعود برمته عليك لانك انت الذي تأمره وتعطيه اجرته لينفذ اوامرك فانت القاتل الحقيقي وليس هو ومع ذلك فلست أصدق ما تدعيه بل انت كاذب .

– إذا كان قول الرجل النبيل لا يكفي لاقناع خليلة الشقي فهي تريد شهادة رفقائه الذين على شاكلته فليكن ما تريدين .

وأخذ صفارة كانت معلقة في عنقه وصفر فيها ثلاث مرات وبعد قليل اقبل كركان واسكركاس وكرنكايل ووقفوا أمام مولاهم كالاصنام فسألهم من غير ان يلتفت اليهم .

– ما هو اسم رئيسكم .

– فتناظر الرفاق مذعورين لهذا السؤال وقال احدهم متردداً .

– مولاي . نحن . لا . .

– أجيبوا في الحال ما اسم رئيسكم .

– جوهان الشجاع

– وما الذي يعمله في خدمتي

– انه يؤدي ذات خدمتنا .

وكان كونسيني محدقاً بالآنسة برتيل لا يفارقها ببصره فأبدى اشارة الى الرفاق لينصرفوا فلبوا أمره في الحال فكتف يديه على صدره وقال لها بتهكم .

– لقد سمعت ما قاله الرفاق الذين خطفوك وجاؤا بك الى هنا فهل اقتنعت بما قلته لك ؟

– كلا .

– ما قولك أن اريتك أياه رأي العين ؟

– أقول ان عيناي قد خدعتاني ولا أصدقهما .

– إذا رأيت جوهان الشجاع مساقاً إلى ساحة الاعدام والجلاد ليسكب الرصاص المذاب في جراحه الدامية وإذا رأيته معلقاً باربعة خيول تمزق أعضائه وإذا شاهدت جسده طعاماً للخنازير فهل تصدقين ؟

– لست أجهل ان بالامكان الحكم على الابرياء بالطرق السافلة وأنا على يقين من انك لا تحجم عن اية سفالة لادراك غايتك ولكني اعرف ايضاً ان جوهان لا يؤخذ غيلة .

– هذا هو وجه خطائك ايتها الحسناء ولازيدك بياناً اخبرك بانه صار الآن قيد السجن وبعد بضعة أيام يعاني القصاص المعد للخونة أمثاله .. قال هذا وتقدم نحوها فدفعته قائلة :

– قف في مكانك ولا تتحرك منه !

– امرك أيتها الحسناء الجميلة ولست اسألك إلا المجاوبة على اقتراحي ؟

– سألتني إذا كنت اكرهك فأجاوبك اني اكرهك واحتقرك وافضل الموت على ملامستك .

– رغماً عن عواطفك ضدي فستكونين لي !

وهجم عليها فرفعت ذراعها وضربته بخنجرها ضربة شديدة ولكنه كان يراقبها وقد استعد لهذه الطعنة فقبض على ذراعها النحيف بيديه القويتين ولواه فسقط الخنجر من بين اصابعها وصرخت صوتاً عظيماً دل على يأسها فدفع الخنجر بقدمه وقد تهيجت كل عواطفه البهيمية وأخذ يجمجم قائلاً :

– يا لك من حمقاء مسكينة حسبت انك تستطيعين التغلب علي ولكنك ستصيرين رغماً عنك .

فرجعت برأسها إلى الوراء لتجتنب ملامسة فمه الدنس لوجهها وأخذت تضرب بيديها النحيفتين يمنة ويسرة وهو يزيد في ضغطه عليها ويدفعها إلى الحائط .

وعندما شعرت المسكينة بان قواها أخذت تخور ولم تعد تقوى على هذه المطاردة الغريبة أخذت تصرخ قائلة :

– إلي يا جون تعال وخلصني ؟

وخيل لها انها تسمع صوته من بعيد يقول لها لبيك اني أت لانقاذك ايتها الحبيبة .

واستجمع كونسيني قوته وتمكن من رفعها عن الأرض وأخذ يسير بها نحو السرير وهو شبه بالوحش الكاسر الذي يقبض على فريسته ويفتح فمه لالتهامها وجعل يقول لها :

نادي عشيقك ما شئت فهو الآن في اعماق السجون ولا يخرج من حبسه إلا ليقاد إلى ساحة القتل .

ولم يكد ينتهي من قوله حتى اصيب بضربة شديدة على قفاه القته على وجهه وسمع صوتاً جهورياً يقول له :

– أخطأت يا كونسيني فاني لست في السجن بل هنا لاناقشك الحساب .

وكانت الضربة التي أصابت نديم الملكة قوية إلى درجة كادت تلقيه على الأرض لو لم تمسكه يد قوية في الوقت الملائم ولكنه لم

يستطع السكوت فصرخ صوتاً دل على المه الشديـــد وفتح ذراعيه ففرت منه فريسته وأسرعت لتحتمي بين يدي منقذها وقبل أن يعود كونسيني إلى رشده قلبه جوهان الشجاع على ظهره بشدة وصفعه بيده القوية على وجهه صفعة ألقته صريعاً وقد أغمي عليه .

★ ★

الفصل الرابع عشر

القبض على كونسيني

التفت جوهان الشجاع نحو الفتاة وقال لها بلطف لا مزيد عليه .

لا تخافي شراً يا سيدتي .

فرفعت نحوه بصرها وقد بدت في لحظاتها أمارات الشكر والامتنان وقالت له مترجمة عن حبها واخلاصها .

– لم أعد خائفة الآن .

وأثر عليها التعب والجزع فاغمضت عينيها وأغمي عليها ولم تلبث قليلا وأخذت قواها تعود لها تدريجياً فتبسمت لمخلصهـا الذي كان واقفاً أمامها خائفاً وللحال سمع بغتة أصوات أقفال على مقربة منه فالتفت الى ورائه فلم ير كونسيني وتأكد بانه هو الذي حرك الاقفال بعد ان انسل من الغرفة فاقتربت منه الفتاة بجزع وقد كبر عليها الوهم ودلته على الباب الذي دخل منـــه وهمست قائلة :

— فلنهرب .
فتبسم ابتسامة دلت على مزيد طمأنينته وقال لها :
— لم يبق ما تخافينه ما زلت قريباً منك .
وبينا كان العاشقان يتأملان بعضهما باعجاب عـاد كونسيني إلى وعيه فتصور في بداية الامر انه مستيقظ من حلم ثقيل ولكن الحقيقة لم تلبث أن تبادرت إلى مخيلته وأحس بألم شديد عـلى خده من قوة الصفعة التي أصابته فادركانه كان في يقظة فاتقدت عيناه واحمرتا كالدم وتشنجت أصابعه على قبضة سيفـه وناجى نفسه بقوله :

— لا .. لا .. فأنا اضمر له انتقاماً افظع من هذا بل أريد أن أراه يموت ببطء وان يذوقه العذاب الذي لا يطاق وما علي الآن إلا ان اخرج من هذه الغرفة .
ولم يكن اسهل عليه من الخروج من الغرفة التي كان فيها ويقفل من خلفه الباب الذي خرج منه لأن العاشقين كانا منهمكين بامرهما ولا ينتبهان اليه وكان الباب الذي دخل منه جوهـان الشجاع يؤدي إلى غرفة للزينة لها باب يتصل بغرفة ثانيـة فقفز كونسيني نحو هذا الباب وقفله بعنف وكانت هـذه هي الحركة التي سمعها جوهان الشجاع .

ولما اصبح كونسيني في مأمن على نفسه لم يعد يخشى سماع صوته أو حركته فضحك ضحكاً عالياً وزمجر قائلا :
— لقد قبضت عليهما الآن .

وقبل أن يتمكن من الالتفات إلى أحدى الجهـات شعر بيدين قويتين تقبضان عليه وتمنعانـه عن كل حركة وفي ذات الوقت نزع منه سيفه وخنجره وطرحها في الجهة الثانيـة من الغرفة .
فذعر كونسيني وصرخ صوتاً رهيباً ليس لخوفه بل لانـه توهم ان انتقامه الذي كان يود أن يشتريه بدمه سيفلت منه .

ولما لم يبق معـه سلاح تركته الايدي الـتي كانت قابضة عليه فالتفت الى ورائه شبه الحيـوان الكاسر الذي نزع منـه فريسته ورأى اسكركاس ورفيقيه واقفين أمامه وهم يتبسمون ابتسامة غريبة وينحنون أمامه باحترام لا مزيد عليـه وسمع اسكركاس يقول لهم بتهكم .
— عجباً أيقضي مولاي مصالحه بيده ونحن وقوف لخدمته؟
— لماذا لم يستدع مولانا خدمة المطيعين لتأدية هذه المهمة البسيطة ؟
— لعله أضاع صفارته .
فكاد كونسيني يجن لسماعه هذا التهكم وصرخ قائلاً :
— اتجسرون ايها اللئام على مخالفتي وانتم تعلمون ...
— انصحك أيها السيد بان لا تهيننا لأننا اذا كنا في خدمتك ولم تر منا حتى الآن غير الصدق والامانة فيحق لنا ان ننـال منك بعض امتيازات .
ورأى كونسيني عيونهم تتقد بالغضب وقد كادت تخرج من

ارقابها فتأكد ان حالته قد زادت حراجة ومع ذلك لم يستسلم لليأس بل قال لهم بمزيد العظمة والخيلاء .

— حذار لما تقولونه وما تعملونه إذ لا بد لي من ان انالكم في أحد الأيام إلا اذا قتلتموني الآن .

— ان القتل لا يقدم عليه إلا كبار القوم او بالحري من كان مثلك أيها السيد كونسيني اما نحن فنترفع عنه .

— إذن ما الذي تطلبونه مني ؟ وهل تعمدتم خيانتي بعد ان اغرقت عليكم نعمي وشملتكم بعنايتي وحمايتي ؟ الويل لكم أنكم تخونون مولاكم لاجل فتاة لا تعرفونها ولأجل شقي لا أصل له ولا فصل وسيكون فريسة الجلاد وإذا بقيتم على أثره فسيأتيكم يوم تذهبون معه الى المشنقة فما الذي طرأ على عقولكم وغيرها !

عودوا إلى الحقيقة ايها الاغرار واعلموا ما يجب عليكم عمله ... لقد اشفقت عليكم وأريد العفو عنكم وان اتناسى تعمدكم أهانتي وتهديدي واسألكم إذا كنتم تقبلون ان تكرسوا لي ساعة واحدة من حياتكم تطيعونني فيها طاعة عمياء بكلما أمركم به ولقاء ذلك امنحكم ثروة طائلة تقيكم شر العوز باقي ايامكم فجاوبوني سريعاً على سؤالي

فتجهمت ملامح الرفاق وسكتوا برهة وهم يتشاورون بالنظر وهمس احدهم قائلا :

— ما هو المبلغ الذي تعطينا اياه ؟

— أعطيكم مائة الف ذهب تقسمونها فيما بينكم فما رأيكم؟

لقد أجبنا طلبك يا مولانا بالقبول .

— وسنخصك مدة ساعة واحدة نطيعك طاعة عمياء ولكننا نطلب منك دفعة معجلة على الحساب لنثبت الاتفاق .

وفي الحال مدوا نحوه أيديهم كمخالب العقبان فمد كونسيني يديه بعجلة إلى جيوبه وبعد أن فتشها ولم يجد فيها شيئاً همس قائلا :

— لم يبق معي شيء من المال فقد اعطيت كل ما كان معي الى تلك الساحرة اللعينة .

— لسنا نتطلب الكثير فانا اكتفي بهذه السلسلة الذهبية المعلقة في عنقك وأنت ما الذي تريده يا اسكركاس ؟

— أنا اكتفي بالعقد الجميل الذي معه فماالذي تتمناه ياكركان

— اشتهي ان أرى إذا كان الخاتم البديع الذي يسطع في أصبع مولانا يليق بمن كان مثلي التختم به .

وكان كونسيني يعطيهم الحلى التي يشتهونها من غير تردد ولم يتأثر من معاملتهم له بهذه الطريقة بل اعتبر ذلك دليلا ساطعاً على صدق نياتهم وأنهم لا يضمرون له الخيانة وحسب ذاته سعيداً لادراك مآربه بمثل هذا المبلغ الزهيد لأنه لم يكن ينوي انجاز وعده لهم بإعطائه لهم المال الكثير .

وبعد ان زودهم بتعلياته ختمها بقوله :

— اوصيكم بالمحافظة على جلده لأنه عزيز علي كثيراً .

— لا بدع في ذلك فقد دفعت ثمنه مائة الف ليرة ذهب

– ويجب ان تقبضوا عليه وهو في قيد الحياة .

– أمرك يا سيدي وذلك ما يسهل علينا مهمتنا .

– زدني إيضاحاً فقد كنت احسب الامر بالعكس .

– ان عدم ادراك سيدي ما نقوله يثبت باجلى بيان أنه من النبلاء الذين لا يحسنون القيام بخيانة صغيرة .

– لم افهم ما تريده فزدني بياناً .

– لنفترض اننا اصبحنا اصدقاء لمولانا وقد جئنا لزيارتـه ووضعنا سيوفنا وخناجرنا على هذه الطاولة (ووضعوا سلاحهم على الطاولة كما أشار اسكركاس لتزيل شكوكك بنا فاتقدم منك مع كرنكايل ونمد اليك ايدينا باخلاص تام فتضع في يد كل منا احدى يديك) فلم يعطه كونسيني يده كما طلب منه بل تراجع إلى الوراء فنأخذهما رغماً عنك ونقبض عليك .

وفي الحال لف على معصم كونسيني حبلامتيناً فأخذ يصخب ويشخط ويزبد من فرط غضبه غير ان كل مساعيه لخلاص نفسه ذهبت ادراج الرياح واردف اسكركاس حديثه قائلا :

– لا تبتئس يا سيدي فقد اردنا ان نريك كيف نقبض عليك وبعد ان ننتهي من الايدي يأتي دور الذراعين والرجلين ثم نلفك بهذا الرداء الكبير الواسع لنمنعك من أية حركة ونضع في فمك هذه الكمامة الصغيرة حذراً من صراخك ثم نحملـك بلطف وندخل بك الغرفة .

وكانوا يخرجون كل حركة يقولونها الى حيز العمل وهم

يضحكون مسرورين من نجاحهم وكونسيني المسكين يتلوى بين أيديهم الى كل الجهات ولا يجد سبيلا للخلاص .

– ثم نطرحك على هذا السرير ونقول لك

وكانوا قد وقفوا باسيرهم أمـام جوهان الشجاع فحيـوه باحترام وقال اسكركاس .

– هذا هو السيد كونسيني الذي كان يريد ان يقبض علينا وعليك يا جوهان الشجاع ويسلمنا الى ايدي الجلاد قد قبضنـا عليه وجئنا به اليك ولو لم نكن احيل منـه لكان تمكن من إيذائنا بكل سهولة .

الفصل الخامس عشر

منزل باردليان

لم يحاول جوهان الشجاع منذ فارقه كونسيني ان يسترجع حريته بل ظل واقفاً أمام الفتاة التي احبهـا اكثر من نفسه وهو يتبسم لها بلطف .

ولما رأت برتيل سكينته والدهشة وعدم مبالاته بالاخطار المحدقة به وقفت بجانبه بثبات تام وقد وثقت به كل الثقة .

وحينئذ دخل الرفاق الغرفة التي كانوا فيها ثم شكر لهم جوهان جميل صنعهم وخرجوا ثم التفت جوهان الى الفتاة وقال لها برقة متناهية .

– انك لا تستطيعي العودة الى منزلك إذ لا تكونين في مأمن فيه فالى اين تريدين ان اتشرف بالذهاب معك .

– لست ادري لاني لا اعرف احد في هذه العاصمة الكبيرة ولا استطيع الثقة باحد .

تعجب جوهان من هذا الجواب ولكنه لم يظهر على نفسه

شيئاً من التعجب وإدرك في الحال ان ولادتها محاطة بسر عميق فلم تطلب منه اخذها الى ابيها لتيقنها استحالة ذلك وان هذه الفتاة التي هي ابنة ملك لم يكن لها من مدافع عنها غيره وهو الشاب المسكين الخامل الوضيع الاصل فشعر بهزة افتخار وفرح لا يوصف .

ظل برهة مفكراً وهو يتساءل عن المكان الذي يستطيع أخذها اليه الى ان تصور انه ادرك ما يريده فقال لها بملء الاحترام .

– اذا سمحت يا سيدتي فاني اذهب بك الى شخص يستطيع ان يجد لك ملجأ اميناً ولكنني مضطر لاجل ذلك ان ادخل بك الى المنزل الذي يقيم فيه .

– فلنذهب اليه .

فانحنى أمامها بوقار وأشار بيده الى الرفاق الذين كانوا واقفين على حده وبلغهم همساً اوامره فقال لهم :

– فليقدمنا اسكركاس وكرنكايل من جسر سان ميشيل إلى شارع سان رينيس فاننا ذاهبان الى نزل الباسبار توا أما كركان فيمشي خلفنا وإذا تعرض لكم احد اقتلوه اولا وفيما بعد نحقق في أمره فهل تحملون مالا .

مد الرفاق أيديهم الى جيوبهم واخرجوها وهي مفعمة بالذهب فأخذ قبضة منها وقال للفتاة :

– إني طوع إشارتك يا سيدتي .

وظلوا سائرين حتى شارع سان رينيس وهم سكوت وقد استغرقتهم الافكار وكانت الساعة قد قرعت ثلاثاً فطرق جوهان باب النزل بطريقة مخصوصة وبعد قليل أطل رأس أمرأة من احدى النوافذ وسألته قائلة :

– ما الذي تريده ؟

– اود مقابلة سيدي الفارس لغرض هام مستعجل .

وبعد قليل نزلت فتاة كان النعاس لا يزال متغلباً عليها فادخلته غرفة صغيرة يطل بابها الزجاجي على القاعة الكبرى فطلب منها ان تضرم النار في المستوقد وبينما هي تنفذ هذا الامر خاطب جوهان حبيبته برتيل بقوله :

– سأدعك لوحدك بضع دقائق فاستريحي ولا تخافي شراً فان هؤلاء الشجعان الثلاثة سيسهرون عليك مدة غيابي الوجيزة ثم التفت الى رجاله وامرهم بأن لا يفارقوا تلك الغرفة ولا يسمحوا لأي كان بدخولها إلا للفتاة التي رأوها وأهم مما أسألكم ان تحافظوا على أقوالكم ولا تنسوا بان الاذان النائمة تستطيع سماعكم من هذه الغرفة وإذا بلغني ان أحدكم تفوه بكلمة زائدة فالويل له .

وقبل ان ينجز حديثه ظهر في أعلى السلم وسمع صوتاً يقول له :

– تعال أيها العزيز فاني بانتظارك !

– فأخذ جوهان يرتقي درجات السلالم بخفة الغزال ودخل

الغرفة التي يقيم فيها الفارس باردليان الذي كان ينتظره عند بابها والمصباح في يده ولما استوى بهما الجلوس قال له الفارس :

– لقد سمعت القرع الذي اتفقنا عليه وبما انك الشخص الوحيد العارف هذا السر علمت انك انت القارع فقمت من سريري بعجلة وقد تيقنت باني لا استطيع اضاعة وقتي سدى فقص علي ما تريده بوجيز العبارة ما جرى معه وكيف تمكن من انقاذ الفتاة التي أحبها وختم كلامه بقوله :

– لست اعرف أحداً اركن اليه فقد ولدت ولا اعرف سر ولادتي وكبرت وشبت ولم يكن عشير لي غير الاشقياء ولست أعرف من هو أبي ولا ادري إذا كنت استطيع اخذ هذه الفتاة الطاهرة الى الاماكن التي اعرفها كما لم اكن استطيع الذهاب بها الى منزلي وتذكرت عندئذ ما تكرمت بعرضه علي وقلت في نفسي انك لا تبخل بمساعدتي لذا جئتك سائلا منك حماية الفتاة التي احبها ريثما تقرر ما تريد عمله وتكون في مأمن من كل اعتداء اثيم فلا يستطيع أحد الوصول اليها حتى ولا أنا .

وكان باردليان يصغي اليه بمزيد الانتباه فقال له :

– إذن فانت تريد اجتناب من تحبها بمل اختيارك ؟

– نعم يا سيدي وهو لعمري قرار صعب علي ولكنني أفضله على سواه إلا اذا كانت في حاجة لمساعدتي افلست تشاركني يا سيدي في هذا الرأي ؟

– بلى يا سيدي اني اشاركك فيه تماماً

وتقلد سيفه على جانبه وقال له بمنتهى السكينة :

– تعالى معي .

لما رأتها برتيل داخلين الى الغرفة التي كانت فيها نهضت واقفة وعرفت في الحال باردليان وهو الفارس الذي رأته من شرفتها في ظروف لا يمكن نسيانها وكانت تجهله ولكنها سمعت الملك يذكر اسمه عدة مرات فلما ابصرته انقدت عيناها بأشعة السرور وتقدمت نحوه بلهفة كأنها مدفوعة بقوة غير طبيعية ومدت اليه يدها بلطف لا يوصف وقالت له :

– اشكرك يا سيدي من صميم فؤادي ولتباركك السماء لأنك أردت نصرة الضعيف القوي بسيفك البتار .

– لقد بالغت يا عزيزتي في قولك وجسمت الخطر الذي توهمت انه يتهددك اكثر مما يستحق .

– قليل هم اللذين يقومون مثلك على نصرة البائس ومساعدة الضعيف ويجسر على مخالفة أوامر الملك السكينة التي كنت متصفاً بها حتى ظهر الملك امامي صغير لعظمته بالنسبة اليك .. نعم ان القليلين هم الذين يجسرون على اقتحام خطر المشنقة ويقاوم عسكرياً برمته بمثل ثباتك وجرأتك وما ذلك إلا لتنصر رجلا غريباً عنك لا تعرفه لأنك تحققت ان هذا الغريب يستحق مساعدتك فانت الرجل الوحيد الذي يقدم على هذا العمل الشريف لذلك اشكرك بكل شفة ولسان لأنك تكرمت بمساعدتي ونصرة فتاة مثلي .

ثم التفت الى جوهان وقال له :

– سأذهب قبلك إذا احببت الى المكان الذي أريده وأتمكن من إيقاظ اصدقائي وأطلعهم على ما أريده منهم وبهذه الوسيلة تتمكن يا ولدي من الاستراحة قليلا لأنك تكاد تسقط من فرط تعبك واعيائك وفي أثناء ذلك نتمشى بتمهل نحو شارع الفور الذي لا يبعد كثيراً عن نزل دي سواسون فهنالك الدوق داندبلي الذي اقصده .

– اني اعرف هذا القصر الملقب بنزل الاسباني .

– هذا هو بعينه فاتبعاني اليه بعد قليل .

وانحنى باردليان باحترام أمام الفتاة وسلم باحناء رأسه على جوهان الشجاع ورفيقيه وخرج مسرعاً .

الفصل السادس عشر

ضيافة برتيل

وصلوا الى شارع الفور ولم يصادفوا أحداً من البشر حتى اذا بلغوه انتصب امامهم احد الرهبان كان الارض قد قذفته فمر بجانبهم وهو يتظاهر بعدم المبالاة بهم .

والظاهر ان جوهان كان يعرف هذا الراهب لأنه لم يكد يراه حتى ارخى قبعته على رأسه وعينيه بعجلة زائدة ووضع يده على اسفل وجهه ليستر ملامحه جهد استطاعته .

وكانت الآنسة برتيل تعرف هذا الراهب ايضاً لأنها سترت ذاتها بالرداء الذي اعطاها اياه جوهان لما ابصرته وكان الرفاق يعرفونه أيضاً فأنهم تجنبوا مقابلته أيضاً حتى ابتعدوا عنه فأخذوا يضحكون عليه ويحمدون الصدف لأنه لم يرهم .

وكان هذا الراهب هو الاخ كولار الكامل الذي رأيناه في بداية هذه الرواية وكان وقتئذ بالغاً منتهى شهرته التى حصل عليها ليس عن علمه ولا فصاحته ولا دماثة اخلاقه وفضائله بل

لمكره ودهائه فضلا عن كونه كان مدمناً على المسكرات يحب بسطة العيش والمزاح الدائم .

وسمع الملك بشهرته فأمر بان يقدموه له إذ لم يكن يوجد أحد من نبلاء المملكه وسيداتها العظام إلا ويعرفه وكانوا يتقبلونه بمزيد الترحاب في اي منزل طرقه .

ولم يقف به الامر عند هذا الحد فانه كان على أتم الجهل ومع ذلك فقد أجيز له بممارسة سر الاعتراف وكان له كثير من الزبائن ولكثرتهم كان محسوداً من رفقائه الرهبان .

أما كثرة زبائنه فقد كانت ناشئة عن كثرة مزاحمته فقد كان يجد دائماً عذراً صحيحاً ولو لافظع الجرائم واقبح الاثام فيغفرها بكل سهولة ولو كان القائم بها اعظم المجرمين لذلك كان يقصده كل المجرمين والذين تغلبت عليهم الاثام فيريحهم منها من دون ادنى عناء .

هذا هو الراهب الذي صادفه جوهان الشجاع وهو الملقب بالراهب المضحك .

★ ★ ★

وقفت الجماعة أمام منزل حسن المظاهر يعلو بابه الخارجي رأس ثور كبير منقوش على البلاط الرخامي ويحيط به عدة رؤوس من الثيران اصغر منه فقبض جوهان بيده على مطرقة الباب التي كانت تمثل رأس ثور أيضاً وقبل ان يقرع الباب أمر

رجاله بان ينصرفوا ويستريحوا لأنه لم يعد في حاجة لهم .

ثم دخل جوهان وبرتيل الحسناء الى حيث كان يقيم الدوق والدوقة داندبلي اما الدوق فكان رجلا يناهز الاربعين من عمره وقد تغلب عليه وهو حاد البصر وضاء الطلعة تدل ملامحه على معنى الشرف المتجسم .

وكانت الدوقة قد تجاوزت السنة الثلاثين من عمرها وهي بديعة الجمال يزين شعرها الاسود الفاحم المنسدل على كتفيها وهما من أصل اسباني ولكنهما اقاما منذ مدة طويلة في فرنسا فاصبحا يحسنان لغتها ايمان احسان .

وكان البهو الذي يقيمان فيه مفروشاً برياش أنيقة ليس ابدع منها فاستقبلا الشاب والفتاة بمنتهى الترحاب كأنهم من السلالة المالكة وما ذلك بمقتضى وصية الفارس باردليان الذي كان يحترمانه احتراماً زائداً لانهما لم يستقبلا ضيوفاً بمثل هـذا الاكرام .

وتأثر جوهان للغاية من هذا الاستقبال الباهر الذي لم يكن يتوقعه وقد سرته طلاقة الدوق سروراً لا يوصف فأخذ يحادثه من غير تكلف كأنه احد اقربائه وكان باردليان ينظر اليه من طرف خفي وهو مسرور لأنه ذكره أموراً لم يكن يعرفها سواه .

وتقدمت الدوقة للقاء الآنسة برتيل التي انحنت أمامها باحترام وارادت ان تندفع بشكرها ولكنها لم تمكنها مما

ارادت بل انهضتها بعجلة وضمتها إلى صدرها وأخذتها الى الغرفة التي خصصتها لها .

ثم الحت على ضيفتها ان تتناول شيئاً من الطعام فأجابتها الى طلبها شاكرة لها حسن اهتمامها وعنايتها .

فأجابتها الدوقة قائلة :

— ان الكثير الذي اعمله معك هو أقل من القليل بالنسبة للذي جلبه بك الى هنا واكراماً لك أكون بمثابة والدتك واعتبرك ابنة لي لأن الله لم يمنحني نعمة الامومة .

وسأطلعك على سري فيما بعد أما الآن فـاذا كنت تعتبرين ذاتك مقيدة نحوي بشيء من عواطف الشكران ارجوك ان تبقي لي ذلك باظهار حبك لي كما بت أحبك .

وأراد جوهان ان يشكر بـدوره الدوق على مـا فعله من جميل وما اسداه اليه والى حبيبته من المعروف فقـال له الدوق بصوت رزين :

— لست مديوناً لي بشيء بل أنا مديون بشكرك فاعلم بان حياتي وشرف الدوقة التي احبها أكثر من حياتي من نعم وافضال الفارس باردليان وليس هذا فقط فانه مصدر ثروتي وسبب نعمتي ولولاه لما احرزت اللقب الذي احرزته وقد مرت علي عشرون سنه وأنا اتمتع بخيره وأنعامه .

أما الأمر الذي تجهله فهو مبلغ العذاب الذي عاناه والاخطار الهائلة التي اقتحمها والتي تفوق الوصف ولا يصدقها العقل وذلك

ليمكنني من التمتع بالسعادة التامة خلال هذه العشرين السنة وسيأتي يوم اقص فيه عليك خبر العراك الهائل الذي قام بهذا الرجل الرهيب الذي لم يكن يعتمد على غير قوته وليس له ثروة أو أصحاب يؤيدونه بل كان كل اعتماده على قوة ذراعه وصدقه واستقامته فقاوم المكر والخديعة والظلم والدهاء والتوحش الغريب الذي كان ممثلا بشخص الاميرة فوستا وملك اسبانيا وديوان التفتيش وسأخبرك كيف خرج ظافراً من هذا العراك الذي لم تكن فيه نسبة بين القوتين ولو كان سواء لما ناله غير الموت والهلاك وستسمع أدهش حكاية روتها أساطير الاقدمين .

وقد مرت علي هذه العشرين السنة ولم يمر يوم واحد إلا وسألت ان يمنحني النعمة لاتمكن من خدمته بدوري ولو مرة واحدة في حياتي وأكون قد قمت بأقل واجباتي نحو هذا الرجل الذي ليس له مثيل على سطح الغبراء. ولكنه لم يسألني في حين من الاحيان شيئاً من الاشياء .

ففتح باردليان احدى عينيه وقال بمنتهى السكينة :

— لم اسألك خدمتي أيها الدوق لأن الظروف لم تساعدني على ذلك أما الآن يا دون سيزار فقد طرأت هذه المناسبة فكنت أول من فكرت له .

— وهل يعتبر ما تطلبه مني خدمة يا سيدي ؟

ثم التفت الى جوهان الشجاع وقال له :

— مهما تكن هذه الخدمة طفيفة في حد ذاتها فانها تسبب لنا سروراً لا يوصف وبما انك انت السبب في هذا السرور الذي ألم بنا فأنا مديون لك بالشكر ويسرني ان اقوم نحوك ما عجزت عن تأديته فيمكنك أن تعتمد علي في كل امر وتعتبرني اخلص الاصدقاء وأوفاهم .

وأقبلت في تلك اللحظة الدوقة وقالت :

— أما أنا فارجوك ان تعتبر هذا المنزل كمنزلك الخاص وان تتذكر اننا نقبلك فيه دائماً كأعز الانسباء المخلصين .

وشعر باردليان بالتأثر من سماعه هذا الحديث فخاطب جوهان الشجاع قائلا :

— أما انا فلست أدري إذا كانت الدوقة قد نسيت اخبارك بانها تنوي الذهاب غداً مع الدوق الى أملاكها في دانديلي وكن في راحة على الفتاة التي عهدت الى عنايتها فهي في مأمن من كل خطر وليس من أحد يعرف مقرها وكان هذا السفر مقرراً قبل زيارتنا لها واعلم بانك لا تستطيع زيارة الفتاة العزيزة الموجودة في هذه الغرفة أثناء غيابها عن القصر فانصحك بان تراها في الحال لأنه سيمر عليكما يومان ولا تريان بعضكما وليس مثل هذا الفراق أصعب على العشاق .

وانتهزت الدوقة فرصة هذا الحديث لتقول :

— لماذا لا تأتي معنا الى دانديلي أيها الفارس العزيز فتزور املاكك وتتعرف عليها .

– أية املاك تعنيها أيتها الدوقة ؟

– املاكك في مارجنسي .

– لقد نسيت يا عزيزتي جيرالد ان هذه الاملاك الواسعة لم تعد تخصني وقد اعطيتها .

– بل قل انه يسرك تبذير اموالك وتبديدها وقد سمحت باملاكك الى الفلاحين الذين ينهبونها .

– اخطأت يا عزيزتي لأنهم يشتغلون فيها فلا يمكن ان ينهبوها اما القصر فأنا على يقين بانهم يحترمونه كل الاحترام ولم يدخله أحد منهم حتى الآن .

واستولى عليه تأثر غريب لما ذكر هذه الكلمات وأخذ يناجي نفسه بقوله وهو مغمض العينين .

– هنالك ماتت عزيزتي لويزا التي انتدب وفاتها منذ اربعين سنة ... اجل فلا يدنس أحد بوجوده تلك الغرفة التي كانت تسطع ببهجتها وسحرها فيما مضى من الايام ولست اعود إلى ذلك المنزل الذي يذكرني موتها وانها لم تعد من عالم الاحياء .

ثم تظاهر الدوق سيزار بعدم الانتباه للتأثر الذي بدا عليه وخاطب جوهان الشجاع بقوله :

– اني لم اشتري املاكي في دانديلي الا لمجاورتها املاك مارجنسي .

وقد طالما عللت اماني بان يأتينا يوم ننصرف فيه الى تلك الجهات ونقضي باقي ايامنا في راحة وهناء بال ونعيش كإخوة ضمن عائلة واحدة ... ولو طاوعنا سيدي الفارس على ما نريده لرأى من اعتنائنا بامره ما ينسيه اتعاب الشيخوخة .

فأجابه بارديليان بالشكر ثم قاد جوهان الى غرفة حبيبته برتيل وأغلق بابها وعاد الى الدوق والدوقة وقص عليهما تلك الحادثة التي وقعت لجوهان مع الملك وكيفية خلاص برتيل من مخالب كونسيني الخائن .

الفصل السابع عشر

مكاشفة القلوب بالحب

لما رأت الانسة برتيل جوهان الشجاع داخلاً غرفتهـا نهضت واقفة فاقترب منها الى ان فصلت بينهما طاولة صغيرة احضرتها الدوقة بيدها ووضعت عليها زجاجـة من الخمر المعتقة وشيئاً من اللحم البارد المقدد ففاجأته برتيل بقولها :

– لولاك لكنت من الهالكات أيها الحبيب العزيز واني اسألك باعز شيء لديك ان تقص علي سبب وصولك إلى نجدتي في الوقت الملائم .

فضحك جوهان ضحكاً عالياً وقال بمزيد السكينة :

– الأمر بسيط للغاية في حد ذاته فقد كنت عائـداً الى منزلي ورأيت المحفة التي ذهبت ولكني لم أتوقع الحقيقة الرهيبة وبينما أنا كذلك تذكرت فجأة اني نسيت ...

– نسيت ان انفقد عطفه المدخل فـأسرعت بالخروج من غرفتي ونزلت السلالم اربعا ولكني لم اكد أصل الى المحل الذي

اقصده حتى رأيت أحدى نوافذه مخلوعة وزجاجها محطماً فجمد الدم في عروقي ولم أعد افكر بأمري فقفزت في الحال إلى داخل الغرفة ورأيت صاحبة المنزل ممدده على بطنها ولكني لم أعرف السبب الذي دعاها للوجود في ذلك المكان في هـذه الحالة التي رأيتها بها ولكن منظرها كان رهيبـاً للغاية لأني لم أر في حياتي وجهاً بشرياً بدت عليه امارات الخوف مثـل وجهها في تلك اللحظة فهجمت عليها بشدة وقبضت على ذراعيها وهززتها بعنف لا مزيد عليه وسألتها عنك فادركت اللعينة في الحال مقصدي ولكني كدت اخنقهـا وأنا غير شاعر بأمري فخففت قليلا من ضغطي عن عنقها حتى اصبحت تقوى على الكلام وهمست قائلة :

– لقد خطفوها رغماً عني وليس لي وحقك دخل بهـذه الجريمة فعفوك عني .

وسألتها ان تزيد في بيانها ولكنها لم تتكلم الا مرغمـة حتى أكرهها على الكلام وقد عرفت من وصفها للذين خطفـوك انهم رجالي وكنت رأيت المحفة ذاهبة في جهة نهر السين فعرفت في الحال الذي ارتكب هذه الجريمة الفظيعة والمكان الذي أخفاك فيه فتركت العجوز اللعينة في مكانها وأسرعت بالخروج من المكان الذي دخلت منه حتى وصلت الى المنزل الذي اقصده وأخذت اقرع بابه بيدي ورجلي وأنادي بأعلى صـوتي ولحسن الحظ سمع رجالي صوتي وعرفوني وفتحوا لي البـاب وعرفت منهم ما أريده فأعطيتهم التعليمات اللازمة ووصلت اليـك في

الوقت الملائم فالامر بسيط للغاية .

– صدقت ولكن يجب ان تسهر على ذاتك فلا تتعرض للاخطار ويجب ان تأخذ لذاتك كل انواع الحيطة فهم لايريدون ضياعك وهلاكك فقط بل يحاولون تلطيخك بالعار .

– وكيف ذلك ؟

– لقد زعم هذا اللئيم انك تقوم عنده بخدمة سافلة .

– اتعنين بقولك انه يتهمني باني اقتل لقاء اجرة اتقاضاها؟

– نعم .

– لقد كذب فاني اقابل الرجل المعين في رابعة النهار وأدعوه للقتال فيكون سيفي مقابلاً لسيف مثله وكثيراً ما قابلت لوحدي عدة أشخاص ومن أية جهة أتاني الموت يكون قتالي شريفاً .

– يا للهول ويا للفظاعة !

– ما هو الأمر الذي تشكين منه يا سيدتي ؟

– المهنة التي تتعاطاها. واني أعلم ان القتل دفاعاً عن النفس سنة طبيعية لا تقبل الاعتراض ولكن القتل لقاء بعض دريهمات أمر فظيع للغاية فهل لم تتعلم هذا المبدأ قبل الآن ؟

قبل انْ تجاهري بنفورك مني وكرهك لي وقبل ان تطرديني من أمامك أرجوك ان تصغي لما اقوله لك :

– ان ما ذكرته لا يعنيك قط فأنت اشرف وأنبل رجل عرفته فلا تقل لي شيئاً .

– إذا رفضت سماع قولي يثبت عندي انك تكرهينني كرهاً

عظيماً وإذا كان الأمر كذلك أرجوك ان توضحي لي افكارك وأنا اقسم لك بأني انتحر عند خروجي من هذا المنزل . !

– لماذا تريد تعذيبي بمثل هذه الاقوال ؟

– ماذا أرى ! انك تبكين ولا تطردينني من امامك فهل بقائي قريباً منك لا يخيفك !

– الا تتذكر ما قلته لك عند باب منزلي واني اموت لموتك

– رباه أذن أنت ...

– اني احبك .

– تحبينني فيا الهي هل جننت أو انا حالم ؟

– بل أحبك .

– انا .. هي .. ان ذلك مستحيل .

– ارجوك للمرة الأخيرة بأن لا تعيد أمامي اقوالا تؤلمني فانت اشرف وانبل رجل عرفته .

– بل انا مجنون :

فانحنت اليه وامسكته من يديه ورفعته بلطف عن الأرض وقالت له :

– تعال قبلني فانا خطيبتك يا جوهان .

تعال قبلني قبلني ..

الفصل الثامن عشر

كيف خرج جوهان الشجاع من تلك الغرفة التي اصيب فيها بتلك المؤثرات الغريبة التي لا يقوى على احتمالها العاشق الولهان ! وكيف ودع الدوق دانديلي وزوجته ! وكيف غادر منزلهما ! تلك أسئلة كان يعجـــز عن الجواب عليها لفرط اضطرابه .

ولم يكد يقفل الباب من ورائه حتى ارتمى على مقعد بجانب الطريق وأخذ رأسه بين يديه وظل برهة مستغرقاً في الافكار العميقة ثم رفع رأسه والقى على ما حوله نظراً تائها كأنه يريد معرفة المكان الذي هو فيه ونهض واقفاً ثم اسرع يعدو في مشيته وتمنى لو كان له اجنحة يطير بها .

وفي ذات الوقت انتصب شبح في الجهة الثانية وهو يستنـد الى الجدران لئلا يقع على الارض . .

وقد كان هذا الشبح صديقنا كولار الحامل الذي كان يتهادى

عشيته كعادة السكارى الذين لا يكون لهم من هم وهم يمشون إلا المحافظة على موازنتهم فمر من هناك وهو يتظاهر بعدم رؤية الذين كانوا يرافقون الآنسة برتيل ورفقاءها وجاء فارتمى في تلك الجهة .

وظل الراهب برهة جالساً على الارض وظهره مستنـد الى الحائط وقد شغلته الافكار العميقة الى ان خطر له ان يقـوم وينصرف الى عمله وبعد جهد جهيد تمكن من الوقوف على قدميه وسار يتهادى في مشيته حتى وصل الى دار الكبوشيين وكانت الساعة الخامسة صباحاً .

فأخذ بيده مطرقة الباب وابتدأ يقرعه قرعاً عنيفاً متواصلا ويصرخ بأعلى صوته قائلا :

– افتحوا الباب للأخ كولار المسكين فهو يكاد يموت من ظمأه .

فلما سمع البواب نداءه هرول مسرعاً لفتح الباب ودفـع الأخ كولار إلى داخل الدير وكان كولار ضاحكاً .

وأخذ الرهبان يضحكون بدورهم وهم لا يعرفون سببـاً لضحكه وشرع الرهبان يقبلون من كل الجهات ومن كل الاروقة فعقدوا عليه دائرة كان محورها .

وبينا هو كذلك صمت عن الضحك فجأة وقـــال بصوت جهوري .

– اني ظمآن وجائع .

فاقترب منه أحدهم وقال له :

– ارى يا اخي انك في حاجة الى سرير .

– اني جائع وظمآن فمتى اكلت وشربت أنام .

فقاده الراهب حتى وصلا الى سلم حجري فصعداه وبينما هما كذلك عثرت رجل الاخ فكاد يسقط الى الارض لو لم يتمسك برفيقه وابدى بيده اشارة غريبة فظهرت على الراهب الكبوشى أمارات الدهشة والانذهال وسأل الأخ السكير بلهجة دلت على مزيد الاحترام .

– إلى أين تريد ان اذهب بك ؟

فهمس الأخ كولار كلمة سرية وعاودوا سيرهما الى ان وصلا الى قبو دخلاه واقفلا الباب من خلفهما عندئذ ترك الأخ كولار ذراع الراهب الذي كان مستنداً عليه ووقف امامه ثابتاً منتصب القامة رافعاً رأسه بخيلاء .

وقد ظهر كولار الكامل بهيئته الجديدة للراهب الكبوشي بمظهر يدعو الى الانذهال والاعجاب فأخذ ينظر اليه مبهوتاً وهو لا يصدق ما يراه ولكن كولار ابدي له بيده اشارات جديدة فانحنى أمامه بمزيد الاحترام وقال له :

– ما هي أوامرك يا أبتاه

اني محتاج الى الراحة فلا تدع أحداً من الطفيليين يقترب من الباب وتعال في الساعة الثالثة لتوقظني من منامي وستنسى منذ الآن الى ان تصدر لك اوامر جديدة باني رئيسك إذ يجب ان أبقى في غرفك وعرف الجميع اني الاخ كولار .

ستنفذ اوامرك بالحرف الواحد أيها الأب المحترم .

– حسنا فاذهب الآن يا ولدي .

ولم يكد يخرج الراهب من القبو حتى خفف الأب الذي زعم أنه في حاجة الى النوم والاستراحة ودنا من الباب واصغى ملياً إلى أن بعدت عنه الخطوات ولم يعد يسمع وقعها فاقترب من الحائط وقرع عليه اربع مرات قرعاً غير منتظم ولم يلبث ان سمع من الجهة الثانية جواباً عليه .

وفتح كولار الباب والقى على الرواق المقفر نظراً دقيقاً ولما تحقق خلو المكان انسل من القبو وفتح باباً كان أمامه ودخل غرفة واسعة مفروشة فرشاً انيقاً كان فيها راهبان .

وكان أحد هذين الراهبين عجوزاً طويل اللحية تدل هيئته على لطف زائد وهو جالس على مقعد وثير بمنتهى العظمة والخيلاء

اما الراهب الثاني فكان واقفاً أمامه بمزيد الاكرام والاحترام وهو مديراً ظهره نحو الباب وكان قصير القامة نحيف البنية خفيف شعر اللحية قد خطه الشيب قليلاً وبدت على جبينه العريض تجعدات كثيرة مع انه لم يتجاوز العقد الثالث من عمره .

ولما رأى كولار هذا الراهب الذي لم يكن يتوقع مصادفته في تلك الغرفة عاود التظاهر بالسكر المضحك ورأى العجوز هذا الانقلاب السريع فتبسم ابتسامة الرضى .

ولما رأى الراهب الكبوشى القادم الجديد قطب حاجبيه والقى عليه نظرة احتقار وامتهان وأخذ ينظر الى العجوز

بانذهال ليعرف المناسبة بين ذلك الشخص العظيم وهذا المضحك السافل .

وانحنى كولار السكير أمام الراهب العجوز باحترام زائد حتى كاد يخر جاثياً عند قدميه منتظراً ان يوجه اليه السؤال اللازم ولكنه لم يكن يفارق الراهب ببصره ليفحصه بدقة .

وتبسم العجوز مرة ثانية وقال بلطف زائد وبلهجة ايطالية :

– دع تكتمك يا ولدي ومن العبث أن تزيد نفسك تعباً وعناء أن الأب جوزيف دي ترملاي ليس من طغمتنا ولكنه سيسمع حديثنا وفي هذا السماع دليل احترامي لذكائه العالي لأن ما منحته من نعمة لا أجود بها على سواه .

وخاطب الأب جوزيف دي ترامبلاي الذي كان يسمع الحديث مبهوتاً وقال له :

– لا تتعجب فهذا الراهب هو العامل الذي كلمتك عنه هو الذي سيعرف فيما بعد بصاحب النيافة الرمادية وما هو إلا مساعد المصلي في دير الكبوشيين .

– عفواً يا أبتاه فقد خدعت بامره كشولي وأنا الذي أخال ذاتي معداً لادارة مهام الناس فقد بدأت أتعلمهم وأعرفهم . كنت احسب ذاتي قادراً على الحكم على الانسان بمجرد النظر إلى وجهه فاقرأ في كفي كتاب مفتوح وقد خدعت بحيلتك العجيبة ولم أدرك كنهها فلا أزال طفلا لا اعرف شيئاً وقد القيت علي درساً شديداً قتل كبريائي ولكني لا أنساه أبد الدهر .

– نعم انك لا تزال طفلا صغيراً وما ذلك إلا لأنك خدعت

بحيلتي بل لأنك لا تزال متردداً بالانضمام الينا ولا تزال مرتاباً بقوة وعظمة طغمة يسوع .

وحدق بمخاطبه برهة يسيرة وكان يهز رأسه من حين إلى آخر كأنه يجاوب نداء داخلياً وأشار الى كولار الكامل الذي كان لا يزال واقفاً أمامه موقف الاحترام وقال :

– ان الأب كولار الذي تراه امامك هو أحد رؤساء طغمتنا المحترمين ولكنه يقوم منذ عدة سنوات بمهارة لا مزيد عليها وبدون ادنى تذمر بمهمة تجعله اضحوكة الجميع وسبباً لاحتقارهم وامتهانهم أياه وما ذلك إلا لأنه تلقى الأوامر ليقوم بهذا العمل ولم يعط له هذا الأمر إلا لخير الطغمة ولمجد الله الأعظم وقد تمكن بدهائه وذكائه وفرط خبرته من القيام بمهمته كما يجب ولا عجب إذا طمع بان يصير في أحد الأيام اميراً للكنيسة وسبباً لتفاخر العالم الرهباني به ولعل هذه الفكرة هي التي دفعته لتضحية مطامعه الشخصية وأطفأت نار ذكائه حتى صار يضرب به المثل في الحمق والبله وقد قام بذلك اطاعة للأمر الذي صدر له وان ما فعله هذا الرئيس لا يتأخر أصغر جنود المسيح عن القيام به غير اننا عهدنا اليه بهذه المهمة دون سواه لأنه كان الوحيد الذي يستطيع القيام بها .

والقى العجوز على الراهب الذي كان جامداً امامه نظرة تعطف ذهبت بلمح البصر وعادت اليه في الحال سكينته الاعتيادية فرفع رأسه بعظمة وقال :

— وأنا كلود اكوافيفا الرئيس الأعظم لهذه الطغمة الجيدة واحد حلفاء ابت الاقدس اغناطيوس دي ليولا قد وصلت الى حالة انت ادرى بها من سواك فانا اليوم الأب كلوديو المسكين الحقير وما انا الا راهب ايطالي لا ذكر له وقد قبلني هذا الدير شفقة بناء على وصيتك به وهو الآن مقتنـــع بالاكرام الذي يبذلونه له نظراً لتقدمه في العمر وما ذلك الا لأن صالح الطغمة يتطلب هذا التكتم .

ونهض واقفاً في مكانه فبدت قامته الهزيلة منتصبة كقضب الخيزران رغماً عن بلوغه السنة السابعة والستين من عمره وقـال للأب جوزيف الذي كان يصغي بمزيد الانذهال :

— قل لي أيها الأب جوزيف هل تعرف طغمة يستطيـع رؤوساؤهم ان يقدموا مثل هذه البراهين التي تدل على اخلاصهم وعدم مبالاة بانفسهم كما نفعـل نحن ؟ كلا فطغمتنا الدينيـة لا يوجد لها مثيل في العالم لأنك حيث القيت نظرك لا ترى إلا المطامع الذاتية التي لا تحصل منها فائدة تستحق الذكر .

وأخذ يمشي في الغرفة ذهاباً واياباً وقد استغرقته الافكار ثم قال بصوت جهوري :

— نعم روح التضحية الذاتية التي تراها في طغمتنـا هي التي تجعلنا ذوي قوة لا تضاهيها قوة ففي كل مكان ترى القوات منصرفة إلى نفع ذاتي وخدمة خاصة أما عندنا فالأمر بالعكس فان الالوف المؤلفة من القوات والافكار تطيـع قوة واحـدة

وإرادة واحدة وهما قوة وإرادة الرئيس الاعظم فهـو يدير الاجسام والأفكار ويديرها .

وبواسطة هذا الاتحاد الغريب تظهر القوة الضعيفة غريبة في نوعها وتسطع باجلى معاني القوة اما ذو الذكاء السامي فانــه يظل حقيراً خاملا إذا رأى استاذنا الأعظم وجوباً لذلك وفي الحالتين تكون الغاية واحدة وهي عظمة الطغمـة ومجد الله الأعظم ولذلك ترانا رغماً عن الاضطهادات والعذاب التي ألمت بنا لا نزال نقوى من يـوم الى آخر وكلما فكر اعداؤنـا انهم تمكنوا منا وصاروا على وشك ابادتنا نزداد قوة وعظمة .

ووقف برهة أمام الأب جوزيف وحدجـه ببصره ملياً وقال له :

— اما أنت فذو دماغ قوي مفكر وقد بلغت بك الشجاعة للاعتراف بهذا الامر واني امدحك على شجاعتك وقد انخرطت في السلك الرهباني لتسود على باقي البشر وتستولي على افكارهم وتقودهم بارادتك وسلطتك فقل لي ما الذي ترجوه من طغمـة الكبوشيين ؟ وبعد صمت وجيز قال بثبات وعزم .

قد تصير المصلى العام لهذا الدير وتنوب عن طغمتك الفنية ولكن ما الذي تناله بعد ذلك ! اذا كنت طامعاً بالارجوان والبرفير فقد تصير كاردينالا وتتدخل بشؤون المملكة فتصبح رئيساً للوزارة وتمسي قوياً تخضع لك كل القوات فاذا كان ذلك ما تؤمله فاعلم بان هذه النتيجة ليست السلطة بحد ذاتهـا بل هي قسم من مجاليها الكاذبة الخادعة .

وتأمله برهة ثانية وقد بدت عليه الإمارات الاستهزاء وقال وقد لطف لهجته معه .

– اسمع ما اقوله ايها الغلام فاني راهب مسكين وعجوز اثقلت كاهله السنون والقبر ينتظره من حين الى آخر فلست شيئاً مذكوراً ولا وجود لي في عين أحد من الناس ولكنني الاستاذ الاعظم لطغمة اليسوعيين .

– وانتصب واقفاً وقد بدت على وجه امارات العظمة والخيلاء وأصبح حاداً قاسياً وأردف حديثه قائلا :

– ان اسبانيا تخصني وإيطاليا ملك لي والبابا يرتجف خوفا أمامي وفرنسا برمتها خاضعة لي وما علي إلا ان أمد يدي القوية لأخضع انكلترا أيضا فاجتاز البحور بعين الخيال ليصير العالم برمته خاضعا لأمري لأن جنودي منتشرين في كل مكان ففي افريقيا وامريكا والهند العدد الوافر منهم وكلهم يأتمرون بكلمة مني انا الاستاذ الاعظم لطغمة يسوع .

ومد ذراعه الى الامام وقد ابدى اشارة واسعة كأنه يريد أن يقبض حقيقة على العالم ويضمه الى صدره الضعيف وظهر هذا الشيخ العجوز وهو في تلك الحال بهيبة مرعبة وعاود حديثه بقوله :

– اردت باشارتك التي ابديتها منذ هنيهة ان تفهمني بان فرنسا لم تدخل في حوزتي بعد الآن لأن ملكها هنريكوس الفاتح قد طردني منها ولكنه اخطأ وهمه كما اخطأ سائر الناس لأنهم طردوا من فرنسا مئة او مئتين من الرهبان المعروفين رسميا

بانتمائهم الى رهبانيتنا وقالوا في انفسهم لقد تغلبنا على الطغمة اليسوعية وظفرنا برجالها .

وضحك ضحكاً عالياً وقال :

– ولكن لقد ساء فألهم واخطأوا في وهمهم لأنهم تركوا الالوف من المنتمين الينا الذين لا يعرفهم أحد وهؤلاء اشتغلوا في السر ولم يشعر أحد بأمرهم.. لا تعجب مما تسمعه فان لنا احزاباً في كل مكان حتى في هذا الدير بل وفي كل اديرة فرنسا وشوارعها وقصورها والبلاط الملكي وهؤلاء يظلون مجهولين من الجميع إلا اذا سمحت لهم بالظهور واذا اردت الانضمام فتبقى أمام الجميع راهباً كبوشياً لذلك ارى انه يحق لي التفاخر بأني لم اغادر قط هذه المملكة وقد عدت اليها وهدمت المباني التي كانت تحاول عرقلة مساعينا ... نعم ان الملك لا يزال موجوداً ورغماً عن خوفه منا فوجوده يضايقني وقد حكمت عليه واصبحت ايامه معدودة وسيناله الموت عما قريب اما خلفه فسيكون من حزبنا لأني أصدرت الاوامر اللازمة ، لاعداده على هذا الامر . ولذلك استطيع ان اقول لك منذ الآن ان فرنسا صارت ملكاً لي لا يعارضني فيها معارض فهل اقتنعت بصحة كلامي ؟

وصمت برهة كأنه يريد من مخاطبه التفكر بما سمعه واردف حديثه قائلا :

– اما انت المفكر بالحصول على السلطة والعظمة الطامع بالسيادة المطلقة تأمل بالسرور الرجل الذي يستطيع الوصول

الى مركز يقول فيه لعظماء العالم ايها الفاتحون والملوك الذين تنحني امامهم هامات الملايين من البشر والذين اسماؤهم تسطر في سجلات التواريخ بحروف ذهبية الى انقضاء الدهور ، اعلموا بان الرجل العجوز الذي لا يعرفه احد هو الذي يدير اعمالكم وممالككم منذ اكثر من خمسين سنة ، فتخضعون لاوامره ونواهيه وانتم لا تشعرون وما هذا الرجل إلا انا وما ذلك إلا لكوني خليفة ابينا الاقدس اغناطيوس دي ليولا .

وصمت برهة وقد كتف يديه على صدره ثم اردف قائلاً :

– قل لي ما هي نسبة السعادة التي تحلم بها إلا التي ذكرتها لك ولكني اعرض هذه النعمة إذا اردت ان تصير من عدادنا فلا تجاوبني على رأيك قبل ان تفكر وتنظر وتتأمل ومتى فارقت هذه المملكة إذا لم تكن من عدادنا ولم تتعين خليفة لي فذلك لأني اخطأت الحكم عليك وانك لست الرجل الذي توسمته .

وعاود الجلود على مقعده الوثير وخاطب كولار الكامل بقوله :

– تكلم يا ولدي وقدم لي تقريرك بما عملته مع رافالياك .

اني ألاحقه يا مولاي ليل مع نهاراً ولولا معاكسة الاقدار لنا لكان قد قضى الأمر في هذه الساعة .

زدني ايضاحاً يا ولدي .

– لقد أثرت عوامل الغيرة في فؤاد رافالياك فلما وصل الى النزل ابصر رجلاً واقفاً عند بابه وحسبه الملك ولكنه لم

يكن الملك لسوء الحظ وقد ابدى حركة غريبة فلم يصبه خنجر رافالياك بل أصاب خشب الباب وانكسر من قبضته .

– ومن كان هذا الرجل !

– جوهان الشجاع

– جوهان الشجاع أي ابن فوستا فكيف وجد في ذلك المكان وهل لم يأتِ اليه الملك !

– ان جوهان عاشق مغرم بالفتاة وحبه لها يشفع بوجوده تحت شرفتها ولست استطيع افادتك اذا كان الملك قد جاء او لم يأت لأن التعليمات التي تلقيتها كانت مقتصرة على ان ابقى بعيداً عن مكان الحادثة فكنت وقتئذ في شارع سانت انطوان داخل احدى الحانات حيث تناولت الخمرة بافراط معيب وقد لحقت رافالياك بعد ذلك ولكنني لا اظنه يعلم اكثر من هذه التفاصيل .

– ان في الأمر سراً غامضا ستوضحه لي التقارير التي اتوقع الحصول عليها فقل لي هل لا يزال رافالياك مصراً على عزمه .

– نعم يا مولاي وأنا كفيله .

– حسنا فحرضه على الاعتراف لأحد اليسوعيين الشهيرين مثل الأب روبيني .

– ليس اسهل من هذا الامر .

وسأبلغ الاوامر للاب روبيني أما انت فيجب ان تزيد في مهارتك وبلاغتك واني منذرك منذ الآن بان نصائح الأب

روبيني تخالف تعاليمك على خط مستقيم فهل ادركت مني ما أريده ؟

– نعم يا سيدي فأنك تريد اذا تنبهت الظنون ان يثبت على طغمة اليسوعيين بأنهم بذلوا كل مجهودهم لمنع ذلك الأحمق عن ارتكاب جريمته الجنونية اما الاخ كولار الكامل فهو لا ينتسب للطغمة اليسوعية ويوجد اكثر من الف شاهد يؤكدن بأنه نصح لرفالياك مراراً كثيرة ان يعود الى وطنه ويعيش فيه بأمن وسكينة .

– احسنت ولا اظنك قد اتيت على تتمة تقريرك .

– صدقت يا سيدي فان ابن الأميرة فوستا قد تقابل هذه الليلة مع ابيه الفارس باردليان في منزل الدوق دانديلي .

فرفع رئيس اليسوعيين الاعظم رأسه بلهفة دلت على عظم اهتمامه بما سمعه من حديث وقال :

– هل انت على يقين من هذا الامر ؟ وكيف اطلعت عليه؟ قل ولا تكتم عني سراً تعرفه .

– لقد شاءت الاقدار ان اقف على هذا السر صدفة فقد كنت اوصلت رافالياك الى منزله وانا عائد منه لأنه اقلقني كثيراً بما ظهر عليه من امارات الجزع واليأس لحبوط مسعاه وقد ذكر لي اكثر من مرة انه يرغب في الأنتحار .

– وما هو سبب يأسه الى هذا الحد ؟

– ان هذا الرجل غريب الطباع والظاهر انه يحب جوهان الشجاع حباً عظيماً فاعتبر اعتداؤه عليه جريمة لا تغتفر .

– وما سبب هذه المحبة بينهما ؟

– لم اتمكن من معرفته يا مولاي لانه كلفني بابهام عن خدمات سابقة قدمها له ولم يزدني بياناً .

فكتب الرئيس الاعظم في مفكرته بعض اشارات سرية وقال :

– هل انت على يقين من عدوله عن فكرة الانتحار ؟

– اظنني توفقت لاقناعه بهذا الأمر .

– ولكنك است على يقين تام مما تقوله .

– سادع معظم اعترافه يوبخه توبيخاً صارماً على عمله ولنعد في حديثنا الى الفارس باردليان وولده .

– بعد ان تركت رافالياك يا مولاي لاحظت اربعة رجال يرافقون احدى الفتيات فعرفتهم للحال انهم جوهان الشجاع وثلاثة من رفقائه الامناء الذين يفتدونه بالحياة .

– ومن كانت هذه الفتاة ؟

– لم اتمكن من رؤية ملامحها رغماً عن الجهد الذي بذلته في هذا الشأن فمررت بالقرب من الجماعة وأنا اتظاهر بعدم الاهتمام بهم ثم عدت على اعقابي وكان جوهان الشجاع والفتاة قد دخلا منزل الدوق دانديلي وبقيت في موقف مراقبتي ورأيت بعد

قليل الفارس بارديليان خرج منه ثم تلاه جوهان الشجاع بعد برهة وجيزة ولا ريب بأن الفتاة قد بقيت في منزل الدوق

– بما انهم لم يخرجا سوية فذلك دلالة صريحة على ان الأب لم يعرف ابنه .

– رأيت حادثا اقلقني وأوجب اهتمامي وذلك اني ابصرت جوهان الشجاع ينتحب برهة طويلة أمام منزل الدوق وهذا الرجل يامولاي غريب الطباع قوي البنيـــة متين الارادة ولا غرابة فمن يشابه اباه فما ظلم وما هو إلا ابن بارديليان وفوستا ومثل هذا الشاب لا يبكي إلا لحزن لا يوصف او لفرح زائد

– ألم تقل لي انه عاشق لحسناء الشجرة اليابسة .

– بلى يا سيدي .

– اذن يجب ان نقف على عواطف الفتاة نحو هذا الشاب .

– انها تحبه حبا يقارب العبادة وهي لا تكاد تعرفه .

– يجب والحالة هذه ان نعلم إذا كانت هذه الفتـاة لا تزال مقيمة في شارع الشجرة اليابسة وإذا كانت قد انتقلت منـه فتكون هي التي ابصرتها .

– سأذهب هـذا اليوم وأقابل السيدة كولنيكل واعرف منها ما أريده .

– اذا كانت هي الفتاة التي رأيتها فبكاء ابن بارديليان ناجم عن سبب ليس ابسط منه فان العاشقين قد تكاشفا بسر

غرأميهما وتوجد بعض الطبائع البشرية لا تستطيع احتمال المؤثرات الشديدة ولعل ابن بارديليان يكون من ذوي هذه الطبائع .

ولعل اخطأت باستهانتي بهذه الفتاة حتى اليوم فهي تخالط وتعاشر جماعة يقضي علينا صالحنا الاعظم ان نجعلهم تحت اشد المراقبة لذلك وجب علينا أن نقف على حقيقة أمرها فاجعلها تحت المراقبة وقدم لي التقارير مفصلة عنها لأني اريد الوقوف على سرها .. انها تدعى برتيل وما هذا الاسم الكافي لمعرفة حقيقتها فمن ابن أتت؟ وما هي العائلة التي تنتسب اليها وحذار من اغفالك ادنى تفصيل ومتى وقفت على ما طلبته منك تخبرني معلوماتك لأننا قد نكون اخطأنا باغفالنا امر هذه الفتاة .

فانحنى كولار أشارة على طاعته التامة ونهض الرئيس الاعظم من مقعده وأخذ يتمشى في الغرفة رائحا بتمهل ورأسه منحن الى الامام وقد بدت عليه امارات القلق والاضطراب ثم وقف أمام الاخ كولار وقال له بسكينة .

لقد قاربنا الوصول الى الغاية المنشودة يا ولدي وهي النتيجة التي نسعى وراءها منذ عشرين سنة بفارغ الصبر وبمنتهى الشدة وبعد قليل من الجهد تصبح ملايين فوستا التي طالما طمع بها الملوك في حوزة ايدينا وعن قريب تتخلص من تمثيل هذا الدور الذي يشق عليك القيام به .

فأبدى كولار اشارة سلبية يريد بها الاحتجاج على ما سمعه

فقال له الرئيس الأعظم بمنتهى التعطف .

– لا تحاول التكتم والنكران يا ولدي العزيز لأنك ستكون سبباً لحصول طغمتنا على عشرة ملايين من الذهب لم تكن تحلم بها هذه الثروة الطائلة ستمكننا بعدة اشهر من القيام بأعمال خطيرة كانت لولاها تستغرق السنين الطوال والعمل الشاق فالفضل بذلك عائد اليك انت الذي عرفت ان جوهان الشجاع هو ابن الاميرة فوستا قبل ان يعرفه سواك وبعد أن كدت ايأس من وجوده يجب أن يبقى باردليان وابنه منذ الساعة تحت أتم المراقبة فلا تفوتنا حركة من حركاتهما وهذا لسوء الحظ كل ما يستطيع عمله معهما خصوصاً الأب فانه يتخلص من كل مراقبة أدبية وما هو من الرجال الذين يسلمون أسرارهم للاعتراف ، ومع ذلك فلابد لنا من الوصول الى غايتنا وذلك لمجد يسوع الاعظم وعندي انه يستحيل ان يجهل الفارس باردليان وجود كنز الاميرة فوستا لا سيا وهو الشخص الوحيد المطلع على هذا الكنز وهو الذي يعرف مخبأه كما تعرفه الاميرة وخادمتها بيرتيش فان رئيسة دير مونتمار تجهل جهلا تاماً المكان المخبأ فيه وقد أكد لي الاب الذي كوشون الذي يسمع اعترافها انه على يقين تام من جهلها هذا الأمر .

– هل يسمح لي سيدي بتذكيره ان رئيسة الدير الحاضرة لما خلفت كلودين دي بوفيلير في هذه الرئاسة قد وقعت على عقد اعترفت به بان هذا الكنز هو ملك خاص للاميرة فوستا

وتتعهد بان تسلمه للشخص الذي يدلها على مخبئه ويعطيها خاتم فوستا الحديدي .

– وفي مقابل ذلك تسلمه مئتي الف ذهب وقد مر عليها عشرون سنة وهي تنتظر عبثاً حتى كاد يتولاها اليأس أما باردليان فانه يعلم منذ عودته من اسبانيا أي منذ عشرين سنة هذا السر ولكنه رغماً عن فقره المدقع لم يخطر بباله ان يستورد من هذا الكنز العظيم الذي يخصه شرعاً لأنه ملك لولده الوحيد وقد طالما حسبت انه يقع في التجربة ويسقط في الشرك الذي نصبته له ولكن امالي قد خابت ولم ينالني غير العذاب والفشل وما هذا الرجل الا الشهامة المجسمة .

وظل الرئيس برهة يفكر في أمره وهو معجب بشجاعة هذا الرجل الادبية وقوة ارادته التي استطاع بها التغلب على عواطفه ولم يبال باكداس الذهب المتراكمة أمامه ثم قال :

– لقد تغيرت الاحوال اليوم وسيعلم باردليان عن قريب أن جوهان الشجاع هو ابنه من الاميرة فوستا وإذا اقتضى الامر فأنا اطلعه على هذا السر وليس في اخلاق الشاب ما يسيء عواطف الأب الذي لا أراه مولعاً بالبنين كباقي الآباء ويكفيني منه ان يعترف به ويفتح له ذراعيه او ينكره بتاتاً وغاية ما أريده من الامر ان يأتي يوم يأخذه اليه بيده ويريه كنوز أمه

الطائلة ويسلمها له وفي ذلك اليوم السعيد نكون على مقربة منه تراقبه .

فاذهب الآن يا ولدي العزيز واسترح لأنك في حاجة تامة الى الراحة .

وبعد دقائق كان الاخ كولار الكامـــل او بالحري الرئيس القسري لاحدي طغمات اليسوعيين مستلقياً على السرير الموجود في القبو الذي اختاره له في ذلك الدير وهو يغط في نومـــة غطيطاً شديداً .

الفصل التاسع عشر

الوصية

يجدو بنا ان نعود بالقراء الى حديث السيدة كولنيكل التي تركناها في منزلها وهي تراقب السيد النبيل الذي خطف الفتاة .

فنقول لما رأت المحفة ابتعدت عن منزلها نزلت عن الكرمي التي كانت جالسة عليها وقد سمعت تقريباً كل الحديث الذي جرى بين كونسيني وسجينته ولكنها لم تلق فيه مـا كانت تؤمله .

ودخلت غرفتها وأقفلت بابها بدقة كجاري عادتهـا ولم تنتبه لنوافذها التي كانت محطمة الزجاج وليس اسهل من الدخول الى غرفتها منها ورأت القطع الذهبية التي كان كونسيني قـد القاها على الارض فضمت يديها الى بعضها بذهول لا مزيـد عليه وقالت واجمة :

-- يا الله ما ابدعك ايها الذهب العزيز وما ابهج قطعك الصغيرة اللامعة التي تشبه الشموس الصغيرة .

وانحنت على الارض وأخذت تلتقط تلك القطع وتلاعبها بايديها فتسمع رنتها بسرور لا يوصف وتقول :

– ما اطرب صوتك في الآذان أيها الذهب الرنان ولا ريب بأن ملائكة السماء قد استعارت منك هذه الانغام المطربة الشجية .

وأسرعت الى سريرها وخبأت في فراشها ما التقطته من القطع الذهبية وبينما هي كذلك انقض عليها جوهان الشجاع انقضاض الصاعقة وقد ذكرنا للقراء ما جرى بينهما وانها اطلعته على كل ما تعرفه في هذا الشأن .

وبعد ذهاب جوهان من منزلها صعدت الى الطابق العلوي وأخذت المصباح الذي كان لا يزال منارا وذهبت ففتحت الغرفة التي قابلت فيها الآنسة برتيل الملك هنريكوس الرابع وفتشت حتى عثرت على آنية صغيرة من خشب الابنوس ففتحت أحد ادراجها بيد مضطربة وأخذت منه علبة صغيرة وعادت الى غرفتها فقفلت بابها من الداخل وأفرغت ما كان في العلبة على الطاولة .

وما كان أشد كدرها واستيائها لما لم تجد فيها شيئاً من النقود إذ لم تكن تحتوي إلا على اوراق قديمة العهد ووعاء صغير من معدن ابيض لا قيمة له فأخذته بحنق وهزته ·فسمعت من داخله حركة وفتحته بلهفة فرأت خاتماً صغيراً من حديد ملفوفاً بورقة وهو أقل قيمة من الوعاء الذي كان فيه فأعادته باحتقار

الى مكانه وفتحت الورقة لتقرأها ولكنها كانت مكتوبة بلغة تجهلها فاعادتها الى الوعاء ووضعته في جيبها وهي لا تدرك كنه حملها .

ولما فشلت من هذه الجهة عادت الى باقي الاوراق وكانت مكتوبة باللغة الفرنسية فقرأتها بتمعن وتمهل حتى أتت على آخرها وهي حكاية بلانش دي سوجيس فأثرت عليها هذه القراءة تأثيراً كبيراً وهمست قائلة :

– اذن فالآنسة برتيل هي ابنة الملك الذي لم يعامل أمها معاملة حسنة وقد يكون مطلعاً على هذا السر الخطير الذي وقفت عليه ويمكنني أن أنال بواسطته ثروة طائلة ولو أدى بي الى المشنقة لذلك يجب علي ان اتروى ملياً في الامر قبل الاقدام على العمل وأرى ان الانسب في الوقت الحاضر تناسي هذا السر ولكن بما ان الآنسة برتيل هي ابنة الملك فلا ريب بانه يسر من معرفته وما صارت اليه .

وأعادت تلك الأوراق الى العلبة وفتحت سواها فرأتها مكتوبة بلغة غريبة فطرحتها في العلبة وتناولت ورقة مكتوبة باللغة الفرنسية ولم يكد يقع عليها بصرها حتى حملقت عيناها وأخذ قلبها يخفق خفوقاً عظيماً وهي كتاب مؤرخ سنة ١٩٥٢ ومرسل الى والدة الآنسة برتيل دي سوجيس وهذا نصه :

« لقد طالما حادثتك ابنتها العزيزة بشأن الرجل الشهم الظريف الملقب بالفارس باردليان وأنت تعلمين انه كان عدواً

لي وجرحني في المبارزة ثم اعتنى بي وعالجني كأخ له وتعلمين أيضاً مبلغ احترامي وتعلقي العظيم بمليكتي المحبوبة الاميرة فوستا » .

« ولما قهرها باردليان اقالتنا من خدمتها وسافرت الى ايطاليا بلاد الشمس ولكنها لم تتركنا قبل ان تكافئ بجود ملوكي للذين خدموها باخلاص ووفاء وتمكنت بواسطة عطائها ان تشتري املاك فوبرون المجاورة لاملاك دي سوجيس حيث اسعدتني العناية بان اصادفك وأحبك » .

« ان اخلاصي للمحسنة الي لا حد له واخلاصي للذي كان عدواً لي ثم اصبح بجوده وكرمه صديقاً مخلصاً لي لا مثيل له وقد سنحت الآن الفرص لاثبت لهما صدقي واخلاصي » .

« ان الاوراق المرسلة اليك طي هذا الكتاب لا توازي بثمن ولا تعادلها قيمة لأنها تدل على المكان المدفونة فيه كنوز مليكتي الاميرة فوستا واليك حكاية هذه الكنوز وكيف اتصلت الى هذه الاوراق وهي امانة مقدسة عهد الى شرفي بالمحافظة عليها » .

« ان مولاتي المحبوبة لم تعد في قيد الحياة فقد قتلت وكانت تحافظ على هذه الكنوز لاستعمالها الخاص ثم ورثتها لولدها الذي رزقته من باردليان وقد قبلت ميرتيس خادمتها الامينة أن تقوم مقام الوالدة التي كادت تظفر بها » .

« وكانت ميرتيس على يقين تام من اخلاصي التام لمليكتي فجاءت لمقابلتي في فوبرون وكاشفتني بسر الغلام والكنوز

التي كنت أجهل وجودها وسلمتني هذه الاوراق التي يتمكن حاملها من معرفة مكانها وقالت لي بأن اعداء فوستا الالداء وأعداء خلفائها يفتشون على هذه الكنوز ويسعون جهدهم للحصول عليها » .

« وكانت ميرتيس تحب مولاتها حباً يقارب العبادة وهي مولعة بها ولعاً لا يوصف فارادت ان تسير معها الى الموت ولكن ولادة هذا الطفل اخرتها عن عزمها ولأجله رغبت في البقاء في قيد الحياة فوجهت اليه كل العناية والحب الذي كانت تشعر بهما لوالدته » .

« وسرق هذا الغلام من ميرتيس فلم تقو على احتمال هذه النكبة فتجرعت السم وانتحرت فماتت في منزلي وقد دفنتها دفناً مسيحياً » .

« ان فقد هذه المسكينة خسارة لا تعوض ولو لم تسرع باطاعة عوامل يأسها وأخرت انتحارها لعلي كنت اتمكن من اعادة الطفل اليها لأني ارتاب بالشخص الذي خطف الغلام فقد صادفت في باريس منذ مدة وجيزة فلورانتانيا جديراً بارتكاب كل المحارم يدعى سباتيا وهو يكره مليكتي كرهاً عظيماً وأنا على يقين بأن حقده عليها يدفعه للانتقام منها في شخص ابنها» .

« وبعد خطف الطفل وموت الوالدة ميرتيس أرى أن الاوراق تعود شرعاً الى الوالد اعني به الفارس باردليان الذي يحسن الدفاع عن ثروة ابنه ويحميها من اعدائه أياً كانوا لذلك عزمت على اعادتها له متى صادفته » .

« اما الآن وقد علمت أهمية هذه الاوراق فانا على يقين بانك محافظين عليها بمزيد العناية لأني اعتبر فقدها او سرقتها عاراً عليّ ولست من الذين يتحملون العار ويحيون بعده »

« واني ارجو أن أتمكن بما اظهره لك من الحب والاخلاص أن ادعك تعدلين عن فكرك الجديد وان تعودي إلى سابق حبك وغرامك فتعيدي الى خطيبك المسكين حظه وهناءه »

وأعادت تلاوة هذا الكتاب عدة مرات ليرسخ في ذهنها واتقدت عيناها باشعة الطمع وفي تلك اللحظة مرت يد فوق كتفها وخطفت منها الاوراق وسمعت صوتاً ينتهرها قائلا :

— الويل لك ايتها الشقية الساحرة الزنيمة ألم يكفك انك خنت الفتاة التي كان يجب ان تسهري عليها وسلمتيها لأعدائها حتى عمدت الآن الى سرقتها .

فذعرت العجوز ذعراً لا يوصف وصاحت قائلةوبلاه يا رباه هذا هو الشاب الذي فاجأني منذ هنيهة فأنا هالكة لا محالة .

وكان القادم هو جوهان الشجاع بذاته فانه كان ماراً من الطريق فدهش لما رأى النافذة مفتوحة فاسرع بدخول المنزل وصعد السلالم والعجوز لم تشعر به لانشغال بالها واضطراب افكارها واهتمامها بهذا الكنز الذي كانت تريد الاستيلاء عليه.

ورفع جوهان قبضة يده فوق راس العجوز فاغمضت عينيها وأدخلت عنقها بين كتفيها وصاح بها .

— قفي أيتها اللعينة واحمدي الله لأني تذكرت في الوقت الملائم انك امرأة لا حول لك ولا قوة .

ثم أخذ يلتقط الاوراق من الأرض ويضعها في العلبة التي كانت فيها ثم ذهب الى النافذة وقفلها ورأى رزمة المفاتيح على الطاولة فالتقطها ووضعها في العلبة وخرج لينجز حسابه مع كونسيني الذي اصبح وجوده خطراً على حبيبته ولما وصل الى بيته لم يره في السرير الذي طرحوه عليه بل كان ملقى على الارض بعيداً عنه والقيود لا تزال في يديه ورجليه وعلى مقربة منه والخنجر الذي كان قد اغتصبه من الفتاة فادرك جوهان في الحال ان سجينه ابصر هذا السلاح وحاول عبثاً استعماله ليقطع القيود التي كانت تمنعه عن الحركة فانحنى الى الأرض وهو صامت وأخذ الخنجر وشد على قبضته بيد متشنجة وهو ينظر الى النديم ولعله لم يره .

ولما ابصره كونسيني منتصباً أمامه والخنجر في يده خيل له أن ساعة موته قد دنت ولكنه كان شجاعاً من فطرته فلم يتحرك ولا بدت على ملامحه امارات الخوف والفزع بل رفع رأسه بكبرياء ونظر الى الشاب بسكينة وقال له :

— اقتلني إذا شئت فقد طالما عهدتك قاتلا سفاكاً .

فلم يجاوبه على هذا القول بل قطع قيود رجليه اولا ثم قيود ذراعيه وخاطبه قائلا :

— لا تقل انك تعفو عني بل قل انك خائف مني أما انا فلست اعفو عنك ولا بد لي من العثور عليك والويل لك مني.

— انني انصحك يا كونسيني بان لا تعترضي ولا تقف في

سبيلي إذا كنت تود المحافظة على حياتك ولك الخيار بأن تعمل بمقتضى هذه النصيحة او ترفضها، قال هذا وخرج فتبعه كونسيني ووضع يده فجأة على الحائط .

ففتح أمامه باب صغير غير منظور وبان منه قبو كثير الضيق فقفز اليه كونسيني ولم يهتم بقفل الباب من ورائه وقبض على زر معدني وشدة بقوة نحو صدره فلم تسمع ادنى حركة او اشارة تنم على عمله .

وأخرج رأسه من الحفرة واصغى قليلا وكانت عيناه تبرقان بأشعة وحشية غريبة وفي ذات الحين سمع صوتاً عقبه حركة دلت على سقوط جسم فترك الزر الذي كان لا يزال قابضاً عليه وتمتم قائلا :

– لقد تم الامر كما أريد .

وأصغى هنيهة فلم يسمع حركة فقفل الباب السري ونزل السلالم بدوره ولما وصل الى الدرجة الاخيرة جس الارض بقدميه قبل ان يفارق المكان كأنه يريد التحقق من ثباته ولما تأكد له مما يريده دخل الرواق وتقدم تواً من صندوق ضخم يكاد يكون مسمراً في الحائط فضغط على زر فيه فانتقل الصندوق من مكانه وظهرت فتحة تبلغ نحو القدم بالعرض والعمق فلم يهتم بالنظر الى ما في تلك الفتحة لأنه كان على يقين بان نظراته لا تخترق اعماق ذلك الظلام الكثيف ولكنه اصغى قليلا فسمع صوت جوهان وهو يزمجر باللغة الايطالية ويشتم لاعناً بافظع المسبات والاهانات كأنه يريد ان يفهم منه عدوه

كونسيني انه واقف له بالمرصاد حتى إذا تخلص من الشرك الذي نصبه له يناقشه الحساب ويكيل له الصاع صاعين .

وانتصب كونسيني واقفاً وقد بدت على فمه ابتسامة السخرية والاستهانة وأعاد الصندوق الى مكانه فلم يعد يسمع شيئاً فقال بصوت عال كأنه يريد ان يسمع جوهان الشجاع ما اعده له من العذاب .

– مت في حسرتك ايها الاحمق المغرور ثم خرج من البيت السري مسرعاً ليذهب الى المنزل الذي يقيم فيه في شارع سانت هونوري على أمل ان يصل اليه قبل ان تعود اليونورا غاليكاي من قصر اللوفر حيث قضت ليلتها .

الفصل العشرون

اليونورا وساتيا

تبع ساتيا الحفة التي كانت تقل الانسة برتيل التي خطفها كونسيني حتى رآها دخلت مع الذين كانوا في خفارتها الى المنزل المعري .

ولما وقفت ونزل من كان فيها اقترب فعرف المكان الذي وقفت فيه وهمس قائلاً :

– منزل منفرد على زاوية المينا وسأتمكن من معرفته وأنا مغمض العينين .

وابتعد بسرعة عن ذلك المكان وأخذ يناجي نفسه بقوله:

– لا ريب بان كونسيني المسكين لاحظ له من السعادة وها قد اكتشفنا على عش غرامه الأول ولكن السنيورا اليونورا ستكون راضية عني وهي تدفع بكرم حاتمي اجرة من يخدمها باخلاص ولكن ماذا اصاب ابن فوستا يا ترى ولعله قد وقع في الكمين الذي نصب له... ان الحاكم الاعظم قد عمل بنصيحتي

وسأسرع الى المكان الذي ارشدته اليه وقد [illegible] الارض مقفرة مبعثرة من دوس الاقدام وشاهدت الدم سائلاً عليها بما يدل دلالة واضحة على حدوث معركة فيها ولا ريب بان ابن فوستا مقيم الآن في احدى السجون الضيقة فيها لسعادتي وهنائي لأني دربته على يدي وعلمته على الشقاوة والدعارة فهو الآن متهم بمحاولة قتل الملك وسيلقى العقاب الذي يستحقه ويشتفي قلبي من عذاب والدته .

ولما وصل الى شارع صليب التراهوار رأى شخصاً قد انقض عليه واصيب بضربة شديدة في صدره فعرفه في الحال انه جوهان الشجاع الذي كان خارجاً من شارع الفور فتراجع في الحال الى الوراء واختفى في زاوية هناك لئلا يراه .

وظل الشاب مواصلا سيره الى الامام ولم يهتم به لاستغراقه بالافكار العميقة التي شغلته عما هو جار حوله ولم يكد يبتعد عن ساياتا حتى شعر بارتجاف يتولاه من رأسه الى اخمص قدميه لفرط الالم الذي ناله من الضربة التي اصابته فالقى على ربيبه نظرة ملؤها الحقد والضغينة وتمتم قائلاً:

– ويلاه انه حر يسعى ويا له من شقي ماهر ربيته على الدعارة والشقاوة فهو بها مهارة لم تكن تخطر لي على بال ولا بد لي بعد الآن من تجديد الدور الذي مثلناه .

وعاد الى منزله وقد تولاه اليأس العميق وبدت عليه ملامح الكدر والاستياء فارتمى على كرسي واعتقل رأسه بين يديه

وظل مدة طويلة مستغرقاً بالافكار وهو يعد خطـــة جديدة للانتقام .

ولما قرعت الساعة الثامنة ذهب الى شارع سانت هونوري فأمرت اليونورا غاليكاي بادخاله سريعاً الى غرفتها لما بلغهـا خبر مجيئه وابتدرها بقوله بعد التحية :

– إذا أردت يا سيدتي أن تمسكي الثعلب وهو في الفخ فما عليك إلا ان تذهبي الى منزل قائم على زاوية المينا .

– اذن لم أكن مخطئة في حسبـــاني ولا خدعتني ظنوني فزوجي كونسيني قد اتخذ له خليلة جديدة .

لست تستطيعين منع الفراشة عن الطيران من زهرة الى أخرى وأنت اخبر الناس باخلاق زوجك وانه لا يمكن حصره في مكان .

– نعم فهو يهوى كل النساء إلا أنا .

– بل هو سأم منهن وأخذ يهجرهن تباعاً ولا ريب بانك ستنالين منه الحظ الاوفر .

– قص علي ما تعرفه وقل لي قبل كل شيء مـاذا تدعي خليلة زوجي ؟

– اسمحي لي يا سيدتي بان ابين لك وجه خطاك من هـذا القبيل فان الفتاة التي تعرضت لذكرها ليست خليلة زوجك كما تحسبين وأظن بل انا على يقين بأنها ان تكون ذات علاقة معـه إلا اذا استعمل العنف والقوة .

– إذن فهي من ذوات الفضائل اللائي يمررن من التجارب .

– لست أعتقد ياسيدتي بفضيلة بنات حواء ولا تجرحـك مني هذه الحقيقة لأني لا أقول إلا ما اعتقده ولكني أظن بان فؤاد هذه الفتاة قد تسلم الى غير رجلك .

– قل ما تعرفه وسأحكم من قولك على ما اريده .

فأخذ سانيا يقص عليهـــا ما رآه من حادثة الآنسة برتيل واطلعها على ما سمعه من المناقشة التي دارت بين كونسيني وسجينته فأجابته اليونورا قائلة :

– ان المقاومة التي اظهرتها هذه الفتاة تثبت لي انك كنت مصيباً في ظنونك ولا ريب بانها عاشقة لولدك كما قلت لي قبـل هذه ولكن قل لي هل عرفت بما جرى هذه الليلة مــع الملك وولدك ؟

– وكيف تريدين أن أعرف أمراً لم أعرفه ولا وقفت عليه.

أعلم ذلك بان الملك قد عاد الى قصر اللوفر وهو في صحـة تامة وقد كانت أمارات السرور الإتم بادية عليه ومن الغريب أنه جرى حادث يكاد لا يصدق فان المركيز دي لا فارين استدعي القائد براسلين ورجال حرسه فهرولوا مسرعين من قصر اللوفر نحو الساعة العاشرة مساء ويقال انه جرت معركـة في شارع الشجرة اليابسة وقد اصيب فيها الكثيرون بجراح خطيرة ومن عدادهم المركيز دي لا فارين ويقولوا أن الحاكم الأعظم قد شهد هذه المعركة ومعه خمسون جندياً .

– وهبني اخطأت في وضع خطتي أو أن الملك كان سبباً لخطئي لأنه خرج من قصر اللوفر قبل الموعد الذي حدده بذاته بساعتين ولكن قل لي من الذي دفع الحاكم الأعظم للحضور في تلك الساعة ليشهد هذه المعركة وهل لك أن تقول لي من الذي أنذره بالأمر ؟

– أنا الذي انذرت الحاكم الأعظم .

– ولما فعلت ذلك ؟

– لأني كنت أسعى الى غايتي كما تسعين الى غايتك ولكني لم أقصد معاكستك فيما تريدينه ولولا ذلك لأنذرتك .

– لقد أخطأت بارتيابي بك فقد كان يجب علي أن لا أنسى بانك لا تستطيع خيانتي فدعنا من هذا الحديث .

– اعلمي يا سيدتي بان خطتك لم تفشل كما كنت تتوهمين بل قد تأجل تنفيذها الى حين وكوني على ثقة بان لا دخل لي في التأخير وكنت قد اتخذت كل الاحتياطات اللازمة ليصل الحاكم الأعظم متأخراً فلا يزعجك فيما تريدينه وما حبط مسعاك بسببه كما تتوهمين بل حدث من الأمور غير المنتظرة ما لا يمكن أن نؤاخذ على حدوثها وسأقف عليها هذا اليوم وأنبئك بما أعرفه .

هذا ما أعتقده يا سيدتي لأني على يقين باني لا أدرك المأرب الذي أسعى اليه منذ عشرين سنة إلا بمساعدتك .

– قل لي أولاً إسم والديه ؟

– هو ابن الاميرة فوستا .

– الاميرة فوستا حفيدة السنيور أدى لوكريزيا ومزاحمه البابا سيكتوس .

– أجل هذه هي بالذات ولم توجد لعمر الحق إلا فوستا واحدة .

– لقد أدركت الآن سبب كبرياء هذا الغلام فقد ورث أخلاقه عن أمه ، ومن هو أبوه ؟ لعله أمير أو ملك ؟

– بل هو نبيل لا ثروة له ولا جاه ، وهو الذي عرقل مساعي الأميرة فوستا وأحبط أعمالها .

فصفقت اليونورا بيديها وصرخت قائلة باعجاب :

– باردليان .

– لقد ذكرت اسمه يا سيدتي .

وظلت اليونورا برهة صامتة وهي تفكر بأمرها وقد بدت على وجهها أمارات الاعجاب والتعطف ولم تتمكن من كتمها وكان ساتيا يراقبها بدقة ولا يفارقها بنظره فشعر بانقباض في صدره وتولاه الوجل وناجى نفسه بقوله :

– عجباً اتتفق مع الولد اكراماً واحتراماً لأمه !

ورفعت اليونورا رأسها وحدجت ساتيا ببصرها وقالت له :

– قص عليّ ما عملته معك الاميرة فوستا فلا ريب بأن حكايتك محزنة ورهيبة وأنا كثيرة التشوق لمعرفتها .

وخيل لساتيا أن ليونورا تريد الاستهزاء والسخرية بـه

وتنبهت ظنونه فارتاب بحادثته ولكنه لم يظهر على وجهه شيئاً من التأثر وقال بسكينة لا مزيد عليها :

ليست حكايتي محزنة ولا رهيبة كما تتوهمين بل هي حادثة بسيطة ولكم تجدين مثلها في حياة الاميرة فوستا ؟

– كيف كانت الحال فاني ارغب الوقوف عليها .

– أمرك يا سيدتي وسأطلعك عليها ولكن هذه الحادثة آلمتني كثيراً إلى درجة لا توصف لذلك استمحيك الآذن في بداية الأمر بمكاشفتك ببعض إيضاحات وجيزة ثم أقص عليك الحكاية التي تريدينها وأظنك متى وقفت على ما أردت بيانه تشعرين بأهمية حديثي ولا ريب بأنك عندئذ توافقين على عملي وبما أنك تعرفين حكاية الأميرة فوستا فلا ريب بأنك سمعت بذكر كنوزها .

– ان هذا الكنز الشهير مدفون في دير مونتمارتر ومنذ عشرين سنة لا حديث للقوم بسواه أما أنا فاعتقد أنه في غير ذلك المكان أو بالحري أنه لم يوجد قط .

– أخطأت يا سيدتي فالكنز موجود لم تمسه الايدي وأنا الضمين لك بصحة ما أقوله .

ثلاثة وثمانون مليوناً يا سيدتي ومثل هذا المبلغ العظيم إذا دخل صندوق شخص ذكي واسع المطامع يستطيع أن يفعل به العجائب ويصل الى ذروة المجد وقمة الفخار .

وهذا المبلغ العظيم عائد لجوهان الشجاع ابن الاميرة فوستا .

– أمثل هذا المبلغ الباهظ العظيم يعود الى ذلك الشقي قاطع الطرق . لا ريب بانك مجنون يا عزيزي ساتيا فان مثل هذا الشقي لا ينتظره إلا الحبل والمشنقة .

وناجى ساتيا نفسه بقوله :

– لقد بدأت تعصف الزوبعة وسيتغلب الحقد والطمع على مكارم اخلاقها كما كنت أتوقع . ثم قال :

– ما الذي طرأ عليك يا سيدتي حتى تحمست الى هذه الدرجه ؟

وهل ذكر الذهب أثر عليك فأوصلك الى هذه الحال ؟

– إذاً كنت تحسب أن الذهب يغرني و ...

– أجل يا سيدتي فأنت لا تحبين الذهب إلا لأنه آلة قوية لا تقاومها قوة في العالم فهذا الكنز العظيم الذي يسمح لحامله أن يحقق كل مطامعه مهما كانت غريبة في بابها آتيك به وأعرضه عليك .

– هل تعرف مكان هذا الكنز العظيم ؟

– كلا ولكني سأعرفه .

– إذا كان الأمر كذلك فلماذا لا تستبقيه لنفسك ؟

– لا غرابة يا سيدتي إذا رأيتني لا أحفل بهذا الكنز العظيم

الذي يتمنى الحصول عليه أعظم أغنياء العالم وأوسعهم سلطة وقوة ولأجله لا يتأخرون عن سفك الدم البشري .

وقد نسيت بأن أقول لك اني اطلب مقابل هذا الكنز شيئاً ثميناً بل هو اثمن في نظري من كل كنوز العالم وإذا اقتضى لحصولي عليه سفك دمي لا اتردد قط عن سفكه .

– وما الذي تريدم؟

– اني اطلب رأساً !

– والرأس الذي تطلبه هو رأس جوهان الشجاع ؟

– أجل ولنتفاهم سيدتي في حديثنا فقد تقولين اني لا أحتاج في قتله لمساعدة أحد .

– صدقت .

– لو أردت قتله لكان الأمر بسيطاً للغاية أما الذي ارغبه وأتمناه هو أن أرى هذا الرأس مقطوعاً بيد الجلاد .

– زدني إيضاحاً فقد نصل الى تفاهم سريع .

– أرى أن الوقت قد حان لأقص عليك ما عملته معي الأميرة فوستا الشهيرة وهذه الحكاية التافهة تهمك الآن .

– تكلم فأني صاغية اليك .

– انك تعرفينني يا سيدتي منذ عدة سنوات وكنت دائماً تحسبين اني اشبه نمراً كاسراً فما قولك الآن إذا أكدت لك أن في صدر هذا الوحش الذي قد خفق فيما مضى فؤاد بشري .

ولا تستغربي مني هذا القول فهو الحقيقة التي لا مرية فيها فقد كنت وديعاً كالحمل وكانت صناعتي القتل بكسب معاشي والقيام باودي ... نعم انها صناعة رهيبة ولكني لم أتعلم غيرها ولا بد لي من كسب ما تقتضيه لوازم الحياة وكنت بصرف النظر عن هذه المهنة أعيش بشرف واستقامة وفي ذلك العهد من حياتي لم أفكر بالحقد والانتقام لأن فؤادي لم يكن مشغولاً بالغرام وكنت سعيداً للغاية .

وكان عمري وقتئذ سبعة عشر عاماً وكنت جميلاً وشجاعاً وماهر للغاية في المبارزة على الطريقة الايطالية والفرنسية والاسبانية وكانت مرغريتا اصغر مني بثلاثة أعوام وهي اجمل والطف فتيات فلورنسا فاحببتها حباً كاد يؤدي بي الى الجنون ومن حسن الحظ أنها كانت تبادلني هذا الحب أيضاً ، ولكن فضيلتها كانت توازي جمالها الفتان وكنت شريفاً كما قدمت لك فلم يطل الأمر علينا حتى ارتبطنا بعهد الزيجة الشرعية .

ومرت علينا سنة شربنا فيها كؤوس السعادة مترعة فلم أكن أحيى إلا لمرغريتا زوجتي العزيزة التي كنت أحبها حبا يقارب العبادة وهي لم تكن ترى غيري في هذا العالم وبعد تمام السنة الأولى وضعت طفلة ليس اجمل منها بل هي اشبه بالملائكة فزدنا سعادة وأصبح منزلنا على حقارته كجنة الله في ارضه لأن حبنا كان يتزايد كل يوم وباولينا الصغيرة تشرق علينا كالشمس المحيية وتناغينا بصوتها اللطيف الذي هو شبه زقزقة العصافير

فكنا نبكي ونضحك في آن واحد ونحن لا نشعر بما نعمله .

ولم يلبث أن انقلب حبنا بطفلتنا الى نوع من العبادة وبسبب هذه الطفلة العزيزة اصبحت احتقر الصناعة التي اتعاطاها فعدلت عنها بتاتا ولما كنت ماهراً للغاية في امتشاق الحسام صرت اعلم هذه الصناعة ولا ريب بأن الملاك الطاهر الذي رزقناه جلب لنا السعادة وحسن الحظ فزاد كسبي من هذه الصناعة الجديدة واشتهرت شهرة واسعة وبت اؤمل الحصول على ثروة تكفل لنا المعيشة برضاء في أيامنا وأن أتمكن من اعطاء باولينا العزيزه بائنة تليق بها متى وصلت الى سن الزواج .

وأدركت السنة الثانية والثلاثين من عمري وأشغالي تزداد نجاحا وفلاحا وقد توفقت لاكتشاف طعنة هائلة لقبتها الصاعقة ومعناها بالايطالية سانيا وكنت لما اصرخ قائلا : أيكون سانيا فلزمني هذا اللقب الذي اشتهرت به .

وكنا قد جمعنا شيئا من الثروة ومع الغنى تولد الطمع ولم تكن تحركنا هذه العواطف إلا حبا بابنتنا وفي أحد الايام وهو يوم شؤم ولعنة رأت الاميرة فوستا ابنتنا باولينا فاعجبتها وطلبتها منا مؤكدة لنا أنها ستكون سببا لسعادتها وتزوجها لأحد النبلاء الاشراف ...

لسوء الحظ ولفرط جنوننا أجبنا هذا الطلب .

وفي أحد الأيام ذهبت مع زوجتي مرغريتا إلى القصر لنرى

ابنتنا لأننا كنا نرتاح كثيراً لرؤيتها بملابسها المذهبة وهي تتجلى في معالم الزهو والعظمة وقد اعمى الجنون بصائرنا ولما وصلنا الى هناك رأينا ما كاد يميتنا خوفا وذعراً .

— لعلكما رأيتما رأسا مقطوعا .

— كلا بل ابصرنا مشنقة منصوبة والجلاد واقفا بسكينة قرب السلم ويده مستندة على فأسه وقد أحاط به النبلاء والاشراف والحرس والخدم ورجال السيف والخدم والحواشي من رجال ونساء والملكة واقفة بمنتهى السكينة على شرفة قصرها فتطلعنا الى كل الجهات لنرى ابنتنا ولكننا لم نشاهدها فتنهدت تنهداً دل على ارتياحي لأني لم أكن اريد أن تشهد ابنتي هذا المنظر الرهيب .

وبينما نحن كذلك رأينا رجلا مرتديا الملابس السوداء صعد على منصة عالية وتلا بصوت جهوري خطابا لم أفهم منه إلا أن الأمر يتعلق بخيانة عظمى قد تكررت عدة مرات بعد ان عفى عنها اولا وثانيا وان ما يجري عن قريب درس رهيب لكل من يحاول الاقتداء بهذه الخيانة وأن رأسا سيقطع أمام الحضور.
وبينما نحن كذلك أشعرت كان الصاعقة وقد انقضت أمامي لأني سمعت اسم باولينا ابنتي المحبوبة وكنا قد سمعنا تلاوة الحكم الصادر باعدامها وتأكدنا بان تلك المشنقة المنصوبة كانت معدة لها وان الفأس التي كانت بيد الجلاد ستنقض عن قريب على عنقها الأبيض وتفصل رأسها عن جسدها فيذوي غض حياتنا وقد

قضى علينا سوء الطالع أن نشهد هذه النكبة العظيمة .

ـ يا للهول .

ـ وأردت الهجوم لتخليص ابنتي ولكنهم قبضوا علي ومنعوني عن كل حركة رغماً عن مقاومتي العنيفة فركعت جانباً على الأرض وأنا اتوسل واسترحم وأبكي واستعطف واتهدد وعملت الأم مثلي فأنها سقطت على الأرض وهي تنتف شعرها وتمزق وجهها بأظافرها وتتكلم بما لم استطع فهمه ولكني تحققت أن كلامها كان يلين الصخر الاشم لأن كل الذين كانوا حولنا أخذوا بالبكاء والانتحاب وطلب العفو غير ان الملكة ظلت مصممة على أوامرها باعدام ابنتي وسألتها ان تسفك دمي إذا كانت ظامئة لشرب الدم وتعفو عن ابنتي الوحيدة ولكنها رفضت طلبي وقالت هذه الملكة الكريمة القديسة.

ـ اعطوهما جثة ابنتهما ولتدفن دفناً مسيحياً وهذه هي النعمة الوحيدة التي استطيع منحها لهما .

وأثر هذا التذكار على ساتبا أشد تأثير فهطلت الدموع غزيرة من عينيه وأخذ ينتحب قائلاً:

ـ مرغريتا .. باولينا .

وسكن تأثره تدريجياً فرفع رأسه وأردف حديثه قائلاً :

ـ لست استطيع أن اصف لك كيف خرجت من ذلك المكان الجهنمي وأنا حامل جثة ابنتي الميتة وزوجتي المغمى عليها وكل ما اعرفه انه مر ثمانية أيام على تلك الام المسكينة التي

شاهدت رأس وحيدتها يقطع أمامها وهي مصابة بحمى قوية ذهبت بحياتها العزيزة وبقيت وحيداً في هذا العالم .

ـ كيف استطعت الثبات على هذه النكبات الرهيبة ؟

ـ لقد كان عندي ما هو أهم من الموت يا سيدتي .

ـ أتعني الانتقام ؟

ـ نعم فاني تركت المدرسة التي كنت فتحتها لتعليم حمل السلاح وكنت على يقين بان عملي يعرضني للخراب والهلاك ولكني لم أبال بالعواقب لأني كنت أراقب فوستا وظللت ثلاث سنوات على مراقبتها حتى انفقت كل ما كنت جمعته فعدت الى صناعتي الأولى لأتمكن من القيام باودي وفي أحد الايام من سنة ١٥٩٠ بلغني أن محكمة البابا سيكستوس الخامس قد حكمت على فوستا بالاعدام غير أن هذا الحكم أبدل بالعفو فاصابتني حينئذ نوبة يأس كادت تقضي علي ولكني بعد بضعة أيام انتقمت انتقاماً رهيباً كاد يميتني من فرط سروري إذ بلغني أن فوستا وضعت غلاماً وأن أحدى خادماتها هربت بـه الى باريس فتركت فوستا ولم أعد أبالي بها وأسرعت بلحاق ميرتيس الخادمة التي أخذت الطفل فادركتها وهما في الطريق وقد رسمت في فكري خطة للانتقام من فوستا لا مثيل لها .

ـ وقد قضيت سنتين وأنا أراقب ميرتيس الخادمة والغلام ولكنها كانت تحافظ عليه أشد المحافظة بيد ان الحقد والرغبة

في الانتقام تولدان في الانسان قوة لا تخطر ببال خصوصاً إذا كان المرء مدفوعاً برغبة الثأر الشخصي وبعد سنتين تكلل صبري بالظفر فقد انتهزت فرصة مناسبة تغافلت فيها ميرتيس الطفل مرة فخطفته في الحال .

– لقد ربيت ابن فوستا يا سيدتي واعتنيت به كما اعتنيت فيما مضى بابنتي باولينا ولكن بطريقة أخرى فقد قضيت الليالي الطويلة وأنا سهران عليه كما تسهر الام الحنون على ولدها الوحيد .. وأصيب مرة بحمى شديدة فنذرت النذور ليمن الله عليه بالشفاء فاستجاب طلبي وانقذه من الخطر الذي كان يهدد حياته .. لقد بلغ اليوم ابن فوستا السنة العشرين من عمره وهو شجاع باسل لا يخاف احداً ولا يرهبه أمر وهو شقي أيضاً وقاطع طرق .

ورغماً عن مزيد عنايتي به لم يتهذب كما أريد وهذا هو الأمر الذي يسوءني فانه منذ مدة صغره كان ينفر من بعض المبادىء التي كنت أريد تلقينه أياها .. لقد قلت منذ هنيهة انه تلقن مبادىء والدته وشب على اخلاقها فأريد على ذلك بقولي انه متخلق بكثير من طباع والده وعلى كل حال فاني بذلت كل مجهودي لأجعله كما أريد وما الذنب ذنبي إذا كنت لم انجح تماماً وكفاني بان جعلته الآن لصاً وقاتلاً عقوقاً على كل سلطة ولا يخضع إلا لأرادته ولا يعرف له شريعة إلا ما يسنه له هواه فهو الآن معد ليد الجلاد وكنت أرجو بان ينتهي هذه الليلة ولكن ظني قد خاب .

– لهذا السبب أخبرت الحاكم الاعظم .

– نعم يا سيدتي :

– ان ما خاب الليلة يمكن تجديده مرة ثانية .

– أخطأت يا سيدتي فان جوهان ليس من الذين يقعون في الشرك الواحد مرتين بل اني استغرب كيف استطعنا خديعته وهو قد نجا منا في الدقيقة الاخيرة .. ولست أجهل يا سيدتي بأن وجود الملك يضايقك كثيراً ولكن مهلاً فستدركين مأربك منه وليتني على يقين من تحقيق انتقامي كما انت على يقين من ادراك مأربك عن قريب .

– ما الذي تعنيه بقولك فهل عرفت شيئاً جديداً .

– كلا يا سيدتي ولو صدقت الاشاعات التي سمعتها من كل مكان فان ايام الملك اصبحت معدودة وقد قضى عليه بالهلاك ولكني أجهل بيد من يكون موته وكيف يموت وهذا السر لا يعرفه أحد من الناس أو بالحرى هم لا يبوحون لي به غير ان أن الامر الذي نحن على يقين منه أن الملك هنريكوس دي نافار لن يحي طويلا .

– صدقت وهذه الاشاعة تتداولها كل الالسنة في كل فرصة عن موته القريب .

– كيف كان الحال فاني ساعدتك في هذه المسألة ومستعد لمساعدتك حتى النهاية إذا اقتضى الامر .. وقولي لي يا سيدتي

ألم تسمعي بان منجماً قد تكهن للملك بان موته سيكون بعد أول حفلة رسمية يقيمها.

– وهل أنت من الذين يعتقدون باقوال المنجمين والسحرة.

– نعم يا سيدتي وهل أنت تنكرينها ؟

– لست أصدقها كثيراً.

أخطأت يا سيدتي فان الملك ذاته لا ينكر صحتها لذلك أبى أباء باتاً أن يقيم حفلة تكريس زوجته الملكة ماريا لأنه على يقين من موته على أثر هذه الحفلة.

ولا يخفاك يا سيدتي أن الحيطة شرط أساسي للنجاح في كل الاعمال.

وما معنى قولك ؟

– انت يا سيدتي التي نلت ثقة الملكة التامة يمكنك أقناعها بان تطلب من الملك تكريسها ملكة على الفرنسيين ولا ريب بان مثل هذه الحفلة تكون شائقة وليس أبهج منها ويكون فيها تحقيق القسم الأول من النبوة أما القسم الثاني فيمكن اتمامه بقليل من المهارة والشجاعة.

– قد تكون صادقاً في قولك غير أن الملك لا يمكن اقناعه بسهولة بما لا يريده فهو إذا رفض أمراً يصر على رفضه.

ليس الأمر صعباً كما تتوهمين فقد قيل أن ما تريده الامرأة يريده الشيطان وبالاحرى الملك الذي هو غير الشيطان ولنعد في حديثنا الى جوهسان فما كان أبدع مشهده لو رأيته

واقفاً في ساحة الاعدام بتهمة اعتدائه على الملك ومحاولة قتلـه فحقا ان مثل هذا المنظر البديع والانتقام الرائع لم يكن يخطر لي ببال وفكري يا سيدتي بما هو معد له من العذاب الرهيب.. ولسوء الحظ أن هذه المكيدة لم تفلح وهيهات أن اظفر بفرصة تكون أكثر ملائمة.

– وما التي نويت على عمله ؟

– ليس لي من مأرب إلا أن أسوقه وأسلمه الى يد الجلاد.

– وكيف تريد تسليمه يد الجلاد وما هي الطريقة التي اعتمدتها ؟

اليك يا سيدتي الخطة الجديدة التي رسمتها فسأطلع جوهان على أثر كنوز والدته او بالحري كنوزه الخاصة لأن أمه قد تنازلت له عنها ولا يخفاك باني سأكتم عنه هذه الحقيقة فلا يعرف إلا أن الامر يتعلق بمبلغ جسيم ادفعه لسرقته ولا ريب باني سألقي صعوبة عظمى فيما أريده لأن لهذا الشاب افكاراً غريبة لا يحول عنها ولكني اتولج اقناعه بما أريده ومتى اقتنع بذلك اضمن لك أنه يتمكن من اكتشاف الكنوز الطائلة:

وماذا يحدث بعد ذلك.

– عندئذ يبتدي دورك للمداخلة بالامر ولست ادري كيف تفعلين لاجابة مطلبي لان هذا التداخل من اختصاصاتك وأنا اضمن اليك تدبير هذه المسأله كما تريدين لتدخل هذه الكنوز الى عهدتك أما الآن وقد وقفت على سري وعرفت ما أتوخاه وكل نجاح مسعاي الى عنايتك وسيان عندي حكم عليه بتهمة

اعتداء على الملك ومحاولة قتله أو تهمة السرقة لاني لا أطلب إلا رؤيته مقتولاً بيد الجلاد .

– ولأجل الوصول الى هذه الغايـة ترى أنه يجب علي بان ادفع الملكة للمداخلة بهـذا الشأن ومتى فعلت ذلك اضطر لاعطائها هذا الكنز بدوري .

– ذلك أمر يعنيك يا سيدتي .

– إذا كنت لا ترى غير هذه الوسيلة لنجاح مسعاك فاعدك باستعمالها لتكون على يقين يا ساتيا بان الذهب لا يغرني .

– حقا يا سيدتي انك مثال للجود وكرم الاخلاق .

وتناولت اليونورا حقيبة مفعمة بالذهب فاعطتها لساتيـا وقالت له :

– متى عزم على السعي وراء هذا الكنز تنذرني بعزمـه فأمض الآن في سبيلك .

فانحنى ساتيا امامها مسلما عليها وخرج من الغرفـة ولم ينبس ببنت شفة ولما أصبحت اليونورا لوحدها سندت ذراعها على طاولة صغيرة كانت قريبة منها واعتقلت رأسها بين يديها وقد شغلها الافكار العميقة بالاسرار التي كانت وحدها واقفة عليها .

الفصل الحادي والعشرون

الورقة اللعينة

قضت السيدة كولنيكل صبيحة يومها في ملاحظة اصلاح ما تلفه المقنع ورفقائه الثلاثة الذين طرقوا منزلها .

وبعد أن أتمت عملها جلست قرب النافذة المطلة على الطريق وكانت في ذات الحين تراقب المارة لأنها كانت تعتقد ان الاعتراف هو عبارة عن مبارزة حقيقية يجب أن تخرج منها ظافرة فتنال الحل من خطاياها .

ولما قرعت الساعة الثالثة ونصف بعـد الظهر رات الكاهن مقبلاً من جهتها وكأن الأقدار قد سهلت عليها ما تريده فأنـه وقف صدفة أمام باب منزلها فاسرعت بالنزول للقائه . ولمـا وصلت به الى الغرفة اجلسته على كرسي وأخـذت تلاطفه وابتدرها بقوله :

– لما دعوتيني أيتها السيدة المحترمة كنت اتساءل وأناجي نفسي لعل أرى شخصاً مسيحياً مؤمناً يقدم لي الضيافة أو قليلاً

من المرطبات لان الحر شديد والظمأ يكاد يقتلني فهل لا يزال عندك شيء من تلك الخمرة فقدمت له أقدم مما عندها من الخمر وأخذا يعاقرانها سوية .

ثم بدأ الكاهن يحادثها بأمور تافهة منتظراً ان تفاتحه بالموضوع الذي يهمه ولم يكن لها ذات الصبر ولا تلك المهارة بل كانت في شوق شديد إلى معرفة ما تضمنته تلك الورقة التي كادت تحرق جنبها ثم بادرته بملء الاسف والحزن وقالت .

اني احمد الصدف يا ابتاه التي ارسلتك إلى منزلي فقد جرت فيه بالامس امور خطيرة اود استشارتك بشأنها .

— تكلمي يا ابنتي العزيزة ويسرني ان اخدمك بمعارفي الكثيرة .

— الامور التي حدثت يا ابتاه في منتهى الخطورة والاهمية ولا بد من المحافظة عليها بمنتهى الكتمان .

— هل تودين يا ابنتي أن اسمع منك اعترافك ؟

— نعم . . نعم .

— تكلمي يا ابنتي فاني صاغ اليك .

— لا بد لي من اخبارك بانه حدث مصاب عظيم للفتاة التي كانت مستأجرة غرفة في منزلي وهي الفتاة التي كان يهتم بها الملك اهتماماً عظيماً فقد خطفت في الليلة الماضية .

واخذت تقص عليه حكاية خطف الآنسة برتيل وكتمت

عنه بعض التفصيلات التي تعود عليها بالمسؤولية وحورت البعض الآخر فلم تذكره الا كما يوافق صالحها وكتمت عنه انها اصغت الى الحديث الذي بين الفتاة وخاطفها

وكان كولار الكامل يصغي إلى حديثها حسب عادته ولا يقاطعها بحرف منه بل يصادق من حين إلى آخر على عملها وقولها باحناء رأسه ولما انتهت من اعترافها حاول أن يوجه اليها بعض الاسئلة لعله يتمكن من اجوبتها من معرفة الخاطف المقنع ولكن الاباحة بذلك السر لم تكن تروق العجوز الخبيثة فلم يستطع الكاهن رغماً عن دهائه من معرفة ما كانت ترغب بكتمه حتى أنه اقتنع بانها لا تعرف الا ما ذكرته له .

وابتدأ عندئذ القسم المهم من الاعتراف فان العجوز طرقت الموضوع الخطير الذي كان يهمها وقالت :

بقيت مدة طويلة بعد ذهاب اولئك الاشقياء وأنا عرضه لاشد الأخطار .

ولم اعد إلى رشدي الا بعد مدة طويلة لان هذه الضربة كانت قوية على امرأة ضعيفة مثلي فلما عاد الي وعيي فكرت بان غرفة تلك الفتاة المسكينة يجب أن تكون قائمة قاعدة فصعدت اليها بغية إصلاحها وترتيبها وبينما انا كذلك فكرت بأني قد اعثر على أوراق مشتبة بها أعرف منها الشخص الذي خطف الفتاة لاني لم اتمكن من رؤية وجهه بسبب قناعه . . نعم أني اخطأت بتطفلي ولكن غايتي كانت حميدة وهي خلاص الفتاة

التي عهد إلي امرها إذ لعلها تكون في أشد مواقف الضيق ونجاتها على عملي ولعلي ايضاً كنت استطيع العثور على ما تم الملك معرفته لأنه كثير الاهتمام بها وقد جاء لزيارتها في الساعة التاسعة ليلاً فهل اخطأت بعملي ايها الاب المحترم ؟

– كلا يا ابنتي لأنك كنت مدفوعة اليه بنية حسنة ومقصد صالح ولكني سمعتك تقولين أن الملك جاء لزيارتها .

– نعم يا ابتاه وقد بقي معها في غرفتها أكثر من ساعة .

– اخطأت يا ابتاه في وهمك فهذه الفتاة التي لم تكن تعرف بغير اسم برتيل اتدري من هو ابوها ؟ أنها ابنة الملك بالذات ... حقاً أن هذا الأمر لا يصدق .

– وهل أنت على ثقة تامة مما تقولينه يا ابنتي ؟

ولما رأت العجوز أمارات الشك والارتياب بادية على محيا ذلك الكاهن المحترم اخذت تقص عليه لأجل اقناعه تفاصيل ما قرأته بمذكرة بلانش دي سوجيس ثم قالت :

– وقد عثرت بين هذه الأوراق على كتاب موقع عليه من الكونت دي فوبرون وهو كما لا يخفاك خطيب بلانش دي سوجيس وبه يصرح لها عن إرسال أوراق ومستندات ثمينة للغاية والظاهر إنها تدل على المكان المخبأ فيه الكنوز الطائلة التي دفنتها احد الملكات التي يسميها .. فوستا .

ورغماً عن رباطة جأش كولار الكاهن وثبات عزيته لم يقو على التمالك فقفز من مكانه مذعوراً كأن الأفعى قد لسعته اذ لم

يكن يتوقع سماع هذه المكاشفة الخطيرة ولكنه تغلب على تأثره وعادت اليه سكينته وقال لها بلهجة الآمر :

– اعيدي قولك .. اعيديه .

– نعم أنه اسم غريب لم اسمعه في حياتي ولكني على يقين تام منه لاني حفظته جيداً في ذاكرتي .

– اتمي حديثك فهل لم يكن في الكتاب غير اسم فوستا ؟

– بلى فقد قرأت فيه اسماً غريباً وهو مير .. ميرتيس .

نعم نعم هو اسم ميرتيس فقد تذكرته تماماً واسم باردليان وساتيا . ولكن ما الذي اصابك يا ابتاه فتغيرت إلى هذه الحال ؟ .. حقاً لقد اخفتني بانقلاب ملامحك ؟

– حذار يا ابنتي فان ما تقولينه خطير للغاية واعلمي أنك تخاطبين الله في هذه الساعة وهو فاحص القلوب وعارف الافكار الخفية فاجيبيني اذاً كما تجاوبين الله واياك والنكران فهل اخذت الأوراق والمستندات ؟

– واسفاه يا ابت أني لم احصل إلا على ورقة واحدة منها كنت أود أن تترجمها لي لأنها مكتوبة بلغة غريبة .

– حسناً وأني امرك بان تطلعيني على مضمون هذه الورقة بالتمام وحذار ايتها التعسة من النكران فان خلاصك الابدي يتوقف على صحة اقرارك واقل كذب تتعمدينه يعرضك لنيران الجحيم الدائمة .

ولم تكن تلك العجوز المسكينة تتوقع هذا الأنذار

الرهيب واخذت تتساءل لتعرف ما الذي جنته حتى استحقت الوعيد بنار جهنم الدائمة فجمد الدم في عروقها وعقل الخوف لسانها حتى كان يخنقها وادرك الكاهن أنه لا يستطيع أن يعرف منها ما يريده إذا ظلت خائفة فاراد تطمينها وتسكين هواجسها فقال لها بلطف

— لعلك ارتكبت خطيئتك عن جهل وإذا كان الامر كذلك فانت تستحقين العفو ولكنك لاتنالينه إلا إذا اطلعتيني على سرك بتمامه فتشجعي يا ابنتي وتكلمي لان الله غفور رحيم ولكن حذار أن تذكري اسما قط .

— لقد كان الكتاب منذراً بارسال الاوراق والمستندات المتعلقة بذلك الكنز وهي تدل على المكان المخبوء فيه الكنز الخاص بالملكة والذي وهبته لولدهـا الذي رزقته من سيد نبيل .. وجاءت بهذا الولد إلى فرنسا إحدى خادمات تلك الملكة .

— وهل جاءت الخادمة بهذا الغلام إلى فرنسا لأجل تربيته ؟

— نعم يا ابتاه ولكنه سرق منها وقد ظن الكونت أنـه يعرف سارقه وهو شقي يدعى ..

— ما الذي عملته الخادمة بعد أن سرق الغلام منها ؟

— انتحرت من فرط يأسها .

— فلتحملها الشياطين أمـا كانت تعلم بان امنا الكنيسه المقدسة قد حرمت الانتحار وما الذي عملته قبل أن تموت .

— أخذت إلى الكونت الأوراق المتعلقة بالكنز .

— ولماذا خصت الكونت دون سواه بهذه الاوراق .

— لانه كان خادماً للملكة وهو صديق حميم لوالد الغلام .

— فهمت الآن فان الكونت كان مناطاً بـه حفظ هـذه الاوراق لتسليمها إلى والد الغلام ولكنه انتحر أيضـاً ولتحمل نفسه الشياطين وبهذه الوسيلة ظلت الاوراق عند خطيبته وهي خلفتها لابنتها .

إذن اريني قبل كل شيء تلك الورقة الجهنمية اذ لربما اكون مخطئاً في حكمي .

وكانت العجوز لا تزال جاثية على ركبتها ففتشت في جيوبها حتى عثرت على تـلك الورقـة اللعينة الـتي كادت تكون سبباً لهلاك نفسها فتناولها منها كولار الكامل بطرف اصابعه والقى عليها نظرة مريبة ثم القاها على الأرض كأن فيها نار تحرقـه واخـذ يقسم عليها الاقسام الرهيبة كي لا تضربـه فكادت المسكينة تجن من فرط رعبهـا وجزعهـا وبعد سكوت قليل خاطبها قائلاً :

— اتعلمين ايتها الشقية من هي هذه الملكة الموهومة ؟ انهـا وخادمتها شيطانتان فهل فهمت كلامي .

— نعم .. نعم فرحمتك وعفوك .

— اتعرفين من هو الشقي الذي خطف الغلام ؟ أنه شيطان هارب من الجحيم .

- عفواً .. عفواً :

- اتعرفين من هو الكونت وصديقه والد الغلام المزعوم ؟ انها هالكان قد باعا نفسيهما لهاتين الشيطانتين .

- ارحمني يا الله واعفو عني .

اتعلمين ما تتضمنه هذه الورقة ؟ أنها العقد الجهنمي المبرم بين ذلك الشقيين والشيطان .

فلم تجاوبه العجوز هذه المرة على قوله إذ كان قد أغمى عليها فهز الكاهن كتفيه وقال باستهزاء :

- سيفيدها هذا الدرس فائدة كبرى وأنا على يقين من أنها لا تحكي هذه القصة بعد الآن لأحد .

وذهب بكل سكينة فأخذ كأساً ملأى من الخمر وسكبها على وجه العجوز التي فتحت إحدى عينيها بوجل لا يوصف فقال لها بلطف :

- انهضي يا ابنتي فانا على يقين بانك لم تخطائي عمداً .

فاعادت لها هذه الكلمات سكينتها ولكن ركبتيها ظلتا ترتجفان وأخذت تنظر إلى الكاهن بعينين ملؤهما الرعب والوجل فقال لها :

- اشرعي واعطني ماء مقدساً لاطهر هذا المكان .

فهرولت العجوز إلي غرفة منامها وجاءته بما طلب فأخذ الكاهن برش الغرفة من سائر جهاتها وسكب الباقي على رأس تلك المسكينة التي كانت لا تزال جاثية أمامه ولما انتهى من عمله

قال لها :

- أما الآن وقد عرفت عواقب عملك الذي اتيته من غير عمد ولا روية فحذار أن يكون عندك غير هذه الورقة .

- اقسم لك بخلاص نفسي الأبدي أني لم آخذ غير هذه الورقة .

- لقد صدقتك وأرجو بان لا تكوني قرأت الأوراق الاخرى .

- كيف اتمكن من قرأتها وهي مكتوبة بلغة اجهلها .

- صدقت يا ابنتي .

- وما الذي تريد أن تعمله بهذه الورقة الجهنمية :

- يجب حرقها في الحال .

فتراجعت العجوز مذعورة وقالت وقد ضمت يديها إلى صدرها بوجل زائد .

- الا ترى يا ابتاه أن الكاهن لوحده يستطيع القيام بهذه المهمة الخطيرة من غير أن يعرض نفسه للهلاك .

- فليكن كما تريدين يا ابنتي وسأحرق هذه الورقة بذاتي وزيادة للاطمئنان ساحرقها في الكنيسة واصلي بعدها الصلاة المعتادة .

فانكبت العجوز على يديه تقبلها . وهي تستفيض بالشكر والامتنان وطلبت منه بصوت متهدج أن يمنحها العفو والغفران فقال لها :

— لست ابخل عليك بما طلبتيه مني ولكنني أرى ان واجبي يقضي علي بانذارك من الهلاك الابدي الذي لا يعود لك معه امل بالغفران إذا حاولت مرة ثانية التفتيش في هذه الاوراق .

واعلمي أيضاً بأن هلاكك يتوقف على ذكرك اسماء هؤلاء الشياطين لأنك تجهلين ايتها الشقية أنك بذكرك اسمائهم تعرضين لظهورهم أمامك وإذا جرى ذلك وارادو أن يقودوك جبراً معهم فهل تحسبين أنك تستطيعين مقاومتهم ؟ وأني انصحك بتناسي هذه القصة إذا كنت تريدين المحافظة على خلاص نفسك .

— أقسم لك يا ابتاه بان انسى كل ما ذكرته لك .

— احسنت يا ابنتي وبذلك لا تتعرضين لهلاك نفسك .

واسرع بالخروج من المنزل ليحرق تلك الورقة الجهنمية وظلت العجوز مدة طويلة وهي عرضة لاشد التأثير والاضطراب .

الفصل الثاني والعشرون

معرفة مكان الكنز

ولم يكد كولار الكامل يبتعد عن منزل العجوز حتى أخذ بتلاوة تلك الورقة الثمينة التي تمكن من الحصول عليها بمثل تلك السهولة .

ولما انتهى من تلاوتها ذهب تواً إلى دير الكبوشيين ولم يلبث أن دخل الغرفة التي رأيناه فيها عند الصباح وكان لا يزال فيها كلودا كوافيفا يتحادث مع الاب جوزيف على انفراد فلما دخل عليهما ذلك العامل السري نظر الاب الكبوشي اكوافيفا نظرة استفهام فاشار عليه بالبقاء، وسأل كولار الكامل بلطفه المعتاد .

— هل احسنت القيام بالمهمة التي عهدتها اليك ؟

— اجل يا سيدي وقد جئتك باخبار عظيمة الاهمية .

— تكلم بسرعة يا ولدي فاني صاغ اليك ؟

فاعـاد كولار الكامـل الحديث الذي سمعـه من العجوز فاجابه اكوافيفا قائلاً :

– إذن فهذه الفتاة ابنة الملك ولكن مـا لنا ولهـا فأن وجودها بات ثقيلاً علينا ويجب التخلص منها موقتاً .

– ليس اسهل من وجودها وانا على يقين بانها هي الفتاة التي ذهب بها جوهان الشجاع إلى قصر الدوق دانديلي ومتى انجزت حديثي يحكم سيدي بوجوب التخلص منها .

– لقد كنت على يقين بانك جئتنا بغير هذا الخبر .

– صدقت يا سيدي .

قال هذا وناوله الورقة التي اخذهـا من العجوز كولنيكل التي سرقتها من الفتاة المستأجرة غرفة في منزلهـا فاخذها منه وقرأها بامعان زائد فـابرقت عيناه باشعة غريبة كانت الدليل الوحيد على التأثر الذي شعر به في ذلك الحين .

والتفت بهدوء السكينة إلى الأب جوزيف الذي كان يصغي إلى هذا الحديث وهو صامت واعطاه الورقة وقال له :

– لقد عزمت على أن لا اكتمك امراً ما زلت مقيماً في هذا الدير سواء انضممت إلى طغمتنا أو لم تنضم اليها لاثبت لـك ثقتي التامة بك لقاء الخدمة المثلى التي قدمتها لي بسماحك في اقامتي هنا معتزلاً عن جميع الناس فخذ واقرأ هـذا الكتاب واحكم بعد ذلـك إذا كان يجوز الارتياب بأن العناية الهية تساعدنا .

« كنيسة الشهيد القديس » .

« الواقعة شرقي وأسفل مشنقة السيدات » .

« يحفر في أسفل السور من جهة باريس فتظهر قبة تحتها سلم ذو سبع وثلاثين درجة وهـذا السلم ينتهي إلى قبو فيه مذبـح وعلى بلاطة هـذا المذبح رسم اثنتي عشر درجـة فيجب الحفر تحت الدرجـة الأخيرة التي يعلوهـا صليب يوناني فيظهر زر حديـدي كبير يقـرع عليه بشده فتنكشف حفرة إذا نبشت قليلاً وتظهر بلاطة تحتها تابوت مخبوء فيه الكنز »

وكان الاب جوزيف يقرأ هذه الكتابة بتمهل وامعان كأنه يريد أن يحفظ كل حرف منها ولا تفوت سامعي تلاوتها كلمة من كلماتها المهمة ولما انتهى منها اعاد الورقة إلى اكوافيفا وقال له :

– بقي علينا أن نتحقق إذا كانت هـذه التعليمات صحيحة أو كاذبة .

فطوى اكوافيفا الورقة بمزيد الاعتناء وسأل كولار الكامل قائـلاً :

– اين عثرت على هذه الورقة ؟

– إنهـا تتضمن يا مولاي التعليمات التي تبحث عنهـا منذ عشرين سنة من غير جدوى وقد كانت عند الفتاة المدعوة برتيل دي موجيس .

– لقد ادركت الآن السبب الذي دعـاك لان تطلب مني اخفاء هذه الفتاة فقص علي تفصيل حكايتك .

واخذ كولار الكامل يقص عليه تفصيل الاعتراف الذي

سمعه من العجوز كولنيكل وما سمعه منها عن الكتاب المرسل من الكونت دي فوبرون إلى خطيبته بلانش دي سوجيس ولما انتهى من حديثه فكر اكوافيفا قليلا وقال :

— أن ما سمعته منك يدعوني لتحوير الخطة التي كنت قد رسمتها فالآن صرنا نعرف اين نجد الكنز وصار من صالحنا أن لا يعرف باردليان ابنه وهذه الفتاة تعرف الحكاية من اولها إلى آخرها بتفصيلاتها التامة وقد صارت ذات علاقة مع الولد وابيه فاذا جمعت الاقدار هؤلاء الاشخاص الثلاثة وذكر أمامهم عفواً اسم ساتيا يظهر في الحال سر مولد جوهان الشجاع وهو ما يقضي علينا أن نحاذره بكل الوسائل ويجب أن يختفي هذا الشاب ولا يعود للظهور فاصغ إلى ما أقوله لك :

وتكلم اكوافيفا طويلا وكان كولار الكامل والاب جوزيف يصغيان إلى أوامره بمزيد الاهتمام والاحترام .

*

ننقل القراء الكرام في مساء ذات اليوم إلى غرفة واسعة يدخل اليها النور من نافذتين عاليتين وهي انيقة الرياش فاخرة الامتعه الثمينة فيها مكتبة حوت انفس الكتب الخطية واندرها وهي مجلدة تجليداً مذهباً وفي وسطها طاولة تكدست عليها الاوراق والمحابر وفي جدرانها كثير من الاسلحة المختلفة الاجناس حتى ليحتار الداخل إليها إذا كان صاحبها رجل علم

أو صاحب ثروة ام هو من المولعين بامتشاق الحسام ولم يكن فيها اثار التدين غير أن الامر الذي لا مرية فيه أن صاحب تلك الغرفة هو سيد عظيم .

ولا بد لنا أن نأتي على وصف هذا الرجل لعلنا نتوصل إلى معرفه مركزه في الهيئة الاجتماعية فهو شاب في مقتبل العمر لا يتجاوز السنة العشرين من عمره اصفر اللون صغير الشارب حديد البصر تدل ملامحه على الشدة والقسوة وكان في تلك الساعة يتمشى في الغرفة ذهاباً واياباً وهو مرفوع الرأس شامخ الأنف وعليه ثياب من المخمل الازرق موشاة بالحرير والذهب والفضة وفي رجليه حذاآن لامعان فيهما مهازان من ذهب وعلى جنبه سيف طويل صقيل .

وكان هذا السيد يدعى ارمان دي بلاسيس دي ريشيلو الذي أصبح منذ ثمانية اشهر اسقفاً على لوسون وهو لم يبلغ السنة الثالثة والعشرين من عمره .

دخل غرفته احد الخدم وهمس بعض كلمات فابرقت عينا ريشليو باشعة غريبة وبدت عليه امارات السرور وقال :

— دعه يدخل .

وكان الداخل احد الرهبان الكبوشيين فانحنى بوقار لا مزيد عليه امام الأسقف مسلماً عليه .

ولم يكن الراهب الا الجندي القديم الباسل فرنسوا لوكليرك دي ترامبلاي الذي اشتهر منذ عشرين سنة بشجاعته الفائقة

وبسالته النادرة في حصار اميانس بعد أن دافع عنها دفاعا لا مثيل له وهو ذلك الصفي القديم الذي عرفناه باسم البارون دي مافييرس الذي هجر مهنة السلاح وترك مستقبله غير آسف عليه ليذهب وينزوي في أحد اديرة أورليان وتكنى باسم الأب جوزيف وقد تدرج في المراتب العالمية حتى صار يتوقع أن يصير رئيسا للطغمة الكبوشيين .

وبعد أن تبادلا التحية والسلام جلس الراهب الكبوشي على الكرسي التي قدمها له الاسقف الشاب فسأله قائلا :

– هل من احد يستطيع سماع حديثنا !

فقام الاسقف وقفل باب الغرفة الخارجية وعاد فجلس في مكانه وقال :

– الآن صرنا في مأمن من الرقيب فلا يسمعنا احد .

فتأمله الراهب برهة كانه يريد استطلاع افكاره وقال له :

– هل علمت بأن الملك لن يعيش طويلا ؟

فعاد ريشيلو إلى العبوسة وقطب حاجبيه وقال بصوت اجش :

– اجل تلك اشاعة قد تداولها الكثيرون والملك لا يأتي عملا لمنعها بل بالعكس يظهر أنه مقتنع بصحتها اكثر من سواه وهو مع ذلك ممتلىء قوة وعافية ولست ادري .

– لقد حكم عليه بالموت ولا توجد قوة بشرية تستطيع

تخليصه من هذا الحكم !

فارتجف ريشليو لسماعه هـذا القول ولاحظ الكبوشي ارتجافه فقال له بسكينة لا مزيد عليها .

وبعد قليل أي بعد انقضاء حياته بمدة شهور تصبح ماري دي ميدسيس ملكة فرنسا وكل المتقربين اليها في الوقت الحاضر ينالون منها حينذاك ما يتمنونه من النعم ومن كان اكثرهم مهارة في التقرب والتزلف كان اجدرهم بالترقي والرفعة فهل فكرت بالمركز الرفيع السامي الذي سيناله ذلك الايطالي الخبيث المدعو كونسيني وهل لاحظت انهم يتزلفون إلى ولي النعم .

فابدى الأسقف إشارة مبهمة من يده وقد كان ينتظر من الراهب أن يوضح افكاره بجلاء فسأله قائلا :

– لماذا لا تسعى حتى الآن يا ريشليو لاكتساب رضاء ام الملك .

وكانت لهجته تدل على أنه مقتنع كل الاقتناع بصحة مـا يقوله فارتجف الأسقف الشاب لسماعه هذا السؤال ولكنه تغلب سريعاً على عواطفه وقال :

– لست أفكر وحقك بغير هـذا الامر غير أني لا اجد وسيلة لادراك ماربي فاني لا ازال صغير السن ولم ابلـغ بعد الخامسة والعشرين من عمري فكيف استطيع مقابلة ام الملك ! نعم أن كبر السن ليس من الشروط التي يقتضيها الذكاء الواسع والامال الكبيرة .

وسكن ثائره فجأة واتم حديثه بلهجة دلت على اليأس .

- كونسيني ... نعم اني بواسطته استطيع الوصول إلى الملكة ولكن يشترط لذلك أن اتمكن من خدمة مهمة له وحتى الآن لم تسمح لي الظروف بهذه النعمة .

- قل لي ما هو المركز الذي تطمع في الحصول عليه عند الملكة !

- لو كنت مرشدها على الأقل لتمكنت من الحصول على باقي ما اطمح فيه بكل سهولة .

- اعلم يا ريشليو باني جئتك بهذه الوظيفة فلا تقنط فتأمله طويلا بثبات ثم سأله فجأة :

- ما الذي يجب علي عمله !

* *

الفصل الثالث والعشرون

المساومة على الكنز

في الساعة العاشرة والنصف من صباح اليوم الثاني وقفت عربة اسقف دي لوسون في شارع سانت هونوري امام منزل كونسيني في الساعة التي ترك فيها بيته ليذهب إلى قصر اللوفر .

وبدا على الاسقف الاستياء الشديد لهذه المعاكسة لأن المهمة التي جاء لاجلها كانت كثيرة الخطورة والاهمية لا تقبل تأجيلا فطلب مقابلة زوجته في الحال .

ولم يكن ريشليو احد اصدقاء كونسيني وقد تقابلا قبل الآن اكثر من مرة في البلاط الملكي وكان الاسقف الشاب يسعى على حماية احد الكبار ليتمكن بمساعدته من الصعود على الدرجة الأولى من سلم الحياة السامية فوقع اختياره على كونسيني وزوجته السيدة اليونورا غاليكاي .

ورأى بعد حين أن كونسيني لا يمكن أن يكون الحامي

المرغوب فيه إذ لم تكن له القوة اللازمة ولكنه تحقق بحسن فراسته إن زوجته اليونورا كانت تمثل القوة التي يجب رهبتها والعقل الذي يديرها اما زوجها فلم يكن الا الذراع العامل ولكنه من عظم فطنته وسمو مدراكه عزم على مداراة نديمي الملكة والتقرب منهما على أن لا يترك احداً من المقربين إلى الملك يشعر بامره ولا يخفى ما في هذا العمل من الصعوبة والخطر .

ولا يخفى أن البلاط الملوكي يشبه بحالته ارضاً ملغومة يقتضي على السائر فيها أن يكون كثير الحذر واليقظة لان كل خطوة منه تعرضه لانفجار اللغوم الهائلة تحت قدميه فتذهب به وبكل الذين يكونون حوله .

ويستحيل على المرء أن يعيش في ذلك الوسط منفرداً إلا إذا فصل الذهب من حيث اتى .

وقد حاول ريشليو القيام بعمل لا يمكن تحقيقه في الظاهر ونجح في مهمته لأنه اهمل المخابرة مع كونسيني ولم يهتم بغير زوجته اليونورا واسفرت تلك المخابرات عن النتيجة الاتية .

لما أخذت تروج الاشاعات عن قرب موت الملك اخذ مركز كونسيني ينجلي ويبشر بمستقبل باهر وكانت اليونورا اشبه بقائد كبير يريد استعراض جيوشه ليتأكد من القوات التي يستطيع الاعتماد عليها قبل أن يشهد الموقعة النهائية فاعدت قائمة باسماء كل اصدقائها الذين يستطيع الاعتماد على نصرتهم وقت الحاجة وكتبت في مقابل هؤلاء اسماء اعدائها العديدين .

ولما وصلت إلى اسم ريشليو ترددت قليلا وناجت نفسها بقولها :

– هذا الرجل ليس من حزبي ولكنه سيصير منه إذا اردت ومتى أحببت .

وكان وصول ريشليو إلى منزلها في ساعة ملائمة وكأن الاقدار سهلت بمجيئه حين غياب زوجها وهو إنما كان بفضل المخابرة معها مباشرة ولم تكد تسمع خبر مجيئه لزيارتها حتى امرت خادمها بسرعة ادخاله إلى غرفتها وكان لا يزال مرتدياً ثيابه المخملية الزرقاء فاثر منظره تأثيراً حسناً على اليونورا التي كانت تراقبه بدقتها المعهودة .

وبعد أن تبادلا التحية والسلام قال لها الاسقف بلطف زائد

– لم اطلب يا سيدتي نعمة مقابلتك على انفراد الا لأني اريد مكاشفتك بامر خطير يهم جلالة الملكة اهمية عظمى .

– لو لم اكن اقدرك حق قدرك يا سيدي الاسقف لكنت سألتك عن السبب الذي دعاك لمقابلتي إذا كان الامر الذي تريد مكاشفتي به يهم جلالة الملك .

– أن ما تكرمت به سيدتي من اظهار عواطف احترامها لشخصي الحقير لا يمكن ان تشعر به جلالة الملكة .

ومعاذ الله أن أجسر على رفع صوتي على مليكتي المعظمة بل سأكون ما حييت من اخلص خدمها وستتأكدين صدق قولي من المهمة الخطيرة التي جئتك بها ولست ادري إذا كنت تقولين

عني رجل ذكاء وفطنة غير اني اشعر في رأسي وفؤادي من العواطف والافكار ما لا يشعر بها غيري من الناس ويسوءني كثيراً ان ابقى مجهولاً لاني لسوء الحظ لم اتجاوز السنة الخامسة والعشرين من عمري .

ولا ريب بانك ستجدين عملي غير متناسب مع وظيفتي اذ لا يجدر بي وانا من رجال الكنيسة ان اعلم مبادىء الكبرياء ولكني أسألك التمهل بحكمك إلى أن تسمعي تتمة حديثي فقد قلت لك اني لا استطيع مقابلة جلالة الملكة فجئت اليك توا لوثوقي في اخلاصك وتعلقك بشخص جلالتها .

فهل سمعت يا سيدتي قبل الآن بذكر كنز دفنته منذ عشرين سنة اميرة ايطالية تدعى الاميرة فوستا ؟

ـ اتصدق يا سيدي الأسقف مثل هذه الاكاذيب !

ـ اخطأت يا سيدتي فان الكنز موجود وانا لا اجهل الدليل الساطع على صحة ما اقوله :

ـ إذا سلمت جدلاً بما تقول فقد مرت على هذا الكنز مدة طويلة ولا ريب بانه لم يبق في مكانه حتى الآن .

ـ كلا يا سيدتي بل هو لا يزال في المكان الذي خبأته فيه صاحبته الاميرة فوستا .

هبك صادقاً في هذا القول فاين هو وكيف تستطيع العثور عليه إلا إذا قلبنا باريس وضواحيها رأساً على عقب بالتفتيش عليه وهو امر يستحيل تحقيقه .

ـ أني أعرف المكان المدفون فيه هذا الكنز .

ـ أنت تعرف مكانه !

ـ نعم يا سيدتي فقد حصلت على تعليمات بهذا الشأن ليس اصرح منها وبواسطتها اتمكن من اكتشاف ذلك الكنز العظيم ولا يبقى علينا لاجل اكتشافـــه الا العمل الذي يتوقف عليه كثرة نفقاته أو قلتها وعلى حسن الحظ والتوفيق ولكن النتيجة ستكلل بالنجاح ولا بد من الحصول عليه عاجلا أو آجلا وقد جئتك بهذه التعليمات وليس لي من غاية الا تسليمها لجلالة الملكة .

وبينما هو يتكلم اخرج من جيبه ورقة مطوية اربع طيات وقدمها إلى اليونورا التي كادت تجن من فرط دهشتها واندهالها ولكنها كانت سريعة التغلب على عواطفها فتمالكت روعها في الحال واخذت منه الورقة وفتحتها وقرأتها بامعان زائد حتى اتت على اخرها .

وكانت هذه الورقة نسخة مترجمة إلى اللغة الفرنسية عن الورقه التي قرأها الأب جوزيف باللغة اللاتينية إلى اكوافيفا وكولار الكاملي وكانت ترجمتها دقيقة للغاية لم يدخل عليه ادنى تحوير او تغيير

واخذت اليونورا تفكر في امرها وهي تقرأ الورقة فتسأل عن كيفية وصولها إلى يد الأسقف وسبب تسليمه اليها دون سواها ولم تكن تصدق أنه فعل ذلك مدفوعاً بعامل الاخلاص للملكة بل ودت أن تعرف الثمن الباهظ الذي سيطلبه منها لقاء

هذا التسليم وقد تواردت الامثلة بكثرة إلى مخيلتها وبعد برهة قالت له بسكينة :

– حقاً أن هذه التعليمات صريحة للغاية ولكني ارجوك أن تخبرني عن كيفية وصولها اليك .

– لا تهتمي بهذا الامر يا سيدتي و كفاك أن ما اعطيك إياه كثير الصراحة والوضوح ولأ اظنك تهتمين بغير هذا الامر .

– صدقت ولكن هذا الكنز لا يخصنا فبأي حق نستطيع الاستيلاء عليه وإذا فعلنا ذلك الا يعد عملنا ضرباً من السرقة !

– أني يا سيدتي كاهن قبل كل شيء ولا استطيع أن اقدم نصيحة شريرة لاي كان ولذا شئت اقول لك أني نبيل وليس في استطاعتي القيام بعمل سافل . كلا يا سيدتي فان هذا الكنز اصبح يخص جلالة الملك بحق وضع اليد لأنه قد مر عليه عشرون سنة وهو مخبوء في املاكه وقد ماتت الاميرة فوستا أو بالحري اختفى اثرها وهي واسعة الثروة إلى درجة لا تصدق فلا تبالي بهذه الملايين التي خبأتها وتركتها وانا على يقين من ذلك وقد خلفت هذه الكنوز لولدها وهو قد خطف أو سرق أو ضاع منذ كان صغيراً في المهد فلم يعد له من اثر واصبح هذا المال بحكم الضرورة عائداً لجلالة الملك وأنا الشخص الذي أعرف مقره وقد جئت لاطلعكم على مقره فيحق لي أن اطلب حصتي منه وأظن أن طلبي عادل فلا تعترض عليه سيدتي .

ولست أنكر أن مليكنا المعظم هو في مقدمة الملوك مجداً

وعظمة ولكنه في ذات الوقت زوج لمليكة فاضلة والحق يقضي علي بان اجاهر لك بأنه زوج شرير وأنت تعرفين هذا الحقيقة اكثر من الجميع لأنك صديقة ونديمة مليكتنا البائسة وقد شهدت العذابات والاهانات التي تتحملها كل يوم فهل لم يتمزق فؤادك شفقة وحناناً عليها حين رؤويتك هذا العذاب المستمر الدائم الذي تتكبده مليكتنا المحبوبة .. اليس من العار على الوطن أن تكون المليكة التي يجب أن تبقى ابداً مظهراً للاكرام والاحترام عرضه للاهانة والاحتقار وأن تحرم من كل شيء لتتمتع خليلات الملك بالانعام ويبذرن الذهب من غير حساب .. قولي لي بربك يا سيدتي اليس من العار علينا أن نرى مليكتنا محرومة من كل شيء تشتهيه وخليلاته يتداخلن في شؤون المملكة وفقاً لاهوائهن ويحضرون المجالس العمومية والنيابية ويتصرفن في الرعايا تصرف الحاكم المطلق .

وسكت برهة كأنه يريد تسكين تأثره ثم عاود كلامه بلهجة حزينة .

اني وايم الحق أشعر بتمزق في فؤادي حين أرى مثل هذ المنظر المؤلم المحزن لذلك أقول أني سأعمل لجلالة الملكة ما تفرضه علي واجباتي كرجل نبيل وخادم أمين ولكن لا توجد قوة في العالم تحول بيني وبين ما يطلب مني من واجبات الاخلاص والاحترام لجلالة مليكتي المتروكة والمهانة والمعذبة من زوجها المعظم .

– كن على يقين يا سيدي الاسقف بان جلالة الملكة ستقف عن قريب على عواطف اخلاصك وولائك لها .

– أرجو بأن جلالة الملكة أن تتنازل فتقبل ما اعرضه عليها وعلى كل حال أرى من الواجب أن ابلغك بعض تعليمات عن الثلاثة والثمانين مليونا التي أريد تقديمها .

– تكلم يا سيدي فأني صاغية اليك .

– لقد شرفتني يا سيدتي بسؤالك أياي عن كيفية وصول هذه الورقة الي وقلت لك وقتئذ أن هذا الامر قليل الاهمية في حد ذاته والآن أرى أن لا بد لي من تبليغك الحقيقة بتمامها لان الواجب يقضي باطلاعك على هذا الامر فالورقة الثمينة التي اعطيك أياها كانت تخص فتاة تدعى الآنسة برتيل دي سوجيس .

– برتيل .. اني اعرف هذا الاسم لكن اسم سوجيس لم اسمع به قبل الآن فمن هي هذه الفتاة

– هي التي كانت تقطن في شارع الشجرة اليابسة واهتم بها رجال البلاط اهتماماً عظيماً لان الملك كان مغرماً بها وسوجيس اسم عائلتها وهو سر لم يعرفه أحد سواي . وأزيدك علماً بأنني وضعت هذه الفتاة في مكان أمين .

– بربك ما الذي تقوله يا سيدي ؟

– نعم هي مسجونة في دير راهبات مونتمارتر ولست ابالغ لك إذا اكدت بأنه يجوز أعتبارها كائنة في ذلك الدير .

– حمداً لله .. واما أنت أيها الاسقف فكن في راحة بال من امرها وأمر عاشقها الشجاع ولنتكلم عنك الآن فانك قدمت لجلالة الملكة خدمة لا يمكن أن تنساها فما الذي تطلبه منها لقاء هذه الخدمة السامية ؟

– مقصدي الوحيد وغاية سؤلي أن اكون مرشد جلالتها .

– اهذا كل ما تطلبه ؟

– نعم يا سيدتي فاني قليل الطمع واعد ذاتي سعيداً إذا تمكنت من الحصول على هذا المركز الرفيع .

– حسناً فغداً عندما اسلم هذه الورقة لجلالة الملكة اطلب منها التوقيع على الامر بتعيينك في المنصب الذي أردته ومنذ الآن صرت اعتبرك مرشداً لجلالتها وليس اسقفاً عاديا ..

فانحنى ريشليو وقبل يد اليونورا قبلة ضمنها كل عواطف شكره وامتنانه .

الفصل الرابع والعشرون

سقوط جوهان بالشرك

ترك جوهان الشجاع كونسيني وهو غير حذر منه على الاطلاق وقد كان لاحـــظ من قبل أن نديم الملكة يلاحقه ويترصدة عن قرب ولكنه لم يخطر له في بال انه سيخونه خيانة سافلة تحط من مقام النبلاء .

ولما شعر بأن الارض تميل تحت قدميه بسط ذراعيه ولفرط دهشته صرخ صوتاً عالياً فسقط إلى الاسفل بشدة ولكنـــه لم يصب بأذى غير أنه ظل برهة مذهولاً ثم انتصب واقفاً وزجر قائلاً بالإيطالية:

– تعال أيها الجبان إلى هنا إذا جسرت لا تناول فؤادك من صدرك وامعائك من احشائك ولكنك خسيس جبان لا تجسر على الوقوف امامي .

وكان جوهان الشجاع قــد تعلم اللغــة الايطالية من ساتيا مربيه فاصبح يحسنها كما يحسن اللغة الفرنسية وقد تعمد اهانة كونسيني بالايطالية لأنه ايطالي الاصل .

ولم يلبث بعد قليل أن تأكد أن الصدى وحـده هو الذي يعيد شتائمه وتهديداته فالتزم الصمت وكان في ظلام دامس وبسبب سقوطه افلتت من يده العلبة التي كانت معه فاهتم بها قبل كل شيء وأخذ يجس عليها الارض إلى أن عثر عليها بسهولة فرآها قد فتحت وما كان فيها من الاوراق تكدس بجانبها وعلى مقربة منها فوضع كل شيء في مكانه .

وقاس المكان الذي هو فيه على جنح الظلام الدامس فرآه عبارة عن خمسة أقـدام صغيرة طولاً واربعة عرضاً وليس فيه فتحة أو منفذ صغير يدخل منه النور أو يتخلله الهواء .

وظل على هذه الحالة في البحث والتنقيب إلى أن اكتشف بعد الجهد الطويل على باب حديدي مصفح بالمسامير الضخمة وليس له من قفل داخلي وقضى ليلته ساهراً تتنازعه الهواجس والأفكار وأخذ التعب والجوع والعطش يؤثر عليه ثم مد ردائه في احد الزوايا على البلاط البارد ولم تمر عليه خمس دقائق حتى اخذ يغط غطيطاً عالياً .

الفصل الخامس والعشرون

محاولة قتل جوهان الشجاع

عاد كونسيني الى منزله قبل زوجته اليونورا بمدة طويلة وتمكن من النوم ساعتين بملء الراحة فزال كل اثر من التعب .

وكان قد قضى نهاره حذراً مترقباً أن يسمع من زوجته تعنيفاً وتقريعاً وانذاراً باطلاعها على سره ولكنها لم تفاتحه بشيء من هذا القبيل بل ظلت ملتزمة السكينة المعتادة فارتاح باله وأطمأن خاطره وتأكد بانها غير مطلعة على شيء من عمله

وفكر بامر جوهان الشجاع وأنه في تلك الساعة سجين داخل القبو الذي طرحه فيه وبعد أن اطال افتكاره وطد عزمه على الذهاب اليه لرؤيته فيشفي فؤاده منه .

وبعد أن تناول طعام الظهر حمل قنديلا صغيراً وذهب إلى خصمه الذي لم يكد يقع نظره عليه إلا وفاجأه قائلا :

– أيه يا كونسيني ما الذي تعمله هناك ولماذا لا تنزل إلى هنا أنك فطن يا كونسيني كما تدل عليك اعمالك ولست تظهر

بسالتك الا امام فتاة ضعيفة لا حول لها ولا طول للدفاع عن نفسها وليتك تكتفي بعملك فانك تجند عدداً كبيراً من الخدم لحراستك من شرها واذاها . فالويل لك ايها الكلب الاجرب .

رويدك يا كونسيني فان الخوف قد اضل صوابك فما الذي جئت تريده في هذا المكان ؟ هل حسبت أنك تلقاني فيه جزعاً وجلا واتيت لتروي غليل فؤادك برأى ثمرة انتقامك ؟ تكلم . قل ولا تخف فانت على يقين باني لا استطيع أن أنالك من المكان الذي أنت فيه :

واعادت هذه الكلمات كونسيني إلى شعوره بالحقيقة فكظم الغيظ الذي كان يغطي مراجله في صدره وقال :

– اعلم بانك ستموت في هذا المكان جوعاً وعطشاً .

فضرب جوهان يده على قبضة سيفه وقـــال بتهكم نعم إذا اردت .

– لقد أدركت ما تريده ولكني القي بين يديك كرة صغيرة تنفجر بلا صوت ولا حركة فتستغرق في النوم العميق ولا تعود تشعر بشيء فانزع منك سلاحك وأكرهك على أن تموت الموتة التي أريدها .

وبعد أن سكت قليلا عاود حديثه بتمهل .

– إن موت الجوع والعطش هو موت فظيع بل هو عذاب ليس افظع منه اذ يطول فيه النزاع إلى إيام كثيرة بل الى عدة اسابيع وأنت بحمد الله لا تزال في مقتبل العمر وقوة الشباب

وتستطيع احتمال هذا العذاب عشرين يوماً أو تزيد ففكر بالعذاب الذي أعددته لك واعلم بأن القليل منه يكفي لان يصير المرء مجنوناً وكم من الذين اصيبوا بـه كانوا يفترسون اعضاءهم من فرط جوعهم ولا ينالها الا العذاب والالم فهذا هو العقاب الذي اعددته لك يا جوهان الشجاع ولكني لست شريراً كما تخالني ولا اتخلى عنك سأحضر لزيارتك من حين إلى آخر لاتحقق الحالة التي تصل اليها فماقولك بذلك ؟ ثم أردف حديثه قائلا :

– اصغ لما اقوله يا جوهان واعلم بانك إذا اردت أن تخرج من هذا المكان حراً طليقاً ، انزل بذاتي لافتح الك باب سجنك واقودك إلى الخارج وأجعلك غنياً عظيماً فاعطيك خمسين الف ذهب ... أني اعرض عليك الحرية والثروة إذا شئت مجاوبتي على سؤال أوجهه اليك .

– متى اجبتك على سؤالك تنسى وعدك لي فلا تأتي لتفتح باب سجني وتخلصني منه .

– لا اطلب منك الجواب على سؤالي الا بعد أن تعادلك حريتك وتحصل على الثروة التي وعدتك بها

– وما يدريك اني متى صرت حراً طليقاً واخذت مالك لا انصرف قبل مجاوبتك على سؤالك .

– تعدني قبل خروجك من هذا السجن بان تجاوبني على سؤالي فاصدق قولك لي بك الثقة التامة .

– هات سؤالك لنراه .

– قل لي أين اخفيت الفتاة الحسناء .

– اهذا ما تريد معرفته فقط !

– نعم ولقاء ذلك اطلق لك حريتك واجعلك غنياً فتكلم حالاً واجبني على سؤالي .

– لك يا كونسيني جواسيس في كل مكان يطلعونك على كل ما يحصل ولا ريب بانهم اخبروك أن الملك رفض ليلة امس الحرس الذي قدمه لجلالته القائد براسلين وابى مرافقة الحاكم الاعظم وفضل التنزه بسكينة مع شخصين غريبين لم يكن رآهما من قبل .

– فأني اسألك عنهما وأريد معرفة مقرها ولو ...

– اعلم يا كونسيني باني أحد هذين الرجلين .

– أتريد يا جوهان مجاوبتي على سؤالي ؟

– لقد أراد الملك أن يعرف الذي دعاني لمنازلته وقد كدت اقتله وقتئذ وانا على يقين يا كونسيني بانك تجهل هذا الامر وأني نازلت جلالة الملك الذي سألني .

فقلت له باني تبلغت سراً أن شخصاً يحاول الدخول خلسة إلى منزل الفتاة التي احبها .

واراد الملك أن يعرف من الذي بلغني هذا الانذار فقلت له أني لم أتعود على خيانة اصدقائي ولا يخفاك أن جلالة الملك ذو مبادىء سامية وعوائد كريمة فصادق على قولي ولم يلح علي

بالسؤال .

– ويحك ايها الشقي هل حسبت اني جئت إلى هنا لسماع اقوالك الكاذبة .

– مهلا وستتأكد عن قريب أن الامر يهمك اكثر مما كنت تتوقعه فان جلالة الملك قـدر عملي حق قـدره حتى تنازل لتشريفي بالاكرام .

– أنت .. أنت ! ..

– نعم ولا تعجب في ذلك فقد تنازل ايضاً ليمنحني رخصة لمقابلة جلالته مقابلة خاصة في الغد وسيحضر هذه المقابلة رفيقي المجهول فلا تنس هذا الامر يا كونسيني لأنه في المقام الاول عند الملك .

– وما الذي يهمني من هذا كله وسيان لدي قابلت الملك أولم تقابله أما أنت فكن على يقين بان الملك متى وقف على حقيقة أمرك يتأكد بـان الجـلاد هو الشخص الوحيد الجدير بالاهتمام بك .

– اعلم يا كونسيني أن رفيقي يعلم علم اليقين باني لا اتخلف قط عن مقابلة جـلالة الملك لأن عليها تتوقف سعادتي في المستقبل فاذا تاخرت عن الحضور في الساعة المعينة يذهب إلى الملك ويقول له أن الشاب الذي نازل جلالتك في الليلة الماضية مرسل اليك من كونسيني النبيل وزوجته الحسناء لانهما يريدان موتك والتخلص منك ولما لم ينفذ لهما مأربهما السافل أرادا

الانتقام منه فقتلاه أو طرحاه في سجن عميق ولولا ذلك لما تأخر عن الحضور ولا ريب أن جلالة الملك يصدق قوله .

– وهل جسرت على هذا العمل ؟

– قلت لك اني كنت حذراً منك وقد تحققت ظنوني .

– كذبت .. كذبت فان الملك لا يصدق هذه الاقاويل

– بل يصدقه لما يسمع شهود وادلة .

– وهل عندك من شهود وادلة ؟

– أجل وهي التي تكرمت بتقديمها لي كما يفعل سائر الجبناء الذين لا اخلاق لهم فمن الذي اجبرك للقول باني سجنت وقبض علي بتهمة محاولتي قتل الملك في الساعة التي كنت اتمشى فيها بسكينة مع جلالته وإذا حاولت النكران يا كونسيني فان كرنكابل واسكركاس و كركان الذين انذرتهم بالامر يشهدون على اعترافك بهذا الأمر وستقر الفتاة بما سمعته منك أيضاً لان هذه هي الحقيقة الراهنة فهل تحققت الآن أني اتخذت احتياطاتي اللازمة ؟

وسيقبض عليك يا كونسيني كما يقبض على زوجتك الحسناء ولا تعود الملكة وهي حاميتك السامية تستطيع أن تمد لكما يد المساعدة بـل تعتبر ذاتها بمنتهى السعادة إذا تمكنت من الخلاص بسهولة من هذا المأزق الحرج .

– سننكر الامر كل النكران ونثبت كذلك بالبرهان .

– انسيت يا كونسيني أننا نكون ستة اشخاص لاتهامك

ربما أن الجهل اضل صوابك فانك نسيت الاستجواب الهائل الرهيب الذي يطلق اشد الالسنة كتماناً .

تصور ايها الاحمق موقفك الهائل حين تؤخذ للاستجواب الرهيب فتربط بذلك الدولاب الذي لا يستطيع اشد الرجال قوة واقتداراً احتمال اكثر من دورتين منه فتشعر بتكسر عظامك وتمزيق لحمك فتنادي طالباً التوقف عن تعذيبك لتبوح بسرك ولكنك لما تعترف به تؤخذ من العذاب الى الموت وقبل ذلك تقطع قبضة يدك لانهم يقيدونها قبل وضعك على الدولاب بقيد حديدي محمى إلى درجة البياض ويسكب الجلاد في جراحك الدامية زيتاً حامياً ورصاصاً مذاباً .

اما انا فلست اطلب شيئاً ولا أسألك القيام بما لا تستطيعه وقد اكتفيت بانذارك عما يصيبك إذا لم اكن حراً في غدي وما بقي من الأمر فهو من شؤونك الخاصة .

وكاد كونسيني يفتح فمه ليبلغه عفوه عنه وأنه أصبح حراً طليقاً ولكنه شعر في الحال بيد لطيفة توضع على كتفه فانتصب واقفاً وقد وقف شعر رأسه من فرط ذعره ووضع يده على قبضة سيفه ليفتك بالطفيلي الذي سمع منه هذا الحديث ولكنه ابصر زوجته ليونورا واقفة على مقربة منه وهي تحدجه بعينيها السوداوتين فصرخ بها قائلا :

— أنت كنت هنا ؟ .. كيف دخلت هذا المكان ومن الذي أطلعك على سري ؟

— لقد سمعت كل الحديث فما الذي نويت على عمله ؟

— إذا كنت سمعتي كل الحديث فكيف تسألني عما أريد عمله وهل بقي علي إلا أن افتح السجن لهذا اللئيم واتركه حراً طليقاً فهو الآن هتغلب علينا .

— حذار أن تفعل ذلك .

— لقد جننت ياليونورا الم تسمعي تهديده لي ؟

— بلى وأني احذرك من الاقدام على ما نويت عليه .

— أرى أنك ستكونين سبباً لهلاكنا .

— اخطأت فاني اعمل لخلاصك ومـا عليك الا أن تنفذ الاوامر التي اصدرها لك .

— وإذا خطر بباله . . .

— وهل نسيت الكرتين الصغيرتين .

فابدى كونسيني برأسه إشارة مؤداها أنه فهم ما تريده منه وتناول من جيبه كرتين صغيرتين القاهما في غيابة السجن وقال بمزيد الهدوء .

يا لك من أحمق مسكين فقد حسبت أنـك تخيفني بهـذه الحـكاية الملفقة فدع رفيقك الموهوم يقول للملك ما يريده فذلك امر لا يهمني لاني بريء وفي استطاعتي اثبات براءتي متى اردت وإذا كنت في ريب من كلامي فاعلم باني لن أعيد لـك الحرية التي توهمت الحصول عليها وقـد راق لي أن اجعلك تتصور اعتقادي بصحة كلامي لاقف منك على غايتك الحقيقة فلم يبق.

لك مناص من يدي وستقضي في هذا السجن جوعاً وعطشاً .

والقى من يده الكرتين الصغيرتين فلم يراهما جوهان الشجاع ولا سمع صوتاً لانفجارهما وقد أثرت عليه أقوال كونسيني اشد التأثير لأنه كان يرجو الخلاص وكاد يتحقق رجاؤه وإذا بآماله قد لعبت بها ايدي الاقدار فبات لا يرجو غير الفشل والموت .

ولم يطل تفكره بالامر لأنه شعر فجأة برائحة شديدة تكاد تخنقه فمد يديه إلى الامام وأستلقى على ظهره وقد فقد شعوره واغمي عليه .

**

الفصل السادس والعشرون

اليونورا وكونسيني

رأى كونسيني سقوط جوهان فانتصب واقفاً واعاد الصندوق الذي كان يحجب الثقب إلى مكانه وهو لا يدري إذا كان يجب عليه أن يسر أو يستأنف الحكم الذي أصدره على هذا الشاب لأنه لم يكن يعرف إذا كان موته أو خلاصه يتوقفان على عمله .

وأخذ زوجته إلى غرفة مجاورة وقال بلهجة التهديد والوعيد :

– لماذا حلت بيني وبين خلاصه من سجنه فهل توهمت أنه لفق هذه الحكاية لارهابي .

– لعل الامريكون كذلك ولكنني أعرف جوهان الشجاع أكثر من معرفتك له فهو شبه مجنون وله آراء وافكار غريبة وأكاد اجزم بانه كذب عليك ولم يسمعك الا حكاية ملفقة .

– ليتني اكون على ثقة مما تقولينه .

– صدقت وأنا ايضاً لست على ثقة من هذا الامر لأني لا اخاله اهلاً للقيام بكل هذه التحويطات الغريبة التي ذكرهـا لـك ولكن الحـوادث التى طـرأت علينا تدعوني لتصديق كلامـه .

– إذا كان الامـر كـما تقولين وأنـك تعتقدين صدق قوله فلماذا منعتيني عما أريده وحلت بيني وبين اطلاق سراحه .

فهزت اليونورا كتفيها باستهزاء وقالت :

– الم تدرك بان اطلاق سراحه بعد تهديده لك يعرضنا إلى الابد لخطر دائم فتكون تحت شفقته ورحمته طالمـا الملك هنريكوس في قيد الحياة ويكون في إمكانه أن يستنفذ المال الذي يطمع به .

– صدقت يا اليونورا فاني ارغب المحافظة على رأسي قبل كل شيء .

– إذن فقد كنت تنوي العفو عنه بعد أن هـددك بوعيده الكاذب وفي امكانه أن يعيده لك كل يوم . ثم استطردت حديثها قائـلة :

– قل لى يا عزيزي ما هي المـدة التي يظل فيها تأثير هذا المخدر .

– نحو الساعة .

– لنا الوقت الكافي لنعمل ما نريده فيجب قبل كل شيء أن نرسل من ينزع سلاح جوهان الشجاع اذ يجب أن يكون على اقتناع تام بانك اردت تنفيذ كل وعيدك ومتى تخلص هذا المساء

من أسرة يقتضي بان لا يحسب أن لك دخلاً في خلاصه وبتأكد بان الأمر لو توقف على ارادتك لكان قضى عليه في الحال والمهم عندي أن يتحقق جوهـان بانتهديده لم يؤثر علينا بشيء فهو شاب ذكي متوقد التفكير نير الذاكـرة فهو لن يعيد استعمال الطريقة التي تنجح معه في المرة الاولى .

– أنك وايم الحق ادهى من ثعلب .

– ذلك مـا أنا على يقين منه ولست اطلب منك الا أن يكون جوهان طليقاً في هذه الليلة وما بقي من العمل فانا اتولج قضاءه وكن على يقين بانه لن يتمتع طويلا بحريته الموقعة وانا اكفل لك موته بعد مدة قريبة . ولكن قل لي كيف يتصل الى هذا السجن ؟

– الامر بسيط للغاية لا يحتاج الا النزول للقبو فهنالك الباب الاول الذي على اليسار فهو مقفل دائماً ومفتاحه لا يفارقني ومتى فتح هذا الباب فهناك عدة ابواب غيره في رواق صغير ولكن هذه الابواب لا تكون مقفلة .

– اذن يجب وضع المفتاح بشكل تسهل رؤيته هذا المساء نستطيع تعليقه على باب القبو .

– أحسنت .

– اني ذاهب لاحضار المفتاح وفي ذات الحين انزع سلاح جوهان الشجاع . ولم يكد يخرج من الغرفة حتى رجع فنادته زوجته وخاطبته قائلة اجلس قريباً مني يا كونسيني فاني أريد محادثتك بامـور خطيرة للغاية لقد ازف الوقت يا كونسيني

لتحرض ماريا على وجوب اقامة حفلة تكريسها ملكة على فرنسا وهي الحفلة التي طال امد تأخيرها .

– لماذا . فهل تحاذرين أن الملك إذا مات فجأة يقوم من ينازع الملكة حق الوصاية على القاصر لانها لم تكرس بصفة رسمية .

– ذلك سبب يستحق أن يدرس بمزيد الاهتمام فان الاعذار كلها تحاق بالذين يريدون انتحالها واظنك قد سمعت بالوصية التي كتبها الملك والتي تبطل حق الملكة في الوصاية فلا يبعد أن يقوم من يدعي بان الملك رآها غير جديرة بالحكم لذلك ابى أن يكرسها ملكة على فرنسا .

ذلك كذب وبهتان فان كل رجال البلاط يعلمون أن الملك يتجنب هذه الحفلة حذراً على نفسه لان البعض تكهن له بانه لا يحي بعد اقامتها .

فتبسمت اليونورا ابتسامة التهكم وقالت :

– أن كذب هذه الاشاعة هو السبب الداعي لتأييدها .

– صدقت .

إذا لم يكن غير هذا السبب هو كاف للنظر اليه بعين الجد والاعتبار ولكن هنالك سبباً غيره هو في نظري اهم من هذا بكثير وهو ما يدعوني للتعجيل بهذه الحفلة التي تأخرت منذ عشر سنوات .

– وما هو هذا السبب ؟

– أن أحد المنجمين قد تكهن للملك بانه لا يبلغ السنة الثامنة

والخمسين من عمره وسيموت في عربة على اثر حفلة عظيمة فهل وعيت هذا القول ؟

– ما الذي تريدين عمله ؟

– لا يمكن معارضة الاقدار يا كونسيني وإذا كنا فشلنا في كل مساعينا ضد الملك فما ذلك الا لامهال لنا ما تنبأ به ذلك المنجم .

– قد تكونين مصيبة في قولك .

– لقد أدرك الملك السنة السابعة والخمسين من عمره وقد قارب السن الذي تنبأ به المنجم ولا ريب بان الحفلة التي قيل عنها هي حفلة تكريس الملكة ولا ريب بان العربة يسهل وجودها وعندئذ نكون قد استوفينا كل الشروط التي ذكرها العراف فاذا أردت يا كونسيني أن نتخلص بتاتاً من الملك علينا أن ننتهز هذه الفرصة السانحة لذلك قلت لك أنه يجب على الملكة ماريا أن تقنعه باقامة هذه الحفلة مهما كلفها الامر ويجب أن نلاحقها بهذا الشأن حتى لا يبقى للملك صبر على ملاحقتها فيجيبها إلى طلبها .

– صدقت يا اليونورا فقد آن الوقت لخلاصنا من الملك وسأسعى منذ الغد لاقناع الملكة بما قلتيه وعليك أيضاً ان لا تهملي امرها بدورك .

– كن براحة بال من هذا القبيل وأعلم بأن هنالك مسألة اخرى لا تقل اهمية عن هذه وهي زيارة اسقف لوسون إلي في

هذا الصباح .

وما الذي يريده هذا المحرك الصغير ؟

– جاء يطلب وظيفة مرشد الملكة .

– هل هذا كل ما يريده ؟ وأظنك قد وعدته بالانتظار السنين الطوال فاني والحق يقال لا احب هذا الرجل فان اعماله تقلقني .

– لقد قدم لنا خدمة هذا الصباح فوعدته بان يوقع على امر تعيينه غداً .

– عجباً وهل هذه الخدمة مهمة مثل هذه الدرجة ؟

أنه اشترى مني أمر تعيينه .

– بأي ثمن ؟

– ثلاثة وثمانون مليوناً .

– ثلاثة وثمانون مليوناً .. لقد كنت أعرف أنه غني ولكن ليس إلى هذا الحد الهائل .

– كن في راحة بال يا كونسيني فهذا المبلغ لم يخرج من جيبه .

– لقد كنت في ريب من هذا الامر .

– أن الاسقف جاءنا بكنوز الأميرة فوستا التي لا ريب قد سمعت بذكرها .

– وهل هذا الكنز موجود حقيقة ؟

– اجل وهاك الورقة التي اعطاني اياها الاسقف ريشليو

فاخذها بلهفة وطالعها بتشوق عظيم وكانت تتبعه بنظراتها فلما شعرت أنه انتهى من تلاوتها سألته قائلة :

الا تزال ترى أن الاسقف مبالغ في طلبه ؟

– كلا وايم الحق بل أرى أنه اظهر اعتدالاً غريباً واعدك باني ساسعى منذ الغد لاجابة مطلبه ولعله لا يكون في حد ذاته الرجل الشرير الدنيء توهمته فيه .

– لا يسها عن بالك بان الملايين التي يقدمها لنا الكاردينال دي ريشليو لا يقصدنا بها بل هو يريد هبتها للملكة .

فابدى كونسيني اشارة مؤداها أنه والملكة شخص واحد لا فرق بينهما .

فتبسمت اليونورا ابتسامة ضمنتها كل افكارها وقالت له :

– لقد ادركت ما تقصده يا كونسيني فانـك تقول في نجواك أن بمثل هذه الثروة الطائلة تستطيع تحقيق كل امانيك ولو ظل الملك في قيد الحياة فان المال قوة هائلة لا يمكن مقاومتها .

– صدقت يا عزيزتي فاني بمثل هذا المبلغ العظيم استطيع شراء الملك او عرضوه للبيع .

– وهل حسبت أننا لا نحتاج الا إلى مد ايدينا لتناول هذه الملايين التي يعرضونها علينا فنقبضها وينتهي الأشكال واعلم بانك على خطأ عظيم إذا كنت تتوهم هذا الأمر فلسوف نلقي من المزاحمين والمعارضين ما لا يخطر لك على بال وسنضطر لاجل

الظفر بها إلى اشعال حرب عوان مع أخصام اشداء فحذار لنفسك .

– لست أرجو غير هذا الأمر ولا بد لي من الفتك باعدائي

– أعلم يا كونسيني أنه لاجل الحصول على هذه الكنوز يجب أن نقوم بتفتيش دقيق على شرط أن لا تدع أحــداً من الذين يعلمون وجود هذا الكنز في مونتمارتر بامـــرنا وهم كثيرون كما لا يخفاك .

– وما الذي يجب علينا عمله ؟

– دع هذا الأمر إلي فاننا سنحتاج منذ الساعة لمقاومـــة الملك مقاومة صريحة .

– ويلاه !

– وليست مقاومة الملك بالامر الخطير لقاء ما نحتاج إلى مقاومته من لفيف القسس وجماعة الاكليروس الذين يترقبون الحصول على هذا الكنز الدفين منذ أكثر من عشرين سنة .

– وليس هذا بالامر الهام لقاء ما سنلقاه من جوهان الشجاع بربك لا تضحك مستهزئاً فانك لا تعلم أن هذا الشاب ارهب علينا من الملك والذين يلوذون اليه لا يعدون شيئاً مذكوراً ازاء هـذا وكفى بذلك سبباً يدعوني لأن اؤكد لك وجوب القضاء عليه .

أما أنا فلست اكتمك اني حانق عليه اشد الحنق ولا بد لي من الانتقام منه ولو ادى الأمر لخسارة المـال الكثير والوقت

الطويل واقسم لك اغلظ الايمـان أنه لن يموت الا بيـــدي بعذاب ما دونه عذاب الجحيم وليست الاخطار التي تذكرينها لي مما تجعلني اعد عن هذه الملايين .

– وكيف تفعل إذا كان النجاح فوق مقدرتك .

– لم يكن يحدر بك ايتها العزيزه أن تذكري لي امر هذا الكنز فقد اعطانا أياه ريشليو ولا بد لي من التغلب على كل الموانع مهما كان نوعها على أن ادرك مأربي من المال .

– لقد كنت على يقين بأنك لا تحجم عن الخطر إذ داهمك خطر مهما كان نوعـــه بيد أننا أردنا النجاح في مأربنا لذلك وجب علينا أن نفحص بدقة لا مزيد عليها هذه المسئلةمن كل وجوهها لنتمكن من التغلب على كل الموانع التي قـد تحول دون مرامنا فاعلم باننا سنلقى امامنا رجلاً هو ارهب علينا من كل الناس لو تألبوا علينا لأن لهذا الرجل قوة وذكاء غريبين وقـد علمته التجارب والاختبار ما لا يخطر ببال فتمكن من التغلب على الاخطار التي صادفته وقد ازداد اليوم قوة بالحق الذي يريد الدفاع عنه ..

– من هو هذا اللئيم ؟

– ساطلعك على اسمه فيما بعد وكفاك أن تعلم الآن أن هذا الرجل هـو والد الولد صاحب الكنوز التي نطمع في الحصول عليها ولا بد له من الدفاع عن ثروة ولده بشدة رهيبة .

– لقد سمعت بأن الأميرة فوستا تخلت عن كنوزها لولدها

فهل لا يزال حياً حتى الآن ؟
– نعم .
– ومن هو هذا الولد ؟

فابدت اليونورا اشارة بيدها دلته بها على سجن جوهان الشجاع فصرخ قائلا .

– لقد ادركت الآن سر حنقك عليه ويجب أن تعلمي بان ابن فوستا قد مات وكل ما يحول بيني وبين كنوزه ينال ذات العقاب .

فحدجته اليونورا برهة ببصرها وأمارات السرور بادية على وجهها وأردف كونسيني كلامه قائلا :

– هل هذه هي كل الاخطار التي يجب علينا تجنبها ؟
– كلا فاني حفظت إلى الاخير من هو أشد هولاً من الجميع وما لا يعد سواه شيئا مذكوراً .
– قولي فاني صاغ لحديثك .
– يوجد شخص يستطيع بكلمة منه أن يقضي على كل آمالنا وهو الذي وجدت عنده الورقة التي قرأتها .
– وكيف ذلك ؟
– أن هذا الشخص يمتلك عدة أوراق أخرى اكثر اهمية من هذه فاذا اعطاها لصاحبها الشرعي لا يبقى لنا أمل بهذا الكنز .
– لقد ادركت ما تريدي قوله وما على هذا الشخص الإن

يظهر فلا تستطيع قوة في العالم أن تحول بينه وبين ما يريد بسبب الأوراق المهمة التي يمتلكها غير اني أريد أن يكون لي المكان الاول وأن اصبح وامسى فوق الجميع رفعة واقتدار والشخص الذي تذكرينه قضي عليه بالهلاك ولو كان الملك وإذ قضت الاقدار بان يسلم ما معه إلى شخص آخر فهو هالك ايضاً لا محالة .

– لم اكن اتوقع سماع غير هذ القول منك يا كونسيني وقد اصبت فيما قلته ولكن لعلك تتردد متى عرفت الشخص الذي قضيت عليه بالهلاك ؟

– وما الذي يدعوني للتردد ؟هل اعرف هذا الشخص أولي علاقة معه لاسمع منك التحذير ؟
– لست ادري إذا كنت تعرفه ولكني على يقين بأنه امرأة بل هي فتاة لا تزال في مقتبل العمر ؟

– اتقولين أن عدونا فتاة لا تزال في مقتبل العمر ؟
– ارأيت أنك جبنت عن الاقدام على ما كنت نويت عليه
– بربك قولي لي من هي هذه الفتاة ؟
– انها من اسرة دي سوجيس . وقد كنت على يقين من ترددك في الأمر ولكن لست اكتمك بان هذه الفتاة هي اشد العقاب التي تحول دون ادراك مأربنا وما زالت في قيد الحياة يبقى الخطر مخيما فوق رأسينا ولو لم ننجح في اكتشاف الكنز الذي نود الحصول عليه لأنها لا تستطيع بواسطة الأوراق المهمة

التي في حوزتها ان تذهب إلى الملك وتقص عليه خبرها فيقبض علينا ويزجنا في السجن ليرسلنا بعد ذلك إلى المشنقة .

واستغرق كونسيني في الافكار ولم يعد يرى موجباً للمواربة والاحتيال لأن الأمر لا يتعلق بحبيبته فعادت اليه قساوته والقى على ما حوله نظراً نفاذاً وهو على يقين من عدم وجود من يسمع حديثهما وقال لزوجته بصوت اجش :

– ما زالت هذه الفتاة تضايقنا بوجودها فلتحملها الشياطين ولتذهب إلى حيث ألقت .

– كن مطمئناً يا كونسيني فهذه الفتاة لا تضايقنا بعد الآن .

– إذا كان الأمر كما تقولين فلماذ ذكرت لي امرها ؟

– كنت احاذر أن اسمع منك اعتراضاً وأن تأبى الفتك بامرأة وقد رأيتك والحمد لله مصمما على اتمام العمل .

– وما الذي عملتيه معها ؟

– لم اقتلها لأن قتلها لا يفيدنا بشيء ولكني دفنتها وهي حية في قبر لا يستطيع أحد في العالم اخراجها منه ولعلها تفضل الموت الف مرة على وجودها فيه – فهل تصادق على عملي يا كونسيني مهما كانت نتائجه ؟

– أجل ولقد احسنت صنعاً ايتها العزيزة !

– لم يبقَ علينا الا الانصراف وقد كدت انسى أن اخبرك بانه يجب عليك أن تعطي خدمك اجازة إلى الغد إذ يقتضي

بان الذي يأتي لتخليص اسيرك جوهان لا يصادف احداً في المنزل وبذلك يتحقق جوهان أنك تركته هنا ليموت جوعاً وعطشاً ولم تبادله بوعيده .

وسلمت عليه برأسها وخرجت من الغرفة بتمهل وقد شيعها زوجها وهو يشعر بالتخلص من ثقل عظيم لوجودها معه ولكنها قبل أن تتجاوز عتبة الباب الخارجي التفتت اليه فجأة وقالت له :

– يجب أن تعرف حقيقة هذه الفتاة بالتمام وقد نسيت ان اعرفك بها فهي تدعى الآنسة برتيل وهي التي كانت تقطن شارع الشجرة اليابسة والتى اهتم بها الملك ورجال بلاطه ردهة من الزمن .

ولو انقضت الصاعقة بين يدي كونسيني فما اثرت عليه تأثير هذه الاقوال فاصفر وجهه حتى شابه الاموات وخارت عزائمه ولولم يتمسك بعضادة الباب لكان سقط إلى الارض فنظرت اليه اليونورا باشفاق وانصرفت وهي تتبسم .

الفصل السابع والعشرون

انقاذ جوهان من موت محقق

لم تكد اليونورا تصل إلى منزلها في شارع سانت هونوري حتى استدعت اليها ساتيا وابتدرته بسؤالها :

– هل علمت ما الذي عمله ابنك هذه الليلة ؟

– كلا يا سيدتي واني لكثير القلق عليه وقد فتشت طويلا ولكنني لم اقف له على اثر .

– إذا كنت تجهل امره فانا اعرفه فهو قد وقع في يد كونسيني الذي يريد أن يميته جوعاً وعطشاً .

– لقد انكر هول هذا العذاب ولكني وجدت له ما هو خير منه فانا لا أريد أن يقتل لأني اعددت رأسه للجلاد .

– ذلك ما دعاني لانذارك لتكون على بينه من الامر واعلم بان ابنك سجين في قبو لمنزل منفرد في شارع الجزدان وأنك تجد مفتاحاً معلقاً بمسمار وهذا المفتاح يفتح الباب الاول عن يسارك وأنت داخل فتجاوز رواقاً صغيراً تجد فيه عدة ابواب

غير مقفلة وأنك لتجده بسهولة وهاك مفتاح المنزل فاذهب يا ساتيا ولتكن الفطنة رائدك .

فذهب للحال ولم يلبث أن وصل إلى باب القبو ورأى مفتاحه معلقاً فوق بابه فثبت لديه صدق اليونورا وذهب إلى المطبخ فتناول مصباحاً وأشعله واخذ ينزل بتمهل السلم الحلزوني .

ورأى على يساره الباب الذي دلته عليه ففتحه وإذا هو في رواق ضيق وابصر اربعة ابواب مصفحة بالاقفال الضخمة وفتح الباب الاول وقد كان الصدا علا اقفاله فصرصر صريراً عالياً حين فتحه ودخل القبو فلم يرى فيه أحداً فاخذ ينادي بصوت عال .

– جوهان ... يا عزيزي جوهان .. اين أنت الآن لا تخف شراً فانا ابوك ساتيا .

فتح باقي الاقبية ولكنه لم يلق فيها احداً ورأى على البلاط الاسود في احداها قطعة بيضاء استجلبت اهتمامه فوجه اليها نور مصباحه وإذا هي ورقة فالتقطها واخذ يتلوها في بداية الامر بعدم مبالاة ولكنه كان كلما تدرج في تلاوتها يبدو عليه الاهتمام وارتجفت يداه وابرقت عيناه بسرور لا يوصف ولما انتهى من قراءتها همس قائلا :

لم اكن وايم الحق اتوقع العثور على هذه اللقيا الثمينة .

ثم طوى الورقة ووضعها في جيبه وعاد للتفتيش على

جوهان ولكن اتعابه ذهبت ادراج الرياح وتحقق أنه لم يكن في المنزل فاخـذ يعيد كل شيء إلى حالته الاصلية وارجـع المصباح والمفتاح إلى مكانيهـما وخرج من المنزل وهـو مقطب الجبين عابس الوجه لفشله .

ولما وصل إلى الطريق انسل شبح من احدى الزوايا واخذ يتعقب خطواته عن بعد .

* *

الفصل الثامن والعشرون

باردليان واعوان جوهان الثلاثة

وكان كونسيني لما شيع زوجته إلى باب المنزل قد ترك الغرفة التي كانا فيها مفتوحة لانه ابقى فيها رداءه وسيفه ولا بد له من الرجوع اليها لاخذهما .

ولم يكد يخرج من تلك الغرفة التي كان على يقين بان الاذان الغريبة لا تسمع حديثه الرهيب مع زوجته حتى ظهر رجل من خلف الستار المخملي وتقدم بسكينة لا مزيد عليه كأنه في ذات مـــنزله وقفل الباب ووضع مفتاحه في جيبه والقى نظرة على الكرسي التي كان عليها الرداء والسيف وهمس قائلاً :

— حسناً ولا بد له من الرجوع .

وتطلع من خـلال الباب فرأى كونسيني كالمصعوق وهـــو متمسك بالعضادة حذراً من الوقوع على الارض فعاد إلى الغرفة ووقف بشكل لا يراه كونسيني عند دخوله ولم يلبث أن ابدى اشارة دلت على استهجانه وهمس قائلاً :

– لست أريد أن يحسبني قاتلا مثله »

وتناول السيف ووضعه في الجهة المعارضة ليقع عليه نظر كونسيني بمجرد دخوله الغرفة وذهب فاختفى خلف إحدى درفتي الباب .

ولم يكن هذا الرجل الرهيب بسكينته ورباطة جأشه الا الفارس بارداليان فكيف وصل إلى ذلك المكان ؟

لا بد لنا من الرجوع إلى رفقاء جوهان الشجاع إذا اردنا اطلاع القراء على هذا السر الغريب .

بعد أن فارق كار كان واسكركاس وكرنكايل رئيسهم اخذوا يسيرون في الطريق المؤدية إلى شارع سانت اوستاش وهم مفعمون الجيوب بالذهب بفضل الجود الذي اظهره لهم كونسيني ولم يلبثوا أن شعروا بالجوع والعطش فاسرعوا خطواتهم حتى وصلوا إلى مطعم في شانفلوري فدخلوه بعجلة لقضاء مأربهم من الطعام .

وتشاوروا بالأمر فقر رأيهم على عدم الذهاب لمقابلة كونسيني بعد الخيانة التي بدرت منهم لأنهم كانوا على يقين بما سينالهم منه فدخلوا حانة قريبة وبعد أن فرغوا من تناول طعامهم خرجوا وهم لا يعلمون الوجهة التي يقصدونها ولكنهم لم يكادوا يبتعدون خمسين خطوة عن الحانة حتى ابصروا كونسيني فادهشهم رؤيته وبعد صمت وجيز قال لهما كرنكايل :

– فلنذهب .

فعجلوا خطاهم حتى وصلوا إلى منزل جوهان فارتقى كرنكايل درجاته اربعاً ولم يلبث أن عاد منذعراً وقال :

– إن الباب غير مقفل بالمفتاح والسرير على حاله فهو لم يرجع إلى منزله ولعله ذهب إلى شارع الجرذان .

– ليس كونسيني من الرجال الذين يستطيعون الثبات في وجه رئيسنا وقد رأيناه بام العين . وعندي أن وجود كونسيني حيا وغياب جوهان هو دليل صريح على أنه وقع في كمين له فان المنزل كصاحبه لا يدلني على ما يدعو للثقة به .

وعقدوا فيما بينهم مجلساً عسكرياً قر رأيهم فيه على الذهاب إلى شارع الجرذان لمراقبة منزل كونسيني وظلوا سحابة يومهم وهم لا يتمكنون من الدخول اليه واقبل الليل وكانوا يعلمون علم اليقين أن دخوله عنوة ضرب من المستحيل ولكنهم ليس لهم أمل بتسلق جدرانه كانوا يعزون ذواتهم بافتكارهم برجوع كونسيني اليه إذا كان جوهان لا يزال في قيد الحياة .

ولم يكونوا قد أقروا رأيهم على ما يجب عمله ولكنهم عقدوا العزيمة على دخول المنزل مهما كلفهم الأمر فقضوا ليلتهم وهم يتجولون حوله إلى أن بلغ بهم النعاس اشده فاتفقوا على أن ينام اثنان ويبقى الثالث متولجاً الحراسة وفي كل ساعة يتغير الحارس باحد رفيقيه .

مرت الساعات ولم يبد على احدهم ما يدل على فروغة صبره وإذا بكرنكايل قد ضرب جبهته بيده وقال :

الويل لي من جاهل احمق كيف سهى هذا الأمر عن بالي .

– واندفع كالسهم المارق قاصـــداً المنزل الذي يقيم فيه باردليان لأنه رأى جوهان قد طلب مساعدته حين الحاجة اليه فبادر لنصرته من غير تردد كأنه من اوفى اصادقائه واخلصهم .

من حسن حظه انه قابل باردليان في القاعة العمومية وهو منهمك بتناول طعامـه فاستجمع كل شجاعته ورباطـة جأشه بمزيد الاحترام :

– عفواً يا سيدي لازعـاجـي اياك ولكن الأمـر خطير للغاية .

فهب باردليان من مكانـه وخرج مع كرنكايـل إلى أن وصلا إلى شارع الجرذان فكان أول اهتمام باردليان بمراقبة المنزل ولم يلبث أن تحقق أنه يستحيل دخوله عنوة بل يقتضي لذلك الحيلة والمهارة فاخذ يفكر بأمره وقد شغله هـذا الخاطر كثيراً .

ورأيا في تلك اللحظة كاركان مقبلا عليهما بسرعة وهو يلهث من فرط تعبه فوقف مبغوتاً لمشاهدته الفارس باردليان فطمأنه كرنكايل بكلمة منه وقال له :

– أنه قادم واليونورا تتعقبه من غير أن يشعر بها واسكركاس يتبعهما وهما لا يدريان به .

فـابرقت عينا باردليان باشعة السرور وقـــاد رفيقه إلى إحدى الزوايا وقال لهما :

– بما أن كونسيني قادم إلى هذا المكان فذلك دليل على عدم موت رئيسكا كما كنت اتوقع قبلا فالمهم الآن أن ندخل المنزل في الوقت الملائـم لنمنعه مـن ارتكاب القتل الذي لم يتمكن من القيام به ولا ريب بان عقيلته التي تتعقب خطواته هي التي ستفتح لي الباب فاذا فعلت ذلك اتكفل بما يلزم .

ولم يكونا يعرفان باردليان من قبل ولكنهما رأيا من ثباته وتوطيد عزمه ما دعاهما للدهشة والاعجاب فلم يرتابا قط بصدقه وأخذ كرنكايل يفرك يديه بفرح وسرور لذلك طرأ عليه باستنجاده بذلك الفارس الشهير .

وظهر كونسيني اخيراً فتركوه يدخل المنزل ولم يعارضه وتعقبه باردليان فانزوى خلف الباب وظهرت اليونورا ووقفت جامدة في مكانها لا تأتي حركة .

وبعد قليل انفتح الباب وظهرت منه امرأة متوسطة العمر فانسلت الى الخـارج وهمست ببعض كلـمات لا يكاد تسمع ولكنها لم تفت اذن باردليان الذي كان صاغيا بمزيد الانتباه الى ما يجري حوله وبدون من أن يدخل المنزل زاد تخفيه وقد تبسم ابتسامة دلت على سروره .

واجابت اليونورا على الكلمات التي سمعتـــها بان قدمت للامـرأة كيساً مفعما بالذهب فـدخلت المنزل واقفلت الباب وراءهما وظلت العجوز واقفة برهة عند العتبة ثم ابتعدت في الطريق بخطى متعثرة فخرج باردليان من مخبائه ولحق بها من

غير عناء وقال لها متهكما :

– أني في حاجـــة ايتها الحسناء لمقابـلة مـولاك السنيور كونسيني فهل تتكرمـــين علي بفتح باب المنزل الذي رأيتك تخرجين منه ؟

– يسؤني يا سيدي ان لا استطيع مجاوبتك إلى ما تريـده لأني لا احمل معي مفتح الباب ولست استطيع قرعه قبل مرور ساعتين لأن مولاي حظر علي ازعاجه وهـــددني بالطرد إذا جسرت على مخالفته .

فمد لها قطعتين من الذهب وقال لها وهو يبتسم :

– لست اسألك ايتها الحسناء أن تقرعي لي الباب بل أن تفتحيه .

– فليبارك الله يا سيدي وثق باني اشعر بيأس لا مزيـد عليه لعدم استطاعتي على اجابة طلبك لأني لا احمل المفتاح فـلا تلح علي وأرجوك أن تدعني أمر وشأني .

– وما قولك بالمفتاح الذي صنعته خصيصاً لخدمة مولاتك عقيلة السنيور كونسيني لتسهل عليك خيانة مولاك وبهـــذا المفتاح تستطعين اجابة طلبي ؟

فاذا لم تفتحي لي هذا الباب أقودك قسرا اليه وأقرعه ثم اطلع مولاك على سرك وأخبره أنك تخونيه .

ويلاه أن هذا هو الشيطان بذاته ثم اخرجت المفتاح مـن جيبها وناولته له .

واطلقت ساقيها للريح وهي تكاد تطير من فرحها .

الفصل التاسع والعشرون

فشل كونسيني

دخل باردليان للمنزل ووضع المفتاح في جيبه فرأى ذاته في رواق عريض وعن يساره وعن يمينه بابا مقفلاً وفي آخر الرواق ستارتين احداهما مسدلة والثانية مرفوعة فأصغى قليلاً وانتظر ان يسمع صوت على امل بأن يعرف صوت جوهان ولو عن بعد .

ورفع الباب المفتوح ودخل الغرفة فرأى سيف كونسيني ورداءه فتبسم ورأى الستار فرفعها ورآها تطل على غرفة ثانية فتبسم ايضاً والقى على الغرفة نظرة دقيقة فسره ما رآه وأعاد الستاره إلى مكانها وهمس قائلا :

– لقد امنت خطة رجوعي فلنـــذهب ولنسمع حديث كونسيني مع سجينه .

وعاد إلى الرواق ووقف خلف الستار المسدلة فازاح طرفها قليلا فتمكن من النظر والسمع وشاهد كونسيني ممـــدداً على

الارض ومنحنياً على خرق في الارض وظهره مدار إلى الستارة وقد حسب أنه اتخذ كل تحوطاته كي لا يباغته احد ولم يكن قلقاً على هذا الشأن وقد شغله حديثه مع جوهان الشجاع إلى درجة لم يشعر معها بوجود زوجته اليونورا على مقربة منه وكانت هي ايضاً مديرة ظهرها إلى الستارة ومثله مطمئنة البال من مباغتة الأغراب لها .

اصغى باردليان للحديث ولما سمع جوهان يقص على عدوه خبر مقابلته مع الملك ويطلعه على أن الرفيق الغريب الذي صحبه الملك الليلة مستعد لاخبار الملك بسره فتبسم ابتسامة الرضا وقال :

— فكرة حسنة وايم الله فاذا اطلقه كونسيني كما اتوقع اكون قد تحملت هذا العناء على غير جدوى ولكن الامر لم ينقض بعد فلنصبر حتى النهاية .

ولما رأى اليونورا قد تداخلت بالمسألة تحقق بان الأمر قد انعكس على جوهان الشجاع فلم يتأسف للوقت الذي اضاعه والعناء الذي تجشمه ولما سمع كونسيني يقول لسجينه أنه لا يعبأ بوعيده ولا يبالي بالمكاشفة التي تهدده بها ارتأى بان الوقت قد ازف ليعود القهقري فذهب ووقف خلف الستارة وهو يمسك بيده درفة الباب وقد استعد لقفلها عند ادنى حركة .

وتمكن وهو في موقفه من سماع حديث الزوجين برمته رغماً عن كونهما كانا يتكلمان همساً وكان كونسيني قد استعاد سكينته

ورباطة جأشه فدفع الباب من خلفه وعاد إلى غرفته وهو يتعثر بمشيته فارتمى على مقعد هناك وقد كتم زفرة شديدة كادت تمزق صدره .

وبينما هو كذلك قفز فجأة من مكانه كمن لسعته افعى وانتصب واقفاً لأنه ابصر باردليان يقفل الباب ويضع المفتاح في جيبه بمنتهى السكينة ويتبسم ابتسامة التودد ثم حياه بتهكم ظاهر فعقلت الدهشة لسان كونسيني وحملق عينيه بانذهال لا مزيد عليه وأخذ يجيل نظره في جوانب الغرفة كأنه يريد معرفة المكان الذي دخل منه هذا الرجل فرأى سيفه على مقربة منه وتذكر بانه لم يضعه هناك ووقع بصره على ردائه في موضعه الأول .

ورأى باردليان منه هذه الحركة فتحقق ذعره واندهاشه وقال له :

— أنا الذي وضعت سيفك في هذا المكان يا سيدي لتكون مرتاح البال فلا تظن بي سوءاً .

فتناول كونسيني سيفه بلهفة ووضعه في غمده وفي الحال انطلق لسانه فتقدم من الفارس بجرأة زائدة وسأله قائلاً بلهجة تهديدية .

— من أنت ايها الرجل ؟ وما الذي تعمله في هذا المكان ؟ وهل جهلت أني استطيع قتلك كالكلب .

— رويدك يا سيدي ولا تعجل بالحكم على مقدرتك قبل أن تتحققها فاني لا ادعك تفعل معي هذا الأمر قبل أن ادافع عن

نفسي ولو قليلا ولست افاخر بذاتي اذا اكدت لك بان يدي اثقل من أن تتحملها وستعرف عن قريب غرضي من الوجود في هذا المكان اذ لا بد لي قبل كل شيء من مجاوبتك على سؤالك الأول فقد اردت معرفتي فاعلم باني رفيق جوهان الذي تريد أن تميته جوعاً وعطشاً ولقد اخبرك عن عزمي على الذهاب لمقابلة الملك لاخبره بانك كنت متواطئاً على قتله في شارع الشجرة اليابسة .

– اذا كنت أنت رفيقه المنتظر فمهلا لاعطيك ما تستحقه

واخذ صفارته الفضية وصفر بها بنوع خاص وقد انساه فرحه بلقيا عدوه أنه لم يقم أحد الخدمة بدلاً من الرفاق الثلاثة الذين صرفهم فتركه يفعل ما يريده وذهب الى النافذة ففتحها واطل رأسه منها وقال بلهجة الأمر :

– كرنكايل .

– لبيك يا مولاي .

– ادخل الى هنا واحرس خدم هذا السيد وحذار أن يزعجني أحد منهم في عملي .

قال هذا والقى اليه مفتاح المنزل الذي اخذه من الخادمة الخائنة وكان الخدم قد اقبلوا على صفير مولاهم ولكنهم لما رأوا باب غرفته مقفلا اخذوا ينادونه من الخارج فاندفع كونسيني نحو الباب الذي عليه الستار ولكنه لم يكد يصل اليه حتى تراجع بغضب عظيم لأنه رآه مقفلا ايضاً .

واقفل باردليان النافذة ووقف في مكانه بسكينته المعتادة وهو يتظاهر بعدم الاهتمام بكونسيني ولكنه لم يكن يفارق حركة من حركاته وسمعا وهما في الغرفة حركة الباب وهو يقفل بشدة وصوت عراك في الرواق تلته اصوات استنجاد نسائية ثم ساد السكوت التام .

وقرع باب الغرفة التي كان فيها في تلك اللحظة فذهب باردليان وفتحه فدخل اسكركاس وكرنيكايل وتقدما خطوتين في الغرفة وسلما على باردليان بمزيد الاحترام وشاهدا كونسيني واقفاً في احدى الزوايا وهو يصرف باسنانه من فرط حنقه فتبسم له اسكركاس ابتسامة ودية وحياه بتحية من رأسه وقال له :

– كيف حالك أيها السيد فاننا لم نرك منذ اليوم الذي تركناك فيه مقيداً داخل هذا المنزل .

فدفعه كرنكايل بكوعه ليلتزم الصمت وقال مخاطباً باردليان .

– عفواً يا سيدي لازعاجك في عملك ولكننا اردنا اخبارك بان خدم هذا السيد هما اثنان وكركان يكفي وحده لحراستهما لذلك جئنا نتلقى منك الأوامر بما يجب علينا عمله .

– اذهب ايها الصديق واقفل لي الباب الخارجي وقف أمامه ولا تدع أحد يدخل أو يخرج منه وأنت يا اسكركاس فاذهب الى حيث رفيقك كاركان وساعده بحراسة الخدم ولا

يقارب أحد منكم الى هنا قبل أن ادعوكم .

والتفت الى كونسيني وقال له بمزيد التأدب .

– أريد أن تعتقد يا سيدي باني ابقيت هؤلاء الرفاق هنا بغية تهديدك لأني احب انجاز عملي بيدي ولم أصل بعد الى درجة من الشيخوخة تدفعني لطلب مساعدة الغير اذا لم يكن امامي الا رجلا واحداً وأني اعاهدك بشرفي بان هـؤلاء الرفـاق لا يدخلون الى هنا ولا يتداخلون بامرنا مهما كانت نتيجته فـاذا تمكنا من الاتفاق نخرج سوية من هذا المكان على اتم الوفاق اما اذا خرج لوحده فاكون قد قتلت فاتركوا هذا الرجل وحذار من تعرضكم لهذا الرجل بادنى سوء واتركـوه مطلق الحرية يفعل ما يريده .

– امرك ايها المولى الهمام .

فقفل الباب من خلفهم بعد أن صرفهم وخاطب كونسيني بقـوله :

– لا اظنك ترتاب بصدقي اما سمعت الأوامر التي اصدرتها امامك وأنا على يقين بانك تكون مرتاح البال من قبلي .

– بما أن الأمر كذلك فمت ايها الكلب الاجرب ؟

واشهر سيفه كلمح البصر وهجم به على باردليان الذي ظل ملتزماً السكينة التامة ورأى السيف مشهراً عليه فحاد عن طريقه فلم تصبه الضربة وفي ذات الحين كان سيفه بيده فهاجم به كونسيني ولم يلبث ان اطار السيف من يده فلم يفشل لهذا

الانكسار وامتشق خنجره وانقض على الفارس فلم يبال بـه وتركه يفعل ما يريد حتى وصل اليه فقبض على معصمه بيد حديديه وضغط عليه بها فسقط الخنجر من يده وصرخ صوتاً رهيباً دل على فرط المه .

فدفع باردليان الخنجر برجله وقبض على كونسيني من وسطه ورفعه بين ذراعيه كما يرفع ولداً صغيراً وحركه برهة في الفضاء كانه يستعد لقذفه الى بعيد فيسحق عظامه ولكنه لم يفعل ذلك بل اعاده واقفاً على قدميه فكاد يجن من جزعه لأنه حسب ان ساعته الأخيرة قد دنت .

والتقط سيفه فاعاده إلى غمده وقال بمنتهى السكينة .

– اظنك تحققت أني اقوى منك بكل شيء وقـد كنت استطيع قتلك كما نزعت منك سلاحك وكان بامكاني تحطيم رأسك على هذا الحائط ولكني لم افعل ذلك والان فاني اسديك نصيحة من صالحك العمل بهـا إذا كنت تـود المحافظة على حياتك !

فقداردت قتل الملك ولم تفلح بقصدك وقد سمعتك في هذا المنزل تتكلم نبوءة نطق بها احد الدجالين الكاذبين وقد اتخذت مع زوجتك التحوطات اللازمة لنجاح هذا السعي الذي طالما حبط معكما وقد اصبحت على يقين بانـك تنوي قتله وهبك فعلت ذلك فهي مسئلة تتعلق بكما ومـا انا من الرجـال الذين يوشون بك أو ينمون عليك كما قيل لك ...

بل انني اكون ضدك بكل مشروع تقوم به ضد الملك .

– وما سبب ذلك ؟

– لأنك تريـد قتل الملك لتنهب المملكة على هواك ولست من الرجال الذين يرضون بتعريض وطنهم لحكم سافل مثلك . وعدا عن ذلك فان امرأتك قد أعطتك ورقة تتضمن بعض تعليمات صريحة تتعلق بارث اميرة تدعى الأميرة فوستا .

– وما شأنك بها ؟

– أني اريد الاطلاع عليها .

حقاً أن المسئلة قد تحولت إلى امـور مضحكة فانت لص بكل معنى الكلمة وقد جئت تطالبني بحقك . كدت انخـدع في بداية الأمر بظواهرك الغرارة وتوهمتك رجلا نبيلا ولكني الآن عرفت حقيقة سرك ومبلغك من الرجال .

– لست اطلب منك أن تعطيني هذه الورقة بل أن تطلعني عليها لاقرأها واعيدها اليك .

– ولكنك تكتفي بقراءة واحدة لهذه التعليمات الصريحة من ادراك ما تريده وقد املت الوصول الى مآربك بمثل هـذه السهولة حقاً أنك رجل أحمق .

سألتني من أنا وقلت لك اني رفيق هذا الشاب الذي سجنته بخيانتك المعروفة ضمن قبر وهو حي يرزق وقد كنت صادقاً في قولي والآن اريدك بياناً وتعريفاً بحالي باني انا الرجل الذي قهرت القوات التي كان يجبن عن الثبات امامها سواي واعيـد عليك ما قالته لك منذ برهة زوجتك المحترمـة فانا والد الولد

الذي رزقته الأميرة فوستا بل والد الغلام الذي تخصه هـذه الملايين والذي نويتما على قتله لتتخلصا منه وتتمتعا بثروته الطائلة فالواجب يقضي علي بأن أحول بينكما وبين ما تريدان وأن امنعكما عن هذه السرقة لأن الثروة التي تريدان اختلاسها هي ملك شرعي لولدي والورقة التي في حوزتك هي ملك له ايضاً فاعطني اياها في الحال وحذار من الممانعة .

-- وإذا ابيت اجابتك الى هذا الطلب .

أعطني الورقة أو تموت . فناولها كونسيني اليه ولما قرأها باردليان اعادها اليه ثم قال له : بقي عليك أن تطلق الحرية لولدي لجوهان الشجاع وفي مقابل ذلك اجيز لك أن تأخذ وتحتفظ بكل مـا تجده مخبؤا في المكان الذي ترشدك هذه الورقة التي أعيدها اليك .

– اتفعل ذلك يا سيدي وهذه الكنوز ملك شرعي لولدك

– اجل وقد تقول في سرك أنه لا يحق لي التصرف بهـذه الملايين فلا اضيعها على ولدي ولكني اجاوبك على فكرك بقولي أني لا إعرف هذا الولد وقد لا أعرفه في حياتي ولكني اعرف جوهان الشجاع وقد قلت أني اهتم كثيراً بامره .

– أن مثل هذا المبلغ العظيم لا يترك بمثل هذه السهولة .

– كن على يقين بان الأموال التي اتنازل لك عنها لا تعـد شيئاً مذكوراً بالنسبة للكنوز التي ادخرتها له لذلـك أطلب منك أن تكون مرتاح البال من هذا القبيل .

– وهل أنت غني الى هذه الدرجة ؟

– أجل وأن غناي يفوق التصور فهل تقبل ما اعرضه عليك أو ترفضه ؟

– أني أقبله بمزيد الارتياح وسأذهب لأفتح بذاتي باب السجن لاسيري واطلقه منه .

– كلا بل دع الأمور تسير على ما اتفقت عليه مع زوجتك وضع المفتاح خلف الباب واصرف خدمك وأذهب من هذا المنزل ودعني أسود عليه الى الغد . وأعلم أن ما اقترحته عليك هو لأجل صالحك لئلا يظهر عليك أنك استسلمت الى دواعي العنف .

– أشكرك يا سيدي شكراً جزيلا لهذا التلطف والكياسة التي ابديتهما ولا اكتمك بانه كان يشق علي فتح باب السجن لاسيري وبما أنك لا تعترض على أنجاز الأمر حسب ما اتفقنا عليه فانا اترك لك منزلي الى الغد بل اتنازل لك عنه بطيبة خاطر اذا احببت .

– كلا فلست بحاجة الى منزلك بل انصحك بان لا تتعمد لجوهان الشجاع والانسة برتيل دي سوجيس باذى لأني أهتم اهتماماً عظيماً بامر هذين الشخصين وأن زوجتك تعرفني حق المعرفة وإذا شئت فهي تخبرك عن مقدرتي وكيف استطيع سحق اعدائي وكل الذين يعترضون لي .

وبعد ربع ساعة لم يبقى في المنزل غير باردليان ورفقائه

فأسرعوا بأخراج جوهان الشجاع من سجنه غير أن الشاب كان لا يزال فاقد الشعور بتأثير الخدر الذي استنشقه ولما فتح أبن باردليان عينيه كان اهتمامه الأول البحث عن العلبة التي كانت معه فوجدها ملفوفة بردائه وسيفه على مقربة منه ، فنهض واقفاً وشكر لمخلصيه اهتمامهم به .

وفي الساعة الخامسة غادروا ذلك المكان .

تم الجزء الاول

ويليه

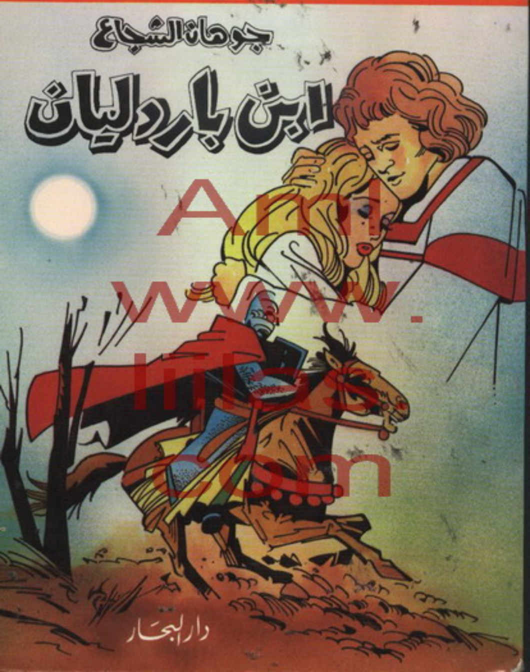
الجزء الثاني والاخير

ميشيل زيفاكو

٢

جوهانا الشجاع

ابن باردليان



دار البحار

الفصل الثلاثون

خطف برتيل

كان المنزل الذي يقيم فيه الفارس باردليان واقعاً في شارع انديس على زواية لشارع الحدادين الكائن بين شارعي السانزينوسان وكنيسة القديس اربورتون .

وهو أشهر فنادق تلك المحلة وهو النزل الذى اخذت الية الآنسة برتيل قبل يومين واليه أخذ باردليان ابنه جوهان الشجاع وأخذ يقص عليه كيفية تخليصه من أسره .

وتحقق أن الزوجين يتعمدان ايصال الاذى اليه فالتجأو إلى الغير لنصرته فعدها في نظره نقيصة لا تغتفر

ولم يكن من اخلاقه المباهات بما يعمله ولم يداخل الشك سامعيه غير أن جوهان لم يتمالك أن قال له .

– لا اظن يا سيدي أن المسألة قد انتهت بمثل هذه السهولة وكيف كانت الحال فقد قدمت لي خدمة لا انساها لأنك خلصت لي حياتي من الموت .

وبينما هم كذلك إذا بباردليان قد أخذ يفكر بالحديث الذي سمعه من اليونورا التي اخبرت زوجها أنها وضعت الفتاة في قبر .

وكتم مقصده عن الجميع وذهب صباحاً إلى منزل الدوق دانديلي مع جوهان وعرف من الخدم أن الآنسة برتيل قد خرجت من القصر فنظر باردليان بحدة الى الخادم الذي بلغه هذا الأمر فقال له :

– عفواً يا سيدي فقد تبلغنا أوامرك بأن نسهر على الآنسة برتيل ولم تأمرنا بأن نبقيها سجينة هنا .

وهل خرجت بملء أرادتها .

– نعم يا سيدي الفارس وقد أردت أن أبدي لها هذه الملاحظة بملء الاحترام فقالت لي أنها مضطرة للخروج للقيام بواجب عظيم الأهمية وأن غيابها لا يطول أكثر من بضع ساعات فلا تقلق عليها ولما لم نكن تلقينا تعليمات صريحة بهذا الشأن لم نرى مسوغاً لمخالفة أرادتها .

ولندع باردليان وجوهان الشجاع يستعلمان من خدم الدوق دانديلي كيفية ذهاب الآنسة برتيل من القصر ونطلع القراء على ما جرى ليكونوا على بينه من الأمر .

في ذات الساعة التي كان اسقف لوسون زائراً منزل كونسيني تقدمت امرأة عجوز الى منزل الدوق دانديلي وطلبت مقابلة الآنسة دي سوجيس فقال لها الخادم أنه لا يعرف

فتاة بهذا الاسم وأراد أن يصرف العجوز ولكن سوء الحظ قضى بان تسمع الانسة برتيل من غرفتها اسم سوجيس وكانت تعلم علم اليقين أن هذا الاسم لا يعرفه الا خمسة اشخاص هم الملك وجوهان وباردليان الذي لم تكن تعرفه الا باسم الكونت دي مارجنسي والدوق دانديلي وزوجته .

ولم يكن أحد من هؤلاء الخمسة موجوداً في القصر فحسبت أن هذه العجوز مرسلة اليها من احدهم .

وكان الملك يعتقد أنها لا تزال مقيمة في منزلها الكائن في شارع الشجرة اليابسة فهي والحالة هذه غير مرسلة من قبله ولو كان الملك في حاجة اليها لكان بعث أحد ضباطه أو رجال حاشيته ؛

ولم تكن مرسلة من قبل الدوق دانديلي وزوجته لأنهما سيعودان الى قصرهما في اليوم الثاني فجزمت بفكرها أن العجوز من جوهان الشجاع أو الكونت مارجنسي وكان شعورها يدلها على أنها مرسلة من جوهان الشجاع فاستولى عليها قلق داخلي فقامت من مكانها وسمعت العجوز تقول للخادم .

– اذا لم تسمح لي بمقابلة هذه الفتاة النبيلة يقع مصاب عظيم ألقي عليك تبعته فانظر الي وقل لي هل ترى في هيئتي وملابسي ما يدعو للخوف والقلق .

وضاعفت هذه الكلمات قلق الآنسة برتيل ففتحت باب غرفتها من غير تردد وادخلت اليها العجوز وكان الخادم قد قام

بما يجب عليه ولم يعد مسؤولا عما يمكن حدوثه .

ولم يكن له ما يحاذره من العجوز لأنها كانت عاجزة عن استعمال العنف وهي لم تكن تقوى على الوقوف الا بمساعدة عصا تتوكأ عليها فانصرف وهو مرتاح البال مطمئن الفكر .

دخلت العجوز غرفة الآنسة برتيل فأخذت تتوسمها بدقة فاذا هي حيزبون هرمة وعليها ثياب الفلاحات ضخمة الجثة متجعدة الوجه مقرنة الحاجبين ولو كان الناظر اليها اكثر خبرة من الانسة برتيل لرأى ملامح المكر والدهاء بادية بين عينيها أما فتاتنا فلم تر فيها ما يدعوها للقلق وسألتها قائلة :

– من أنت ايتها الأمرأة الصالحة ؟

– اصيب أحد النبلاء بنكبة عرضت حياته للخطر فأرسلني اليك .

– وهل هو جوهان الشجاع ؟

– كلا لم يذكروا لي هذا الاسم بل قال أنه يدعى الفارس بار . باردا .. باردفان ... لا ... بل باردليان .

فاضطربت بارتيل ولكنها كانت قد اطمأن بالها على حالة جوهان الشجاع ولم تكن قد سمعت اسم باردليان قبل هذه فسألتها قائلة :

– من هو هذا الرجل فاني لم اسمع باسمه قبل الآن .

– اخطأت يا سيدتي فهو الفارس الذي جاء بك إلى هنا الليلة الماضية وهو الذي اطلعني على هذا الأمر .

فدهشت الفتاة من هذا الجواب وقالت :

– أن الذي جاء بي إلى هنا هو الكونت مارجينسي وليس الفارس باردليان .

فاظهرت العجوز فرحها لاعتراض الفتاة وأخذت بعصاها وقالت :

– ان الفارس باردليان هو ذات الكونت مارجينسي كما قال لي ولكن كبري كاد يفقدني الذاكرة فنسيت كل الاسماء .

فارتابت الفتاة بصدق هذا الحديث وقرعت جرسها فاقبلت الخادمة المخصصة لها وسألتها قائلة :

– هل تعرفين فارساً يدعى باسم باردليان ؟

– نعم يا سيدتي وهو الفارس الذي جاء بك الى هنا .

– إذن فهو الكونت مارجينسي .

– نعم يا سيدتي وهو يفضل اسم باردليان على لقب الكونت فشكرتها الفتاة وامرتها بالانصراف وقالت للعجوز باضطراب .

– إذن فانت مرسلة من قبله ... وهو جريح أو لعل تكون جراحة خطرة فافيديني حالاً عن حالته .

– يجب علي أن اتحقق قبل ذلك أنك الفتاة التي ارسلت اليها فاسمحي لي أن أوجه اليك سؤالين لأني أنا أنفذ الاوامر التي تلقيتها .

– هاتي اسئلتك لاجاوب عليها .

– هل أنت ابنة سيدة كانت مخطوبة لسيد نبيل يدعى

الكونت دي ... تبا لذاكرتي الملعونة فقد كنت انسى اسمه . أنه يدعى الكونت دي فو ... دي فـوبرين – اجـل أنا هي بالذات .

– الم يكن عندك أوراق تتعلق بالفارس باردليان وابنه .

– أية اوراق تعنينها ؟

– لست ادري وأني أعيد عليك الاقوال التي سمعتها .

– أجل أن عندي اوراق تتعلق بهما .

– اذن فـانت هي المقصودة وسأعيد عليك كل مـا بقي في ذاكرتي من الحـديث الذي سمعته من ذلـك الفارس النبيل الذي هو صديق حميم للكونت الذي كان خطيب والدتك وقد كان اتياً اليك منذ ساعـة ليسألك عن هـذه الاوراق ويخابرك بشأنها ولكنه سقط عن جواده وكسر دماغه .

– اذن فاذهب معك الآن لأقوم بواجبي نحوه .

– رويدك يا سيدتي فقد طلب مني الفارس أن أوصيك بالتزام الكتمان التام بشأن هذه الأوراق لأنه شعر بوجود بعض الطفيليين الذين يريدون المداخلة في الامر . وقادت العجوز الفتاة وفي اثناء مسيرهما ارخت الفتاة سدول قناعهـا على وجهها وسألت العجوز قائلة :

– الى أين تذهبين بي ايتها العجوز الصالحة ؟

– الى قرية مونتمارتر .

فـلم تبد الانسة برتيل ادنى اعتراض ولو كلفتها الذهـاب

لاقصى العالم لما كانت تأخرت باتباعها .

ولم تبتعد كثيراً حتى صادفتا الاخ كولار الكامل وهو ثمل كعادته فحاول بوقاحته المعهودة أن يرى وجه الفتاة التي كانت تريد كتم ملامحها عن المارة .

والظاهر أن العجوز كانت شديدة التمسك بمبادىء الشرف فانها رفعت عصاها بيدها المرتجفة وأنهالت بها على رأس الراهب وهي توسعه شتماً واهانة غير مبالية بثوبه الاسود فتحمل تلك الضربات وهو يبتسم كأن هـذه الاهـانة غـير موجهـة اليه فارتاحت الانسة برتيل لهذا الدفاع الباسل وزال من فكرهـا كل ارتياب بالعجوز .

وقبل أن تصلا الى باب مونتمارتر بقليل مرتا امام كنيسة القديسة مريم المصرية فاحنت العجوز رأسها أمام بابها وأخذت تبدي شارات الورع والتضرع فاصابت قناع الفتاة فانزاح عن وجهها وبدا جمالها للعيان .

وخرج من الكنيسة في تلك اللحظة رجل اشقر الشعر اصلع الناصية تائه البصر فجمد في مكانه لرؤيته جمال برتيل الذي يسبي الالباب وقد بدت عليه ملامح السرور الذي لا يوصف فمرت الامرأتان أمام باب الكنيسة ودخلتا القرية .

وأخذ الرجل يتبعهما عن بعد وهما لا تشعران به حتى اجتازا الجسر الصغير الحجري القائم فوق السد الذي كانت مزروعة على جوانبه اشجار السرور والصفصاف .

وبعد أن اجتاز الجسر سارتا على يسارها ودارتا حـــول خرائب الكنيسة المتهدمة إلى أن وصلتا إلى باب الدير فوقفتـا أمامه . فسألتها برتيل قائلة :

– وهل جئت بي إلى الدير ؟

– اجل فهنا ينتظرك الفارس .

– عجباً اينتظرني في مأوى الراهبات ؟

– نعم ولا ... نعم لأني في خدمتهن وأنا اقيم في الطـابق العلوي ... ولا ... لأني انا مطلقة التصرف في غرفتي التي يقيم فيها الفارس الجريح .

واكتفت الفتاة بهذا القول وتبعت العجوز فاجتازت عتبة الدير وكانت كلودين دي بوفيلبير قد نقلت برئاسة دير آخر منذ إحدى عشر سنة وتولت رئاسة هذا الدير ماري دي بوفيلبير وقد زعم أحد المؤرخين أنها شقيقة كلودين .

ولم تكون ماري قد بلغت الرابعة والعشرين من عمرها لما تعينت رئيسة لهذا الدير الغريب الذي كان اشبه ببيوت الخلاعة منه بمحل زهد وعبادة فاظهرت مهارة فائقة دلت على كفاءتها بهذا المنصب الخطير .

وكان وسط الحديقة الصغيرة سرداق جميل تحيط به الزهور من جهاته الاربعة فعادت اليه العجوز والآنسة برتيل وفتحت بابه فدخلته الفتاة من غير حذر واقفلت العجوز الباب من خلفها ووضعت المفتاح في جيبها وذهبت مطمئنة فلما سمعت الانسة

برتيل قفل الباب تحققت أنها وقعت في كمين فانقضت على الباب لتفتحه ولكن الوقت قد فات .

ورأت نافذة فأسرعت اليهـا وفتحتها فـــاذا هي مشبكة بقضبان حديدية ضخمة فصرخت واستنجدت ولكن صراخها ذهب صرخة في واد فلم يلب أحد نداءها وتحققت أن صوتها لا يمكن أن يسمعه غير الراهبات وهن قد تلقين الأوامر اللازمـة بشأنها فلا يقدمن على مساعدتها فالتزمت الصمت .

وكان الرجل قد تبع الامرأتين إلى مدخل الدير وظل برهة طويلة أمام بابه على أمل أن يرى التي كان يتعقبها حـــتى أقبل الليل ولم تخرج الفتاة من الدير فصمم على العودة إلى باريس وأخذ يناجي نفسه قائلا .

– بما أنها لم تخرج من الدير فذلك دليل على رغبتها في الاحتماء فيه . المهم عندي انها نجت من قبضة الذئب المتوج ولا ريب بان جوهان الشجاع سيكون كثير التعاسة لغيابهـا ولكنه يقتدي به بالصبر .

وتوقف فجأة عن المسير كأن قوة رهيبة أوقفته في ذلك المكان فارتمى على ركبتيه جاثياً وأخذ يضرب صدره بيديه كانه يريد تمزيق صدره وزجر قائلا :

– جان فرنسوا لماذا تسر لشقاء الرجل الذي اشفق عليك ومد اليك يد المعونة واطعمك لما كدت تقضي جوعاً وخاطبك بلطف وغرز قوتك ؟ ... لماذا تسر يا رافيلياك لتعاسته ذلك

لأنه محبوب وانت لن تحصل في عمرك على هذه النعمة فاخذت تنادي قائلا « لايمكن أن تحب وتحب يا جان فرنسوا وأنت تعلم بان ايامك معدودة وأن يد الجلاد ممدودة فوق رأسك » ...

نفاق يا رافلياك نفاق .. لقد كنت ترجـو في سرك أن تتم هذه المعجزة وأن يأتي يوم تحبك فيه أنت الملعون المحكوم عليه ...

كنت تظن بانه لوحده أهل لأن يحب لأنه صالح لأنه شجاع وكريم وأنه يقتضي عليك التسليم له .. نفاق يا رافلياك فانت منافق محتال وكاذب مثل ذلك الكافر الذئب المتوج أنك يا جان فرنسوا حاسد لولي نعمتك والمحسن اليك وفؤادك يتدفق شراً وتجسر بعد ذلك على الانتصاب في موقف الحكم .

وأخذ يضرب رأسه بالاحجار حتى دمه وهمس قائلا :
اسألك بالله أن ترحمني وتحنن علي وتساعدني وترشدني إلى ما يجب عمله وتطرد الشيطان الذي يعذبني .

وظل برهة طويلة جاثياً وهو يصلي من اعماق نفسه ويبكي وينتحب إلى أن عادت اليه سكينته تدريجياً فانتصب واقفاً ومشى بخطى متعثرة ولم يلبث أن توارى في الظلام .

الفصل الحادي والثلاثون

البحث عن برتيل

ولما خرج ساتيا من منزل كونسيني الذي كان سجيناً فيه جوهان الشجاع اخذ يناجي نفسه بقوله وهو سائر في طريقه

– لست ادري كيف ساعدت الأقدار جوهان الشجـاع الخلاص من سجنه . اعلي وصلت متأخراً ويكون كونسيني قد قتله وتخلص من جثته وهذا ما يجب علي معرفته فـاذا كان جوهان طليقاً فسيعود إلى منزله وهناك يجب أن أنتظره إذا لم يعد إلى الغد انذر اليونورا بالامر لترشدني إلى ما يجب عمله وإذا كان كونسيني قد سلب مني انتقامي فالويل له ومـا على زوجته الا أن تعد ملابس الحداد عليه .

ووطد عزمه في الحال على ما يجب عمله فاخذ يتمشى نحو منزل جوهان الشجاع ولم يلبث أن وصل اليه ودخله .

وكان اسكركاس لا يفارقه طرفه عين فلما رآه دخل المنزل

حسب أن مهمته قد انتهت فاطلق ساقيه للريح واسرع للذهاب إلى المنزل الذي يقيم فيه باردليان .

وسهى جوهان الشجاع عن قفل بابه بالمفتاح فدخله ساتيا بعد أن قرعه مرتين ولم يلق جواباً .

وكانت امتعة الغرفة التي دخلها بسيطة للغاية وهي مؤلفة من طاوله وكرسيين وصندوق وسرير صغير وعلى المستوقد بعض الاواني المستعملة في المطبخ لأن جوهان الشجاع كان يتولج طهي طعامه بيده لما يكون كيسه فارغاً ويحاول دون تناول اكله في المطعم .

ولذع عقرب الجوع بطن ساتيا فاخذ يفتش في سائر جهات المنزل ولكنه لم يجد فيه ما يسد رمقه فجلس على كرسي وقد وطد عزمه على الصبر حتى النهاية .

وارخى الليل سدوله فلم ينر المصباح لأنه سر لوجوده في الظلام اكثر من النور وقرعت الساعة التاسعة وإذا به يسمع وقع خطى على السلالم فعرف للحال القادم واستنار وجهه بامارات البشر وصرخ قائلا .

— هذا هو

ولم يستطع صبراً في مكانه فاسر الى الرواق المظلم وسأل قائلا .

— هل هذاأنت يا ولدي ؟

— نعم .

وكان القادم في تلك الساعة من الليل هو جوهان الشجاع

فان الضربة التي اصابته حين بلغه اختفاء الانسة برتيل كانت شديدة الوقع عليه وكادت تصعقه لأنه تركها في مكان لا تصل اليه ايدي الاعداء .

ولم يستطع باردليان رغم الحاجة بالاسئلة أن يعرف من رئيس الخدم اكثر مما عرفه وهو أن الآنسة برتيل غادرت القصر مع امرأة عجوز بعد أن تقابلتا سراً وتحادثتا طويلا حديثاً لم يسمعه .

وكان باردليان قد سمع بان اليونورا زوجة كونسيني تباهي بخطفها الفتاة فجزم بفكر أن تلك العجوز مرسلة من قبلها لهذه الغاية ولكنه كان يجهل أنها قامت بعمل كان اسقف لوسون يؤكد قيامه به غير أن ريشليو كان قد امتثل في عمله لتعليمات الاب جوزف وكان يعلم حق العلم أنه كاذب ايضاً بهذا الادعاء .

ويذكر القراء أن كولار الذي صادف العجوز والآنسة برتيل بمجرد خروجها من قصر الدوق دانديلي وكفى بهذه المصادفة دليلا على ما جرى بعد ذلك .

وكانت هذه الحوادث كثيرة الارتباط ببعضها فلم يستطيع باردليان حل اسرارها ببضع دقائق وخطر بباله أن يعيد الاقوال التي يسمعها بشأن الانسة برتيل ولكنه تأكد بأن ذلك يقوده إلى شوط بعيد في تحقيقه فعدل عن فكرته الاولى وقد صمم عزمه على جلاء هذا السر حباً بذينك العاشقين .

ولما أقبل الليل ولم تعد برتيل إلى قصر الدوق كما وعدت

الخدم اضطر جوهان إلى مغادره القصر مع باردليان حتى وصلا إلى المنزل الذي كان يقيم فيه الفارس فوجد الرفاق الثلاثة بانتظارهما بفارغ الصبر فسأل جوهان الشجاع اسكركاس بقوله :

– هل جاء الرجل ومن هو ؟

– نعم يا سيدي أنه ابوك المحترم .

– إلى اين ذهب بعد ذلك ؟

– إلى المنزل الذي تقيم فيه وقد تحققت امارات القلق عليه

وسمع باردليان هذا الحديث فارتجف عند سماعه جواب اسكركاس الاول ولكنه ظل ملتزماً الصمت ولما القى عليه جوهان تلك النظرة الاستفهامية سأله قائلاً :

– هل أنت ابن ذلك الرجل ؟

– هذا ما اخاله يا سيدي .

إذا كان الأمر كذلك فان ظنوني كانت من قبيل الاوهام ويسؤني كثيراً أني كاشفتك بها .

– الا تستطيع أن تذكر لي ما كنت تعتقده

– لا فائدة من ذلك فقد صرت على يقين من خطائي لأن الأمر يتعلق بابيك المحترم .

فكاد جوهان الشجاع يجاهر بان هذا الرجل ليس ابوه ولكنه التزم الصمت لسبب يجهله فتناول يد باردليان وضغط عليها بشدة وقال له :

– عفواً يا سيدي لعدم قيامي بالشكر الواجب ولكنك

تعذرني ولا ريب لأني لا استجمع أفكاري في الوقت الحاضر

فتأمله باردليان طويلا وقد اضطربت احشاؤه من فرط تأثره على مصابه لأنه رغماً عن تظاهره بالسكينة ومحاولته الابتسام كان يشابه الأموات بصفرة وجهه وقد بذل كل مجهوده ليبقى يأسه مكتوماً فلا يشعر به أحد .

ورأى الفارس بعد مزيد التروي أنه يحسن صنعاً إذا ارجعه إلى منزله ولكنه كان يحتاج لذلك إلى سبب معقول ففكر برهة في امره وقال :

– إذهب يا ولدي اذ لا يخلق بك أن تدع والدك بالانتظار ولعله قلق عليك ولست اسألك الا أن تتذكرني دائماً ولا تنس اني مستعد ابداً لخدمتك ومساعدتك .

– صدقت فان والدي ينتظرني والولد الصالح يجب أن يبر بوالده فلا يخلق بي أن ادعه بالانتظار .

وغادر باردليان والرفاق وأخذ يمشي مستعجلا نحو منزله

ولم يكد جوهان الشجاع يصل الى منزله حتى أثار مصباحه وارتقى السلام بتمهل فوقف أمام ساتيا وحدجه ببصره ولم ينطق ببنت شفة فتظاهر ساتيا بتجاهله ما كان في هذه الوقفة من التهديد والوعيد لأنه كان قد بلغ الدرجة القصوة من التأثر فتظاهر بالفرح والسرور فلم يشك جوهان بامره بل خيل له أنه يرى في عينيه اشعة العطف والحنان فتغير ظنه به لسلامة طويته فلم يلاحظ ساتيا هذا التغيير بل اخذ يد الشاب وضغط عليها بشدة :

وكانت هذه هي المرة الثانية أو الثالثة التي اتى فيها بحياته مثل هذه الاشارة بيد أن الغضب الشديد الذي استولى عليه لما عرف أن الرجل الذي ارتاب فيه باردليان لم يكن غير ساتيا الذي كان ينتظره في منزله زال فجأة ولم يظهر شيئاً من عواطفه .

وقاده ساتيا إلى المقعد وقال بلطف لم يكن يعهده من قبل

– اجلس قريباً مني يا ولدي فلا ريب بان التعب استولى عليك لأنك اصفر الوجه ولكن المهم عندي أني رأيتك سليما وكفاني هذه النعمة لاشكر الله عليها . ثم حاول ساتيا أقناع جوهان بالاستيلاء على كنوز فوستا ولم يذكر له مكانها بالتدقيق بل قال انها مخبوءة بجوار كنيسة الشهيد وظل يسرد له البرهان تلو البرهان إلى أن اقتنع بقبول جوهان مطلبه وأنه مستعد للاستيلاء على تلك الكنوز .

ولما اصبح جوهان لوحده أخذ يفتكر بامره ويناجي نفسه قائلا :

– لقد عرفت مقصده والغاية التي يسعى اليها فهو يريد أن يدفعني لارتكاب سرقة وهو منذ مدة بعيدة يحاول أن يجعلني لصاً فما هي غايته يا ترى ؟

الفصل الثاني والثلاثون

التحقق من شخصية ساتيا

وبعد ذهاب جوهان الشجاع صعد باردليان إلى غرفته وقفل بابه عليه وأخذ العلبة التي اودعت لعهدته وافرغ ما احتوت ...

وتناول ورقة من تلك الاوراق والقى نظرة عليها بغير مبالاة وبعد أن طالع كل الأوراق اعادها إلى العلبة ولم يحفظ معه الا ورقتين منها واخفى العلبة في خزانته .

ثم تناول احدى الورقتين وهي كتاب الكونت دي فوبرون الذي اتينا على نصه في فصل سابق فاعاد تلاوته عدة مرات وهو كلما طالعه يزيد اهتماماً ثم وضعه على الطاولة وأخذ يفكر بامره قائلا :

– من هو هذا الرجل المدعو لويجي كابولو الملقب بالكونت دي فوبرون الذي كان في خدمة الأميرة فوستا ويزعم أنه صديق لي ؟

وبعد أن راجع تذكاراته القديمة صرح قائلا :

– لقد تذكرته الان فلويجي كابولو الكونت التوسكاني هو الرسول الذي بعثته فوستا الى الجنرال الكسندر لتأمره بحصار المملكة في طليعة جيوشه وهو الذي جرحته بعد أن أوقفته على طريق كرافلين أجل لقد عادت لي تذكاراتي الماضية فاني بعد أن جرحت هذا وسلبته مكتوب الاميرة فوستا ثم اعتنيت به وضمدت جراحه فتأثر للمعروف الذي عملته معه ولما تماثل إلى الصحة تماماً اعلن لي شكره الخالص وأنه بات لي مخلصاً نفساً وجسداً .

– وعاد بافتكاره إلى نقطة اخرى شغلته كالاولى فقال :

– ساتيا . من هو يا ترى هذا الرجل ؟ أني لما تعقبت اثار موبغير إلى ايطاليا منذ سنوات بعيدة اتذكر أنه التجأ إلى ايطاليا واتذكر أني تعرفت في فلورنسا بعلم للسلاح الذي اكتشف ضرباً جديداً من الطعن دعاه ساتيا أي الصاعقة وما تلك الطعنة التي كان يباهي بها الا مما يتعلمه اولاد المدارس وقد عرفتها في الحال لما رأيتها للمرة الاولى فهل هو ذات الرجل ؟ .. أجل لعله يكون هو المذكور في هذا الكتاب إذ قيل عنه أنه من اهالي فلورنسا وأنه مستعد للقيام بكل مهمة تعهد اليه . وما معنى ذلك ؟ ولعل الظروف قد دعت هذا الرجل للتدني إلى هذه السفالة .

وبعد أن فكر بامره ملياً وهو ملقي رأسه على وسادة المقعد عارد افكاره بمناجاة نفسه .

– لا يوجد شيء من المستحيل ولعل هذا الرجل المدعو

ساتيا يستطيع افادتي عما أريده وكيف كانت الحال فأني سأتمكن بفضل هذا الكتاب من معرفة ما كنت اجهله ولا ريب باني إذا واليت التحقيق اتوصل إلى ما أريده فالواجب يقضي علي بمعرفة الرجل المدعو ساتيا والاجتماع معه إذا كان لايزال على قيد الحياة ولا ريب بانه يفيدني عن ابني واعرف منه الحالة التي وصل اليها وهو لا يستطيع نكران الحقيقة علي .

واستغرقته افكاره فرفع رأسه بعد برهة طويلة وقال :

– ولدي .. عجباً لماذا لم تؤثر علي هذه الكلمة قبل الان تأثيرها اليوم ؟ أن هذا الشاب يقلق فكري قلقاً عظيماً بيد أنه لم يتعرض لي في حياتي الامرة واحدة وكثيراً ما صادفني مثل هذه الاحوال إذ أشعر لمن لا اكون اعرفه ولا رأيته الامرة واحدة بعواطف الحب الفجائي .. ولكن ما السر باستغرابي اليوم ما كنت اخاله فيما مضى حادثاً طبيعياً .

أن هذا الشاب يشبهني شبهاً غريباً فان عمله يسبق قوله كما كنت افعل وأنا في السنة العشرين من عمري وهذا هو السر الذي يحرك عواطفي ويؤثر علي حتى صرت اتساءل إذا كان الشاب ليس ...

لقد بقيت عشرين سنة وانا لا اهتم بامر هذا الولد لأنه أبن فوستا وإذا كان يشبه والدته بادني الصفات فلا يمكن أن يتفاهم مع أبيه ولعل الصالح يقضي علينا بان نبقى مجهولين من بعضنا .
وقد كنت اعتقد بهذه الحقيقة لو لم يبرز فجأة امامي جوهان

ومن الغريب أنه يدعى هنا وهو اسمي ايضاً .

لقد بقيت مدة سبع عشرة سنة وأنا الاحق دي موريفير لأجل أن اقتله والتخلص منه إلى أن ظفرت به وعفوت عنه وما الذنب ذنبي إذا كان الخوف قد صعقه .. ولقد بقيت عشرين سنة وأنا لا اهتم بولدي ... ولو قال لي احدهم أني سالقاه بعد هذه المدة الطويلة واتعلق به كما يتعلق بي لما كنت صدقته ولكن غرائب هذه الايام لا تخطر بعقل بشر .

★ ★

الفصل الثالث والثلاثون

دي سولي وزير الملك

وفي صباح اليوم الثاني ذهب باردليان الى الثكنة الكائنة في شارع سان انطوان لزيارة المسيو دي سولي .

ولما وصل إلى بهو الانتظار صدم رجلا على غير قصد منه فاعتذر اليه واجابه الرجل فتلطفاً وهو حادث بسيط لا اهمية له غير أنه انتهز فرصة ذهاب الخادم لاخبار مولاه بقدومه ليدرس ملامح هذا الرجل الذي كانت تدل ظواهره على الثروة والغنى وكان يتمشى ذهاباً وأياباً بخطى ثابتة .

وبعد أن تأمله برهة تبسم ابتسامة من يراجع تذكاراته الماضية وهمس في سره قائلا :

ـ عجباً أين ومتى رأيت هاتين العينين وهذه الهيئة والمشية أنه يتظاهر بالثبات والسكينة وقد سمعت لهجته فدلني كلامه على أنه أيطالي الاصل فمن هو يا ترى ؟

وعاد الخادم ليدعوه إلى غرفة مولاه فلبى الدعوة وقد نسي الرجل الذي شغله برهة من الزمن .

وكان مكسيمليان دي بتون البارون دي رونّي والدوق سولي وزير الملك هنريكوس الرابع وصديقه الحميم رجلا يناهز الخمسين من عمره عالي الجبهة غزير شعر اللحية وهو كثير العناية بها حديد البصر قاس الملامح تدل ظواهره على الشدة فقام لاستقبال الفارس باردليان كما يفعل الصديق مع صديقه ومد له يده مصافحاً وقد ادهشته هذه الزيارة ولكنه كتم استغرابه لسروره مع مقابلته صديقه والاجتماع معه .

وابدى اشارة إلى خادمه فادنى كرسياً من طاولته الملاءى بالاوراق وقال له :

– متى قرعت لك الجرس تدخل الموسيو كيدولوبيني .

فانحنى الخادم باحترام وخرج من الغرفة وظل الصديقان لوحدهما وجهاً ازاء وجه وقال دي سوس .

– يجب يا عزيزي مجاراتك على غرابة طباعك فلست اسألك عما استطيع نفعك به بل أقول لك أية خدمة جديدة تريد أن تقدمها ؟

– اخطأت يا سيدي فاني جئت اليك لارجوك أن تقدم لي خدمة تهمني كثيراً .

– يا لسروري إذا كنت استطيع نفعك وأرجوك أن تطلب ما تريده فهو مقضي في الحال .

– لا يخفاك يا سيدي أني لكثرة اعتزالي العالم لم أعد ادري شيئاً من حوادثه وقد بت اجهل كل الجهل ما يجري في بلاط

ملك فرنسا حتى بت اخجل من نفسي فخطر لي أن اذهب لزيارة الوزير واستطلع منه ما تهمني معرفته :

فكتم الوزير تعجبه من هذا القول ولكنه كان يعرف الفارس باردليان حق المعرفة وأنه لا يضيع له وقته الثمين بالحديث الذي لا طائل منه وأنه لا يبوح بسره وبما يريده الا متى أزف الوقت الملائم فسأله قائلا :

– ما الذي تريد معرفته يا عزيزي .

– كل شيء فكلمني إذا شئت عن الملك والملكة وحفلة سيامتها ملكة على فرنسا فمتى تجري هذه الحفلة ؟

فتجهم وجه الوزير وقال له الملك يؤجل القيام بهذه الحفلة رغماً عن الحاح الملكة عليه .

وكان باردليان مستنداً كوعه على الطاولة الملأى بالاوراق وبينما الوزير يتكلم وقع بصره على ورقة احتوت ثلاثة كلمات قرأها وهي عشرة ملايين كيدولوبيني » .

وعاود حديثه بسكينة مع الوزير وقال :

– أن الملكة ستزيد في الحاحها هذه المرة .

– كيف عرفت ذلك ؟

– الم يتكهن أحد المنجمين للملك بشأن هذه الحفلة .

– اجل وأن الملك قد زاد خوفاً وهذا التكهن هو الذي يؤخره عن القيام بهذه الحفلة .

– لقد أحسن الملك صنعاً .

— وهل تعتقد بمثل هذه الخرافات ؟

أني قليل التشاؤم لا أصدق غير المحسوس اما هـذه النبوءة فاني على يقين في صحتها .

بربك تكلم لي وقل ما تعرفـــه فهل أنت مطلع على شيء جديـد .

كم من مرة قلت لك أني لا اعلم الا أن الملك سيقتل في عربة بعد حفلة عظيمة كحفلة سيامة الملكة وهذا ما تكهن به المنجم .

— وهل تعتقد أن الملكة ..

— لا تكرهني يا سيدي على التكلم بغير أفكاري فان الملكة امرأة والنساء من طبعهن الزهو والمباهاة فهي تريد القيام بهذه الحفلة لتفاخر بعظمتها الملوكية وسيان عندها العواقب مهما كانت وخيمة ولا ريب بانها تجهل أنحفلة سيامتها مقرونة بهذه النبوءة

— سانصح الملك بان يرفض بتاتاً القيام بهذه الحفلة .

— لا أوافق على هذا الرأي .

— لأي سبب !

— لأن الملك إذا ابى على الملكة القيام بحفلة سيامتها فـلا يعدم اعداؤه وسيلة لاقناعه بحفلة اخرى لم تكن تخطر على بالنا فتتم عندئذ نبوءة المنجم .

وما الذي يجب عمله ؟

— أرى أن يجيب الملك رغائب الملكة ويضرب موعـــد صريحاً لهذه الحفلة حتى لا يرتاب أحد بحسن نواياه .. أننا الآن

في منتصف شهر ايار وفي امكانه أن يجعل موعدها في منتصف شهر ايلول فتكون أمامنا اربعة اشهر وهي المدة اللازمة للقيام بهذه الحفلة العظيمة الشأن وفي اثناء ذلك يستطيع مليكك أن يكون في مأمن من كل اعتداء اثيم .

صدقت ... وبعد ذلك ؟

— لا تحرم وسيلة لارجاء الحفلة الى الربيع .

— ومتى أقبل الربيع ؟

— حقاً أنك كثير الاسئلة يا سيدي فقد وجدت لك طريقة تتأكد فيها حياة الملك مدة سنة كاملة وخلال هذه السنه تحدث أمور لا تخطر بالبال ويموت كثير من الناس وتتبدل الأفكار وقد لا تتم هذه النبوءة المشؤومة .

لقد كنت على يقين من أنك جئت لتقدم لي خدمة عظمى وقد صرت اخال لما اراك أن أحد الاخطار يتهددنا وأنك جئت لدفعه .

— أنك تبالغ بتلطفك فقد انذرتك الآن بما يجب وأمامك عدة اشهر تكون فيها مطمئناً مرتاح البال وأنا على يقين بانك لا تضيع هذا الوقت سدى .

— كيف أقوم لك بواجبات شكري فانك تهب اصدقاءك مساعدتك دائماً وتأبى أن تتقاضى منهم جزاءاً .

— لا بد من يوم اسألك فيه مساعدتك ولعلك تراني يومئذ مبالغاً في طلبي .

وقام ليودع باردليان وفي ذات الحين مد يده إلى جرس كان على طاولته وقرعه ليدخل الزائر الذي كان في غرفة الانتظار وكان باردليان قد تقدم خطوتين نحو الباب فتوقف فجأة وضرب جبهته بيده وقال :

— وجدت ...

— ما الذي وجدته ؟

— سألتني منذ هنيهة كيف تستطيع شكري للخدم الزهيدة التي قمت بها وقد وجدت الطريقه التي تمكنك من أدراك مأربك

— هل لك من خدمة تريد أن تسألني عنها ؟

— نعم وهي في نظري عظيمة الاهمية وذلك اني لقيت صعوبة عظمى باجتياز هذه الغرف الملأى بالمنتظرين فهل بامكانك أن تجد وسيلة لمروري من غير هذه الطريق ؟

— هذه هي النعمة التي تريد الحصول عليها .

— أن ما تراه زهيداً يا سيدي اعتبره عظيم الاهمية لأني كما لا يخفاك غريب الطباع .

— الأمر بسيط للغاية فاتبعني إذا احببت .

— كلا يا سيدي فقد اضعت لك كثيراً من وقتك الثمين ولست اطلب منك الا أن ترشدني إلى الطريق التي يجب أن أمر بها .

— اذهب من هذه الطريق التي تؤدي إلى غرفتي الخاصة ومتى صرت في اخر الرواق سر يميناً فتصادف السلم التي تنتهي إلى باحة الثكنة .

فاكتفى باردليان بما سمعه لأنه ادرك الغاية التي يسعى اليها وابدى إلى دي سولي اشارة وداع فعاد الوزير إلى مكانه ولم يخطر بباله إلى ما يدعوه للارتياب .

وازاح باردليان الستارة ولكنه لم يقفل الباب من خلفه بل وقف يصغي إلى ما يقال في الغرفة .

وادخل كيدو إلى غرفة الوزير وتأكد باردليان حين سماعه بداية الحديث أنه لم يخطيء في ظنه وأنه ذات الرجل الذي صادفه ولم يعرفه لأول وهلة وأنه ساتيا الذي صمم على التفتيش عليه .

الفصل الرابع والثلاثون

اعتقال باردليان

وقف ساتيا امام طاولة الوزير وانحنى باحترام زائد مقرون بمظاهر الالفة الكاذبة فتفحصه دي سولي برهة وكفته نظرة وجهها اليه لمعرفة حقيقة الرجل فساله بجفاء .

– وهل أنت الذي تزعم أنك تريد اهداءنا عدة ملايين ؟

– اجل يا سيدي فاني احمل إلى الخزينة ثلاثة وثمانين مليوناً

– اين هي هذه القيمة ؟ تكلم باختصار واسرع في حديثك لأن وقتي ثمين .

– أني عارف يا سيدي أن وقتك ثمين ولست أطلب منك الاعشر دقائق منه اعطيك لقاءها ثلاثة وثمانين مليوناً فيكون ثمن كل دقيقة عشرة ملايين وهو ثمن باهظ لا يستهان به ولو كان المشتري وزيراً .

– فكر بعواقب كلامك قبل أن تتفوه به وأظنك ستطلب حصتك من هذه الثروة وينتهي أمرك بان اكون أنا المعطي وليس أنت .

اخطأت يا سيدي فـاني لا انوي طلب شيء وبالعكس فاريد أن اسديك نصيحة خطيرة تعرف اهميتها متى سمعتها وذلك فضلا عن الملايين التي انا مستعد لتقديمها لك فهل تحققت الآن اني أنا المعطي

– إذا كان الأمر كما تقول فتكلم .

– لا اخالك يا سيدي لم تسمع بكنوز الاميرة فوستا .

– ليس من أحد يعرف مخبأ هذه الكنوز إذا كان لها نصيب في الوجود .

– بل هي موجودة وأنا اعرف مكانها وقد جئت لاعرضها عليك .

– وكيف توصلت إلى هذه المعرفة .

– لا يهمك هـذا الامر يا سيدي وليكفيك إني جئتك بكنوز الاميرة وأريد تقديمها لك .

واخرج من جيبه ورقة مطوية قدمها إلى الوزير وقال له :

– أن هذه الورقة تتضمن يا سيدي التعليمات الصريحة عن المكان المودعة فيه الكنوز وما عليك الا التنازل لمطالعتها .

وكانت الورقة التي اعطاها ساتيا للوزير هي التي عثر عليها في السجن الذي كان فيه جوهان الشجاع في منزل كونسيني فانـه بسقوطه وقعت منه العلبة فتناثرت الاوراق الـتي كانت فالتقطها واحدة فواحدة وأعادها إلى مكانها ولكنه بسبب الظلام الذي كان مخيماً على ذلك المكان لم ير واحدة منها كما لم يرها باردليان وكرنكايل اللذان انقذاه من سجنه .

واخذ دي سولي الورقة والقى عليها نظرة ولكنه ابدى اشارة دلت على استياءة فلاحظ ساتيا منه هذه الحركة وقال له

– أن هذه الورقة مكتوبة باللغة الايطالية وإذا امرت يا سيدي فاني اترجها لك لأني ايطالي الاصل كما يدلك اسمي ويمكنك تكليف من تشاء بمراجعة الترجمة لتتأكد صحتها .

فلم يجاوبه دي سولي بل اعاد الورقة فاخذ ساتيا يترجها بصوت عال وهي ذات الترجمة التي قام بها الاب جوزيف من اللغة الايطالية وباردليان من الاسبانيولية .

ولما انتهى ساتيا من ترجمته اعادها إلى دي سولي وقال له :

– الامر صريح للغاية يا سيدي .

– انك تقدم خدمة مثلى للملكة باعطائك لنا هذه الورقة من غير مقابل ولا بد لي من شكرك على عملك .

– بقي علي أن اسديك النصيحة التي وعدتك بها فلا اكتمك بانك ستلقى من ينازعك هذه الكنوز التي لم تحصل عليها بعد وصالحك يقضي عليك بان تستولي عليها رغم أنف ...

– ومن الذي يجسر على منازعة ملك فرنسا حقه ؟ انخاف من البابا أو من ملك اسبانيا اعلم أن الزمن الذي كان بداخل فيه الملوك والاغراب بشؤوننا الداخلية قد انقضى وباد .

– أني اتكلم عن شخص هو أشد سطوة وبطشا من البابا وملك اسبانيا .

– لا ريب من جنونك فمن هو هذا الرجل ؟

– هو أحد الاشقياء يا سيدي .

– أن امر الاشقياء يتعلق برئيس الدرك فدعنا من ذكره .

– لست تعرفني يا سيدي قبل الآن فانت تراني بهذه الملابس الانيقة التي يحسدني عليها كثير من الاغنياء وأني ابدو بمظهر أنيق ولكنك عرفتني لأول وهلة أني احد المساكين الذين لا يعرف لهم اصل ولا فصل وقد عاملتني في بداية الامر كما استحق وكدت تأمر خدمك بطردي من أمامي وضربي بالعصى فعجبت لصدق فراستك ولكنك اسأت إلي بهذه المعاملة فاحببت أن ابين لك استيائي منك بالطريقة التي اعرفها .

وانتصب ساتيا واقفاً بمنتهى القوة والجسارة واخذ يحدق بالوزير من غير مبالات وكان يكلمه بشدة مقرونة بادعاء كاذب فذعر دي سولي من لهجته ولكنه بات يهتم كثيراً بهذا الرجل الغريب واحب الوقوف على غايته فقال له :

– صرح لي بافكارك جلياً .

– احببت أن اثبت لك باني لست احمقاً إلى الدرجة التي تتوهمها ولست من الناس الذين يتولاهم الذعر بسهولة .

– وأراك يا سيدي تنصفني بحكمك علي فانا الرجل غير الاحمق الذي لا يرهب القليل ولا الكثير أقول لك احذر لنفسك يا سيدي فاذا تركت الشقي الذي ذكرته لك حراً طليقاً فهو يتلاعب بك كالريشة في مهب الريح رغم اشتهارك في المقدرة السياسية وأنك لا تعلم قوة بطشه ففي امكانه التغلب عليك وعلى رجالك وعلى الجند إذا خطر ببالك ارسالهم للقبض

عليه وفي نهاية الامر يستولي على الكنوز ولا ينالك الا حرقة خسارتها .

– إذن فانت تكلمني عن الشيطان بذاته وعن زعيم عصابة رهيبة لا علم لي بوجودها .

– كلا بل هو رجل لا تثنيه قوة عن مأربه فاذا لم نتخذ كل التحوطات اللازمة حين تمد يدك للقبض عليه فلربما تجد الصناديق خاوية خالية ولعلها تكون افرغ من فؤاد أم موسى .

– أني اقدر لك اهمية هذه النصيحة الثمينة ولست اسألك الا أن تذكر لي اسم هذا الشجاع الغريب

– انه يدعى جوهان الشجاع .

– واين نستطيع العثور عليه ؟

– أنه يقيم في شارع الشجرة اليابسة .

– منذ هذه الساعة اصبحت الملايين التي ذكرتها ملكا لجلالة الملك وكل من يجسر على مد يده عليها يتعرض لاشد الجزاء ويسلم بلا شفقة ولا رحمة إلى يد الجلاد سواء كان جوهان الشجاع أو سواه . وإذا ذهب هذا الشاب على التجول في ضواحي دير مونمارتر اكفل له خلاصه من هذه الحياة وسأستدعيه الليلة واتولى استجوابه بذاتي .

– أن مولاي أدرى بما يجب عمله .

– هل هذا كل ما تريد ابلاغي اياه ؟

– نعم يا سيدي .

وانحنى أمام الوزير باحترام وخرج من الغرفة برباطة جأش

ولم تفت باردليان كلمة من هذا الحديث فلما شعر بانه لم يبق من موجب لبقائه في مخبأه خرج منه مسرعاً وذهب فوقف في زاوية شارع السيلستين بجانب الباب .

وكان نهر السين يعترض السور الداخلي والشكنة وهنالك مكان فسيح مزروع بالاشجار فكان اللاعبون بالطابة يتبارون باللعب في ذلك المكان .

ووقف باردليان في مكانه برهة وهو يتظاهر باهتمامه بامر اللاعبين ولكنه في الحقيقة لم يكن يفارق باب الشكنة ببصره .

وبعد قليل خرج ساتيا وذهب عن يمينة قاصداً شاع سان انطوان ولم يكد يراه باردليان حتى نسى اللعبة واللاعبين واخذ يسير في اثره ولم يكن قد وطد عزمه بعد على ما يجب عمله معه لأنه كان يود قبل كل شيء أن يستوثق من المحل الذي يقيم فيه ليتمكن من الاهتداء إلى مقره متى احتاج اليه .

عاد ساتيا إلى منزله ولم يخطر بباله أن باردليان كان اتبع له من ظله فانتظر الفارس البرهة الكافية حتى تأكد مكان اقامته فعاد إلى نزله آمناً مطمئناً .

وكان يؤمل مصادفة جوهان الشجاع في انتظاره ولكنه لم يره فذهب إلى حيث كان يقيم في شارع الشجرة اليابسة فرأى الباب مفتوحاً ودخل المنزل من غير تكلف ولكنه لم يجد فيه احد من الناس .

ولما دخل غرفته كتب ورقة ووضعها في غلاف وختمه بخاتمه بيده وقال لصاحبة النزل .

— لعلي لا أعود هذا المساء لتناول الطعام كالمعتاد فاطلب منك أن تنهضي غداً في ساعة باكرة فاذا لم اكن موجوداً في غرفتي تأخذين هذا الكتاب وتذهبين به إلى الدوق سولي وتطلبين مقابلته بحجة أنك مرسلة من قبلي فيدخلونك عليه في الحال فتعطيه الكتاب وتعودين آمنة الى نزلك .

وفي الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم خرجت من الثكنة التي كان يقيم فيها الوزير دي سولي باعتباره رئيساً للمدفعية فرقة من الجند يقودها ضابط شاب فوقفت في شارع الشجرة اليابسة أمام المنزل الذى يقطنه جوهان الشجاع فاوقف الضابط ستة من رجاله امام المنزل ودخل اليه اربعة من الجند .

وكان جوهان الشجاع كعادته لم يقفل الباب من خلفه بالمفتاح فتمكن الجند من دخول المنزل بسهولة فرأوا رجلا نائماً على سرير صغير وهو ملتف بردائه فعرفوه أنه جوهان الشجاع وفي اسرع من لمح البصر شدوا وثاقه وقادوه الى الحلقة التي كانت بانتظاره فاحاط بها الجند وعادوا به الى الثكنة .

قبض على جوهان الشجاع بسرعة زائدة فلم يلاحظها احد من الجوار ولم يكد السجين يصل الى الثكنة حتى وضع في غرفة مظلمة واقفل عليه بابها وقد تركوه موثقاً فاضطر ان يبقى على الحالة التي تركوه فيها وهو لا يستطيع أن يأتي حراكا .

وظل جوهان في مكانه ست ساعات ونصف كانوا قد وضعوا على رأسه طرف ردائه لئلا تظهر ملامح وجهه وكان

مغلولا مكوماً في آن واحد .

وفي الساعة السادسة والنصف دخل سجنه اربعة رجال أشداء فحملوه على اكتافهم إلى حيث كان لا يدري لأنه لم يكن يرى النور فوضعوه على كرسي ونزعوا الرداء عن وجهه ولكنهم لم يفكوا اغلاله ووقفوا من خلفه ينتظرون الأوامر التي ستصدر لهم بشأنه .

ولما ظهر وجه السجين في النور تقدم منه رجل كان لا يزال جالساً قرب طاولته في آخر الغرفة وهو الوزير دي سولي وقال مبهوتاً :

— الفارس باردليان !

وكان الفارس باردليان قد بات سجيناً في الغرفة التي قوبل فيها صباحاً كزائر عظيم القدر والمقام فلم يبد شيء من امارات الدهشة لما صارت اليه حالته كانه كان عالماً بها من قبل بل بدت عليه ملامح السكينة التامة .

ودهش الوزير دي سولي دهشاً عظيماً لرؤيته هذا الامر الذي لم يكن يتوقعه وقد زاد تعجبه لما سمع الفارس يقول له :

— ما معنى هذا المزاح البارد يا سيدي فهل جن رجالك يا ترى .

وكان دي سولي قد رأى الفارس باردليان مقيداً بين ايدي جنده فلم تطق عينيه ولكنه لما سمع حديثه لم يبقى عنده شيء من الريبة فصرخ منتهراً رجاله وقال لهم :

– الويل لكم ايها الاشقياء لماذا تتأخرون عن حل اغلال الفارس ؟ الم تتأكدوا حتى الآن انكم ارتكبتم خطأً فادحاً بالقبض عليه .

فاسرع الجند بحل قيود الفارس التي كانت تدمي ذراعيه وانسحبوا من الغرفة امتثالاً للاشارة التى ابداها لهم الوزير الذي اخذ يستفيض بالاعتذار لباردليان فكان يسمع اعتذاره مبتسما حتى بلغ الوزير الحنق اشده فصرخ قائلا .

– عجبا كيف جرى هذا الامر .

– وحقك يا سيدي أني لست اكثر علماً منك به .

– يجب أن اعرف كيف توقعت هذه الحادثة واقف على تفاصيلها لأني لا أريد ترك هذه الاهانة التي لحقت بك من غير عقاب .

– لا موجب لهذا الامر الذي ستلحقه بهؤلاء المساكين لأنهم لا يستحقونه فضلاً عن كوني عفوت عنهم .

– انك جواد كريم كعادتك ولكن أريد أن اعرف كيف ينفذ رجالي الاوامر التي اصدرها لهم .

– لا بد لي والحالة هذه من مكاشفتك بما اعرفه لأني بينما كنت ارتقب عودة صديقي الغائب عن منزله تغلب علي النعاس فقمت واستلقيت على سريره وبينما أنا نائم لم اشعر الا والجند قد انقضوا علي وقيدوني بالاغلال قبل أن اتمكن من تعريفهم بنفسي وقادوني إلى هنا وإذا كنت تستطيع افادتي عن السبب

الذي لاجله عوملت هذه المعاملة اصير شاكراً لك إلى الابد .

– وما اسم الصديق الذي تترقب عودته ؟

– جوهان الشجاع .

فقفز دي سولي عن كرسيه وقال :

– جوهان الشجاع ؟ لقد ادركت الآن سر المسئلة .

– لا غرابة إذا كنت اعلم مني بهذه الدقائق الغريبة

– وهل جوهان الشجاع صديق لك ؟

– اجل بل هو من غيرة اصدقائي

– كنت اصدرت أوامري بالقبض على جوهان الشجاع وهو احد اصدقائك فرآك القائد نائماً في سريره كما لو كنت في منزلك فتوهمك اياه وقبض عليك .

– وما الداعي للقبض عليه ؟ واية جريمة ارتكبها هذا الصديق ؟

– لست اكتمك ايها الفارس باني تبلغت عن هذا الشاب أنه شقي يرهب جانبه وأنه يتآمر على الملك .

– لقد اخطأ كل من بلغك هذا الامر أيها الدوق فأني اعرف الناس بجوهان الشجاع واؤكد لك بأنه لن تخطر بباله المؤامرة على الملك وعدا ذلك فان لهذا الشاب المسكين من المشاغل الخطيرة ما تصرفه عن الافكار بهذا الامر فهو عاشق وله لفتاة يهمني امرها كثيراً وهذه الفتاة قد اختفت وهو يهتم بالتفتيش عليها وليس له من وقت يضيعه بالمؤامرة وامثال

هذه الترهات أما قولك عنه انه شقي .

– يخال أنك صادق في قولك واعدك وعداً شريفاً بان لا ازعج هـذا الشاب بعد الآن بمـا انك كفلته لي ولكن اسألك التنبيه عليه بان يمتنع عن التجوال حول دير مونمارتر فـان ضواحيه ستصبح عن قريب شديدة الخطر أو بالحرى محظورة على كل من لا اعرفه معرفة شخصية فبلغ هذا الامر الى صديقك بالنيابة عني .

فانحنى باردليان أمام الدوق وقد بدت على ملامحه امارات السخرية كأنه لا يبالي بهذة النصيحة أو هو يحتقرها واستأذن منه وعاد إلى المنزل وطلب من صاحبته الكتاب الذي كلفهـا بايصاله الى الدوق واطعمه للنار .

وبينما هو كذلك اقبل جوهان الشجاع فقال له :

– لقد جئت وايم الحق في الوقت الملائـم لأني كنت أود الذهاب اليك ثم اخذ الشاب يقص على الفارس الحـوادث التي جرت له في ذلك اليوم وخلاصتها أنه لم يقف على آثار الانسة برتيل رغم المساعي الكثيرة التي بذلهـا في هـذا الشأن وكان باردليان يصغي اليه بمزيد الانتباه وكتم عنه انه قبض عليه بدلا منه ولـم يذكـر له شيئاً عن خيانـة ساتيا لكنه انتحل اسم كيدولوبيني ولا عن الحيلة التي استعملها لابطال دسيسته .

ثم خاطبه الفارس قائلا لقد نسيت أن اسألك إذا كنت تعرف من يقطن المنزل الكائن في زاوية شارع الترواندري

ازاء بئر الغرام .

– اجل اني أعرفه وهو ابي !

فلم يتمالك باردليان عن الارتجاف حين سماعة هذا الجواب وقفز من مكانه كأن الافعى لسعته فتبسم جوهان ابتسامة غريبة وترك الفارس في مكانه عرضة للحيرة والأفكار .

الفصل الخامس والثلاثون

هنريكوس والملكة

وهنا نستميح القراء عذراً أو عفواً لننقلهم إلى غرفة الملك الخاصة المجاورة لغرفة منامه التي رأيناه فيها في فصل سابق ولم يكن يقبل في هاتين الغرفتين الا اوفى اخصائه ورجال ثقته .

وفي اليوم الثاني لزيارة باردليان الدوق دي سولي كان الوزير مجتمعاً مع الملك هنريكوس الرابع في هذه الغرفة فحاول في بداية الامر اقناعه بالفكرة التي ارتآها باردليان وهي أن يتظاهر الملك باجابة طلب الملكة ويحدد يوماً معيناً لحفلة سيامتها ملكة على فرنسا غير ان الملك لم يكن من الذين يقنعون بغامض الاقوال فاضطر الدوق أن يطلعه على ما جرى بينه وبين باردليان من الحديث .

ولم يكد هنريكوس الملك يسمع الكلمات الاولى حتى اصفر وجهه وارتمى على مقعد لأن خوفه من القتل كان شغله الشاغل ولما انجز الوزير حديثه ضرب الملك فخذيه بغضب ونهض واقفاً وقال :

— اجل انهم سيقتلونني ولن أخرج حياً من هذه المدينة .

— اخطأت يا مولاي بل تبقى سليما إذا تنازلت لاتباع نصيحتي والعمل بها .

— وما الذي استفيده من تأخير هذه الحفلة إلى الربيع .

— اقول لمولاي ما قاله الفارس باردليان أننا نستفيد سنة برمتها وهي مدة كافية فيما أرى لتنفيذ مشروعنا الاعظم ومتى جاء فصل الربيع تنجو من خنجر القتلة وتعود من حملتك على المانيا ظافراً مكللا بتيجان النصر والظفر ولا يعود أحد من اعدائك يجسر على النظر اليك

وأخذ الملك يتمشى كعادته في الغرفة ذهاباً واياباً بخطى متسعة وهو يفكر بالاقوال التي سمعها من وزيره وهو كما روى عنه التاريخ سريع الخاطرة قوي الارادة فقال لوزيره :

— صدقت فلست أرى غير هذه الوسيلة لادراك مآربنا والنجاة من الخطر الذي يتهددني ولكن يلزمنا لذلك المال الكثير فهل من وسيلة لايجاده :

— أجل يا مولاي وإذا تناولت لالقاء نظرة على هذه الورقة تتأكد صدق قولي :

قال هذا وأعطاه الورقة التي اخذها من سافيا وكان هنريكوس الرابع متعلماً اكثر من رجال بلاطة ويحسن اللغتين الاسبانية والايطالية فقرأ الورقة ولم يحتج إلى مترجم كما فعل الدوق دي سولي ولما انتهى من قرائتها اعادها لوزيره وقال له :

– ما هو هذا الكنز وما فائدتنا منه .

– أن هذا الكنز يبلغ ثلاثة وثمانين مليوناً .

– حقاً أن هذا المبلغ لطائل .

وقص عليه بوجيز العبارة ما عرفه عن حكاية كنوز الاميرة فوستا وانجز حديثه بقوله :

– أن هذا المبلغ العظيم يفيدنا فائدة كبرى لانجاز معداتنا العسكرية .

– ولكن هذه الأموال لا تخصنا .

– عفواً يا مولاي فان هذه الكنوز مخبوءة في املاكك منذ عشرين سنة وصاحبها لم يظهر بعد إلى الوجود وما وجد في املاك الملك يخص الملك وهذه حقيقة مسلمة لا يستطيع احد نكرانها .

فنهض الملك للحال واستدعى اليه الملكة ولما وصلت خاطبها بسكينة

– رغبت في مقابلتي واظنك تريدين محادثتي بشأن حفلة سياحتك ملكية على فرنسا .

– صدقت يا سيدي ولكني اظن أن ملتمسي سيقابل بالرفض هذه المرة ايضاً فان الملكة لا تستطيع أن تحصل من الملك .

اخطأت يا سيدتي فاني أريد اليوم منحك ما رفضته عنك حتى الآن .

– كيف ذلك ! هل تجيب يا مولاي مطلبي !

لقد قررت مع ابن عمي سولي اموراً خطيرة للغاية ومن المحتمل أن اجرد حملة في الربيع القادم وفي غياب الملك تنوبين عنه في ادارة المملكة وقد رأيت أن الواجب يقضي بتأييد سلطتك ورغماً عن النفقات الطائلة التي تتطلبها هذه الحفلة العظيمة فان الواجب يقضي باقامتها لذلك قررت اجراءها في اليوم العشرين من شهر ايلول .

– لقد صيرتني سعيدة وأنك طيب الفؤاد يا هنريكوس .

– صدقت يا عزيزتي ولعلك تعرفين قيمتي الحقيقية لما افارق هذه الحياة .

– اما وقد تلطف جلالة الملك معي إلى هذه الدرجة فلي نعمة أخرى اسأله اياها ولعله لا يبخل علي بها .

– وما الذي تريدينه ؟

– أني في حاجة إلى المال .

– المال ... المال .

– قيمته زهيدة فاني أطلب عشرين الف ذهب فقط .

– وهل ترين أن هذه القيمة زهيدة لا تستحق الذكر ؟ ام تريدين أن تدفع شعبنا إلى الدرجة القصوى من الفقر بما نفرضه عليه من الضرائب الباهظة لتشبعي بطن كونسيني وزوجته لأن كل الاموال التي تأخذينها منا تتسرب إلى صناديقها وأنت تريدين سلبنا البقية القليلة لتغني هذين النهمين وإذا كنت طيب

القلب كما تقولين فما انا بالرجل الابله .

– أنك لا تبخل باموالك على خليلاتك بخلك علي بها .

فضرب الارض برجله وقال بغضب أني الحاكم المطلق افعل ما اريده .

– امرك يا سيدي وسأقول لرئيسة دير مونتمارتر أن ملكة فرنسا لا تمكنها وسائلها المالية من تقديم الخدمة التي طلبتها منها لترميم منزل الرب وابغلها بان تطلب ذلك من السيدة دي فرنيل التي لا يبخل عليها جلالة الملك الحاكم المطلق بما تطلبه منه .

وبلغ بها الغضب اشده فنسيت الجميل الذي اسداه لها منذ هنيهة فتوجهت نحو الباب غضبى تريد الخروج .

ولما سمع الملك اسم رئيسة دير مونتمارتر تبادل مع الدوق دي سولي نظرة سريعة تفاهما منها ما يريدانه وقال الملك وقد لطف لهجته .

– مهلا يا سيدتي واذا كنت ارفض عليك المال الذي تعطينه لذلك الايطالي وزوجته الطامعين ولكني لا ابخل به اذا كان الامر يتعلق بعمل خيري أو ديني ولست اريد أن يقال بان خادمات الله قد التجأن إلى كرم الملكة ولم تلب طلبهن .

وادركت الملكة انها فازت بما تريده فعادت اليها ابتسامتها ولكن لم يخطر ببالها أن زوجها اطلع على ورقة مثل الورقة التي اطلعتها عليها اليونورا فباحت بسرها وهي لا تدري وقالت :

–لقد قالت رئيسة ديرمونتمارترانها علمت عن ثقة بانه يوجد

تحت كنيسة الشهيد قبو فيه مذبح حجري وهو القبو الذي كان يصلي فيه القديس دنيس فيما مضى ويقيم على مذبحه القداس الالهي وتريد الرئيسة أن تجري فيه الحفريات اللازمة لتكشف هذا المكان ويصبح للمؤمنين مكاناً يحجون اليه وتعاد إلى ديرها شهرته السابقة غير أنها فقيرة فعمدت إلى كرم الملكة وطلبت مساعدتها والمال الذي طلبته مخصص لهذه الغاية المقدسة التي ستجلب على فرنسا بركات الاله .

فنظر الملك إلى وزيره كأنه يريد أن يستشيره بالامر فاقترب منه وهمس في اذنه بعض كلمات بصوت منخفض ونظرت اليه الملكة ماري دي ميديسيس بقلق زائد لأن الدوق دي سولي كان أمين خزينة الملك الاعظم . وهو الذي كان يعطي الملكة وخليلاته الأموال اللازمة وقد اختاره لهذه الوظيفة ليضع حداً لمطامع خليلاته اللواتي كن يكثرن عليه من الطلب .

ولم تلبث الملكة أن اطمأنت لأنها سمعت الملك يقول لها بتحبب :

– معاذ الله يا سيدتي أن امنعك عن الاشتراك بعمل خيري يجلب علينا بركات الاله وسيعطيك الدوق دي سولي ما أنت في حاجة اليه غير أني اضع لذلك شرطاً واحداً .

– وما هو شرطك يا مولاي ؟

– تبين لي من حديثك أن هذا العمل كثير القداسة نبيل الغاية فلست أريد أن اشترك فيه بالمساعدة المالية فقط بل أريد

أن أراقب وادير هذه الاعمال إذا اقتضت الحال فبلغي ارادتي إلى رئيسة الدير .

ولم يخطر ببال الملكة أن الملك يضمر مقصداً خفياً فوثقت بحسن نيته وشكرته بقولها :

ـ أن جلالة الملك هو الحاكم المطلق .

واسرعت لتبليغ هذه البشرى إلى اليونورا وكونسيني فلم يخطر ببالها انها سيشتبكان عن قريب مع الملك واكوافيفا وأنهما سيمنعانهما عن الحصول عن الكنوز التي حسبا امتلاكها .

**

الفصل السادس والثلاثون

انفصال جوهان عن رفاقه الثلاثة

وفي ذات اليوم عند الظهر استصحب جوهان الشجاع اسكركاس ورفيقيه إلى الحانة وخاطبهم بقوله :

ـ لم يبقى لي من أوامر اصدرها لكم ايها الاخوان ولم أعد رئيسكم وقد انتهت بيننا كل علاقة فاستودعكم الله .

فنظرو اليه مبهوتين وقد اصفرت وجوههم حتى شابهت الأموات بلونها وزال سكرهم فجأة وقالوا بصمت واحد :

ـ اذن فانت تطردنا من خدمتك .

ـ ما الذي جنيناه لنستحق عقابك .

ـ كيف نستطيع المعيشة بدونك .

ـ لست اطردكم أيها الرفاق الشجعان ولم تأتوا عملا اشكوه منكم ومع ذلك فيجب علينا أن نفترق .

ـ وما الموجب لهذا الافتراق ! أن من يريد طرد الذين هم في خدمته يبلغهم سبب طردهم إذا استغنى عن خدمتهم .

ـ لأني قد عولت على تغيير نوع معيشتي وإذا بقيتم تتعرضون

للموت جوعاً :

– لماذا نموت جوعاً ؟

– الم نجد طعامنا حتى الآن ؟

– كيف نشكو الجوع وسيوفنا في اغمادها .

– هذا هو الأمر الذي صممت على العدول عنه وهو الذي يدعونه السرقة .

واعاد ثلاثتهم هذه الكلمة بصوت واحد وقد بدت عليهم امارات القلق فادرك جوهان مقصدهم وقال لهم بشدة :

– نعم أنكم لم تدركوا مقصدي فقد طالما كنت اعتقد أن من العدالة مطالبة الغني بحصة الفقير أما اليوم فقد عرفت الحقيقة وتأكدت بأني كنت لصاً .. نعم أني ارتكبت هذه السفالة التي أخجل منها اليوم لمجرد افتكاري بها وأني افضل قطع معصمي وطرحه للكلاب على عودتي لهذه السفالة .

وكانت لهجته تدل على الجد فأدركوا مقصده وتوقفوا مذعورين لأنهم كانوا على يقين من غرابة اخلاق رئيسهم فتبادلوا النظرات وتفاهموا في الحال وقد ايقنوا أن ارادة رئيسهم لا تتحول ولا يحوله من تنفيذ مأربه مهما كلفه الامر فما عليهم إلا اطاعته ولو قضى عليهم سوء الطالع بالموت جوعاً .

وكانو في ذلك الحين يملكون ما يكفيهم بفضل كرنسيني وما كان ينفقه عليهم فكانت ملابسهم جديدة انيقة وسلاحهم ماضياً ومنزلهم واسعاً فسيحاً وجيوبهم ملأى بالجواهر والنضار ولم يكن جوهان يريد الافتراق عنهم الا لكونه لم يكن

يستطيع الانفاق عليهم فلما اطمأن على حالتهم سكنت هواجسه واطمأن باله وعزم على استخدامهم متى احتاج اليهم .

وظلوا واقفين في الطريق ينظرون اليه وهو يبتعد عنهم حتى غاب عن بصرهم فذهبوا إلى المنزل الذي كانوا يقيمون فيه للمداولة فيما بينهم بما يجب عليهم عمله .

وتبين لهم أنهم يملكون اربعمائة ذهباً وهي ثروة طائلة بالنسبة لهم عدا الجوهرات التي كانوا قد اختلسوها من كونسيني وهي تساوي ثلاثة الاف ذهب فيستطيعون أن يعيشوا سنة كاملة في بحبوحة واسعة من العيش والكيف .

وكان لكركنكايل اخت تدعى بيريت الحسناء وهي التي سمعناه يأتي على ذكرها وكانت قد ناهزت السنة السابعة عشرة من عمرها وقد استحقت لقب الحسناء بكل معنى الكلمة لأنها على وضاعة اصلها وفساد المحيط الذي كانت تعيش فيه ظلت محافظة على عفافها وكانت تشتغل بيدها لتقوم بأودها ورغماً عن نحافة بنيتها فقد كانت تظهر نشاطاً غريباً وشجاعة زائدة في العمل حتى صارت تضرب فيها الامثال بين أترابها .

ولم تحب في حياتها غير كاركان رفيق أخيها فكان حبها له صحيحاً خالياً من كل شائبة ولكن ما الذي ترتجيه فتاة طاهرة الذيل من حب لص قضى حياته في الشقاء والدعارة .

غير أن حبيبها لم يخن لها عهداً بل تقدم إلى اخيها الذي كان رئيساً للعائلة وطلب منه الاقتران باخته فبلغ هذا الطلب لشقيقته الحسناء ولكن ما كان أشد انذهاله ودهشته حين

سمعها ترفض هذا الطلب بتاتاً وتصرح بانها لا ترغب بالزواج ولكنه لكثرة ما الح عليها وعدته بان تفتكر بالأمر وتجاوبه بعد حين من الزمن .

واقتنع العاشق بهذا الوعد ولكنه ظل على عوائده السابقة من معاقرة الخمر ومنادمة الحسان وقد وطد عزمه على الاقلاع عن تلك العوائد الرديئة حتى صار زوجاً للفتاة التي كان يهواها

ولما حسب الرفاق ثروتهم تذكر كاركان أن جسم بيريت النحيل وبنيتها النحيفة يمنعانها من مداومة الشغل الشاق وكان اقصى امانيها أن تمتلك الف ذهب لتشتغل لحسابها الخاص وتستأجر العاملات وتكون عليهن الرئيسة وهو عمل لا يتعبها كثيراً .

تذكر كاركان كل ذلك واعاده لرفيقه كرنكايل واقترح عليه أن يشتركا باعطاء الفتاة الف ذهب لتحقيق امنيتها فسر الشقيق لهذا الاقتراح الذي لم يكن يخطر له ببال وقبله من غير تردد .

وقسموا في الحال المال إلى ثلاثة اقسام متساوية ورأى اسكركاس أن كل من رفيقيه يفرز خمسمائة ذهب على حده فاستعلم عن السبب لما عرفه حنق عليهما حنقاً زائداً وابدى لهما رغبته الوطيدة في مشاركتهما بهذا العمل ارضاء للعزيزة بير التي يعتبرها بمثابة شقيقة له وقام بملء الرضا والسرور المتوجبة عليه .

الفصل السابع والثلاثون

وليمة العجوز بريجيت

ولم تدم ثروتهم اكثر من خمسة عشر يوماً وما ذلك لالقائهم المال على قارعة الطريق أو لانفاقهم من غير حساب أو لمشتراهم ما كانوا في غنى عنه .

كلا فأنهم لم يغيروا شيئاً من اخلاقهم وكان في وسعهم أن يبقوا معهم تلك الثروة شهرين وثلاثة اشهر يعيشون فيها في بسطة ورضاء من العيش .

ومن سوء الحظ أنه خطر ببالهم المقامرة في الحانات التي كانوا يرتادونها وبما أنهم عولوا على التوبة فقد حسبوا أن جميع الناس تابوا مثلهم وأن لصوص باريس قد صاروا أشرافاً مثلهم ومنذ تلك الساعة لم يعودوا يحاذرون احداً من الاشقياء .

وفي إحدى ليالي النحوس وجدوا في حانة مع جماعة من لصوص القمار المشهورين وفي أقل من ساعة خسروا كل ما كان معهم مما اضطرهم أن يفروا هاربين لأن الذين سلبوهم اموالهم

انسلوا خلسة وفي يوم من أيام شهر حزيران الحارة بينما كانوا يتمشون في شوراع العاصمة الكبرى وهم يصيخون سمعاً لكل حديث يسمعونه على أمل العثور على فرصة مناسبة يسدون بها طوى بطونهم الجائعة إذا بهم قد بلغوا شارع الشجرة اليابسة .

وبينما كذلك ضرب كاركان جبهته بيده وصرخ قائلاً :

– لقد وجدت .

وما الذي وجدته .

– الوسيلة التي نتناول بها طعامنا اليوم ولعلها تفيدنا في المستقبل فالبثا في هذا المكان ولا تتحركا منه إلى أن استدعيكما جرى ذلك أمام منزل كولنيكل فان كركان ابصر وجه العجوز من خلف النافذة وتذكر في الحال ما كانت عرضته عليه يوم خطف الآنسة برتيل فانها لم تكن تفارق تلك النافذة وقد وطد عزماً على الانتفاع من هذا الخطف .

كانت العجوز قد بحثت طويلاً عن المركيز لا فارين ولكن نديم الملك لم يكن يفارق منزله لأنه لم يكن يجسر على الظهور أمام الناس وآثار اللطم بادية على وجهه فلما يئست من وجوده حصرت أملها بكاركان غير أن الشاب لم يرجع اليها كما كانت طلبت منه .

ولما اخذت تقطع أملها من رجوعه إذا بها تراه واقفاً أمام منزلها فلم تتردد بأمرها بل فتحت النافذة ونادته منها .

وعرف كرنكايل واسكركاس العجوز فادركا مقصد رفيقهما وعاد لهما الأمل فوقفا في مكانهما وعزما على عدم

مبارحته إلى أن يبدي لهما كاركان اشارة بما يجب عمله .

وفتحت العجوز باب منزلها فدخله كاركان بوقار وولج محرابه إلى المطبخ الذي كان بمثابة غرفة للطعام ايضاً ولما اصبحا لوحدهما رأت العجوز أن تتظاهر بالخجل فخفضت بصرها ورأى كاركان أن من حسن الرأي ملاطفتها ومداعبتها بالحديث فقال لها :

– منذ رأيتك ايتها الحسناء خيل لي أني نسيت فؤادي في هذا المكان وقد جئت لافتش عليه فاذا كنت وجدتيه فستبقيه معك ولكني اسألك بالله أن تهبيني قلبك بدلا عنه إذا اردت أن ابقى في قيد الحياة .

– لماذا أنتظرت هذه المدة الطويلة ايها الشاب بعد أن اذنت لك بان تأتي لزيارتي ؟

لسوء الحظ أني في خدمة امير عظيم فاضطررت أن أتبع مولاي الذي ارتأى أن يتغيب عن العاصمة مدة من الزمن فلمنت سوء طالعي وقد قاسيت العذاب ما تنوء بحمله الجبال الراسيات .

ثم أخذت يده وضغطت عليها بلطف كأنها تريد أن تفهمه بان زمان عذابه قد انتهى وقالت له :

– أني ادعى بريجيت وأنت ما اسمك ؟

– اسمي كاركان فيا بريجيت يا مليكة فؤادي أني مغرم بك إلى الممات وقد ثبت لي أني لا اقوى على الحياة بدونك فكأننا خلقنا لنجتمع سوية .

– وقد قررت عزمي على البقاء عندك ولست افارقـك بعد الآن يا بريجيت المحبوبة وسنقضي حياة سعيدة . ثم الح عليها باحضار شيء من الطعام فلبته طائعة وبينما هي في القبو تهيء لعشيقها الجديد مـا يسد به الم الجوع سألته على الاباحة لها من غير تكتم .

الم تأزف ساعة الطعام بعد ؟

ولم يكن مرتاح البال كما يجب في مثل هـذه الحـال لأن العجوز كانت لا تزال تظهر له شيء من التحفظ والتكتم ولكنه كان مخطئاً في وهمه لأنها كانت تفتكر في أمرها فهي بخيلة للغاية ولكنها لم تكن بلهاء وقـد عملت حساب مـا سيكلفها ذلـك الطعام ولكنها فكرت في ذلك الحين أن التظاهر بالكرم خير وسيلة لاطلاق الالسنة من عقالها وهي تريـد أن تسمع منه مـا كانت تجهـله فـالنفع الذي كانت تجنيه يفوق كثيراً المصروف القليل الذي تتكبده فصممت عزمها على العمل في الحال وقالت له لا إتناول طعامي قبل الساعة السادسة .

– أخطأت يا بريجيت الحسناء وأني على يقـين من خطائك لأن معدتي تؤكد لي بان الساعة قد بلغت التاسعة .

ورأى ملامح الذعر والقلق بادية على محياها فعمد إلى الوسيلة العظمى التي نجحت معه في المرة الأولى فاخذها بين ذراعيه وقبلها في عنقها وقال لها :

– لقد صيرتيني ايتها العزيزة اسعد البشر ولا ريب بان السعادة تؤثر على المعدة كما ترين حالتي الآن .

– كفاك مداهنة ايها الخبيث .

– وحقك أني منذ رأيتك لم أعد أهنأ باكل ولا شرب ولا نوم والآن وقد اجتمعت معك فقد حصل لي رد فعل شديـد فاذا لم تقدمي لي يا بريجيت طعاماً في الحال اسقط تحت قدميك مغمياً علي قبل أن اتمكن من جـني ثمرة القبلة التي اخذتهـا من عنقك الفتان .

وكانت العجوز تبذل مجهودها لتكسب وجهها حمرة كاذبة وقد كانت منذهلة في سرها من هذا الواقع الغريب الذي ابداه لها هذا الشاب ولكنها كتمت تعجبها وقالت له : سأهيء لك حالاً وخرجت لاعداده .

وإذا بكاركان قـد وضع كرسياً قرب النافذة وصعد عليها وخاطب رفيقيه الذين لا يزالان في انتظاره فتلقيا ما سمعاه بسرور لا مزيد عليه ثم نزل عن كرسيه بعجلة وأخذ يتمشى في الغرفة ذهاباً واياباً من النافذة إلى الباب وبالعكس .

وكانت اشعة الشمس تتخلل النافذة وتقع على درج كان على مقربة منه فنظر اليه من غير مبالاة ولكنه رأى فيه شيئاً يلمع كالفضة فإستجلب هذا الشيء اهتمامه رغماً عنه فمد يده وتناول العلبة ووضعها في جيبه ورأى العجوز قادمة نحوه فاخذ يسعل بشدة ليكتم اضطرابه .

وكان هذا السعال اشارة متفق عليها ففي ذات الحين قرع الباب بشدة فقفزت العجوز قادمة من مكانها وقد بدت عليها امارات القلق والوجل ونظرت إلى كاركان بذعر لا يوصف

فوقف أمامها منتصباً وقد فتل شاربيه كأنه يريد تسكين هواجسها لوجوده معها مرتاحة .

وتضاعف القرع بشدة وفي ذات الحين سمعا صوتاً يقول :

– كاركان .. كاركان أين أنت ؟ هل مت أو ذهبت إلى الابدية ؟ كفانا انتظاراً لك فان طعامنا قد برد .

وصرخ كاركان بفرح لا يوصف .

– افتحي الباب يا عزيزتي بربجيت فان من يناديني من الاصدقاء ثم التفت فرآها جامدة في مكانها فقام وفتح الباب بذاته وادخل صديقه وهو يتظاهر بعدم المبالات لما رآه من قلق العجوز واضطرابها .

ودخل كرنكايل واسكركاس منزل العجوز رغماً عنها وكان رفيقهما كاركان يتظاهر برفعة المنزلة وعلو المقام فقدمهما لصاحبة البيت وعرفها بهما فجمد الدم في عروقها لما ابصرتهما واقتبلتهما ببرودة لا مزيد عليها غير انهما لم يباليا بما رأيا من فتورها بل ضاعفا ابتساماتهما وقال لها اسكركاس :

– عفواً يا سيدتي لازعاجنا اياك حين انفرادك مع صديقنا كاركان الذي اراه نسي دعوتنا اياه لمناولة الطعام معنا .

– وهل حسبتم منزلي حانة وأني استطيع أن اضيف فيه مجاناً كل اشقياء باريس ؟

فاجابها كاركان ساخطاً .

سحقاً لك ايتها الشقية امثل هذه الوقاحة تقابلين الشرف

الذي حصلت عليه بسببي ؟ فلنذهب ايها الصديقان ولنغادر هذا المكان فاني اخطأت باعتقادي في هذه الامرأة لأني كنت اتوهمها سيدة نبيلة وكريمة وإذا هي ابخل من البخيل فلنذهب ولندعها وشأنها .

– لقد أخطأتم أيها السادة فهم مقصودي لأني اردت أن أقول لكم أنكم لا تجدون في منزلي الطعام اللائق بكم ولا استطيع أن اقدم لكم ما اعتدتم على تناوله من اصناف الاكل الشهي .

فسكن بال العجوز لهذا القول واطمأن خاطرها ثم ذهبت واعدت ما جهز عندها من الطعام وهو ما لا يكاد يكفي أحد المدعوين ولكنها توهمت أنها قدمت لهم دعوة ملوكية فتناظروا مدهوشين غير أن كركان عرف الوسيلة العظمى التي يستطيع بها التغلب على العجوز وهي التظاهر أمامها بالقدر والاستياء فاستعمل طريقته ولم يلبث أن ادرك مأربه لأنها اعطته مفاتيح القبو فنزل اليه واحضر منه ست زجاجات من الخمر المعتقة ونصف فخذ من اللحم المقدد وعلبة من الحلوى .

ولما انتهوا من مناولة الطعام قاموا إلى غرفة الاستقبال وقد أخذوا معهم ما بقي من الخمرة ليشربوها وقد توهموا أن منزل العجوز خير من سواه فيطرقونه كلما احتاجوا اليه ريثما يتمكن رئيسهم جوهان من مساعدتهم وتخليصهم من تلك الحالة المكربة ثم بادرت العجوز كاركان بالسوال قائلة :

– قلت لي أنك تخدم اميراً عظيماً فما اسم مولاك الأمير ؟

– هو الامير الفلورانتيسي بل هو ابن عم جلالة الملكة ماري دي ميديسيس .

– وهل تغيب الامير عن العاصمة .

– لقد عاد إلى وطنه فلورنسا ولا يعود منه بعد الآن .

فصعقت وتمتمت قائلة وما الذي فعله بالفتاة التي كانت مستأجرة في منزلي .

– الا تعلمين بان هذه الفتاة قد باتت في امن تام تحت حميه مليكنا المعظم وقد تبين لنا أنها من امرة شريفة وهي من اقرب المنتمين لجلالته .

– إذا كان مولاكم قد عاد إلى موطنه فانتم بلا عمل الآن .

– اجل ايتها السيدة الكريمة .

ولم يكد كاركان ينطق بهذا الجواب حتى ادرك خطأه لأن العجوز تطلعت إلى الطريق العام ورأت الناس يروحون في الشارع ويجيئون وأن لا خوف عليها من استعمال العنف مع الذين سخروا منها واكلوا طعامها فتناولت المكنسة بيدها وهزتها متهددة وقالت :

– اذن أنتم من الاشقياء الذين لا عمل لهم وليس معكم ما تتناولون به قوتكم الضروري فخطر ببالكم أني بقرة حلوبة تستطيعون الانتفاع منها ما شئتم وشاء إذاكم وشركم واردتم الاقامة في منزلي وقد سلبتموني كل مالي واكلتم طعامي لاهناكم الله فانصرفوا من حيث اتيتم .

وكانت تصحب كلماتها بضربات شديدة من مكنستها على رؤوس الرفاق الذين لم يعرفوا سر انقلابها الفجائي فانتصبوا واقفين وقد تولاهم الذعر وحاول كاركان تسكين غضب العجوز فقال لها :

– رويدك يا بريجيت العزيزة .

– لست عزيزتك ولا اعرفك ايها الشقي فانا امرأة شريفة اعيش من عملي وقد كنت سبباً لخرابي فاخرج من منزلي في الحال

واسرعت إلى النافذة وفتحتها وأخذت تصيح بملء صوتها .

– إلي .. إلي .. اغيثوني من اللصوص القتلة .

وتحقق الرفاق أن بقاءهم اصبح شديد الخطر عليهم لان سكان الشارع لا يلبثون عن نجدة جارتهم التي كانت تستجير بهم فاسرعوا بالهرب وقد اطلق كل منهم ساقه للريح واعارهم الخوف اجنحة للطيران فنزلوا السلالم بسرعة لا مزيد عليها وظلوا يركضون حتى وصلوا إلى باب سانت هونورلي فأطمأنوا على ذواتهم وتأكدوا بأنهم في مأمن من اللحاق بهم .

وأول ما اهتم به كاركان بعد أن ارتاح باله على ذاته وعلى رفيقيه أن أراد معرفة ذلك الشيء اللامع الذي سرقه من درج العجوز وكان سبباً لأن يخلف عهده ويتحول عن خطة الاستقامة التي وعد بالسير عليها .

ولم يكن ذلك الشيء الذي سلبه إلا علبة صغيرة من الصفيح ليس لها ادنى قيمة ففتحها ورأى فيها خاتماً حديدياً لا اهمية له

ايضاً وورقة مكتوبة بلغة يجهلها فتنفس الصعداء وقال في نجواه .

– سأطلب من كرنكايل أن يعطي هذا الخاتم لشقيقته بيربت ولعلها تسر من حصولها عليه .

وكانت العلبة التي سرقها من درج العجوز هي ذات العلبة التي اختلستها من صندوقة الانسة برتيل فوضعتها في ذلك الدرج ولكنها نستها ولم تعد تخطر على بالها .

الفصل الثامن و الثلاثون

البحث عن الكنز في الدير

مر شهر على خطف الانسة برتيل دي سوجيس وكانوا قد احاطوا كنيسة الشهيد بسور عال وابتدأوا في الحفريات فظهرت لهم درجات السلم وفي ذلك دليل على صدق تلك التعليمات التي كانوا في ريب منها حتى ذلك اليوم .

وبعد حصولهم على هذه النتيجة الحسنة قرروا المثابرة على العمل بدقة زائدة ليكتشفوا المذبح الذي كان يصلي عليه القديس رنيس في ايام اضطهادات المسيحيين وذلك ارضاء لماري دي بوفيلير رئيسة الدير التي كانت على يقين من أن هذا الاكتشاف سيصير مكاناً للزيارة فيؤمه السياح من اربعة اقطار فرنسا ويصبح مورداً ثميناً للدير فيعيد له زهوه وغناه الاولين .

تمكن الاب كوتون معرف الملك أن يصير مديراً للحفريات وكان الملك والملكة يعتمدان على اخلاصه التام أما نحن فنعلم علم اليقين أنه كان آلة في يد اكرافيفا يديرها كما يشاء .

وغني عن البيان انه لم يذكر له كلمة واحدة عن الكنوز بل اكد له أن الغاية من هذه الحفريات مقدسة وهي اكتشاف مذبح القديس دنيس فوجب بحكم الضرورة أن يدير الاعمال أحـــد الرهبان .

وكان الاب كوتون يدير الحفريات وفي ذات الحـين يراقب جوار الكنيسة ولم يكن ممنوعاً على الاهالي زيارة ذلك المكان ولكن مدير العمل وضع منطقة عظيمة للجاسوسية فكان من يريد الذهاب إلى الجبل يمر بسهولة وبحرية تامة أما المرور بجانب الكنيسة من غير أن يعرف فكان ضرباً من المستحيل لأن العيون الكثيرة كانت تراقب ذلك المكان بدقة لا توصف .

وأقام الاب كوتون عـدداً كبيراً من الرهبان على هـــذه المراقبة ومما هو جديـر بالذكر أن هؤلاء لم يكونوا ينتمون بطغمة يسوع كانهم انتخبوا خصيصاً لهذه الغاية .

وفضلا عن هذه التحوبطات التي صادق عليها الملك والملكة فان الدوق دي سولي وكونسيني اللذان كانا يحذران من بعضهما اتخذ كل منهما تحوبطاته السرية واصبحت تلك الكنيسة كانهـا محاصرة بالعدو .

وكان كونسيني على يقين تام من نجاحه فاستبدل جوهان الشجاع وكرنكايل واسكركاس وكاركان باربعة شبـــان من النبلاء وهم : دانيوس ودي روكتايل ودي لونكفال ودي سان جوليان وكان اكبرهم لا يجـــاوز السادسة والعشرين من عمره

واصغرهم لم يبلغ الثانية والعشرين .

وكان قد ارتأى بفكرته أن يجعل هـــؤلاء الاربعة النبلاء واسطة العقد لحرسة الفخم الذي عزم على انشائه من حوله متى اصبح الحاكم المطلق امـــا في الوقت الحاضر كـانت مهمتهم محصورة بمراقبة جوهان الشجاع والقبض عليه حياً وقد وعدهم كونسيني باعطائهم عشرين الف ذهب يوم يسلمون عدوه الالد .

ولم يكونوا يعرفون جوهان الشجاع فتوهموا أن انطلاق اربعتهم للقبض عليه مجلبة للعار وأنه مهما كان قوياً شديد الحيل فان اثنين منهم يكفيان للقيام بهذه المهمة أما كونسيني فقــد كان يعرفه حق المعرفه ولم ينس أن اسكركاس ورفيقيه قد خانوه حباً به لذلك لم يتردد بتعيين ثلاثين رجـلا من الاشقياء واقامهم في خدمته كل مدة الحفريات .

وقسم رجاله إلى اربعة اقسام جعلهم تحت امرة الاربعة النبلاء الذين ذكرناهم وكان احد هـذه الاقسام مأموراً بالبقاء في جوار الكنيسة لأنه لم ينس بان جوهـــان الشجاع يحاول الاستيلاء على تلك الكنوز في أحد الايام لذلك اتخذ تحوطـاته اللازمة للقبض عليه إذا حاول هذا الامر .

ولم يكـن جوهـان الشجاع متخفياً ولكنه كـان ينتقل من مكان إلى آخر وقد دفعته سليقته للتفتيش في جوار المدينة واراضيهاوقد مر عليه شهر وهو على هذه الحال ولميتوفق اكثر من اليوم الاول حتى كـاد يتولاه اليأس وحسب أن يتخلص من

الحياة بالانتحار .

وفي اليوم الثالث عشر من شهر حزيران كان يتمشى وقت الصبيحة على الشاطىء الايسر من النهر وبينما هو عائد من الجسر الجديد دخل شارع الشجرة اليابسة ووقف تحت النوافذ التي كان يفتش عليها عبثاً فرآها مقفلة وتنهد عميقاً وعاد أدراجه .

كان يتمشى وهو يشعر بتمزق في فؤاده ويأس عميق في نفسه وأخذ يسير على غير هدى وهو لا يعرف الاماكن التي يجتازها إلى أن وصل إلى شارع سانت هونوري وخرج من بابه وهو لا يشعر بأمره .

وصادف في ذلك اليوم موعد سوق بيع الخيل الذي كان يقام في أسفل هضبة سان ورش الواقعة على يمين الخارج من ذلك الباب وكان الجمع كثير الازدحام فدخل جوهان بينهم وأخذ يتأمل اللاعبين ولكنه لم يرهم في حقيقة الامر لاستغراقه بالافكار العميقة .

وفي تلك الساعة اجتاز كونسيني ذلك السوق وهو مصحوب برجاله الاربعة فرأى جوهان الشجاع عن بعد وعرفه مع أنه كان مديراً اليه ظهره فابرقت عيناه باشعة غريبة وتقلصت شفتاه ووضع يده على قبضة حسامه كأنه يستعد للهجوم عليه .

وخطر له أن ينقض على جوهان ويقبض عليه ويخطفه قبل أن يتمكن من الدفاع عن نفسه ولكنه القى نظرة على ما حوله وهز رأسه بغضب لأنه تحقق استحالة ما نوى عليه فصرف

باسنانه وأخذ يرتجف من فرط حنقه لأنه رأى عدوة بام عينه ولم يقدر أن يقبض عليه .

وخطر له أن يطعنه بين كتفيه فيرديه قتيلا وينسل بين الجمع فلا يشعر به أحد ولكن مثل هذا الانتقام البسيط لم يكن يرضيه أو يقنعه فتبسم ابتسامة غريبة وهنأ نفسه لأنه تغلب على عواطفه وذلك أنه رأى جوهان حاضراً كالغائب فخطرت بباله فكرة جديدة عزم على العمل بمقتضاها .

اصدر أوامره السريعة لرجاله والتف بردائه ووقف على الحياد فابتعد احدهم مسرعاً وأخذ الثلاثة يراقبون جوهان ولم يفارقوه ببصرهم ولم يحتاجوا للتنكر والتستر لأن الشاب لم يعرفهم وكان يجهل أنهم مرسلون من قبل كونسيني .

وعاود جوهان السير على غير هدى ولم يكن رجال كونسيني يفارقونه طرفه عين وأخذ كونسيني يتبع رجاله عن بعد .

وبينما هم كذلك سمع جوهان صوتاً جهورياً يقول :

السلام والسرور للبطل جوهان الشجاع .

فاضطرب جوهان لسماعه هذا النداء وقال :

هذا أنت يا رافالياك ؟ لقد تمنيت لي السلام والسرور وبشوقني وايم الحق أن ارى إذا كانت توسلاتك تستجاب فانك لما قابلتني كنت افكر بالتخلص من هذه الحياة بطعنة نجلاء، وفي ذلك دليل كاف على السرور السائد على فؤادي اما

حالتي المالية فلم يعد معي غير ثلاثة ريالات .

وأخذ يضحك ضحكاً عالياً كأنه لا يشعر بشيء من دواعي الكدر فتأمله رافالياك برهة بحزن عميق وانقضت ملامحه كأنه احس بعذاب داخلي لعذاب الشاب الذي كان يضحك امامه بعدم اكتراث فهز رأسه وسأله قائلاً :

– اراك كثير الاصفرار وقد هزل جسمك واتقدت عيناك الحمى فهل أنت مصاب بمرض ؟

– كلا ولم اشعر في حياتي بمثل العافية التي اتمتع بها اليوم غير أني مصاب بمرض في هذه الجهة من جسمي .

وضرب صدره بيده ضربة شديدة كأنه يريد تمزيق فؤاده فاصفر رافالياك اصفراراً هائلاً وبدت على وجهه امارات اليأس العظيم وحصل في داخله عراك شديد وفتح فمه ليتكلم غير أنه لم يقو على الكلام وخرجت من صدره أنة شديدة فتأمله جوهان الشجاع بدوره وظهرت عليه ملامح الشفقة وقال له :

– وأنت ايضاً قد تغيرت كثيراً ... الا تزال ترى تلك الرؤى الغريبة التي تحول دون سعادتك ؟ الم يكفيك الفقر ايها الصديق المسكين لتقرن اليك تلك الافكار التي جعلتك بمثابة جلاد لذاتك . أنك لا تزال شاباً وأنت قوي البنية حسن التهذيب وفي امكانك أن تعيش عيشة رضية يحسدك عليها كثير من اقرانك وفي استطاعتك أن تشتغل شغلاً صحيحاً وتصير صاحب النزل وتذوق لذة الاجتماع العائلي . هذا ما

في امكانك الحصول عليه مثل سواك ولكنك جهلت إلى اية درجة يقودك جنونك ولست اجسر على الاباحة لك بهذه الحقيقة فالويل لنا معشر البشر من عقولنا .

قال هذا وتأبط ذراع رافاليك وأردف حديثه وهو يبتسم ابتسامة اللطف .

أني لا ازال خشناً لأني قلت لك الحقيقة واطلعتك على مبلغ ثروتي وأني امتلك ثلاثة ريالات فتعال معي وأقبل دعوتي فاقدم لك طعاماً فاخراً وخمراً معتقة تعيد اليك قواك وتجعلك تنظر إلى الحقائق غير نظرك الحاضر .

– أما الذي تعمله يا صاح ؟ ومن توهمني لتقدم لي هذا الاكرام الذي لا استحقه .

– انك الصلاح المجسم وصاحب الفضل والفضيلة وقد نسيت متاعبك واحزانك لتساعد شقياً مثلي لا يهمك امره وليتك كنت تعلم .

– أني أعرف اكثر مما تتوهم يا صاح .

وكان رجال كونسيني يراقبون جوهان الشجاع فرأوه دخل المطعم مع رفيقه ولكنهم لم يكونوا يسمعون حديثهما فاكتفوا برؤية الرجل الذي أمروا بمراقبته .

والقى جوهان على المائدة ريالاً واستدعى صاحب المطعم وامره بان يقدم لهما طعاماً وشراباً والتفت إلى رافالياك وقال بمزيد التلطف :

– لقد بقي ريالان فلنقسمهما قسمة الحق والمساواة .

– حسن ولكن لا بد لي من أن اليأس بلغ بك الدرجة القصوى حتى فكرت بالانتحار لأن من كان مثلك في مقتبل العمر لا يخطر بباله الانتحار الا متى سدت في وجهه ابواب الرجاء .

وكان جوهان في حاجة لأن يفيض همومه ويبوح باحزانه لعله يجد من يواسيه أو يوسيه أو يتوجع وقد شعر بقوة غير اعتيادية تدفعه لأن يبوح لهذا الرجل الغريب عنه الذي لم يكن يعرفه من قبل فذكر له اعتداء كونسيني وأنه جاء في الوقت الملائم لانقاذ الفتاة ولما خلصها من ايدي خاطفها اختفت فجأة وذهبت كل ابحاثه في التفتيش عليها ادراج الرياح .

لعلها رأت الملك يتجول حول منزلها فاحبت أن تكون في مأمن من كل اعتداء عليها ولقد احسنت وايم الحق بعملها فما هي الا فتاة شريفة شجاعة .

– أخطأت اذ لم يكن لها ما تخشاه من الملك .

– هل أنت على يقين مما تقوله ؟

– اجل فالملك لا دخل له باختطافها فان لها اعداء كثيرون ولعلها سقطت في قبضتهم ..

– إذا كان الامر كما تقول فهي معرضة للخطر .. أني اعرف هذا السر منذ شهر وقد كتمته ولم اذكره لاحد فاذ كانت اصيبت بمكروه أو ماتت اكون انا الذي قتلتها .. فيا ويلاه أني

استحق اللعنة . اصغ إلي ما أقوله لك فقد كتمت هذا السر حتى الآن لأني كنت احسب انها هربت للتخلص من ذلك الرجل والآن فاني على يقين من خطائي وسأطلعك على كل ما عرفته واسأل الله أن لا يكون الوقت قد فات .

وقص على جوهان كيفيه مقابلته مع برتيل التي كانت تسير مع امرأة عجوز وأنه تعقبهما حتى دخلتا مونمارتر ولم تعد تخرج منه .

فاكتفى جوهان بما سمعه واندلع كالسهم المارق ولكنه لم يسر طويلا حتى عاد ادراجه فقبض على يدي رافالياك بشدة حتى كاد يسحقهما وقال له همساً وهو يحدق به .

– خلصتني من اليأس فاحب ان اخلصك واخلصه وأنت تعلم من اعنيه بكلامي فواحدة بواحدة سواء .

– أنك تريد قتل الملك يا رافالياك لأنك رأيته يتجول حول منزلها فساورتك الغيرة . لا تحاول الانكار لأني على يقين ما اقوله ولست أريد أن اسمح لك بارتكاب هذه الجناية العظيمة وأعلم يا رافالياك بان الملك هو ابوها فاقتله إذا جسرت بعد الآن .

قال هذا وتركه فزمر رافالياك زفرة شديدة ووقف جامداً في مكانه وهو ينظر إلى جوهان الذي ابتعد عنه وقد ضاقت به الدنيا على رحبها .

الفصل التاسع والثلاثون

المعركة بين جوهان وكونسيني

اسرع جوهان في سيره وقد اعاره سروره اجنحة كاد يطير وكان وهو يركض يناجي نفسه بقوله :

– أنها في قيد الحياة وقد عرفت مكانها ولا بد لي من انقاذها ولو اضطررت هدم الدير حجراً حجراً .

وكان يسير إلى الامام وهو غير عارف الوجهة التي يجب أن يذهب اليها فصدم بشدة النبلاء الذين اقامهم كونسيني لمراقبته ولم يعتذر اليهم وقد سمع باذنه شتائمهم ولكنه لم يبال بهم بل ظل مواليا سيره بسرعته المعهودة .

واراد الذين صدمهم أن يندفعوا في اثره لمجازاته على وقاحته ولكن مولاهم لحق بهم ومنعهم عما كانوا يريدون عمله لأنه عرف من الوجهة التي رآه سائراً بها أنه كان قاصداً دير مونتمارتر فكاد يجن من فرط فرحه لأنه تيقن أن الد اعدائه اصبح في حوزته .

ولما وصل جوهان إلى قرب دير الكبوشيين خفف سيره واخذ يناجي نفسه بقوله .

ليس من موجب يدعوني لهذا التسرع بعد أن عرفت مقرها وسأخلصها من دون شك مهما كلفني ذلك من الصعوبة والعناء لذلك يجب أن اتدرع بالحكمة والتأني لئلا اجلب علي الانظار فيجب قبل كل شيء أن اتفقد جوار الدير وبعد ذلك اقرر ما يجب عمله .

وخفف مشيته واخذ يسير بتمهل كانه متفرج حتى وصل إلى جسر اركانس فاجتازه عن يمينه حتى وصل إلى المكان الذي كمن فيه كونسيني ورجاله متوقعين وصوله لاجل الفتك به

وكان جوهان يتقدم بخفة لأنه منذ عرف مقر حبيبته برتيل تأكد أنه صار يستطيع انقاذها فكاد يطير من فرحه وقد افعم فؤاده املا ورجاء .

وتجاوز في سيره قصر البورشرون والجزيرة الواقعة قبالته فلم ير ما يوجب حزره غير أنه لم يلبث أن سمع وقع جياد تعدو من خلفه فالتفت إلى ورائه وقد قطب حاجبيه واشهر حسامه بيده واستعد لمقابلة الذين كانوا يطاردونه وقد عرف كونسيني يسير من خلفهم وهو يحمسهم بقوله :

– اقبضوا عليه حياً لأني اريده في قيد الحياة .

– زه ، زه . هذا هو السيد كونسيني بالذات الذي اصبح منذ صفعته وضربته لا يجسر على الوقوف امامي بل يطلب حماية الغير .

– قف مكانك ايها اللئيم الذي ترحم الناس بمناكبه ولا يعتذر لهم عن اساءته .

– رويداً ايها النعاج فسار جمكم بحد هذا الحسام .

فحاول الفرسان الاحاطة به والقبض عليه كما امرهم كونسيني ولكنهم لم يكادوا يقتربون منه حتى علت اصوات اربعة منهم وسقطوا إلى الارض جرحى وقال لهم جوهان ساخراً :

– من أحب منكم أن يأتي دوره فليتقدم وأني انذركم منذ الآن بالهلاك العاجل !

وأراد الثمانية الفرنسان السليمون الهجوم عليه ولكن سيفه الماضي كان اسبق اليهم من النسيم فلم يلبث أن سقط ثلاثة منهم صرعى وقال جوهان متحمساً :

– لقد بلغ بك الحمق ايها الرجل أنك لا تحسن انتقاء القتلة تختارهم فمن يريد التقدم ليلحق برفاقه ؟

وفي اعجل من الوقت اللازم لكتابة هذه الاسطر كانت ثماني جثث ممددة على الارض بين قتلى وجرحى فتوقف الاربعة الباقون مذعورين وكاد جوهان يهجم عليهم بدوره لأنه استهان بهم ولم يأبه لعددهم ولكنه سمع في تلك اللحظة اصوات النجدة لاعدائه فالتفت إلى خلفه ورأى نحو عشرة فرسان قادمين من الجهة الثانية فاصبح بين عدوين وهمس قائلا :

– لست أريد أن أموت قبل انقاذها .

والقى نظرة على ما حوله فرأى عن يمينه ارضاً واسعة

ولكنه لم تخطر ببالة فكرة الهرب من تلك الجهة وابصر عن يساره حائطاً عالياً فيه باب حديدي متين فحسب ان نجاته ستكون من تلك الجهة وأنه إذا استند عليه يكون اعداءه أمامه ولا يستطيعون مهاجمته واخذه غيلة غير أنه كان يحتاج أن يصل إلى هناك قبل اعدائه فقفزة مدهشة أوصلته إلى الباب الحديدي ولكنه كان اصيب بجرح في كتفه بينما كان ينظر إلى الوراء ولم يشعر به .

ولما وصل إلى الباب تنفس الصعداء وكانت توجد درجة من خلفه فصعد عليها ومد يده اليسرى إلى خلف ظهره وجس الباب فوجده مقفلاً لسوء الحظ فعاود نزول الدرجة وعد اعداؤه فاذا هم خمسة عشر فارساً .

واتحدت العصابتان عليه وأخذ رجالها يهاجمونه وكان كونسيني قد اصبح آمناً من القبض عليه فاعاد سيفه إلى غمده وأخذ يحمس رجاله ويطلب منهم القبض عليه حياً وسمع جوهان نداءه فقال له ساخراً :

– وما الذي يمنعك من التقدم الي لولا جبنك ايها اللئيم .

وسقط ابنوس في تلك اللحظة مضرجاً بدمائه اما ملابس جوهان فكانت قد اصبحت ممزقة وأخذ الدم يسيل بغزارة من صدره وذراعيه ووجهه ولكنه ظل ثابتاً على القتال وقد اشعر بتخدر في اعصابه وورم في يديه لأنه كان مضطراً في موقفه الحرج على الدفاع والهجوم وشعر كونسيني بضعفه فعاود تحميس

رجاله ولكنهم كانوا يتساقطون الواحد بعد الآخر ولم يبق من النبلاء الذين اشترام كونسيني لخدمته غير روكتايل الذي حنق لموت رفقائه ونسي الوصية التي سمعها من مولاه فانقض على جوهان بسيفه وصرخ قائلا :

– مت ايها الكلب الكلب .

ولكنه لم يكد ينتهي من هذا الوعيد حتى اخذ يقذف اقبح الشتائم لأن ضربته راحت في الفضاء واختفى جوهان من امامه كأن الارض قد بلعته أو طار في السحاب .

وساد الذعر على رجال العصابة لهذا الاختفاء الغريب فالتزموا الصمت برهة ثم انقلبوا إلى الشتائم والمسبات وهجموا على ذلك الباب يريدون سحقه وتحطيمه ولكنه كان متيناً فاخذوا يدورون حول الحائط لعلهم يهتدون إلى منفذ إلى داخل المنزل وكاد كونسيني يجن من فرط اسفه لخيبة مسعاه فشرع يتأمل جثث رجاله الممدودة على الارض فاسترجع رجاله وعاد معهم وهو يتعثر باذيال الخيبة والفشل .

الفصل الاربعون

بيريت وجوهان

وبينما كان جوهان يقاتل اخصامه قتال الاسود ويدافع عن نفسه دفاع اللبوة عن اشبالها سمع حركة من خلفه تشبه حركة الاقفال فلم يعجب لما سمعه بل ظل ثابتاً في مكانه وكان من حين إلى أخر يمد يده إلى ظهره ويجس الباب وهو يستجمع ما بقي من قوامه الخائرة ليتمكن من الثبات إلى الساعة الاخيرة

وبينما هو كذلك شعر بأن الباب قد فتح من خلفه فلم يتحرك ولم يلتفت بل قفز إلى الوراء وفي ذلك الحين أوصد الباب بالاقفال الغليظه .

وكان الليل قد ارخى سدوله وابصر جوهان امامه فتاة لا تزال في مقتبل العمر وهي مرتدية ملابس العاملات فلم يتسع له الوقت لشكرها أو الكلام معها لأنها اجبرته على التزام الصمت واخذت تتطلع من شق الباب برهة طويلة ثم قالت له :

– لقد ذهبوا فتعال معي .

وكانت هذه الفتاة جميلة الصورة للغاية ربعة القوام نحيفة

البنية بيضاء اللون تدل ملامحها على الرزانة والدعة وتشبه بزيها عاملات باريس فانحنى جوهان أمامها ليشكرها على المعروف الذي اسدته اليه وقال لها :

– سيدتي ...

ولم يلبث أن غير فجأة لهجته وصرخ قائلاً :

ايه يا لسعادتي فهذا أنت يا بيريت الحسناء .

وكانت بيريت شقيقة كرنكايل وحبيبه كاركان هي التي فتحت ذلك الباب لجوهان فتبسمت له ابتسامة تأخذ بمجامع القلوب وقالت له بلطفها الزائد :

– تعال معي واتبعني .

فتبعها على غير هدى لأن تلك المعركة الهائلة ونجاته الغريبة أثرتا عليه تأثيراً عظيماً وظلت تتقدمه حتى اوصلته إلى المنزل الواقع في منتصف الحديقة .

وكانت بيريت فيما مضى ترجو أن تصير زوجة لجوهان ولولا هذا الأمل لما تمكنت من المحافظه على طهرها وعفافها ولكن الحوادث التي طرأت عليها اضطرتها للعدول عن هذه الفكرة .

وادركت من سليقتها أن جوهان من طينة غير طينتها وأنه سيأتي يوم يعرف فيه سر مولده فوطدت عزمها على الاقلاع عن فكرتها الاولى لتأكدها عدم تحقيقها وكتمت سرها بقوة ارادتها فلم يشعر أحد من المقربين اليها بما كانت تشعر به .

واحست لما تأكدت تعلق جوهان بسواها أن فؤادها ينتزع

من صدرها ولكنها بقوة ارادتها تغلبت على عواطفها وظلت تتظاهر بالسكينة وعزمت عزماً باتاً على معاملة جوهان فيما بعد معاملة الاخت لاخيها .

وادخلت بيريت جوهان إلى الغرفة التي كانت تتخذها معملاً لها واستدعت إحدى عاملاتها وهي عجوز تناهز الخمسين من عمرها وبلغتها بعض تعليمات سرية وكان جوهان لا يزال متأثراً من تلك الموقعة فلم يلاحظ تهدج صوتها وهي تحاول التظاهر بالسكينة وسألها قائلاً :

– كيف استطعت الوصول في هذه الساعة الملائمة لانقاذي لأني لولاك لكنت من القوم الهالكين .

– عجباً منك فانك لما تنقذ حياة الغير لا تنادي بفضلك وجميلك على رؤوس الاشهاد وانا لم اعمل معك جميلاً غير فتحي الباب .

– ما الذي تعملينه في هذا المكان ؟

– هذا هو منزلي ياسيدي .

– وهل تركت باريس للاقامة في الارياف فقد صرت إذن من الاغنياء .

– كلا ياسيدي ولكن اخي نفحني بهبة مالية تمكنت بواسطتها من الاقامة في هذا المكان واشغالي سائرة سيراً حسناً وإذا ظلت على هذا المنوال الا يبعد أن اصير من الثريات .

– اراك لا تزالين على سابق عهدك من الرزانة فما الذي تعملينه الآن .

– أني اهيىء الشهادات اللازمة لك يا سيدي .

– ولكني لست بحاجة اليها .

– من الذي انبأك بان جراحك ليست اكثر خطراً مما تتوهم

– أني شاعر بامري ايتها العزيزة فلا تتكلفي عناء فارغاً .

– سوف تتحقق صدق قولي .

– وما الذي تعمله هذه العجوز في هذه الغرفة ؟

– أنها تهيء لك سريراً تستريح عليه .

– وهل حسبت أني أريد تضييع وقتي سدى ؟

– لااظنك نسيت الاسابيع الطويلة التي قضيتها على الاعتناء بي وبوالدتي من غير أن تعرف معنى الاستراحة فاذا قابلتك على جميلك الكثير بما ابديه لك من القليل من الاعتناء بك لا اكون موفية حقك من المعروف ولكن قل لي الم تكن تريد الذهاب إلى دير مونمارتر

– ما الذي يدعوك لتوجيه هذا السؤال الي ؟

– لأني مستعدة لاعطائك التعليمات اللازمة من غير أن تضطر للذهاب إلى هناك إذ لربما يكون ذهابك خطراً على ما تريد عمله

– وهل أنت تعرفين هذا الدير ؟

– نعم أن راهباته من خيرة زبائني وقد قمت في هذا المكان اكراماً لهن .

اذاً فأنت تستطيعي دخوله متى احببت ؟

– أجل فلا يمر علي اسبوع الا وأزوره ولو مرة .

– ومتى تريدين الذهاب اليه ؟

– يوم الاربعاء القادم .

– ما الذي تظنين أني اقصده من زيارة لهذا الدير ؟

– توجد فيه سجينة منذ شهر وإذا كنت تريد انقاذها كما اتوقع فمن الخطر عليك وعليها أن يروك متجولاً في تلك الجهات

– وهل رأيت هذه السجينة ؟

– أجل ولكن طمئنا فانه لم يحصل لها من اذى الا سجنها رغماً عنها وهي تعامل بكل لطف وايناس وهي التي اطلعتني على سرها .

– وما الذي قالته لك غير ذلك ؟

– أنها كلمتني عنك .

– ليتك تعلمين يا عزيزتي بيريت اية سعادة سببتها لي بهذا القول إذ اكدت لي انها لا تزال في قيد الحياة وانها حادثتك عني فما الذي استطيع مكافأتك به فقد أنقذت حياتي ... أن من حسن حظي مهاجمة كونسيني لي في هذا المكان ولولا ذلك لما تداخلت بالأمر ولما ذكرت لي هذه الامور الخطيرة التي اعادت لي حياتي .

– أظنك تسمح لي بعد الآن بالاعتناء بك .

– أنك وايم الله يا بيريت ملاك كريم .

الفصل الحادي والاربعون

بيريت وبرتيل

كانت الجهة التي اقيمت فيها الانسة برتيل مؤلفة من غرفة منامه واخرى للاستقبال وهما مفروشتان فرشاً انيقاً غير أن نوافذهما كانت مشبكة بقضبان حديدية متينة .

وفي اليوم الاول والثاني من دخولها الدير لم يسمح لها بمغادرة غرفتها وفي اليوم الثالث انذروهـا بانهـا سجينة بامر الملك ولكن مدة سجنها لا تطول اكثر من ثلاثـة أو اربعة اشهر ثم تطلق لها حريتها .

وكانت الراهبات يبذلن كل وسعهن لتخفيف عذاب سجنها فكان بابها يترك مفتوحاً طول النهار وهي حرة في رواحهـا ومجيئها إلى حيث تريد على شرط أن لا تتجاوز حدود رسمتها لها وانذرتها بان كل محاولة هرب من داخل الدير أو خارجه لا تصادف غير الفشل وتجلب عليها قسوة المعاملة .

ومنذ ذلك الحين اطلقت الحرية للتنزه في الجهة التي اقيمت فيها وكانت في الحديقة غير انها كل مرة كانت تحاول تجـاوز

الحدود التي رسمتها لها ترى حراساً اشبه بالمردة ينتصبون امامها ويبتسمون لها ابتسامة ذات معان غريبة فلم تلبث أن تأكدت خيبة مساعيها وانها لا تستطيع الاعتماد الا على مساعدة خارجية .

ولم تصدق ما قيل لها عن سجنها بامر الملك ولفرط مـا افتكرت وتأملت تجلت لها الحقيقة بتمامها وقد كانت تعلم أن الاوراق الثمينة التي عهدت إلى عنايتها موجبة لطمع الكثيرين واهمهم الرهبـان فقد كانت ميرنيس والكونت دي فوبرن قد اوصياهـا بان تحترز كل الاحتراز من كل شخص يرتدي الملابس السوداء وتأكدت بانهم اتخـذوا اسم باردليان ذريعة لادراك مأربهم منها وتيقنت كل التيقن بانهم فتشوا غرفتها بعد القبض عليهـا .

وثبت عندها وقتئذ أن سبب سجنهـا كان تلك الاوراق الثمينة وأنهم عثروا فيها على ايضاحـات خطيرة فسجنوهـا ليتخلصوا منها ريثما يعثرون على الملايين .

وتبين لها باجلى بيان أنهم استولوا على أوراقها ولكنهم لم يعثروا على الاوراق الصحيحه فاخذت تناجي نفسها بقولها :

ــ مازالوا منهمكين في الحفر فليس لي ما احاذره ولكنهم متى انتهوا منه ولم يصادفوا ما كانوا يؤملونه ويتحققون أن النهايات التي قرأوها في الأوراق الموجودة عندي لم تكن الا لتزيدهم ضلال عندئذ تنقض علي صواعق غضبهم ومن يـدري ما الزي يأتون من الفظائع توصلوا لمأربهم .

– قف مكانك ايها اللئيم الذي ترحم الناس بمناكبه ولا يعتذر لهم عن اسائته .

– رويداً ايها النعاج فسار جمكم بحد هذا الحسام .

فحاول الفرسان الاحاطة به والقبض عليه كما امرهم كونسيني ولكنهم لم يكادوا يقتربون منه حتى علت اصوات اربعة منهم وسقطوا إلى الارض جرحى وقال لهم جوهان ساخراً :

– من أحب منكم أن يأتي دوره فليتقدم وأني انذركم منذ الآن بالهلاك العاجل !

وأراد الثمانية الفرنسان السليمون الهجوم عليه ولكن سيفه الماضي كان اسبق اليهم من النسيم فلم يلبث أن سقط ثلاثة منهم صرعى وقال جوهان متحمساً :

– لقد بلغ بك الحمق ايها الرجل أنك لا تحسن انتقاء القتلة تختارهم فمن يريد التقدم ليلحق برفاقه ؟

وفي اعجل من الوقت اللازم لكتابة هذه الاسطر كانت ثماني جثث ممددة على الارض بين قتلى وجرحى فتوقف الاربعة الباقون مذعورين وكاد جوهان يهجم عليهم بدوره لأنه استهان بهم ولم يأبه لعددهم ولكنه سمع في تلك اللحظة اصوات النجدة لاعدائه فالتفت إلى خلفه ورأى نحو عشرة فرسان قادمين من الجهة الثانية فاصبح بين عدوين وهمس قائلا :

– لست أريد أن أموت قبل انقاذها .

والقى نظرة على ما حوله فرأى عن يمينه ارضاً واسعة

ولكنه لم تخطر ببالة فكرة الهرب من تلك الجهة وابصر عن يساره حائطاً عالياً فيه باب حديدي متين فحسب ان نجاته ستكون من تلك الجهة وأنه إذا استند عليه يكون اعداءه أمامه ولا يستطيعون مهاجمته واخذه غيلة غير أنه كان يحتاج أن يصل إلى هناك قبل اعدائه فقفزة مدهشة أوصلته إلى الباب الحديدي ولكنه كان اصيب بجرح في كتفه بينما كان ينظر إلى الوراء ولم يشعر به .

ولما وصل إلى الباب تنفس الصعداء وكانت توجد درجة من خلفه فصعد عليها ومد يده اليسرى إلى خلف ظهره وجس الباب فوجده مقفلاً لسوء الحظ فعاود نزول الدرجة وعد اعداؤه فاذا هم خمسة عشر فارساً .

واتحدت العصابتان عليه وأخذ رجالها يهاجمونه وكان كونسيني قد اصبح آمناً من القبض عليه فاعاد سيفه إلى غمده وأخذ يحمس رجاله ويطلب منهم القبض عليه حياً وسمع جوهان نداءه فقال له ساخراً :

– وما الذي يمنعك من التقدم الي لولا جبنك ايها اللئيم .

وسقط ابنوس في تلك اللحظة مضرجاً بدمائه اما ملابس جوهان فكانت قد اصبحت ممزقة وأخذ الدم يسيل بغزارة من صدره وذراعيه ووجهه ولكنه ظل ثابتاً على القتال وقد اشعر بتخدر في اعصابه وورم في يديه لأنه كان مضطراً في موقفه الحرج على الدفاع والهجوم وشعر كونسيني بضعفه فعاود تحميس

رجاله ولكنهم كانوا يتساقطون الواحد بعد الآخر ولم يبق من النبلاء الذين اشترام كونسيني لخدمته غير روكتايل الذي حنق لموت رفقائه ونسي الوصية التي سمعها من مولاه فانقض على جوهان بسيفه وصرخ قائلا :

– مت ايها الكلب الكلب .

ولكنه لم يكد ينتهي من هذا الوعيد حتى اخذ يقذف اقبح الشتائم لأن ضربته راحت في الفضاء واختفى جوهان من امامه كأن الارض قد بلعته أو طار في السحاب .

وساد الذعر على رجال العصابة لهذا الاختفاء الغريب فالتزموا الصمت برهة ثم انقلبوا إلى الشتائم والمسبات وهجموا على ذلك الباب يريدون سحقه وتحطيمه ولكنه كان متيناً فاخذوا يدورون حول الحائط لعلهم يهتدون إلى منفذ إلى داخل المنزل وكاد كونسيني يجن من فرط اسفه لخيبة مسعاه فشرع يتأمل جثث رجاله الممدودة على الارض فاسترجع رجاله وعاد معهم وهو يتعثر باذيال الخيبة والفشل .

الفصل الاربعون

بيريت وجوهان

وبينما كان جوهان يقاتل اخصامه قتال الاسود ويدافع عن نفسه دفاع اللبوة عن اشبالها سمع حركة من خلفه تشبه حركة الاقفال فلم يعجب لما سمعه بل ظل ثابتاً في مكانه وكان من حين إلى أخر يمد يده إلى ظهره ويجس الباب وهو يستجمع ما بقي من قوامه الخائرة ليتمكن من الثبات إلى الساعة الاخيرة

وبينما هو كذلك شعر بأن الباب قد فتح من خلفه فلم يتحرك ولم يلتفت بل قفز إلى الوراء وفي ذلك الحين أوصد الباب بالاقفال الغليظه .

وكان الليل قد ارخى سدوله وابصر جوهان امامه فتاة لا تزال في مقتبل العمر وهي مرتدية ملابس العاملات فلم يتسع له الوقت لشكرها أو الكلام معها لأنها اجبرته على التزام الصمت وأخذت تتطلع من شق الباب برهة طويلة ثم قالت له :

– لقد ذهبوا فتعال معي .

وكانت هذه الفتاة جميلة الصورة للغاية ربعة القوام نحيفة

البغية بيضاء اللون تدل ملامحها على الرزانة والدعة وتشبه بزيها عاملات باريس فانحنى جوهان أمامها ليشكرها على المعروف الذي اسدته اليه وقال لها :

– سيدتي ...

ولم يلبث أن غير فجأة لهجته وصرخ قائلا :

ايه يا لسعادتي فهذا أنت يا بيريت الحسناء .

وكانت بيريت شقيقة كرنكايل وحبيبه كاركان هي التي فتحت ذلك الباب لجوهان فتبسمت له ابتسامة تاخذ بمجامع القلوب وقالت له بلطفها الزائد :

– تعال معي واتبعني.

فتبعها على غير هدى لأن تلك المعركة الهائلة ونجاته الغريبة أثرتا عليه تأثيراً عظيماً وظلت تتقدمه حتى اوصلته إلى المنزل الواقع في منتصف الحديقة .

وكانت بيريت فيما مضى ترجو أن تصير زوجة لجوهان ولولا هذا الأمل لما تمكنت من المحافظة على طهرها وعفافها ولكن الحوادث التي طرأت عليها اضطرتها للعدول عن هذه الفكرة .

وادركت من سليقتها أن جوهان من طينة غير طينتها وأنه سيأتي يوم يعرف فيه سر مولده فوطدت عزمها على الاقلاع عن فكرتها الاولى لتأكدها عدم تحقيقها وكتمت سرها بقوة ارادتها فلم يشعر أحد من المقربين اليها بما كانت تشعر به .

واحست لما تأكدت تعلق جوهان بسواها أن فؤادها ينتزع

من صدرها ولكنها بقوة ارادتها تغلبت على عواطفها وظلت تتظاهر بالسكينة وعزمت عزماً باتاً على معاملة جوهان فيما بعد معاملة الاخت لاخيها .

وادخلت بيريت جوهان إلى الغرفة التي كانت تتخذها معملاً لها واستدعت إحدى عاملاتها وهي عجوز تناهز الخمسين من عمرها وبلغتها بعض تعليمات سرية وكان جوهان لا يزال متأثراً من تلك الموقعة فلم يلاحظ تهدج صوتها وهي تحاول التظاهر بالسكينة وسالها قائلا :

– كيف استطعت الوصول في هذه الساعة الملائمة لانقاذي لأني لولاك لكنت من القوم الهالكين .

– عجباً منك فانك لما تنقذ حياة الغير لا تنادي بفضلك وجميلك على رؤوس الاشهاد وانا لم اعمل معك جميلا غير فتحي الباب .

– ما الذي تعملينه في هذا المكان ؟

– هذا هو منزلي ياسيدي .

– وهل تركت باريس للاقامة في الارياف فقد صرت إذن من الاغنياء .

– كلا ياسيدي ولكن اخي نفحني بهبة مالية تمكنت بواسطتها من الاقامة في هذا المكان واشغالي سائرة سيراً حسناً وإذا ظلت على هذا المنوال الا يبعد أن اصير من الثريات .

– اراك لا تزالين على سابق عهدك من الرزانة فما الذي تعملينه الآن .

– أني اهيىء الشهادات اللازمة لك يا سيدي .

– ولكني لست بحاجة اليها .

– من الذي انبأك بان جراحك ليست اكثر خطراً مما تتوهم

– أني شاعر بامري ايتها العزيزة فلا تتكلفي عناء فارغاً .

– سوف تتحقق صدق قولي .

– وما الذي تعمله هذه العجوز في هذه الغرفة ؟

– أنها تهيء لك سريراً تستريح عليه .

– وهل حسبت أني أريد تضييع وقتي سدى ؟

– لااظنك نسيت الاسابيع الطويلة التي قضيتها على الاعتناء بي وبوالدتي من غير أن تعرف معنى الاستراحة فاذا قابلتك على جميلك الكثير بما ابديه لك من القليل من الاعتناء بك لا اكون موفية حقك من المعروف ولكن قل لي الم تكن تريد الذهاب إلى دير مونمارتر

– ما الذي يدعوك لتوجيه هذا السؤال الي ؟

– لأني مستعدة لاعطائك التعليمات اللازمة من غير أن تضطر للذهاب إلى هناك إذ لربما يكون ذهابك خطراً على ما تريد عمله

– وهل أنت تعرفين هذا الدير ؟

– نعم أن راهباته من خيرة زبائني وقد قمت في هذا المكان اكراماً لهن .

اذاً فأنت تستطيعي دخوله متى احببت ؟

– أجل فلا يمر علي اسبوع الا وأزوره ولو مرة .

– ومتى تريدين الذهاب اليه ؟

– يوم الاربعاء القادم .

– ما الذي تظنين أني اقصده من زيارة لهذا الدير ؟

– توجد فيه سجينة منذ شهر وإذا كنت تريد انقاذها كما اتوقع فمن الخطر عليك وعليها أن يروك متجولاً في تلك الجهات

– وهل رأيت هذه السجينة ؟

– أجل ولكن طمئنا فانه لم يحصل لها من اذى الا سجنها رغماً عنها وهي تعامل بكل لطف وايناس وهي التي اطلعتني على سرها .

– وما الذي قالته لك غير ذلك ؟

– أنها كلمتني عنك .

– ليتك تعلمين يا عزيزتي بيريت اية سعادة سببتها لي بهذا القول إذ اكدت لي انها لا تزال في قيد الحياة وانها حادثتك عني فما الذي استطيع مكافأتك به فقد أنقذت حياتي ... أن من حسن حظي مهاجمة كونسيني لي في هذا المكان ولولا ذلك لما تداخلت بالأمر ولما ذكرت لي هذه الامور الخطيرة التي اعادت لي حياتي .

– أظنك تسمح لي بعد الآن بالاعتناء بك .

– أنك وايم الله يا بيريت ملاك كريم .

الفصل الحادي والاربعون

بيريت وبرتيل

كانت الجهة التي اقيمت فيها الانسة برتيل مؤلفة من غرفة منامه واخرى للاستقبال وهما مفروشتان فرشاً انيقاً غير أن نوافذهما كانت مشبكة بقضبان حديدية متينة .

وفي اليوم الاول والثاني من دخولها الدير لم يسمح لها بمغادرة غرفتها وفي اليوم الثالث انذروهـا بانهـا سجينة بامر الملك ولكن مدة سجنها لا تطول اكثر من ثلاثة أو اربعة اشهر ثم تطلق لها حريتها .

وكانت الراهبات يبذلن كل وسعهن لتخفيف عذاب سجنها فكان بابها يترك مفتوحاً طول النهار وهي حرة في رواحهـا ومجيئها إلى حيث تريد على شرط أن لا تتجاوز حدود رسمتها لها وانذرتها بان كل محاولة هرب من داخل الدير أو خارجه لا تصادف غير الفشل وتجلب عليها قسوة المعاملة .

ومنذ ذلك الحين اطلقت الحرية للتنزه في الجهة التي اقيمت فيها وكانت في الحديقة غير انها كل مرة كانت تحاول تجـاوز

الحدود التي رسمتها لها ترى حراساً اشبه بالمردة ينتصبون امامها ويبتسمون لها ابتسامة ذات معان غريبة فلم تلبث أن تأكدت خيبة مساعيها وانها لا تستطيع الاعتماد الا على مساعدة خارجية .

ولم تصدق ما قيل لها عن سجنها بامر الملك ولفرط مـا انتكرت وتأملت تجلت لها الحقيقة بتمامها وقد كانت تعلم أن الاوراق الثمينة التي عهدت إلى عنايتها موجبة لطمع الكثيرين واهمهم الرهبـان فقد كانت ميرنيس والكونت دي فوبرين قد اوصياهـا بان تحترز كل الاحتراز من كل شخص يرتدي الملابس السوداء وتأكدت بانهم اتخـذوا اسم باردليان ذريعة لادراك مأربهم منها وتيقنت كل التيقن بانهم فتشوا غرفتها بعد القبض عليهـا .

وثبت عندها وقتئذ أن سبب سجنهـا كان تلك الاوراق الثمينة وأنهم عثروا فيها على ايضاحـات خطيرة فسجنوهـا ليتخلصوا منها ربما يعثرون على الملايين .

وتبين لها باجلى بيان أنهم استولوا على أوراقها ولكنهم لم يعثروا على الاوراق الصحيحه فاخذت تناجي نفسها بقولها :

— مازالوا منهمكين في الحفر فليس لي ما احاذره ولكنهم متى انتهوا منه ولم يصادفوا ما كانوا يؤملونه ويتحققون أن النعليمات التي قرأوها في الأوراق الموجودة عندي لم تكن الا لتزيدهم ضلال عندئذ تنقض علي صواعق غضبهم ومن يـدري ما الزي يأتون من الفظائع توصلوا لمأربهم .

وتمكنت بيريت بفضل العطاء الذي حصلت عليه من اخيها ورفيقيه أن تقيم في ذلك المكان وتضع فيه الرياش الانيقة وكانت ماهرة في عملها فلم تلبث أن رأت زبائنها يزيدون يوماً عن يوم .

واضطرت رئيسة الدير تكليفها بغسل ثياب الانسة برتيل وكيها وجميع ما تحتاج من المهمات البيتية .

ولما دخلت بيريت غرفة الآنسة برتيل ادخلت معها عاملة قوية البنية شديدة الحيل لتحمل لها الملابس الوسخة فنظرت الفتاتان لبعضهما بدقة وسرعة وفي الحال بدت ابتسامة على فم كل منهما غير أن الراهبة الخادمة كانت حاضرة هذه الجلسة وهي تراقبهما بدقة فلم تتبادلا الكلام .

وفي خلال اسبوع فكرت بيريت بتلك الفتاة المجهولة التي رأت وجهها يتدفق بشراً وجمالاً وامارات الحزن بادية على ملامحها .

ولما عادت في المرة الثانية كانت الراهبة الخادمة لا تزال موجودة فاطاعت بيريت عواطف فؤادها وتمكنت بمهارتها من التفاهم مع برتيل التي كانت تشفق على مصابها .

وادركت برتيل معنى هذا الحديث السري ولكنها ظلت محافظة على تحفظها لأنها لم تكن على يقين من اخلاص هذه الفتاة الغريبة وحاذرت بان يكون ما تشاهده فخاً قد نصب لها لأنها كانت في قبضة اعدائها غير أن ما رأته من السكينة البادية على ملامح بيريت دعاها للاطمئنان وحسبت انها تستطيع

أن تكون واسطة المراسلة بينها وبين حبيبها .

وعادت بيريت مرة ثالثة إلى الدير فلم تجد الراهبة الخادمة في غرفة الآنسة برتيل فقالت لها :

— لم اتشرف بمعرفتك بعد يا سيدتي ولكني اراك كثيرة الحزن فليتني اتمكن من خدمتك بما تصل اليه يدي .

وكانت جالسة في الغرفة والباب مفتوحاً امامها فتستطيع أن ترى الراهبة إذا قدمت عن بعد وكانت وهي تتكلم تنشر على الطاولة الثياب التي احضرتها معها .

فبدلاً من أن تجاوبها برتيل على قولها اخذت يدها وتأملتها بدقة وسألتها بتأثر عظيم

— بربك قولي لي من اين وصل اليك هذا الخاتم ؟

وكان هذا هو الخاتم الحديدي الذي عثر عليه كاركان في علبة الصفيح التي سرقها من العجوز كولينكل واعطاه بناء على طلب رفيقه إلى شقيقته التي لبسته من غير اهتمام فدهشت بيريت لهذا السؤال اذ لم تكن تتوقع أن الانسة برتيل تضيع هذه الفرصة الثمينة باسئلة تافهة وقالت

— لقد اعطانيه اخي

— عفواً يا عزيزتي فان لهذا السؤال اهمية عظمى عندي فهل تعرفين اين وجده اخوك ؟

— كلا

— ما اسم اخيك وما هي صناعته ؟

— أنه يدعى كرنكابل يا سيدتي .

– لقد تذكرت الآن أليس أخوك في خدمة شاب ؟

– نعم يا سيدتي وهو جوهان الشجاع .

– هل تعرفينه من قبل ؟

– أننا نعرف بعضنا منذ الصغر وهو يلقبني باخته الصغيرة وانا أحبه كما لو كان اخي وهل أنت تعرفينه ؟

– إذن ستكونين اختي ايضاً لان جوهان سيكون زوجي فارجوك أن تبلغيه امري وتطلبي منه أن يسعى لانقاذي

– صه يا سيدتي فقد جاءت الخادمة الراهبة .

ولم تلاحظ برتيل لفرط اضطرابها هــذا الانقلاب الفجائي وقامت بيريت واخذت تصلح الملابس وترتبها على الطاولة وهي تتظاهر بعدم المبالاة لأن عودة الاخت الخادمة اعادت السكينة لفؤادها وقبل أن تخرج من الغرفة تبسمت لها ابتسامة ملؤهــا الوعود الجميلة .

الفصل الثاني والاربعون

القبو والفرسان الثلاثة

مرت ثمانية ايام على جوهان الشجاع وهو مختبىء في منزل بيريت الحسناء اما رفاقه اسكركاس وكرنكايل وكاركان فقد كان الجوع برح بهم واثر عليهم التعب اشد تأثير حتى لم يعودوا يقدرون علي الوقوف الا بجهد جهيد .

ثم قرر رأيهم على أن يسيروا بطلب الرزق في ارض الله الواسعة إلى أن وصلوا اخيراً إلى أمام بناية لم يعرفوا نوعها في بادىء الامر فوقفوا لديها مذعورين مبهوتين ورأوا باباً صغيراً فدخلوه ورأوا بمزيد الدهشة أن ذلك المكان هو مأوى لدجاج الدير وشاهدوا فيه كثيراً من البيض فانقضوا عليه كالمجانين والتهم كل واحد منهم نحو خمسة عشر بيضة وقال كرنكايل بعد أن تنفس الصعداء

– لقد جاءتنا هذه اللقيا في الوقت الملائم وكنا وايم الحق في اشد الحاجة اليها .

واخذوا يضحكون ضحكاً عالياً لأنهم امنوا على ذواتهم من

الموت جوعاً وعادت اليهم طلاقتهم المعروفة ولم يلبث كرنكابل أن قال :

– لا نستطيع أن نأكل ابداً بيضاً نيئاً ونكتفي به .

– صدقت .

وما الذي يجب علينا عمله ؟

وكان هذا السؤال خبراً في حد ذاته يحتاج جوابه إلى مزيد من التروي والتفكير .وبعد أن اجهدوا قريحتهم ملياً قال كرنكابل :

– اهتديت إلى حل موافق .

– وكيف ذلك ؟

– نذهب إلى المنزل الذي كان يقطنه قديماً جوهان الشجاع رئيسنا المحبوب ونأتي منه بكل آنية الطبخ ونجعل هذا المكان مسكناً لنا ؟

– صدقت وأنه في غاية الملاءمة بعد أن اقبل فصل الصيف بحره

وأننا فضلا عن ذلك نوفر الاجرة التي يتطلبها منا اصحاب الاملاك الذين لا شفقة في قلوبهم على المساكين . نحن الذي يذهب ويأتي بالآنية اللازمة لنا ؟

فقال كاركان ضاحكاً :

– أنا ولكن لسوء الحظ ليس عندنا خبز ولا سمن .

– وهل عميت ايها الرفاق عن هذه الاكداس العظيمة من البيض فاذهب ومتى عدت الى هنا ر انا اعددنا لوازم الطعام .

فلم يفهم كاركان مقصد رفيقه ولكنه كان يثق به ثقة تامة ويطيعه طاعة عمياء فامتثل لما امره وخرج من القن وبعد خروجه اخذ رفيقاه ثلاثة دجاجات خنقاها بخفة لا مزيد عليها وعدداً كبيراً من البيض وخرجا بدورهما ولما عادا بعد نصف ساعة لم يكن معهما شيء من البيض ولا الدجاجات ولكنهما كانا يحملان وعاءاً مملوءاً بالسمن وقطعة من اللحم المقدد وزجاجة كبيرة من الخمر المعتق ومقداراً كافياً من الخبز .

وشرعا وهما بانتظار رفيقهما يهيئان المكان ليجعلاه صالحاً للاقامة وفحص كرنكابل الباب فوجده لا يزال متيناً وله قفل ضخم فقال لرفيقه أن من الخطأ الدخول من السطح مع وجود الباب .

وبينما هو يتطلع في الارض رأى حفرة صغيرة فحسب أن فيها بيضاً ومد يده ليتناول منها ذلك البيض الشهي ولكن يده صادفت حلقة حديدية فقال متفلسفاً :

– أن وجود هذه الحلقة يدل على وجود بلاطة قد يكون تحتها سلم أو ما اشبه ولئن وُجد السلم فلا بد من وجود شيء آخر .

– لعله يكون قبو .

– هذا ما يجب علينا تحققه لأننا لا نعلم ما تخبئه لنا الاقدار

وأخذا يوسعان تلك الحفرة إلى أن كشفا عن بلاطة مربعة فقبض كرنكابل على الحلقة وشد عليها بمنتهى قوته ولكن البلاطة لم تتحرك من مكانها فاخذ اسكركاس قضيباً حديدياً

وادخله في الحلقة وتعاون الرفيقان على تحريكها ولكنها كانت ثابتة في مكانها فانحنيا عليها وفحصاهـــا بدقة فرأيا اطراف البلاطة وحاولا تحريكها بسيوفهما ولكنهما فشلا فيما اراداه فعدلا عن رفعها وأخذ يضغطان عليها إلى الاسفل غير انها لم تتحرك فقبض كرنكايل على الحلقة وأخـذ يحركها بشدة كانه يريـد فكها من مكانها فاشعر بحركة خفية فيها ولم تلبث البلاطـة أن هبطت تدريجاً وانكشفت عن سلم سريه .

وسمعا في تلك اللحظة وقع اقدام على الطريق فتطلعا من شق الباب ورأيا رفيقهما عائداً اليهما فاشارا اليه بسرعة الدخول واخذا منه ما كان يحمله فقال :

— لم يبق علينا الا أن نهيء الطعام .

— مهلاً فـاننا إذا اضرمنا النار في هـذا المكان يفضحنا الدخان ولا نلبث أن نطرد من هنا .

— وما الذي يجب علينا عمله ؟

— قد نستطيع اجتناب هذا الأمر فلننزل القبو أولاً .

— هيا بنا اليه .

— مهلاً ايها الرفاق فان هذه البلاطة تقفل على ذاتها فلئن تسرعنا في النزول قبل تثبتنا من امرها ندفن ونحن في قيـد الحياة فسأنزل قبلكما فاقبض يا اسكر كاس على الحلقة وإذا اشعرت بحركة مني ارفعها في الحال .

ونزل اسكر كاس السلالم بخفة وظلت البلاطة منخفضة ولم تتحرك وأخـذ يعـد الدرجـات حـتى وصل إلى السادسة

فارتفعت البلاطة واستقرت في مكانها فهمس قائلاً .

— حقاً أن الأمر بسيط للغاية لقد فهمنا الآن كيفية فتحها .

وكان الظلام الحالك قـد استولى على المكان الذي هو فيه فاشعل ثقاباً وانار شمعة كانت معه وعاود الصعود حتى وصـل إلى البلاطة السادسة التي قفلت البلاطة لمجرد دوسه عليها فرآها مشقوقة الطرفين وبين الشقين لحام غليظ فداس عليه وفي الحال انفتحت البلاطة العليا وتأكد بان تلـك الدرجـــة هي المحرك للصعود والنزول فسر بما رآه واسرع لتبشير رفيقيه بنجاحه .

وبعد عشر دقائق نقلوا كل لوازمهم إلى ذلك القبو وقـال كرنكايل لرفيقيه :

— لقد اصبحنا في مأمن من كل طارىء مفاجىء فنستطيع اضرام النار من غير أن نخشى فضيحة الدخان فلنتفقد القبو أولاً ثم نباشر باعداد الطعام .

وكان ذلك القبو يبلغ عشرة أقدام بطوله وسبعة أو ثمانية اقدام بعرضه وأمام السلم رواق متوسط الوسع وهـــو كثير الانحدار فدخـــلا فيه ولم يكادوا يتقدمون نحو عشرين خطوة حتى رأوا قبو ثانياً كثير الاتساع وشاهدوا فيه ما دعاهم لمزيد الانذهال .

رأوا في إحدى زواياه أكداساً كثيرة من القش وبجانبها عدد كبير من المشاعل فاناروا واحد منها ليهتدوا بنـوره في تفتيشهم وابصروا برميلين كبيرين ففتحوهما وإذا هما مملوءان بالخمرة النفيسة المعتقة .

وشاهدوا اربعة صناديق ضخمة ففتحوا اثنين منها ورأوها ملآنين بالاسلحة المختلفة الاشكال والانواع والذخائر الوفيرة ورأوا في الصندوق الثالث رماداً فنزعوه وشاهدوا في اسفله مقداراً كبيراً من اللحوم والاسماك المقددة التي لم تكن تخطر لهم على بال .

وهجموا على الصندوق الرابع كالذئاب الكاسرة وهم يحسبونه مملوءاً بالذهب ولكن حماسهم تحول إلى انزهال حين رأوه مملوءاً بالبارود فتراجعوا إلى الوراء وأبعدوا المشعل عن البارود لئلا تطير شرارة منه فتنسفهم نسفاً وتقضي عليهما .

ولما أنتبهوا من ابحاثهم اعادوا كل شيء إلى مكانه واضرموا النار وطبخوا الدجاجتين والبيض وتنالوا طعامهم بسرور لا مزيد عليه وقال كرنكايل ضاحكاً :

— لكم كان جوهان الشجاع مخطئاً لما اكد لنا بان من يلتزم معيشة الشرف يتعرض للموت جوعاً .

وتمددوا في ارض المغارة ولم يلبث أن علا غطيطهم وناموا نوماً عميقاً .

الفصل الثالث والاربعون

جوهان المقنع

مرت عليهم خمسة ايام وهم في تلك المغارة يقضون المعيشة التي وصفناها وليس لهم الا تناول الطعام وشرب الخمور وباتوا يضرعون الى الله كي تدم عليهم هذه الحال .

واقترح كاركان على رفيقيه بان يبيعوا الاسلحة والبارود الذي عثروا عليه في الصناديق غير أن كرنكايل اعترض عليه بقوله :

— اظن أننا نستطيع التصرف بكل ما هو موجود في هذه الا البارود والاسلحة فلا يجب أن نخبر بذلك رئيسنا جوهان الشجاع وإذ طاوعتماني انصحكما بان نتفقد هذه الاسلحة ونصلح ما يحتاج إلى الاصلاح وبذلك نجد سلوى لنا في أوقات فراغنا

ولم يكن كرنكايل يستطيع ذكر السبب الذي دعاه لابداء هذه الملاحظة ومما لا ريب فيه أنه اطاع بذلك عواطف فؤاده لأن الضجر كاد يقتله نظراً لعدم مفارقته تلك المغارة ليلا ونهاراً

وبعد أن اتفق الرفاق على هذا الأمر اخذوا بتفقد الاسلحة

وتنظيفها حتى اصبحت صقيلة لامعة كانها جديدة .

وكان ذلك اليوم هو الخامس الذي مـــر عليهم في تلك المغارة واليوم الثاني عشر من اختباء جوهـــان الشجاع في منزل بيريت الحسناء وهو اليوم الذي تذهب فيه عادة إلى الدير

خرجت بيريت كعادتها من منزلهـا وهي مصحوبة باحدى العاملات التي كانت تحمل الملابس المغسولة في سل كبير وكانت هذه العامـــلة مرتدية على رأسها قبعة متدلية الاطراف تحيط بوجهها وتكاد تستر ملامحها وهي مثل القبعات الـــتي اعتاد العجائـز على لبسها في ذلـك العصر واحاطت عنقها برباط من صوف طويل يصل حتى انفها

وسارت الامرأتان في طريق الدير وإذا بهما التقتا فجأة مع رجل كان نازلا منها وهذا الرجل هو ساتيا .

وكانت بيريت تشعر بكره عظيم لهذا الرجل رغماً من تحببه اليها ومحاولته التقرب منها لأن الحب الصحيح يدل غالباً على صدق العواطف لذلك لم تسر الفتاة من هذه المقابلة كما كدرت العاملة التي كانت معها لأنها عجلت خطاها ولكن لم يكن من مجال التخلص فحاولت بيريت المرور بعد أن تبسمت لساتيـا ابتسامة لطيفة غير أنه لسوء الحظ لم يقتنع بهذه الابتسامة بـل استوقف الفتاة في قارعة الطريق وقال لها :

ـ الا تزالين على عنفوانك ايتها الفتاة إلى درجة لم تعودي تتنازلين بها لتحية اصدقائك القدماء .

كان وهو يتكلم يحدق بالعاملة ولا يفارقها ببصره فاحنت رأسها بخجل وقالت بيريت :

ـ أخطأت يا سيدي فلست متكبرة بـل أنا ذاهبة لتسليم شغلي إلى اصحابه فارجوك أن تسمح لي بالمرور .

ـ مهلا يا عزيزتي واسمحي لي بان اهنئك بما حصلت عليـه من الرقي فقد صار عندك عاملات يخدمنك .

واقترب بمزيد الاهتمام وقال بمكر :

ـ أني وايم الحق اهنئك بهذه العاملة التي تظهر لي أنها مثال للرزانة ولكنها لسوء الحظ كثيرة الشعر لأني أرى شاباً ظاهر تحت نقابها .

فذعرت بيريت لهذه الملاحظة وأنزلت العامـــلة نقابها عن وجهها فعرف ساتيا ربيبه جوهان الشجاع وصرخ قائلا :

ـ اهذا أنت يا ولدي ؟

فقال جوهان لبيريت بلطف زائد .

ـ ارجوك يا عزيزتي أن تسيري امامنا قليلا لأني في حاجة لمحادثة ساتيا فاطاعت بيريت هذا الأمر وقال جوهان بغضب وحـدة :

ـ ويحك هل جننت لتوقفني في طريقي وأنا سائر بهـــذه الصفة ؟ العلك جهلت باني لا اتنكر الا لاسباب خطيرة .

ـ لم اعرفك لاول وهلة ورأيت طرف شاربك بادياً من خلال النقاب فاحببت معرفة صاحبه .

– تكلم ما الذي تريد معرفته فليس لي من وقت اضيعه سدى .

وادرك ساتيا اهمية هذا الانذار ولكنه كان يريد معرفة السبب الذي دعا ولده بالتربية لهذا التنكر الغريب فتظاهر لعدم فهمه الكلام الذي سمعه وقال همساً :

– مهلاً يا ولدي وقل لي إذا كنت اهتديت إلى ..

– نعم أني اهتديت إلى الكنوز وكدت اصل إلى مأربي .

– لقد كنت احسب انك عدلت عن هذا الفكر .

– أنك لا تعرفني إذن فاني منذ خمسة عشر يوماً كنت اتجول حول هذا المكان فهجم علي نحو عشرين من الفرسان ولست أدري باية معجزة نجوت منهم لأن هذا الدير محروس كما يجب غير أني على يقين من استطاعة دخوله بهذا التنكر فلا يعرفني أحد وأنا بهذا الزي ومتى خرجت منه بعد ساعة اكون عارفاً مكان الملايين وعندئذ عبثاً يضاعفون حرسهم ويزيدون في تحوطاتهم فان هذه الكنوز ستكون لي وحدي وأنا الذي استولي عليها ... فهل ادركت مقصدي يا ساتيا وهل تسمح لي بالمرور ؟

– اذهب يا ولدي إلى حيث اردت وليتولاك الله في حراسته ولكن دعني اصلح لك نقابك على وجهك لئلا يظهر شاربك ولقد كنت احسنت صنعاً لو حلقتهما .

ولم يكد جوهان يتخلص من ساتيا حتى اسرع ولحق

برجيعه بيريت .

وهمس في اذن ساتيا تعليمات جديدة وكان ساتيا ينظر اليهما وهما يبتعدان وهو يبتسم ابتسامة غريبة ثم اسرع خطواته قاصداً الجبل وسار في الجهة اليسرى حتى وصل إلى مكان الحفر فوقف عند بابه برهة وإذا باحد الضباط قد خرج اليه وسأله عما يريده فقال له أنه يريد مكاشفة المأمور بامور خطيرة للغاية وأخذه إلى جانب وابتدأ يحادثه بحماس وعجلة .

*

ولم يكد ساتيا يدير ظهره إلى تلك الجهة حتى انتصب رجل من حفرة كان مختبئاً فيها ولم يكن هذا الرجل غير الراهب كولار الكامل فنظر برهة إلى الجهة التي سار فيها ساتيا ثم تطلع إلى حيث ذهب جوهان الشجاع وبيريت وأخذ يمشي إلى الامام وهو يغني غناء عالياً .

*

وكان في الجهة الثانية من المكان الذي تقابل فيه ساتيا مع جوهان وعلى بعد خطوتين من المكان الذي كان مختبئاً فيه السكير سنديانة كبيرة وعلى مقربة منها صخرة هائلة وكان هنالك رجل ممدداً على الارض فمر ساتيا بجانبه ولم يره وكان هذا الرجل هو الفارس باردليان .

وقام باردليان من مكانه بتمهل كما فعل كولار الكامل وكانت علائم التأثر العظيم بادية على محياه فنظر الى الراهب

بسكينة وأخذ يناجي نفسه بقوله :

– لما رأيت هذا الراهب ماراً بجانبي كانت علائم السكر الشديد بادية عليه فلم اتعجب منة ولما اختبأ في هـذه الحفرة وعاد فخرج منها كانت وقفته وحركاته تدل على الوعي التام والان أرى سكره أشد من الاول فما معنى هذا الامر ؟

والتفت إلى جهة مونتمارتر ورأى ساتيا آتياً نحو الكنيسة فهمس قائلا :

– هذا هو ساتيا أو بالحري كيدولوبيني ولقد كان يجب أن اعمل بفكرتي الاولى وأن أذهب اليه واقابله واجبره على الاقرار لي بما يعرفه .

– هل يبلغ بي سوء الحظ إلى هـذا الحد فاقابل ولدي ولكني حين أراه واجتمع معه للمرة الاولى اتأكد بانه لص سافل ... رباه أني سمعت هذا الامر باذني منذ هنيهة وأشعرت بتمزق في فؤادي لم اذق مثله في حياتي ولكن لا يجب علي أن أتسرع بحكمي فالشاب كثير الفطنة وقد حادثته قليلا وأثرت في فؤاده عوامل الحذر من الرجل الذي كان يحسبه اباه فلانتظرن النتيجة لارى كيف تكون النهاية .

وتظر إلى ساتيا الذي كان يدور في تلك اللحظة حول الكنيسة وهمس قائلا :

– لست لارتاب بقصد هذا الخبيث فلادعه وشانه لأني على يقين من وجود ساعة احتاج اليه ولا راقبن الراهب المحتال

لاعرف مقصده من تلونه بحركاته .

وأخذ يراقب كولار الكامل بمنتهى الدقة فرآه يسير بتثاقل وكان قد سمع الحديث الذي دار بين ساتيا وجوهان الشجاع ولم يفته منه حرف واحد فاخذ يتمتم قائلا :

– لا ريب بان ساتيا قد ذهب ليشكو الشاب إلى رجال الدوق دي سولي فهذا الاحمق المجنون يفكر بالانتقام المركب أما أنا فارى أن ولد الاميرة فوستا اصبح ثقيلا علينا لذلك يجب أن نزيله من هذا العالم وليس لنا أحسن من هـذه الفرصة فمتى أراد الخروج من هذا الدير يقبض عليه في الحال لذلك سأذهب وأخبر كونسيني بما وقفت عليه ولا ريب بان النجاح سيكون حليفه إذا اتبع تعلىماتي وسار على مقتضاها .

بمثل هذه الافكار كان كولار الكامل يناجي نفسه وهو سائر في طريقه يغني بصوت عال وسار قاصداً المدينة من باب سانت هونوري ولكنه لم يكد يسير اكثر من خمسين خطوة حتى ظهر على الطريق فجأة أحد الرهبان كأن الأرض لفظته ورآه بارداليان فتبسم ضاحكاً وقال :

– لقد كنت على يقين من هذا الامر .

ورأى كولار الكامل هذا الراهب فتقدم اليه وهو يتعثر في مشيته ويترنح كالسكاري حتى قاربه فتعلق به وبهذه الحركة فقد توازنه وأراد أن يعانقه فجر بينهما عراك مضحك بغرابته اسفر عن سقوط كولار على ظهره فتركه الراهب وأخذ يعدو

مسرعاً كان الشيطان راكض في اثره وهو يشتم ويلعن ذلك الاخ السكير الذي اهان رجال الكنيسة بعمله .

ونهض كولار الكامل بتثاقل من سقطته وسار نحو المدينة وكان باردليان يراقبه بدقة فهمس قائلاً :

- يا له من ممثل بارع .

أما الراهب فقد اجتمع بعد خمس دقائق مع روكتابل احد نواب كونسيني وعلى أثر حديثهما ركب أحد الفرسان جواده وسار نحو المدينة لا يلوي على شيء .

* *

الفصل الرابع والاربعون

هرب برتيل من الدير

وكان جوهان وبيريت قد وصلا الى الدير فاستقبلتهما الراهبة البوابة التي رأت في الاسبوع الماضي بيريت مع احدى العاملات فلم تتعجب هذه المرة لرؤيتها مصحوبة مع واحدة من نسائها .

وتنهد جوهان ورفيقته تنهد الارتياح لما وصلا داخل الدير وكانا يعلمان علم اليقين انهما لم يتجاوزا الا الخطوة من الخطر الذي كان يتهددهما وكان على بيريت أن تسلم قبل ذهابها إلى غرفة الآنسة برتيل الثياب النظيفة وتاخذ بدلاً عنها الثياب الوسخة فانقضت عليهما نصف ساعة حتى وصلا إلى الجهة التي تقيم فيها الآنسة برتيل وهنالك صادفا الراهبة الخادمة التي دخلت الغرفة معهما .

وكان جوهان وبيريت قد وضعا خطة للعمل وذلك بان ترتدي الانسة برتيل ثياباً تشبه ملابسة كل الشبه وقد كانت

بيريت فدانت بها في الاسبوع السابق فتخرج الفتاتان بكل سهولة من الدير ويبقى جوهان فيه حتى حلول الليل فيتسلق الجدار ويفر هارباً .

وصادفا في طريقهما ساتيا فافسدت عليهما هذه المقابلة الخطة التي رسماها لان جوهان كان يعتقد الاعتقاد الوطيد بأن أول عمل يأتيه ساتيا هو أن يذهب لشكواه فيأتي رجال الشرطة للقبض عليه ويرون برتيل مع بيريت فيتوهمونها العدو الذي يريدون الفتك به ويقبضون عليها لذلك وجب وضع خطة جديدة .

وبقي جوهان واقف قرب الباب فلما رأى الفتاتين منهمكتين بتحقيق الملابس اقترب من الراهبة ووضع يده على كتفها وقال لها بسكينة ورباطة جاش .

— عديني يا سيدتي بان تلتزمي الكتمان فلا اسيء اليك أما إذا حاولت مقاومتي أو استنجدت فاني اخنقك من غير شفقة ولا رحمة .

قال هذا ووضع اصابعه الحديدية على عنقها ولم يكن قصده خنقها كما توعدها بل أراد اخافتها فاخذت الراهبة ترتجف من رأسها إلى اخمص قدميها واصطكت اسنانها واقسمت له الايمان المغلظة بان تلتزم الكتمان ولا تتفوه .

وكانت الانسة برتيل قد ارتدت قسما من ثياب العاملات فاتمت كامل لبسها في الحال واصلحت لها بيريت وشاحها حول عنقها لتشبه به وشاح جوهان ووضعتا في السلة

الملابس الوسخة التي نزعتها عنها وحملت السلة على ذراعيها واستعدت الفتاتان للخروج .

واعطى جوهان بيريت خنجراً صغيراً وخاطب الراهبة التي كانت تصغي اليه بوجل لا مزيد عليه اياكي أن تأتي باي حركة .

— سنخرج من الدير عن قريب فقفي بين هاتين الفتاتين وسيري معهما بطاعة وحذار من مخالفة أي أمر يصدر عنك وتقولي لمن يسألك عن سبب خروجك أنك تنفذين امراً مستعجلا اصدرته لك رئيسة الدير ولدى ادنى اشارة تدل على رغبتك بمخالفة أوامري تطعنك بيريت بخنجرها وتقضي عليك واكون أنا مراقباً حركاتك فحذار إذا كنت تريدي الحياة .

ولم تستطيع الراهبة الجواب من فرط رعبها ولكنها ابدت اشارة من رأسها ويدها وبانها مستعدة للامتثال إلى الأوامر التي تبلغتها وتحقق جوهان بانها ستقوم بما تعهدت به فاخذ السلم ووضعها على كتفه وعاد إلى النسوة الثلاث .

وكانت بيريت وبرتيل تمسكان الراهبة بذراعيها لتساعدها على المشي لئلا تقع على الارض من فرط خوفها وكان جوهان يسير امامهن فمشى تواً إلى السور الاوسط الذي كان اقرب له من سواه فاسند جوهان سلمه عليه واخذ الراهبة بين ذراعيه وقال لحبيبته برتيل .

— ارجوك أن تنزعي عنك ملابسك وضعي هذا الرداء

عليك لأن الواجب يقضي بان كل من يراك يتحقق بانك امرأة ولو أن هيئتك وأنت بهذه الحال لا تشبهيني كثيراً .

فاطاعت برتيل ما طلب منها وهي تبتسم ولما رآها صارت على تمام الاستعداد قال لها :

– اصعدي ومتى ملكت حريتك انطلقي ولا تلتفتي إلى ورائك وحذار أن تهتمي بامري ويجب عليك أن تطاوعيني لان هذه هي الوسيلة الوحيدة لخلاصك . ثم خاطب بيريت قائلا :

– أني اسلمها لك يا اختاه فخذيها إلى منزلك لأنها لا تكون في مأمن في مكان سواه ولا تفارقيها قط :

– كن في راحه بال يا سيدي فاني ساسهر عليها واتولى حراستها بذاتي .

وصعدت بيريت بدورها فقال جوهان للراهبة .

– اني صاعد بدوري وانذرك منذ الآن باني احمل معي مسدساً ولاول حركة أو صوت يصدر منك اطلق الرصاص عليك واقتلك .

وباسرع من لمح البصر ركب فوق السور وسحب السلم إلى الجهة الثانية فنزلت الامرأتان وأخذ اثناء ذلك ينزع ملابسه النسائية ويلقيها داخل الحديقة .

وكان سور الدير من تلك الجهة يطل على ساحة صغيرة تنتهي طريقها إلى باب الدير فدلها جوهان على الطريق التي يجب أن تسلكاها متى خرجتا من الساحة .

وقفز عن السور ولكنه سمع في الحال صراخ الراهبة التي اخذت تنادي باعلى صوتها طالبة النجدة والمعونة فلم يبال بها .

وكانت بيريت قد التقطت السلة ووضعت يدها تحت ذراع الانسة برتيل ورآهما جوهان تجتازان تلك الساحة بسرعة .

وبينما هو على هذه الحال رأى رجلا يتقدم نحوه بتمهل فعرفه في الحال وصرخ قائلا :

سيدي باردليان أن حسن الحظ ارسلك إلي في هذه الساعة وصرت على يقين من خلاصها .

وعرفت برتيل باردليان فاسرت اليه إيضاً وقصت عليه بوجيز العبارة حكايتها واطلعته على حراجة مركزها فطمأنها على حالها وعرض عليها مساعدته .

وفي تلك اللحظة ظهر عدد من الجند يسيرون في جهة الجبل من الطريق التي كان مزمعاً أن يسير فيها فرآها باردليان ونظر إلى جوهان الذي جاوبه على نظرته باشارة دله بها على الفتاتين وأنه يتولج حراسة الطريق ولا يطلب منه الا حماية الفتاتين .

ووقف بين حبيبته ورفيقتها وأخذوا يسيرون بثبات ورباطة جأش ولما قاربوا منتصف الطريق وصلوا إلى الجند وكانت الطريق قد أخذت تضيق تدريجياً فخففوا مشيتهم وتجاوزهم الجند وهم لا يبالون لهذا الشاب ورفيقته . وسار

باردليان مع الفتاتين وتمنطق جوهان بسيفه وسار إلى الامام لا يلوي على شيء .

*

قبل أن تقف الفتاتان قرب الباب الذي اوشك جوهان أن يقتل امامه جاء رجل مقنع الوجه وأخذ يتجول حول ذلك الباب حتى وجد مكاناً ضيقاً اختبأ فيه وتمكن من مشاهدة باردليان ورفيقتيه يطرقون الباب الذي فتح لهم في الحال وسمع بيريت تقول لرفيقتها :

– أنك هنا في منزلك يا سيدتي برتيل :

*

الفصل الخامس والاربعون

ابن باردليان الحقيقي

ولما رأى جوهان الشجاع ابتعاد الفتاتين تنهد تنهد الارتياح وقد كان على يقين من وصولهما إلى مقرهما بحماية باردليان .

وبعد أن ارتاح باله من هذا القبيل اخذ يفتكر بذاته

وبينما هو كذلك ظهرت الفرسان التي صادفت باردليان والفتاتين وكانوا نحو عشرين فارساً يقودهم رو كتايل فابصروا الشاب الذي كانوا يفتشون عليه فانقضوا إلى الامام ليحولوا بينه وبين الهرب واسرع احدهم إلى زاوية الطريق وأخذ يبدي اشارات متفق عليها وينادي نداء عالياً .

سمع جوهان عن يمينه وامامه وخلفه عدو الجياد تدنوا منه بسرعة وسمع القادمين عن يساره يكادون يصلون اليه وفي مقدمتهم رو كتايل ورجاله .

واشهر سيفه من غمده وألقى على ما حوله نظراً ملؤه اليأس

فلم ير مكانا يستطيع الالتجاء اليه بعد أن كان قارب النجاة فتولاه الحنق الزائد وزمجر قائلا :

– رباه اتكون هذه موتتي بعد أن رأيت ابواب السعادة قد فتحت امامي .

وكان روكتايل قد اقترب منه حتى وصل إلى محاذاته وصرخ به قائلا :

– سلم ذاتك في الحال فلم يبق لك أمل بالخلاص .

– لقد عرفتك قائلا فيما مضى وثبت عندي الآن أن هذه الصنعة لا تليق بك لأنك صرت قاطعاً للطرق ؟

– الويل لأمك وأبيك فلا بد من قتلك .

– لست أنت التي تقبض علي لأنك لا تجسر على الاقتراب مني

وكان كونسيني والضباط ورجالها قد وصلوا إلى ذلك المكان واصبحوا يزيدون عن الستين عداً ما عدا الرؤساء .

وفي الحال ابصر جوهان سلماً فاسرع نحوه ولما صار في أعلاه فتبسم ابتسامة السرور لان السلم كان ضيقاً في وضعه ولا يمكن أن يصعد اليه اكثر من واحد فوقف في اعلاه وهو مرتفع الرأس وسيفه في يده وقد استعد على الفتك بكل من يقترب اليه

واخذ مهاجموه يضيقون عليه حلقة الحصار وفي مقدمتهم كونسيني وركتايل وقائد الجند الذي خاطبه قائلا :

– اسألك باسم جلالة الملك أن تسلم ذاتك أيها الشجاع .

– تعال واقبض علي إذا استطعت .

– اظنك على يقين من أن كل مقاومة لا تجديك نفعاً فسلم سيفك لتسلم .

– سأجعل غمده في بطونكم ايها الاشقياء .

– شأنك وما تريد أيها الجاهل .

وأمر رجاله بالقبض عليه فهجم الجند والفرسان وانتصب جوهان واقفاً وسيفه في يده وقد اشبه اله الحرب الذي لا يبالي باعدائه كثروا أم قلوا وبأسرع من لمح البصر سقط اربعة من مهاجميه صرعى وأصيب غيرهم بجراح خفيفة .

هاجموه مرة ثانية ولكن عزمه كان قد أشتد فتركهم يقتربون منه حتى إذا صاروا على منال من سيفه اداره بشدة إلى الجهات الاربع فعلت أصوات الالم وصراخ اليأس وقد صار عدد المقتولين تسعة فهمس القائد قائلا :

– حقاً أن هذا الشاب مجنون ليدفع بذاته إلى مثل هذا الخطر العظيم وهو لا يبالي به وقد قتل تسعة من رجالنا ولم يصب بادنى اذى .

وكان بقية الفرسان وهم يبلغون الخمسين عداً وقد وصلو إلى تلك الساعة بقيادة أحد الضباط ولم يكن جوهان يفارقهم ببصره

واخذ القائد الجديد باعطائهم التعليمات اللازمة ورآهم جوهان يتقدمون اليه بتجرء فصبر حتى دنوا منه فانحنى إلى الارض ورفع بين ذراعيه جسما ثقيلا للغاية وقذفه على الذين كانوا يرتقون السلم وكرر هذا العمل اربع مرات وكان كل

حجر يقذفه يحطم رؤوس مهاجمية ويسحق اضلاعهم وكانت أصوات الالم تعلوا من كل جهة .

وساد الجزع والاضطراب على المهاجمين فلم يعودوا يعرفون ماذا يجب عليهم عمله وبينما هم كذلك فتح فجأة الباب السري الذي كان خلف جوهان وظهر منه ثلاثة رجال أو بالحري ثلاثة أشباح اشبه بالشياطين وهم ممزقوا الملابس بل هي اطمار بالية وسيوفهم مشهرة في ايديهم وبادروا لنجدة جوهان .

وعرف جوهان الشجاع في الحال رفاقه كاركان وكرنكابل واسكركاس فاقترب منهم بسرعة وتساعد معهم على مهاجمة اعدائه .

وتم جزع الجنود بظهور هؤلاء الشياطين الذين كان يعرفهم جوهان وفي اسرع من لمح البصر ابتعد المهاجمون وقد تركوا اكثر من ثلاثين جثة ممددة على الارض .

وكان القائد يشبه الأموات بلونه من فرط غضبه وكونسيني يزبد ويرغي وروكتابل ينتف بيديه شعر رأسه والجند والضباط يشتمون ويصخبون بعكس الاربعة الشجعان الذين كانوا يضحكون وهم في اماكنهم بغير مبالاة .

واستملك القائد روعه فاصدر إلى رجاله امراً سريعاً فتالبوا حول بعضهم وأخذوا بنادقهم واطلقوها دفعة واحدة فانتشر الدخان ونظر الجميع إلى الجهة التي كان فيها الرفاق بلهفة ووجل ولم يلبث أن انقشع الدخان حتى لم يعودوا يرونهم في اماكنهم ورأوا الباب الذي كان مفتوحاً خلفهم قد قفل .

ثم تأكد بان الفرار من المنزل ضرب من المستحيل واخبره الرفاق بأنهم سدوا الثلمة التي دخلوا منها بالاخشاب فأصبحوا يأمنون المباغتة من تلك الجهة ثم نزل إلى المغارة فدلوه على الاسلحة والذخائر التي عثروا عليها فرأى نحو خمسة عشر بندقية وعدداً وفيراً من المسدسات فترك السلاح الابيض واستولى بلهفة على السلاح الناري وباسرع من لمح البصر نقلوها إلى القبو واتبعوها بالبارود والرصاص .

ووضعوا في كل فتحة أو ثلمة بندقية لأنهم فكروا بان الاعداء يوجهون معظم قواهم إلى الباب فخصصوا اهتمامهم بتلك الجهة ولم يفتهم بان عليهم حراسة الجهات الثلاث وحمايتها وبعد أن اتخذوا هذه التحويطات وقف كل منهم في المكان الذي اختاره وبيده بندقية محشوة وهو مستعد لاطلاقها .

واختلف كونسيني مع قائد الجيش لأنه لم يتردد بطلبه النجدة من رجال الدرق دي سولي غير أن قائدهم كان مزوداً بتعليمات خاصة فابى الامتثال إلى طلبه كما فعل معه سلفه .

ونجم عن هذا الاختلاف أن أعداء جوهان باتوا فريقين كل منهما يعمل حسب التعليمات التي تلقاها ولكل منهما رئيس يأتمر بأمره وهما قائد جيوش دي سولي وكونسيني واتباعه وكان كل فريق ينتظر من الآخر أن يكون البادىء العمل وبسبب هذا الاختلاف في الرأي اضاعوا وقتاً ثميناً انتهزه جوهان لاتمام معدات دفاعه .

واقر القائد رأيه على البداية في العمل فحمل مئة من الجند جسراً هائلاً وتقدموا به لسحق الباب وظل رفاقهم واقفين في صفوفهم كما يقتضيه النظام العسكري أما رجال كونسيني فقد أرادوا الاقتداء بهم وتفرقوا في سائر الجهات ثم حملوا جسراً كبيراً وضموه نحو الباب وبينما هم كذلك سمعت اربع طلقات نارية خرجت دفعة واحدة فسقط اربعة من الجند وترك الاثنان الاخران الجسر وساد الذعر على الباقين برهة وجيزة سمع خلالها اربع طلقات ثانية وسقط اربعة من رجال كونسيني الذي زمجر قائلاً من فرط حنقه .

– عشرة الاف ذهب لمن يأتيني برأس هذا الشقي .

وكان جوهان يراقب حركات اعدائه من الثلمة الصغيرة التي كان مختبئاً وراءها ثم أمر رجاله فنزلوا إلى المغارة وأخذوا منها صندوقاً نزعوا غطاءه ثم جاءوا بثلاثة براميل من البارود وافرغوها في الصندوق وفرشوا الارض بخط من البارود في المكان الذي وضعوا فيه الصندوق إلى الباب وستروا البارود بالواح خشبية وارجعوا الاسلحة النارية إلى المغارة فبقي فيها الرفاق الثلاثة وللحال فتح الباب وظهر منه جوهان الشجاع بهيئته الرهيبة وسيفه في غمده .

واحدث هذا الظهور الفجائي دهشة عظيمة على الحاضرين فتوقف الرئيسان واقتدى بهما رجالهما وقد منعهم الخوف عن استعمال سلاحهم

وساد على الجميع سكوت رهيب ورفع جوهان الشجاع

قبعته عن رأسه وحيي قائدي الجند باحترام وكياسة فلم يتمالكا من فرط دهشتهما إلا أن يقابلاه بالمثل وسألهما بمنتهى السكينة .

– ما الذي تريدانه يا سيدي
– باسم جلالة الملك اقبض عليك فسلمني سيفك .
– وهل جئتم إلى هنا للقبض عليّ ؟
– يسوءني وايم الحق تنفيذ هذا الامر لأنك شجاع لم يقع بصري على مثلك .
– إذا كان كذلك فيجب أن تاتوا إلى هنا لأجل القبض علي وأن تحطموا هذا الباب وأني اعدكم وعداً صادقاً بان لا اطلق رصاصي على رجالكم خلال ذلك ... أما متى حطمتم الباب ودخلتم إلى هنا فأنا منذ الآن اخبركم بامانة واخلاص بانه لا يبقى أحد من الداخلين في قيد الحياة .

وقبل أن يتراجع القائد من دهشته عاد جوهان إلى مقره واقفل الباب عليه فحينئذ أمر القائد رجاله بتحطيم الباب فلبوا الأمر وتقدم القائد فرأى كأن افعى من نار تتسلل أمامه بسرعة مدهشة فادرك عندئذ الخطر المعرض له مع رجاله فقفز قفزة هائلة إلى الوراء وصرخ قائلاً بذعر لا يوصف .

– البارود ؟
وفي ذات الحين انفجر الصندوق واحدث انفجاره دوياً هائلاً وظهر سحاب من نار حتى السقف الذي تداعت اركانه وتزلزلت اربعة اركان المنزل .

واخذت تتطاير الاعضاء البشرية متناثرة في كل مكان كما تطايرت الاخشاب والاحجار واخذت السماء تمطر دماً واعضاء بشرية متناثرة شذر مذر واستولى الذعر العظيم على الذين تمكنوا من الخلاص ففروا هاربين ولم تستغرق هذه الحادثة اكثر من ثلاثين ثانية ولم يبق من القائد ومن الخمسة والستة الجنود الذين تبعوه رغماً عن أرادته ومن رجال كونسيني إلا اربعة مساكين نجوا باعجوبة الهيه وانتشرت تلك الاجزاء البشرية من الدير حتى سفح الجبل فلم يكونوا يلتقطون سواها

واستعرت النار فاتمت ذلك الخراب الفظيع وبعد قليل ظهرت تلك الجدران سوداء مجردة من اخشابها ولم تبق قائمة في مكانها الا بمعجزة من الموازنة الغريبة .

وكان ساتيا لا يزال يتجول في سفح الجبل لانه أراد أن يشاهد بام عينه ما يتم من الحوادث لان الشواغل والمخاوف كانت قد اقلقته بعد أن تحقق فشله في كل المكائد التي نصبها لابن باردليان فحسب أن القوات غير المنظورة هي التي تساعده ولولا ذلك لما تخلصت فريسته من يده .

وكان مختبئاً وراء احدى الهضبات وشهد تلك المعركة الغريبة وذلك الدفاع العجيب الذي قام به جوهان عن نفسه ولم يترك المكان الذي كان مختبئاً فيه بعد أن رآها التجأ الى ذلك المنزل السري .

ورأى ذلك الانفجار الهائل وشاهد بام عينه خراب المنزل

الذي لجأ اليه ربيبه فهطلت من عينه دمعتان احرقتا خديه المزيلتين وأخذ يبكي وينتحب نادبا فشله .

وكان القرويون الذين شهدوا المعركة التزموا الحياد فلم يخرج أحد منهم من منزله حتى إذا حصل الانفجار اسرعوا لاسعاف الجرحى والمصابين فاختلط ساتيا معهم واقترب من المكان جهد استطاعته فلم ير أثراً لجوهان ورفقائه وتأكد أنهم ذهبوا فريسة الاقدار .

وكان الليل قد ابتدأ يرخي سدوله لما صمم جوهان عزيمته على العودة إلى المدينة فاخذ يمشي بتسرع حتى إذا وصل إلى منزل بيريت الحسناء فتح بابها فجأة وظهر على الطريق الفارس باردليان الذي وقف ينتظر ريثما يقفل الباب من خلفه وإذا به يرى ساتيا يبتعد مسرعاً فهمس قائلاً :

– لقد كان بودي اجبار هذا الرجل على الاقرار لي بما يعرفه وهيهات أن تساعدني الاقدار بمثل هذه الظروف .

واسرع في مشيه خلف ساتيا حتى لحق به وقال له باستهزاء أيه يا سيد كيدولوبيني لأ تسرع في السير بمثل هذه العجلة ! ؟

– هل تقصدني بندائك أيها الرجل ؟

– اجل إذاً لا يوجد سواك على الطريق فاناديه .

– وباي أسم دعوتني لا أم لك .

– ألست تدعى كيدولوبيني ؟ وبالحرى أليس هذا هو الاسم الذي تنتحله في بعض الظروف التي لا تستطيع المباهاة بها .

— لست أعرفك أيها الرجل ولم أراك قبل الآن ولكنك تعرف من اسراري ما لا تجوز معرفته لأحـد من الناس فاشهر حسامك في الحال واستعد لمبارزتي لأني أريد قتلك وهيهـات أن تنجو من يدي .

الويل لي ما اشقاني فاني لم أكن قط أتوقع أن القى الموت من يد كيدولوبيني .

وامتشق حسامه واستعد لمقاتلـة ساتيا الذي انقض عليه بحنق لا يوصف وأخـذ يطعنه دراكا ولكن باردليان ابطل بمهارته الزائدة كل ضرباته الصائبة فسر لمبارزته رجل بمثل هذه القوة وقال له :

— لا يسعني الا تهنئتك بمهارتك فقد ابطلت لي طعنة كنت على يقين من اصابتها .

— أني تمرنت كثيراً على الدفاع .

— لا أراك تهاجمني فما الذي يمنعك عن ذلك .

— لأني في الدفاع أقوى مني في الهجوم خصوصاً إذا كنت ابارز خصماً بمثل قوتك .

لم يكن ساتيا يتوقع أن يرى من يستطيع مقاومته غير الفارس باردليان فارتاب بأمر خصمه فحسبه ذلـك الفارس الرهيب لأنه كان يقاربه بالعمر غير أنه كان على يقين من أن باردليان لا يقف عند حد الدفاع بل يعمد إلى المهاجمة لذلك وطد عزمه على التخلص منه سريعاً ونوى بأن يوجه اليه الطعنة

التي اخترعها وسماها الصاعقة فصرخ به قائلا باللغة الايطالية :

— خذ هذه الصاعقة لا أم لك واذهب بها إلى سقر .

— اخطأت فاني مبطلها ايضاً . ثم انقض عليه شبه الصاعقة وأخذ يواليه طعناً دراكا وضربات سريعـة كادت تعمي بصره وتضل رشده ولم يشعر بعد قليل إلا وقد طار سيفه من يـده فتراجع إلى الوراء مذعوراً وصرخ قائلا :

— لا ريب بانك الفارس باردليان .

— صدقت :

— أقتلني وخلصني من هذه الحياة !

— لو أردت قتلك لما انتظرت إلى هذه الساعة فاني أريـد محادثتك بامور خطيرة؟.

— صدقت فقد نسيت أنك تريد سؤالي عن أبنك وسابلغك إذا أحببت اخر أخباره فانا الذى خطفته منذ ثماني عشرة سنة وجعلته شقياً سفاحاً وهو يدعى اليوم جوهان الشجاع ولقد كان مقصدي أن أراه معلقاً على المشنقة بيد الجلاد كما فعلت الأميرة فوستا مع ابنتي باولينا أما اليوم فاذا أحببت أن تراه فاذهب إلى جوار دير مونتمارتر وفتش بـين العظام والاعضاء المبعثرة لعلك تجد بقية من كان .

ولم يستطع أتمام عبارته لأن يد باردليان الحديدية قبضت على عنقه وقال له باردليان بمنتهى الوعيد .

— أعد أيها الشقي قـولك وأنك أنت الذي جعلت ولدي

بهذه الحال .

-- هيهات أن تستطيع الآن تميزه فقد اصبحت جثته شذر مذر وهي ملقاة في ضواحي دير مونتمارتر

فتناوله باردليان بين ذراعيه ولوحه في الفضاء كما لو كان طفلا صغيراً وأراد أن يلقيه في الهاوية التي كانت على مقربة منه ولكنه عاد فعدل عن فكره ووضعه على الارض بشدة وقال بمنتهى الحدة .

- اذهب فانك لا تستحق أن اقتلك بيـــدي أو اسحقك تحت قدمي

فاطلق ساقيه للريح وفر هاربا فلم يتنازل باردليان للنظر اليه بل سار في طريق الدير وهو يناجي نفسه بقوله :

- لعله يكون كاذباً في زعمه .

الفصل السادس و الاربعون

خدعة كونسيني

وكان كونسيني قد استصحب معه إلى دير مونتمارتر اربعين رجلا فلم يبق عنده منهم أحد لأن خمسة عشر قتلوا ونجا خمسة او ستة من الأنفجار باعجوبة المية وفروا هاربين والذين بقوا كانوا كلهم مصابين بجراح مختلفة

ولم يفارق كونسيني ذلك المكان الا في أخر النهار فسار في الجهة اليمنى وفي تلك اللحظة كان باردليان يسير الى الجهة اليسرى فلما وصل الايطالي الى قرب الصليب صادف رجـــلا ساتراً رأسه بعصابة وهو ذات الرجل الذي رأيناه مختفياً خلف الهضبة لما دخل باردليان وبرتيل منزل بـــيريت الحسناء، ولم يكن هذا الرجل غير سان جوليان فابتدر كونسيني بسؤاله .

- ألم يقبض على الشقي ؟

- لقد مات قتيلا تحت الانقاض .

- ويلاه لقد كنتم اربعين عدا الجنود الذين ساعدوكم فكيف لم تتمكنوا من القاء القبض عليه ؟

— لا ريب بانك صرت مجنوناً افلست ترى الى أي عـدد صرنا بعد كثرتنا والعجب كل العجب من بقاءنا حتى الآن في قيد الحياة .

— الويل أنا الشقي فقد كنت اتمنى القبض عليه لامزع فؤاده من صدره باسناني لأني كنت جميل الصورة وهو الذي شوه خلقتي وصيرني الى هذه الحال ولما كنت لا استطيع الاشتراك معكم في القتال فقد خطرت ببالي فكرة غريبة تؤكد لك الانتقام الهائل يا مولاي .

وكان كونسيني وحرسه قد وصلوا الى منزل بيريت فاستوقفهم سان جوليان بسؤاله .

— أتعرف هذا المنزل يا سيدي .

— أجل فمنه قد هرب الشقي الذي كنا نطارده

— صدقت وقد كنت مختبئاً خلف هذه الهضبة وبقيت في مكمني من الصباح حتى هذه الساعة .

— افصح في كلامك .

— يتذكر سيدي أنه أمرنا فيما مضى بالبحث عن الفتاة فهل كانت تدعى الآنسة برتيل ؟

— اجل فهل عثرت على مقرها .

— مهلا يا مولاي فهل هي بيضاء اللون سوداء العينين طويلة القامة تناهز السنة العشرين من عمرها ؟

— اجل .. أجل .. فهل رأيتها ؟ وأين شاهدتها ؟ تكلم وقل سريعاً ما تعرفه .

— مولاي أن تلك الفتاة موجودة في هذا المنزل .

فتقدم كرنسيني إلى جهة الباب ليدخل المنزل عنوة غير أن سان جوليان استوقفه بقوله :

— رويدك يا مولاي فان هذه الفتاة محروسة كما يجب فاذا تعرضت لها قد تفقدها بتاتا ولا تعود تهتدي اليها .

— صدقت فما الذي يجب عمله ؟

— انتظر بضعة ايام وأطلق لي يدي في العمل وأنا أقسم لك بأن اسلم لـك العصفور في قفصه ولست اطلب منك إلا مهـلة يومين أو ثلاثة إذا تعهدت لي أن لا تأتي لتتجول حول هـذا المنزل لأني اكثر منك اهتماماً بنجاح مسعانا .

وتبين كونسيني الصدق في لهجة سان جوليان فلم يعارضه في قوله وكان ذلك اليوم دوره بالخدمة في قصر اللوفـر وكانت عندئذ الساعة الثامنة مساء فتقدم بخطى متمهلة نحو قصر الملك ولما تأكد سان جوليان من دخول مولاه قصر اللوفر عاد ادراجه حتى وصل إلى منزل كونسيني وبعد قليل كان في غرفة اليونور التي سألته بضجر عما عمله فقال لها :

— لم يفارق مولاي رجاله ولا لحظة واحدة وقـد ذهب تواً إلى قصر اللوفر اما الشقي جوهان الشجاع .

— أني عرفت ما جرى فقد نسف ذاته مع اعدائه ومـات قتيلا فهل هذا كل ما كنت تريد قوله لي ؟

— كلا يا سيدتي فقد عثرت صدفة على مقر الانسة برتيل التي كان يفتش عليها مولاي منذ شهر ولا يهتدي اليها . وأني رأيت

رجلا طويل القامة قد دخل منزلا هناك مع فتاتين جميلتين وأن أحداهما قد نادت الثانية باسم برتيل .

– ومن هو الرجل الذي كان يصحبهما ؟

– أني عرفت أسمه فهو يدعى باردليان ورأيته يتبارز مع ساتيا الذي كان ماراً من تلك الجهة فأطار له سيفه من يده بسهولة لا مزيد عليها وشاهدت من قوته البدنية ما ادهشتني وأوقعني في أشد الحيرة فقد حمله بين ذراعيه كما يحمل الطفل الصغير وأراد أن يلقيه في هـوة كانت هناك ولكنه عفا عنه وتركه فهرب ساتيا كأن الشيطان يعدو في أثره .

– وكيف عرفت أنه يدعى باردليان .

– لأني سمعت ساتيا يناديه بهذا الاسم باعلى صوته .

– وهل اخبرت مولاك كونسيني أنك عثرت على الفتاة التي كان يفتش عليها

– نعم يا سيدتي ودللته على المنزل الذي هي فيه .

وأخذت تسرد عليه أوامرها مدة طويلة حتى إذا فرغت حياها وأنصرف .

الفصل السابع والاربعون

مفتاح الكنز

وسار باردليان بخطى متسعة نحو المكان الذي نسفه الشجاع فرأى الجند والقرويين لا يزالون هناك .

وقد اهتم بعضهم بنقل البقايا البشرية والبعض الاخر بفحص ذلك المكان وهناك عرف باردليان أن ولده قد انتحر أيضاً ومات تحت الانقاض فاتقدت عيناه كالجمر .

وتقدم من أحد الضباط وحياه باحترام وهو ذات الضابط الذي سمع مكاشفة ساتيا وسأله تفصيل ما جرى فاطلعه على ما عرفه ثم سأله قائلا :

– كيف تمكن هولاء المحصورين من العثور على اسلحة نارية وعلى مثل هذا المقدار من البارود لنسف هذا المكان .

– طالما اجهدنا الفكرة لحل هذا اللغز فلم نهتد إلى ما اردناه ولما اعيانا الافتكار جزمنا بان العصاة قد احضروا معهم البارود وأنهم كانوا مستعدين على المقاومة من قبل .

بعد أن أنذر جوهان الشجاع قائد الجند واخطره بان الذين يدخلون المنزل الذي التجأوا اليه لا يخرجون احياء ذهب فوقف على السلم وهو يمسك غطاء الصندوق وأخذ ينتظر بمنتهى السكينة فلما خلع المهاجمون الباب اشعل فتيلة البارود وقفز بمنتهى الخفة إلى الدرجة التي كانت تفتح تحتها البلاطة السرية فقفلت عليه في الحال .

ولما حصل الانفجار كان قد وصل إلى المغارة حيث كان رفاقه ينتظرونه بمنتهى التأثر لأنهم كانوا يحاذرون على رئيسهم من الخطر العظيم الذي كان متعرضاً له فتمددوا على الارض وظلوا بضع دقائق لا يأتون ادنى حركة فشعروا بان الارض تميد بهم قليلا وقال لهم جوهان :

— لقد أنذرتهم بالخطر الذي يتعرضون له إذا خالفوا نصيحتي فلم يصغوا لها فنالهم ما يستحقونه لأني كنت بعملي مدافعاً عن نفسي .

وبينما كان جوهان الشجاع يسامر رفاقه الثلاثة إذا به عثر على شيء يلمع فالتقطه ليراه وهو العلبة التي سرقتها العجوز كولنيكل من صندوق الآنسة برتيل والتي سرقها منها بدوره كاركان ففتحها جوهان الشجاع وقرأ الورقة التي فيها وهي مكتوبة باللغة الايطالية التي كان يحسنها جيداً .

وهذه الورقة هي نسخة رابعة عن الورقة التي أخذها الاخ كولار الكامل من العجوز فقرأها جوهان حتى اتى على اخرها فبدت عليه أمارات الغضب والقى الورقة والعلبة بعيداً عنه

وصرخ قائلا :

الا يزال هذا الكنز اللعين يتبعني في كل مكان كأن الذوات الشيطانية قضت علي بسرقته .

وأخذ العلبة ثانية ولاحظ أنها كانت تحتوي، على ورقتين فتناول واحدة منها وإذا هي نسخة خامسة مكتوبة باللغة الفرنسوية وفتح الثانية فلم يجد فيها اثراً للكتابة ولكنها كانت مخرمة بشكل غريب فكاد يطرحها بعيداً عنه كما فعل بالاولى ولكنه لاحظ أنها بحجم واحد فوضع الواحدة فوق الاخرى وفي الحال صرخ قائلا :

— لقد توقفت لحل المعنى .

وكانت الورقة الثانية مفتاحاً سرياً لتلك التعليمات فبوضعها عليها ينقلب المعنى بتاتاً ولزيادة في الايضاح تذكر الورقة التي ترجمها الأب يوسف عن اللاتينية وساتيا عن الايطالية وباردليان عن الاسبانية وجوهان الشجاع عن الايطالية ايضاً وقد كان معه وقتئذ نسخة منها بالفرنسية وهذا نصها .

كنيسة الشهيد القديس

الواقعة في الشرق يحفر أسفل الجدار من جهة باريس فيظهر عقد ينزل اليه بسلم ذي ٢٧ درجة وينتهي إلى قبو فيه مذبح وعلى بلاطة هذا المذبح ١٢ خطاً اشارة إلى الاثنتي عشرة درجة ويحفر تحت الدرجة الثانية عشرة التي يعلوها صليب يوناني فتظهر حلقة حديدية كبيرة فيضرب عليها بشدة فتنفتح عن حفرة يجب أن ينبش فيها حتى تظهر بلاطة إذا نزعت من مكانها

يظهر تابوت مخبأة فيه الكنوز .

ولما وضع الورقة المخرمة على الورقة المكتوبة فيها التعليمات قرأ جوهان ما يأتي :

يوجد تحت الكنيسة سلم ذو أثنتى عشرة درجة فيحفر تحت الدرجة الاخيرة إلى أن تظهر بلاطة تحتها تابوت مخبأة فيه الكنوز ووضع الاوراق الثلاثة في جيبه وعاد إلى المغارة حيث كان رفاقه فكتم عنهم أمر الاوراق التي عثر عليها وجلسوا لتناول الطعام ولكنهم قبل أن يمدوا ايديهم اليه سمعوا صوتاً يقول :

– اتسمحون لي بمشاركتكم في طعامكم الشهي

الفصل الثامن والاربعون

نجاة جوهان ورفاقه

قفز الاربعة من اماكنهم مذعورين لسماعهم هذا الصوت الغريب وإذا بهم يبصرون رجلا قد دخل المغارة من حيث لا يعلمون ولم يلبث جوهان أن رآه حتى عرفه وصرخ قائلاً :

– سيدي باردليان .

– أنا هو بالذات . أبمثل هذه البرودة تستقبلني أيها الصديق ؟ وهل تأبى علي مشاركتكم من طعامكم الشهي .

– عفواً يا سيدي على ما ظهر مني من الدهشة لأني لم أكن اتوقع في ظهورك بمثل هذه المباغتة .

– لماذا لا تسألني عن الانسة برتيل افلست قلقاً عليها ؟

– كلا يا سيدي لأني أراك تبتسم وأمارات السكينة بادية على محياك وقد أردت أن تعدني بحمايتها وأنا على مزيد الثقة من قيامك بوعدك .

– دعنا من هذا الحديث واظنك تريد معرفة كيفية دخولي هذا المكان وكيف عرفت وجودكم فيه .

– صدقت يا سيدي .

– قبل أن اطلعك على ما تريد معرفتة قل لي كيف كنت تنوي الخروج من هنا .

الامر بسيط ولا ريب بانـك تعرف وجود سلم في هـــذا المكان فقد كنا ننوي الخروج منه .

– وهل جهلت أن المكان العلوي قـد تهدم ولئن تعرضتم للخروج منه تقع عليكم إنقاضه فتقتلون .

– صدقت ولكني كنت اتخذت التحويطات اللازمة .

– كيف كانت الحـــال فاني احسنت بمجيئي إلى هنا لاني دلـكم على طريق أمين لا يعرفها أحد سواي .

اخذ يقص عليهم حكايته وكيف أنه بعد تركه الفتاتين قد خطر بباله التجول حول الديرليتأكد إذا كان صديقه الشاب قد تمكن من الهرب أو هولا يزال فيه وهناك سمع قصة الانفجار الذي دبره جوهان ولكنه كتم عنهم أمر ملاقاته مع ساتيا وختم حديثه بقوله :

– كنت على يقين من أنك لا تعدم وسيلة للخروج ولكني ظننت بانك قد تود العودة إلى المكان لأنك لن تجـــد ملجأ امنياً مثل هذا القبو .

الفصل التاسع والاربعون

صداقة جديدة

وفي صباح اليوم الثاني استيقظ اصدقاونا الخمسة عند بزوغ الفجر فافرغ باردليان منطقته وكانت تحتوي على مائة دينار واعطاها لولده الذي ابى قبولها في بداية الامر فقال له:

خذ ما أعطيتك من غير تكلف وستعيد لي هـــذا المبلغ متى صرت غنياً لأنك لا تستطيع ترك رجالك بهذه الحال .

وأخذ اسكركاس وكاركان وكرنكايل ينظرون إلى الذهب المكدس أمامهم بجزع لا مزيد عليه لأنهـــم كانوا على يقين من انفة رئيسهم وكبريائه وأنه سيرفض هذا الطلب ولكنهم دهشوا دهشة لا مزيد عليها لمـــا رأوه أجاب طلب بارديان شاكرا وسمعوا الفارس يأمرهم بالاستعداد للسير .

وتقدم باردليان نحو زواية من المغارة وعلم ولده كيفية فتح وقفل بابهـا السري وبعد أن تخطوه وصـــلوا إلى رواق ضيق ولكنه كثير الطول وفي نهايته صادفوا باباً غير منظور عرفه على كيفية فتحه ايضاً ومنه وصلوا إلى الجهـة الغربية من الجبل

حيث كانت قائمة مطحنة اشتهرت في هذا العصر .

واعطى جوهان لرفقائه المال اللازم لهم فعادوا إلى باريس ودخلوها من باب سانت هونري وتوجهوا تواً إلى مخزن بائع ملابس فاشتروا ثياباً جديدة وانصرفوا وهم يكادون يطيرون من فرط سـ وهم لأن نجم سعادتهم قد اشرق عليهم .

أما باردليان وجوهان فسارا تواً نحو مزرعة كلينيانكوري وعادا من خلف الكنيسة إلى منزل بيريت الحسناء لأن الفارس كان قد اقترح على ولده بان يمضي يومـــه في مسامرة خطيبته فلبى هذا الطلب بمزيد الارتياح ولكنهما لم يدخـــلا المنزل الا بعد أن دارا من حوله وتاكدا بانه لا يوجد ما يدعوهما للريب

وانقضى ذلك اليوم على جوهان بسرعـة البرق وتوهم العاشقان في تلك الساعات الجميلة التي قضياها مع بعضهم أنهـما يحلمان حلماً جميلا .

ولم ينس جوهان لسعادته غير المنتظره الواجبة عليه فانه أخذ بيريت إلى جانب ولقنها بعض تعليمات سرية .

ولما أرخى الليل سدوله تقدم الوالد وابنه نحو باريس من باب مونتمارتر حتى وصلا إلى النزل الذي كان يقيم فيه الفارس فقبل جوهان بسرور دعوة أبيه لمناولة الطعام معه وآلى عليه أن ينام معه وذهب إلى غرفته بشارع الشجرة اليابسة وفي اليوم الثاني استيقظ من نومه وخرج من منزله وقد وطد عزمه على البحث عن سيد نبيل يدخل في خدمته لعل السعادة تبتسم له ولا تعود تعاكسه الاقدار .

ولم يكن يعرف من هـو السيد الذي يتقدم اليه ولم يخطر بباله أن يذهب إلى الملك لأنه لم يكن يطمح إلى مثل هـــذه العلياء ومر من أمام منزل كونسيني وهو لا يشعر بامره .

وبينما هو يتجاوز ساحـة الترانوار رأى شاباً قـد انتصب واقفاً أمامه وقال له بلهجة الدهشة والاعجاب :

– عجباً هل أرى جوهان الشجاع أم خدعتني عيني !

فارتجف جوهان وقطع حبل افكاره ونظر إلى مخاطبـه بدقة فاذا هو شاب لا يتجاوز السنة الثامنة عشرة من عمـــره وثيابه بمنتهى الظرف والكياسة على الزي الاخير تدل ملامحه على رفعه المقام وقد كان يدعى هنري دي نوكاريت كونت دي كاندال وهو ابن الدوق ديبرنون البكر الذي كان نديماً للملك هنريكوس الثالث وتمكن بحذقه ودهائـه من اكتساب رضاه عليه وظل بعد وفاته متمتعاً بذات الامتيازات الاولى .

وبدت على ملامح الشاب امارات السرور الحقيقي لمقابلته جوهان الشجاع ولم يخطر بباله أن يفكر بمباينة مركزيهما بـل كان ينظر اليه نظرة إلى شجاع لا مثيل له ولاحظ من جوهان هذا الامر فقال له متهكما :

– وما الذي يمنعني البقاء في قيد الحياة يا سيدي الكونت أو لعلك تتمنى موتي السريع ؟

– اخطأت فانت منقذ حياتي ولست انسى لك هذا الجميل وأني وايم الحق تكدرت كثيراً لما اكدوا لي موتك ؟

– أنك تشرفني كثيراً بهـــذا القول يا سيدي لأني لم أكن اتوقع أن أرى أحداً يهتم بشأني .

رباه ... ماذا تقول .. ؟ هل جهلت الملك ... نعم الملك بذاته ووزراؤه ورجال بطانته وحاشيته قـد قضوا يوم امس وهم يتحدثون بامرك وفي الساعة الحاضرة لا يوجد واحد في العاصمـــة الا وأنت موضوع حديثه وسمره فانت بطل اليوم وأنك أنت الرجل الوحيد الذي تجهل هذا الأمر .

ولم يتركه الكونت دي كاندال بل تأبط ذراعـــه بلطف وأخذ يسير بجانبه فسأله جوهان وهو يتظاهر بعدم المبالاة .

– هل لك أن تخبرني عن السبب الذي دعا هـؤلاء العظام للاهتمام بامري أنا المسكين الوضيع ؟

– عجباً اتسألني هذا السؤال كانـــك نسيت حادثة دير مونتمارتر التي لم يبق احـد من الناس لم يلفظه بذكرها وليتني كنت وقتئذ قـريباً منك لاشهد غرائب اعمالـك فقد كنت وحيداً واستطعت مقاومة مئة من الجند وفتكت بعدد وفـير وتمكنت من النجاة فهذا هو لعمري منتهى العجب .

– لم أعمل شيئاً يستحق الذكر ولقـــد اسعدتني الظروف والاقدار في نجاح مسعاي .

– حقـاً أن مـا اسمعه يكاد لا يصدق .. وهـل نسيت الانفجار الاخير فقد بلغنا أنك انذرت محصريك بالخطر الذي يتهددهم فـلم يصغوا إلى قولـك فنسف المكان وانتحرت معهم وكنت لوحدك قائماً بهذا العمل المدهش .

– عفواً يا سيدي فقد كان معي رفقائي الامناء .

– لقد سمعت بانهم كانوا ثلاثة ولكنهم لم ياتوا الا في الساعة الاخيرة بعد أن أتممت عملك الرهيب .

– أراك قد وقفت حتى الوقوف على كل ما جرى لي ولكنني اسألك إذا كان سائر رجال القصر يحكمون علي بمثل هذا الحكم

– إذا جاوبتك بالايجاب اكون قد كذبت عليك فالبعض معجبون بك والبعض الآخر ناقـم عليك واخصهم الدوق دي سولي والحاكم الاعظم فكن على حذر منهما لانهما ساعة يدريان بانك [illegible] على قيد الحياة لا يعودان يتركانك تستريح دقيقة واحـ[illegible]

– [illegible] من هذا [illegible] هو حكم الملك علي ؟

– انه [illegible] بالمصادقة على [illegible] رجاله غير أن الدوق دربرنون والدي وقد أكد لي أنه معجب بك كل الاعجاب وقد ابدى أسفه لموت رجل شجاع مثلك .

وكان الشابان قد وصلا وهمـــا يمشيان إلى زاوية في شارع غرينيل .

وكان قصر الدوق دبرنون واقعاً في شارع لابلاتريز على بعد بضع خطوات من المكان الذي وصلا اليه فوقف جوهـان ليستأذن رفيقه بالانصراف غير أن الكونت لم يتركه بل قال له

– لست اتركك وأنت على هذه الحال فتعال معي لاقدمك إلى والدي وأنا اؤكد لك أنه يسر كثيراً من تعرفه بك ويقوم بواجبات شكره لك لأنك خلصت حياتي .

والتفت إلى جهة باب سانت هونوري فرأى عربة قادمة من بعد نحوهما ومن حولها ثلاثة فرسان يتولون حراستها فتبينهم جوهان فعرف بهم رجال كونسيني ثم تأبط الكونت ذراع جوهان وقاده نحو شارع غرينيل ولما وصلا إلى عطفة لا بلاتريير رأيا العربة التي أوجبت خنق جوهان فتبسم ابتسامة لو رآها رجال كونسيني لارتجفوا فرقاً ولكنهم ظلوا سائرين إلى الامام لا يلوون على شيء وهم سائرون في جهة الدير .

**

الفصل الخمسون

قصر دوبرنون

وكان قصر الدوق دوبرنون واقعاً بين شارعي لايلاتريير والبرونوز وحدائقه الرحبة تمتد حتى شارع كوكهيرون .

وقد كان عنده كثير من النبلاء ينفق عليهم ويقيمون معه في قصره وفضلا عن ذلك فقد كان قائد الفرق المشاة فاصبح قصره موئلا لطلاب الوظائف الذين كانوا يؤمونه من كل جانب .

وتأثر أبن باردليان كثيراً من مجاملة الكونت دي كاندال الذي اخذه إلى غرفته الخاصة من القصر وأمر بان تقدم له زجاجة من الخمر المعتقة وشيئاً من الحلويات ليأكلها ويجدد قواه وذهب لاخبار ابنه بما عمله وبعد خمس دقائق عاد إلى حيث تركه جوهان وقال له :

ــ أن سيدي الدوق في خلوة مع بعض زائريه وهو يتذاكر معهم في شؤون خطيرة وسيستقبلك بعد انصرافهم فارجوك أن تصبر قليلا .

وادرك جوهان أن الدوق يمنحه نعمة ممتازة فقال للكونت

ـ اشكرك يا سيدي شكراً جزيلاً على جميلك .

ـ لم اعمل الا بعض الواجب وأني مضطر الآن لتركك لأن سيدي الوالد كلفني بمهمة مستعجلة فلا يطول غيابي .

ـ أني أحب الوحدة وسأنتظر عودتك بصبر جميل في هذا المكان إذا كان بقائي فيه لا يكدك .

ـ اشرب هنيئاً خمرتك في غيابي ولا تنسى أنك هنا كانك في منذلك وإذا احتجت الى شيء من الاشياء اقرع هذا الجرس

وبعد أنصراف الكونت دي كاندال أخذ جوهان يتمشى في الغرفة ذهاباً وأياباً ولم تكن خطاه مسموعـة من سمك الطنافس الـتي يمشي عليها وبينما هو كذلـك سر بجانب ستارة سمكية تحجب باباً وسمع من ورائهـا حركة كراسي وصوتاً جلياً يقول :

ـ هنا نستطيع يا سيدتي التكلم بكل حرية فلا يسمع حديثنا أحد ففي هذه الجهة يقيم ولدي كاندال الذي ابعدته خصيصاً . أني على يقين يا سيدي الدوق من عدم حبك للرهبان ولكني جسرت فاتيتك بواحد منهم .

وعرف جوهان صوت المتكلمة وأنها زوجـة كونسيني التي كانت مثل زوجها تتمنى هلاكه فكتم لنفسه واقترب من الباب ونظر من شقه فرأى الدوق دوبرنون واليونورا غاليكا وراهباً عجوزاً طويل القامة تدل ملامحه على اللطف والعظمة وقـال الدوق مجاملاً ضيفه .

ـ كل زائر يأتي معك ينزل قصري اهلا ويحل سهلا .

ـ وليس هذا الراهب كسواه فانه حائز على ثقة الملكة التامة وهو الذي كان في خلوته يدير كل حركاتنا واعمالنا وقد احب اليوم أن يظهر في خلوته وأني اكتفي بذكر اسمه لك فهو يدعى كلود كوافيفا وستكون مخابرتك معه بعد الآن .

ورأى جوهان بمزيد الأنذهال الدوق يقوم من مكانه بمنتهى الاحترام وانحنى أمام الراهب باكرام لا مزيد عليه وهمس قائلا :

ـ عفواً يا مولاي اذا لم يكن يخطر ببالي .

ـ اجلس في مكانك يا ولدي وادعني بلقب المحترم .

ـ امرك يا سيدي ولكن وجودك في باريس ايها المحترم لا يخلو من الخطر .

ـ لقد اقترب زمن العمل ورافالياك الذي احضرته من انكوليم وكنت تظهر له تمام الثقة نراه متردداً

ـ صدقت يا سيدي وهو منذ مدة يفر من أمامي وأخاف كثيراً من عدوله عن عزمه .

وفهم جوهان عندئذ مقصد الحديث الذي كان يسمعه وهمس قائلاً :

ـ حقاً أن هذا الدوق الذي كدت اتخذه سيداً لي لا يفضل كونسيني بكثير وأني لاكثر منك معرفة ايها الدوق الخائن بالاسباب التي دعت رافالياك للاحجام عن تنفيذ أوامرك .

وقالت اليونورا برباطة جاش .

– لسنا نستطيع انتظار هذا المجنون ليقر العمل .

هذا ما ارتأيته يا سيدتي وقد فكرت بان استبدله بشاب متين العزم قوي الارادة سيقدمه لي ولدي كاندال واؤمل أن أكون اسعد حظاً معه وهو يتولج القيام بهذه المهمة الخطيرة .

وقال الراهب العجوز .

– أن ابنك الكونت لا يزال شاباً في مقتبل العمر .

– صدقت يا سيدي المحترم ولكني لم اكاشفه بالغاية التي اريدها ولا ذكرت له مقصدي من هذا الشاب .

– لم يبق لنا نفع من رافالياك واصبح وجوده خطراً علينا فيجب اعادته الى وطنة انكوليم .

– ومن هو هذا الشاب القوي الارادة الذي ذكرته لي ؟

– أنه شقي رهيب اصبح موضوعاً لسمر الجميع واحاديثهم وهم يلقبونه بجوهان الشجاع .

– لقد قيل لي أن هذا الشاب مات قتيلاً تحت الانقاض بعد أن نسفه المكان الذي كان محصوراً فيه .

– كلا يا سيدي فهو لا يزال حياً يرزق ولم يصبه اذى على ما اكده لي ولدي كأن الشيطان بذاته قد تولى حمايته والدفاع عنه فنجا باعجوبة غريبة .

فتبادل اكوافيفا واليونورا نظراً سريعاً وكانت نظرة الامرأة تدل على الاستفهام فادرك اليسوعي مقصدها وغمزها بطرف خفي وقال بسكينة لا مزيد عليها :

– كيف عرف ولدك هذا الشاب ؟

– أن لمعرفتهما مع بعضهما حكاية مضحكة فقد كنا بالامس في قصر اللوفر لما اخبروا الملك بما جرى في دير مونتمارتر ولست اكتمك يا سيدي المحترم أن جوهان الشجاع لا مثيل له بقوته ورباطة جنانه وقد شهد به الملك هذه الشهادة الحقة واظنه كان كتمها لو عرف بان العاصي لا يزال في قيد الحياة .

أن ولدي لا يزال شاباً كثير الحماس فاثر عليه مديح الملك ورأيت أن امازحه ولم افكر بعواقب قولي فسردت له حكاية ملفقة زعمت بها أن جوهان شريف المولد واكدت له بان الملك وحده مطلع على سر ولادته .

وزادت هذه الحكاية الملفقة حماس ولدي وفي هذا الصباح صادف جوهان في طريقه فاحضره معه إلى قصري متباهياً وقد حسب أني ساعطيه رتبة في الجندية .

– وهل قابلت هذا الشاب !

– كلا ولكني وعدته بالمقابلة بعد انصرافكم .

– الا يزال موجوداً في القصر ؟

– نعم يا سيدي المحترم وقد اكد له ولدي الكونت باني ساحصل على عفو الملك عنه فهو لن يذهب من هنا قبل أن يراني .

– وأين هو الآن ؟

– في احدى غرف القصر .

فقالت اليونورا بحماس لا يجب أن يخرج منه .

فدهش الدوق لهذا القول واستوضح رأي اليسوعي بنظرة سريعة فقال له :

– لقد صدقت السيدة اليونورا بقولها فلا يجب أن يخرج هذا الشاب من قصرك .

– هل نسيت يا سيدي المحترم أني اعتمد عليه ليقوم بالمهمة التي كنا نريد تسليمها إلى رافالياك .

– كلا لم أنس ذلك ولكننا لسنا في حاجة إلى هذا الشاب الذي لن يقبل ما تعرضه عليه ولم تبق لنا حاجة برافالياك واعلم بان جوهان أشد خطراً علينا منه فلا يجب أن يخرج حياً من قصرك لئلا يعرقل مساعينا .

– امرك يا سيدي المحترم وساصدر أوامري بالقبض عليه

وأراد الدوق الخروج لاصدار أوامره بالقبض على جوهان ولكن اليسوعي استوقفه حتى ينتهي من محادثته بالامور الخطيرة التي جاء لاجلها .

الفصل الحادي والخمسون

الاجتماع السري

فلم تجسر اليونورا على مخالفته أو الحاح عليه باجابتها إلى رغائبها وقد بدت عليه علائم الكدروالقدر والقلق لأنها لم تكن تشاطر اليسوعي بثقته في نفسه ووقف الدوق دابرنون منتظر الاوامر التي يجب أن يتلقاها .

وقال اليسوعي برباطة جاش لا توصف .

– أني أيها الدوق اكلمك باسم جلالة ملكة فرنسا والنافار واسألك إذا كانت تستطيع الاعتماد عليك بكل معنى الكلمة

أن جلالتها ادرى الناس بثقتي واخلاصي .

– سيعطي ولدك البكر لقب الدوق والثاني يتولى فرقة والثالث يمنح القبعة الحمراء ويعطون الرواتب التي يراها مناسبة لهم هذا ما يختص باولادك الثلاثة أما أنت فتعطى مليوناً ويعهد اليك حكم مقاطعة النرر مانديا وتكون أول رجال مملكة فرنسا فهل تكتفي بهذا العطاء .

– وما الذي تأمرني به جلالة الملكة ؟

– تشترط عليك قبل كل شيء أن تقنع المجلس النيابي للمصادقة على جعل الملكة خليفة الملك .

– أني اتكفل اقناعهم بهذا الامر متى سرت اليهم مع فرقه من المشاة لأني أعرف اللغة التي اخاطبهم بها ومتى ازفت الساعة الملائمة تستطيع جلالة الملكة الاعتماد على خلاصي .

– لقد أزفت الساعة ايها الدوق .

– والملك يا سيدي المحترم .

– أن الملك عرضة للموت كسائر بني البشر وهو في هذه الساعة خارج بعربته من قصر اللوفر من غير حرس وهو ذاهب إلى سان جرمين دوبري واظنهم لم يسقوا خيول عربته أو أفرطوا في اعطائها من المشروبات الحارة وأني ارجو من السيدة اليونورا أن تقص علينا ما تعرفه .

– الامر بسيط فان خيل المركبة ستسير بسرعتها المعتادة حتى تبلغ منتصف الطريق ثم تبتدىء فيها تأثير المشروبات القوية التي تجرعها ولا يعود الحوذي يقوى على كبح جماحها فتتحطم العربة عند أول عقبة تصادفها إذا لم تذهب الخيول وترتمي بالنهر وتقضي على المركبة ومن فيها .

فلم يتمالك جوهان من كظم استيائه وخطر بباله أن يهجم على الغرفة التي كان فيها المتآمرون ويفتك بهم ولكنه لم يلبث أن عدل عن فكرته لأنه تأكد أن فكرته لا تجديه نفعاً ولا

يستطيع تخليص الملك بها وتذكر قول اليونورا وتأكيدها للدوق واليسوعي بان الخيل تبقى سائرة سيرها المعتاد حتى منتصف الطريق وأنه قد يتمكن من الالحاق بالعربة قبل حصول الحادث فخرج من الغرفة كالسهم المارق وكان عارفاً الطريق التي اتى منها وفي اسرع من لمح البصر وصل إلى باحة القصر وقد نسي رجال كونسيني ولم يخطر بباله أن الدوق قد يصدر امره في تلك الساعة للقبض عليه .

وكان روكتابل ولونكفال واينوس رجال كونسيني واقفين على مقربة من عربة مولاتهم وهم يضحكون ويتسامرون فرآهم جوهان على هذه الحال وتأكد بان الذين في القصر لا يلحظون خروجه لكثرة الازدحام ولكنه لم يكن قد رسم الخطة التي يجب أن يعمل بمقتضاها فلما ابصر رجال كونسيني همس قائلا :

– تالله أنها لفكرة حسنة وبما أن كونسيني يريد قتل الملك فلماذا لا استخدم خيول مركبته لإنقاذ ملك فرنسا .

وفي الحال غير وجهته وتقدم نحو الثلاثة الشبان الذين كانوا منهمكين في حديثهم غير مبالين بما هو جار حولهم ولكنهم لم يلبثوا أن رأوه قد صار فيما بينهم وعيناه تتقدان كشعلة من النار وكان منظره رهيباً مخيفاً فقال لهما بسكينة تاخذ بمجامع القلوب أني في حاجة إلى هذا الجواد وأريد أخذه .

وهجم روكتابل ونزع اعنة الجواد من يده فعرفه رجال كونسيني وأرادوا الهجوم عليه ولكنه لم يدع لهم مجالاً لامتشاق الحسام بل قال لهم برباطة جأشه المعهودة .

-- ليس عندي وقت اضيعه سدى فخذوا مني هذه الدفعة على الحساب .

وفي ذات الحين رفش برجله ولكم بيده ونطح برأسه فسقط الثلاثة على الارض باسرع من لمح البصر وفي الحال قفز جوهان على ظهر الجواد وكان الدوق ورفيقاه قد سمعوا الصراخ فاسرعوا إلى النوافذ وأخذ الدوق يصيح آمر بقفل الابواب والقبض على الشقي فلا يفلت من يده .

فلم يبالي جوهان بهذا الأمر بل نكز جواده بمهازيه فانطلق به يسابق الريح .

وشهد اكوافيفا ما جرى وهو صامت وقد بدت على فمه ابتسامه الاحتقار اما اليونورا فكادت تفترس الدوق بنظراتها الحارة وقالت لليسوعي .

-- تعال يا سيدي المحترم فلا نضيع وقتنا بالمجادلات الفارغة

ــ اذهبي يا ابنتي ودعيني وحدي .

فلم تلح عليه اليونورا بالسؤال وركبت عربتها وأمرت السائق أن يعود بها إلى قصرها .

ونظر كوافيفا إلى الدوق الذي أنحنى أمامــه باحترام وتذلل لا مزيد عليها فقال له بمنتهى المظمة .

ــ هل جننت أيها الدوق ؟ أم تحتاج الى امرأة لتقتدي بها في الثبات ورباطة الجاش ؟ أركب جوادك سريعاً والحق هذا الشاب مهما كلفك الامر واقبض عليه لئلا يقضي علينا كلنا .

ــ صدقت يا سيدي صدقت .

وخرج من غرفته وهو ينادي رجاله قائلاً .

ــ أركبوا خيولكم أيها الشجعان لنلحق بالشقي جوهان الشجاع الذي فر هارباً من هنا ونقبض عليه .

وبعد قليل خرج الدوق دوبرنون من قصره وفي اثره خمسون من فرسانه الاشداء .

ولما خرج آخر فارس من القصر انزل اكوافيفا قناعه على عينيه وادخل يديه في اكمامه الطويلة وخرج من القصر بخطى متعثرة ولم يكد يسير بضع خطوات حتى صادف الاخ كولار الكامل الذي مر بجانبه مسرعاً ولم يتوقف لمحادثته عندئذ جرى الحادث الآتي :

كان اكوافيفا قد وصل إلى شارع كوكهيرون وفي الحال ظهر من الجهات رهبان اشداء احاطوا به كالحرس وأوصلوه إلى دير الكبوشين .

أمـا الدوق دوبرنون فقد حسب أن جوهان الشجاع سيذهب تواً إلى قصر اللوفر لاخبار الملك بما سمعه فسار تواً في شارع غرينيل حتى وصل إلى زاوية شارع سانت هانوري فلاقى من اخبره بان الذي كان يفتش عليه قد ذهب من جهة صليب التراهوار .

ولما وصل إلى صليب الترهوار لاقى الحاكم الاعظم يسير في في مقدمة عشرين من الفرسان وهو عائد من قصر اللوفر فوقف

الدوق مرة ثانية لاخبار دي نوفي بما جرى فكاد الحاكم الاعظم يجن من فرط غضبه وقر رأيه على مرافقة الدوق للقبض على هذا الشقي .

وعادت اليونورا إلى قصرهـــا ورأت زوجها كونسيني بانتظارها فاطلعته على ما جرى وفي الحال جمع ما كان عنده من الرجال وأمرهم بسرعة الاستعداد لمطاردة عدوهم جوهـان وفي اثناء ذلك أخذت اليونورا تقول لزوجها بمنتهى السكينة .

– لقد خرج الملك من اللوفر ولا ريب بان جوهان سائر في اثره وسيحصل واحد من امرين فاما أن يدركـــه في الوقت الملائـم لينذره بالخطر الذي يتهدده ويخلصه منه أو يصل بعـد فوات الوقت فلئن حصل الامـر الثاني اصبحنا الاسياد ويصير زمام الاحكام في ايدينا فنشكو عدونا جوهـان ونتهمه بقتل الملك فيقبضون عليه ويحاكمونه ويعدمونه فنتخلص منه بكل سهولة إلى الابد .

– صدقت ولكنه لعله يصل في الوقت الملائم .

– نتهمه ايضاً لمحاولته قتل الملك وما عليك الا أن تبلغ الدوق دوبرنون ليشهد مثل شهادتك ولا نعدم من يشهد بانهـم شاهدوا جوهان في اسطبل الملك فلا يبقى مجال للتردد بسوء قصده فيحكم عليه ايضاً بالاعدام .

– صدقت فالفوز يتوقف على قليل من الجرأة .

– ونزعم أن الغيرة هي السبب الذي دعـــاه لمحاولته قتل

الملك ولا تنس بانه ارتكب هذه الجريمة قبل المرة فاذهب الان وكن فطناً وليتولاك الله بحراسته .

ولم يكد يخرج من منزله مع رجـاله حـتى صادف الدوق دوبرنون والحاكم الاعظم فانضم اليهما وأخذ الدوق إلى جانبه وكاشفه بما سمعه من تعليمات زوجته فصادق عليه واتفقــا على العمل بمقتضاها .

وعرفوا في طريقهم أن جوهـــان الشجاع اجتاز شارع الشجرة اليابسة بسرعة البرق وقد سار في جهة الجسر الجديـد فادرك الرؤساء الثلاثة مقصده فاسرعوا في اثره .

وكان اعداء جوهان قد بلغوا حـين وصولهم إلى شارع الشجرة اليابسة نحو المئة من الفرسان وانتشر الخبر بسرعـة البرق أن هؤلاء الفرسان ذهبوا للقبض على الشقي جوهان الشقي الذي كان يريد اغتيال الملك وكان معظم الباريسين أن لم نقل كلهم قد سمعوا بما اجراه في حادثة دير مونتمارتر فقاموا لهذا الخبر وقعدوا وانطلق المتحمسون في أثر المطاردين بغية القبض على ذلك الشقي .

وكان جوهان قد وصل في تلك الساعة إلى باب بوسي ولم ير العربة الملوكية التي كان يسير في أثرها وسمع وقع خطى الجياد في أثره فهمس قائلا :

– لا ريب بان الدوق وكونسيني قد انطلقا في اثري مع رجالهما .

والتفت إلى الوراء ولكنه لم ير احدا غير أنه لما تجاوز باب بوسي عرف من بعض المارة أن عربة كانت تسير بسرعة البرق نحو النهر وأن السائق لم يكن يقوى على كبح جماح خيله فاندفع جوهان في اثرها شبه الصاعقة ولكنه لم يبتعد حتى سمع خطى جواد من خلفه وصوتاً يقول بمزيد التحبب .

– ايه يا صديقي إلى أين أنت سائر بمثل هذه السرعة .

وعرف جوهان مخاطبه فاوقف جواده قائلا :

– سيدي باردليان فيا لسعادتي .

الفصل الثاني والخمسون

تحقيقات باردليان

لا بد لنا من اخبار القراء الكرام كيفية وجود كولار الكامل في شارع الفولومبية فنعود بهم إلى بعض ساعات من صباح ذلك اليوم .

خرج باردليان من غرفته وهو يناجي نفسه بقوله :

– يجب أن أقابل الملك اذ يعلم الله أي التقارير قدموا له عن ولدي ولا بد لي من اطلاعه على الحقيقة .

والظاهر أنه ادرك صعوبة الامر الذي كان يريده لذلك اخذ يسير بتمهل وسيماء الاهتمام بادية على محياه حتى وصل إلى شارع سبتي بوربون فلم يبقى عليه الا أن يتجاوز الرصيف عن يمينه ليصل الى اللوفر ولكنه لم يفعل بل ظل متردداً في امره وبعد برهة عاد اعقابه .

ولم يسر طويلاً حتى ابصر اليونورا غاليكاي قادمة نحوه ومن خلفها ساتيا يتبعها من غير تكتم وكانت عائدة من قصر اللوفر الى منزلها كعادتها اما باردليان فلم يكن يريد مقابلة ساتيا

لذلك اسدل قبعته على وجهه وسار قاصداً شارع سانت هونوري ولكنه لم يكد .

يصل الى زاويته حتى ابصر راهباً عرفه في الحال أنه كولار الكام .

ولم يكن من عجب من مروره في تلك الجهة ولو رآه غير باردليان لما علق على مصادفته كبير اهمية ولكن الفارس حكم في فكره أن مروره من هناك كان مقصوداً للاجتماع مع اليونورا .

وأراد أن يريح ضميره من هـذا القبيل فاختبأ ريثما مر الراهب من أمامه وسار في اثره حتى قارب اليونورا فرآها قد أوقعت منديلا من يدها وابدت إشارة لتنحني وتلتقطه غير أن كولار الكامل كان اسرع منها فالتقطه لها واعطاها اياه فاخذته منه بابتسامة وعاودت سيرها واتجه كولار الكامل نحو شارع دي بوربون .

ولم يكن هذا الحادث البسيط مهما في حد ذاته غير أن باردليان لم تكن تفوته حركة يراها مهما كانت سرية فهمس في نجواه قائلا :

أني على يقين من محادثتها له بينما كان منحنياً أمامها فما الذي قالته له يا ترى ؟

واندفع في أثر الراهب وقد وطد عزمه على مراقبته فمر بالقرب من قصر اللوفر وعاد من شارع سانت هونري وهو يسير بتمهل ولم تكن أمارات السكر الشديد بادية عليه ولم يفارقه

الفارس ببصره حتى وصل إلى فندق مكتوب فوق بابه « فندق الحمامات الثلاث » فوقف تحت احد نوافذه ورفع عقيرتـه وصرخ قائلا :

ــ أيه جان فرنسوا ... جان فرنسوا هل أنت هنا ؟

فظهر وجه رافالياك المصفر وعرف مخاطبه فقال له :

ــ عم صباحاًيا كولار الكامل فماذا تريده مني ؟

تعال معي فقد حصلت على مـال وافر وأني ذاهب إلى دير الكبوشيين لانفح رهبانه بشيء مما حصلت عليه فالبس ثيابك وكن مستعداً على الذهاب معي متى عدت اليك .

وكان باردليان قد تقدمه لأنه رأى من العبث تضييع وقته في سماع حـديث لا اهميه له وأن الراهب ينوي بزيارة دير الكبوشيين غير ما زعمه لرافالياك واختبأ بالقرب من بابه .

أما كولار الكامل فانه لما وصل إلى باب الدير ثبت قدميه بالارض لئلا يقع وأخذ يغني بصوت عال اغنية السكر حتى إذا أنتهى منها أغرب في ضحكة كمن ينتهي من مزاح جميل واقترب من الباب وقال مجاباً لدعوة موهومة .

ــ لا لست ادخل ديركم ففيه يموت المرء من ظمأه وأنا اليوم كثير المال فاذهب واخبر رئيسك بالأمر .

وعاد على اعقابه ليذهب مع رافالياك فخرج باردليان من مكمنه وقد ابدت عليه امارات الخيبة وهمس في سره قائلا :

ــ لا ريب بأن الاغنية اشارة متفق عليهـا والكلمات التي

قالها لها معنى غير معناها الظاهر فـما هو يا ترى ؟ يجب عـلي معرفة ذلك .

ووصل إلى نافذة رافاليالك فناداه وذهب به إلى الحانة التي أخذ اليها جوهان الشجاع قبل خمسة عشرة يوماً وكان باردليان يتبعهما على الاثر فاعطى الخادم ريالا وادخله غرفة قريبة من التي اجتمعا فيها ليتمكن من استماع حديثهما وابتدأ كولار الكامل حديثه بقوله :

– أنك فقير ولا تستطيع السفر إلى انكوليم مشياً على الاقدام فخذ هذه العشر الريالات واستعن بها على سفرك . عد إلى وطنك يا جان فرانسوا فتلقى هناك السعادة وراحة الضمير فتتزوج وترزق الاولاد وتصير لك عائلة وتصبح رجلا شريفاً .

ولمـا ادرك الراهب مقصده أوصل رافاليالك إلى فندق الحمامات وتركه بعد أن قبله بعطف واهتمام .

وعاد كولار الكامل إلى باب المدينة وهو يسير بتمهل كأنه في انتظار رفيق له ولم يعد يغـني بل أخذ يبذل جهده كي لا يراه أحد .

*

ولما قارب الباب رأى عربة خارجة منه فوقف في مكانه وتبعها ببصره فذهبت، ووقفت قرب الطاحونتين وعاد كـولار إلى فندق الحمامات الثلاث .

ثم دخل كنيسة قريبة من الفندق وجعل يفتش مـا فيها باهتمام لا مزيد عليه ولمـا تأكد خلو المكان ذهب ووقف في

أعلى السلم حيث يرى ولا يرى ولكنه لم يدر أن عدوه باردليان واقف له بالمرصاد .

وفي ذات الحين فتح باب دير الكبوشيين وخـرج منه اكوافيفا ومن خلفه حرسه يسيرون زوجاً زوجاً ورآه كولار الكامل من مكانه فتركه يقترب من شارع كايلون وعـاد إلى الكنيسة بغير مبالاة وبعد دقائق قليلة لحق به اكوافيفا فقال له الراهب جوابا على سؤال سري :

أننا وحدنا في هذه الكنيسة .

– لا بد لي من تحقيق هذا الأمر بذاتي .

واعاد تفتيش الكنيسة بمزيد الاهتمام فتأكـد خلوهـا من الاغراب وسأل الراهب بصوت منخفض ؟

– هل شربت الخيل ؟

– نعم .

– وهل أنت على يقين من هذا الأمر ؟

– نعم .

– والى أين يريد الذهاب ؟

– الى سان جرمني ديبري .

– وذلك الرجل ؟

– يسافر غداً .

– حسناً . وهي ...

– أن عربتها بانتظارك .

فخرج اكوافيفا من الكنيسة وذهب ليركب العربة الـتي

كانت تنتظره فيها اليونورا غاليكاي وبعد قليل خرج كولار الكامل الذي قلنا أنه كان يحرس رئيسه من بعد وأخذ باردليان يقتفي اثره .

وفيما هو سائر صادف العربة التي كانت فيها زوجة كونسيني ومعها الراهب العجوز فتحقق أنهـا ضربت له موعـداً لمقابلته وكان الرسول بينهما كولار الكامل وفي الحال وضع في مخيلته الخطة التي يجب أن يسير عليها وذهب تواً الى قصر اللوفـر وسأل عن الملك فقيل له أنه سافر الى سان جرمـين ديبري فزمجر في نجواه قائلا :

– لقد بدأت تتضح لي الحقيقة ولست اسأل الا الوصول في الوقت الملائم .

وسأل عن الضابط المكلف بالخدمة في ذلك اليوم فقيل له أنه الموسيو دي فيتري وكان يعرفه حق المعرفة فطلب الذهاب اليه وابتدره بقوله :

– يجب أن الحق بجلالة الملك الذي قيل لي أنه سافر من غير حرس وأنا في حاجة الى جواد قوي سريع الجري .

وكان الضابط يعرف اخلاق باردليان فلم يتردد باجابته الى طلبه ولا سأله عن مقصده بل اعطاه الجواد المطلوب وهكذا رأينا باردليان يجدأ في عدوه خلف الملك هنريكوس الرابع .

الفصل الثالث والخمسون

نجاة الملك من موت محقق

وكان جواد باردليان أقوى من الذي يركبه جوهان الشجاع فلم يلبث أن لحق به وسأله قائلا :

– الى أين أنت سائر بمثل هذه السرعة ؟

فمد جوهان يـده الى الامـام وأشار الى السهل الممتد الى مسافة بعيدة وقال :

– الملك !

ومن فرط اضطرابه على الملك لم يخطر بباله أن يزيـد في بيانه ولم يبدو عليه شيء من امارات الدهشة لادراك باردليان مقصده بمثل هذه السهولة .

وظلا يعدوان وهما صامتان حتى رأيا عن بعد عربة الملك وكانت الخيول الاربعة التي تجرها تعدو بسرعة مدهشة وقـد وقف السائق على كرسيه مذهولاً لأنه يئس من استطاعته رد

جماحها وكان يبذل جهده على غير جدوى لتوقيفها وهو كلما اقترب منه يزداد يأساً .

وتجاوزت العربه كنيسة الاباء القديسيين ولم يبق عن اليسار غير اربعة أو خمسة منازل وأنبسط السهل واسعاً أمامها ومن ورائه نهر السين واخذت الخيل تعدو إلى جهة النهر بسرعة البرق كانها مدفوعة اليه بقوة غير اعتيادية لأن رائحة الماء اثارت شهوتها وظمأها ولم يبق من سبيل لردها .

ورأى باردليان وولده هذا الخطر المداهم فدفعا جواديهما في حديقة الملكه وهما لا يباليان بالاضرار الجسيمة التي سبباها وكان باردليان على يسار ابنه فقال له :

– أننا نسير في الطريق المستقيم وسنصل قبل عربة الملك فنقفز إلى الارض وننتظرها حتى تصل الينا فامسك الجواد الإيسر وأنت تقبض على الايمن .

– أمرك يا سيدي .

وكانا قد أخذا يسمعان أصوات الاستنجاد من العربة لأن هنريكوس الرابع لم يكن فيها وحده بل كان الدوق دي بلتراد والدوق دي ليانكور وهما من الد أعداء كونسيني فنادى باردليان بصوت كالرعد القاصف .

– تشجعوا فقد جئنا لمعونتكم .

وجرى كما توقع باردليان فانه وصل مع ولده قبل عربة الملك وقفزا إلى الارض عن جواديهما ووقفا ينتظران بسكينة

مدهشة حتى أقبلت خيول العربة وهي تكاد تطير من فرط حماسها ورأى الحوذي الذي لم يفارق سكينته تلك النجدة التي ارسلتها اليه العناية الالهية فحاول مساعدتهما بما تصل اليه يده من كبح جماح الخيول .

ووضع الملك رأسه في نافذة المركبة لأنه أحب أن يرى ما هو جار حوله وكان شديد الاصفرار ولكنه لم يفقد شجاعته بل همس قائلا :

– سيموتا هذان المسكينان من غير جدوى .

وفي ذات الحين هجم الشجعان على الخيول وقبضا على عنقها بيد وبالاخرى مسكا مناخر الخيول باصابع حديدية ولم يحاولا توقيفها بل اخذا يركضان معها لمجاراتها في سيرها لأن توقيفها الفجائي مرة واحدة كان يعتبر في هذه الحال ضرباً من المستحيل فظلا يركضان معها نحو اربعين خطوة وهما معلقان بمناخر الخيول الدامية التي أخذت تصهل من فرط المها وتخفف عدوها تدريجياً فقال الدوق دي بلفراد .

– لقد صرنا نستطيع القفز من العربة من غير خطر على جلالة الملك .

واصغى هنريكوس الرابع لهذه النصيحة ونزل مع رفيقه من العربة وقد تنهد تنهد الارتياح لخلاصه من الخطر العظيم الذي كان متعرضاً له ولم تلبث تلك الجياد أن سقطت خائرة القوى وهي تلهث تعباً فقال باردليان للسائق .

– أسقها ماء فيذهب ما اصابها .

ولم يكن الملك قد رأى حتى تلك الساعة من جوهان الشجاع غير ظهره فلم يعرفه ولكنه في تلك اللحظة أبصر باردليان فعرفه وقال له ضاحكاً :

– هل قضت الاقدار بأن لا نتقابل مرة الا ويكون علي فضل تخليص حياتي فكيف أقوم بشكرك .

– لم أعمل يا مولاي ما يستحق الذكر

– الا يكفيك تعريضك حياتك للموت لاجلي !

وكان لا يزال مديراً ظهره إلى جوهان ولم يتطلع إلى جهته فلم يبال الشاب بذلك وحسب أن ما جرى كان ناجماً عن الصدف غير أن باردليان كان يعرف الملك حق المعرفة فاخذ ابنه من يديه وأوقفه أمام هنريكوس الرابع وقال له :

– بما أن جلالة الملك يريد المجاهرة بشكره لمنقذ حياته فليقل ذلك لهذا الشاب لأنه منقذه الحقيقي .

فنظر الملك إلى جوهان نظرة لم يكن فيها ما يدعو للإطمئنان وظل صامتاً فادرك باردليان ما كان يجول بخاطره وقال له :

– لولا هذا الشاب لما كنت هنا ولما تمكنت من مساعدته لانقاذ جلالتك من موت محتم وقد عرض كل منا حياته لاشد الاخطار غير أن ما كان مثلي وقد وصل إلى عمري لا يبالي بمثل هذه التضحية لأنه يكون قد شبع من الايام ولكن هذا الشاب لا يزال في مقتبل العمر وهو عاشق ومتشوق وقد يكون عمره طويلاً وسعيداً ولكنه لم يتردد بتعريض ذاته لخطر الموت كي

ينقذ جلالتك لذلك اكرر قولي بان شكرك إذا أردت اظهاره فليكن لهذا الشاب .

– كنت أوصيته بان يلتزم الخفاء والتكتم ومع ذلك فقد ذكروا لي اموراً كثيرة عنه في الايام الاخيرة وكانوا يحسبونه ميتاً وذلك غاية ما يستطيع انتظاره لأن المشنقة ستكون معدة له غير انك اكدت لي بانك مديون له بالحياة فانا اعفو عنه ولم يبق له جميل علي .

والتفت إلى جوهان الذي كان يصغي الى هذا الحديث بمزيد السكينة والانتباه وقال له :

– أني امنحك ثماني واربعين ساعة لتغادر هذه المدينة فلا يزعجك أحد خلال هذه المدة حتى اذا أنقضت لا أعود مسؤولاً عنك وهذا كل ما استطيع عمله لك أيها الشاب .

– لقد اكدت لجلالة مولاي الملك بأنه يستحيل علي مغادرة العاصمة ثم غير الحديث قائلا :

– وهل يحسب جلالة الملك أن خيوله قد جمحت صدفة ؟

– وما الذي تعنيه بقولك أيها الشاب .

– سل يا مولاي هذا الرجل (واشار الى الحوذي) فهو يعلمك على الخبر اليقين .

وكان السائق قد اقترب من خيوله وفتح فم احدهم واستنشق رائحته بلهفة فسأله عما تحققه وقال له :

– أن أحد الجناة الاثيمين قد سقى هذه الخيول شراباً

مسكراً فلم يحصل ما حدث بمجرد الإتفاق بل هو مدبر بكيدة جهنمية .

– الويل للاشقياء فهم سيقتلوني لا محالة وأني لن أخرج حياً من هذه المدينة ثم التفت الى جوهان وسائله قائلاً :
هل كنت عارفاً هذا السر ؟

فابدى باردليان وجوهان برأسيهما أشارة ايجابية فقبض الملك على يديه من فرط حنقه وقال جوهان بمزيد السكينة :

– لقد كنا عارفين هذا السر وأني احمد الله لوصولنا في الوقت الملائم ولم تخطىء يا جلالة الملك بقولك فأن الاعتداء الفظيع الذي جرى ولم ينجح اليوم سيتكرر مرة ثانية فان الموت يحوم فوق رأس جلالتك ويدور على جانبيك ويحيط من كل مكان ولعل الحظ يسعدني مرة ثانية لانقاذ هذه الحياة الثمينة عندئذ لا يعود مولاي يأسف لاصراري على البقاء في عاصمته

– اذن فبقاؤك في عاصمتنا ناجم عن رغبتك الوحيدة في المحافظة على حياتنا .

– لئن اكدت هذا القول لجلالة مولاي أكون مبالغاً به ولكن لدفاعي عنه مقسم الاوفر .

حقاً لقد اعجبتني منك حريتك أيها الشاب ولكن قل لي ما الذي دعاك لتغير فكرك الاول لأني اتذكر باني قابلتك مرة وددت فيها أعدامي الحياة .

– لم أكن أعرف وقتئذ ما عرفته اليوم .

– وما الذي عرفته من الاسرار الجديدة ؟

– تأكدت أنك ابوها .

وسمع اصحابنا حركة صادرة من جهة الدير وهي تشبه عدو خيول كثيرة قادمة نحوهم وقبل أن يتمكن الملك من الجواب ظهرت الجنود التي كان يقودها الدوق دوبرنون والحاكم الاعظم وكونسيني فبدت على محيا الملك ابتسامة دلت على رضاه ونسي أن يجاوب جوهان الشجاع .

ووصل دوبرنون و كونسيني والحاكم الاعظم وابصروا الملك وفي الحال نزعوا قبعاتهم ونادوا فليحي الملك فجاوبتهم جنودهم على هذا النداء الذي اعادته الجميع التي تسير من خلفهم فشكر لهم الملك حماسهم واخلاصهم والتفت الى الذين كانوا يحيطون به وقال لهم :

اذا كان يوجد من الخونة اللؤماء من يتمنى هلاكنا فأن لنا بحمد الله كثير من الاصدقاء المخلصين الذين يملأون القلب حماساً ونشاطاً .

ولما وصل الفرسان الثلاثة الى امام الملك ترجلوا باحترام وكان الحاكم الاعظم في المقدمة لأن الدوق دوبرنون وكونسيني عهد اليهم باتهام جوهان الشجاع بجريمة لم يرتكبها ولاخطرت له على بال فسأله الملك قائلاً :

– ما بالك متأخراً الى هذه الدرجة .

– ويلاه يا سيدي ومولاي أني كنت انتحرت في الحال لو اصابتك أدنى اذية وهذه هي المرة الثانية التي جئت فيها للدفاع عن مولاي الملك ولكني وصلت متأخراً .

لسنا نوبخك على هذا التقصير فأنك أنما مكلف برئاسة الشرطة ولكنك لا تستطيع التكهن بما تخبئه الاقدار وحقاً أني أقل الملك حظاً فأن رجال الاصطبل قد نسوا أن يسقوا خيول مركبتي فلما شمت هذه البهائم المسكينة رائحة الماء كادت تجن من فرط عطشها لذلك سألحق بهم أشد العقاب .

وتبادل دوبرنون وكونسيني نظرات الاطمئنان والارتياح لأن جوهان الشجاع لم يطلع الملك على سرهما وفضلا ترك الأمور على مجراها الطبيعي حتى اذا لم يبق لها المجال لاحتماله يرسلون اليه من يفتك به غيلة ويريحهما منه غير أن هنالك الحاكم الاعظم فيجب عليهما تبليغه في الحال ما يجب عليه عمله ولم يكن الامر خال من الصعوبة فتقدم كونسيني وقال :

— لقد عرفنا هذا الامر صدفة وهرولنا مسرعين لمساعدة جلالة الملك ويسؤنا أن نكون وصلنا متأخرين كما أننا سررنا من وجود جلالة مليكنا سليما معافى وقد نجا بحمد الله من اعظم الأخطار التي كانت تتهدده .

فحسب الملك أن الدوق دوبرنون كان عارفاً الحقيقة ولكنه كتمها خصيصاً عن رفقائه فقال له :

— شكراً لك أيها الدوق العزيز ولكم أيها الرفاق البواسل

ولم يدرك الحاكم الاعظم مقصد رفيقيه فقال للملك .

— اؤكد لجلالة مولاي أن ما حصل لا يتعلق بحادثة بسيطة جرت صدفة بل هي مكيدة شائنة دبرها بمهارة لا مزيد عليها احد الخونة الاشقياء .

فقطب الملك حاجبيه وقال :

— ويحك أيها الرجل هل فقدت عقلك ؟

وأخذت الجموع تصيح هاتفة بالدعاء للملك وهم الذين جاؤا في أثر الفرسان للاطمئنـان على صحته وابتدأوا يصيحون بصوت واحد قائلين :

— الويل للقاتل ... الموت للشقي ... اطرحوه في الماء .. اقتلوه ... سلمونا أياه لناكل فؤاده .

وقال الحاكم الاعظم بثبات زائد .

— اسمع يا مولاي حكم الشعب فانه مجمع على طلب مجازاته والانتقام منه لأن هذه الجريمة الفظيعة لا يمكن أن تبقى من غير مجازاة .

— كم من مرة أقول لك أيها الاحمق أن ما جرى نتيجة عرض بسيط وأراك تريد اقناعي بحدوث جريمة فاذا كان الامر كما تزعم أين الجاني ولماذا لم تقبض عليه ؟

— لقد وجدته يا مولاي .

وابدى اشارة إلى رجاله فتقدموا إلى الامام واحاطوا بجوهان الشجاع حتى منعوا عليه خط الرجعة وتقدم الحاكم الاعظم نحو الشاب الذي كان ينظر اليه برباطة جأش ويده على صدره .

وتبادل دوبرنون وكونسيني نظرة دلت على قلقهما وكان رفيقهما قد وصل إلى بعد خطوتين من الشاب الذي كان جامداً أمامه كالصنم ومد اليه يده ليقبض عليه وقال :

امتثالا لامر جلالة الملك أقبض عليك

فتركه جوهان يفعل ما يريده حتى كاد يلامسه فضربه بيده على صفح راحته بشده وصرخ قائلا :

– ارجع إلى الوراء أيها الشقي ولا تمسني بيدك .

وشهد الجميع هذه الحركة الدالة على العصيان الصريح فعلت أصوات الشعب طالبة اعدامه وأقترب منه الحرس ولكنه بدا لهم بمظهر مخيف لأن شعر رأسه كان واقفاً وعيناه تتقدان كالجمر وحرك يديه يمنة ويسرة فسقط حارسان على الارض وأراد أن يكرر عمله ولكنه رأى حارساً قريباً منه وهو يشبه العمالقة بكبر جثته وعظم هامته فتناوله بين ذراعيه وخطفه من الارض كما لو كان طفلا صغيراً وصرخ قائلا :

– من الذي يريد أن اقتله بهذا السلاح البشري ؟

فتراجع الحراس مذعورين وأخذ الحاكم الاعظم يحمسهم للقبض عليه وبينما هو يروح ويجيء صادف الفارس باردليان الذي كان يبتسم ابتسامة غريبة فانحاز من طريقه إلى جهة اليمنى فرآه أمامه إلى اليسرى فشاهده في وجهه وعاد إلى مكانه الاول فحال بينه وبين المرور فقال له :

أتريد يا سيدي منعي عن المرور ؟

– أراك لا تفهم سريعاً مقصد اصحابك منك .

فوضع الحاكم الاعظم يده على قبضة سيفه واستعد الحرس على الهجوم غير مبالين بتهديد جوهان ولكن الملك أمر بالوقوف في أماكنهم فلم يسعهم أن يخالفوا أمره وعادت إلى

باردليان ابتسامة سخرية ولما رأى جوهان الحرس ابتعدت عنه ترك الحارس الذي كان يريد استعماله آلة للفتك باعدائه فانطلق يعدو إلى الأمام وهو لا يصدق بنجاته من موت محتم .

ولم يكن هذا الحادث من الحوادث التي يمكن امهاله أو تأجيلها فطلب الملك من الحاكم الاعظم أن يبين له الادلة التي يستند عليها لتوجيه هذه التهمة الرهيبة على جوهان الشجاع فادى اشارة من يده وأبتعد الجميع عنه وفي الحال لم يبق قريباً منه غير باردليان وولده والحاكم الاعظم فدنا من عربته واشار اليهم أن يتبعوه وقال للحاكم الاعظم :

– كل منا يعلم أني أوشكت أن أكون ضحية للاشقياء الذين يريدون اغتيالي ولقد كان يجب عليك أن تكتم هذا السر ولا تنادي به على رؤوس الاشهاد بعد أن سمعت مولاك الملك يقول بأن مما اصابه كان من صدف الاقدار فحقاً أنك لا تليق بهذه الوظيفة .

– دفعت إلى ذلك بعامل الغيرة على جلالة مولاي .

– كل أمر يتجاوز حده يتحول إلى ضده .

فأحنى الحاكم الاعظم رأسه بخجل والتزم الصمت غير أن جوهان أدرك من النظرة التي القاها عليه أنه اصبح من مصاف اعدائه ويجب أن يرهب جانبه بعد الآن .

ولما سكنت قليلا حدة الملك سأله قائلا :

– لقد كان في نيتك القبض على هذا الشاب فما هي التهمة التي توجهها اليه ؟

– أني اشكوه بالاعتداء على حياة جلالة الملك المقدسة وذلك باعطائه خيول عربته شيئاً من السموم .

فصرخ به جوهان بصوت كالرعد القاصف .

– كذبت ايها الشقي .

وقال الملك بعظمة لا مثيل لها :

– اعلم أيها الشاب انه لا يجوز لاحد أن يتكلم أمام الملك الا باذن منه وما اقامني الله في هذا المنصب السامي الا لاعطي كل ذي حق حقه .

وخاطب الحاكم الاعظم بقوله :

– أن هذا الشاب قد خاطر بحياته لانقاذنا وهو الذي تمكن من توقيف خيول مركبتنا بمساعدة الفارس باردليان الواقف هنا ولولاهما لما بقينا حتى الآن في عالم الاحياء ولولا جهلك هذه الأمور لما اقدمت على شكواك الغريبة .. وأنك تجهل ايضاً أنه خلال ستة اسابيع قد انقذ حياتنا مرتين من الموت .. وتجهل ايضاً أنه يعرف بوجود مؤامرات علينا وأن حادثه اليوم واحدة منها وهي ستتجدد غداً بشكل آخر ولقد بتنا نعتقد أنه يجب علينا تسليمه منصبك لأنك تجهل ما يعرفه مع أن الواجب يقضي عليك بهذه المعرفة .

– كنت عالماً بان الشاب هو الذي اوقف خيول المركبة الملوكية ولكنها حيلة شيطانية دبرها بمكر لما رأى سره مفتضحاً فعمد إلى هذه الطريقة الغريبة أما انا فاعتقد بانه هو القائم بالمؤامرات التي ذكرها جلالة الملك وتأييداً لقولي سأسلم

ذاتي إلى السجين ليصير التحقيق الدقيق بما ادعيه حتى إذا تبين بطلان قولي اجاز لي بذات الجزاء الذي يستحقه المتآمر على جلالة الملك ولقاء ذلك اسأل للقبض على هذا الشاب ايضاً والتحقيق في سوابقه وماضيه .

ولم يكن هنريكوس الولبع كثير الشكوك كما كان والده لويس الثالث عشر بل كانت الثقة العمياء من اعظم عيوبه غير أنه كان في تلك الساعة متأثراً بعامل الخوف من الخطر الذي نجا منه .

ورأى باردليان تردده بين تصديق الحاكم الاعظم أو تكذيب ما شاهده بام العين فرأى أن الوقت اصبح ملائماً لمداخلته في الأمر وقال :

– اؤكد للملك بأن هذا الشاب لم يكن قاتلاً كما يحاولون اتهامه وانا على يقين من خطأ الحاكم الاعظم وجلالة الملك يعلم علم اليقين باني لم اكذب قط .

– صدقت ياصاح ولكنك قد تكون مخطئاً .

– أني غير مخطيء في هذه المسئلة .

– هل تستطيع يانوفي اخبارنا عن السبب الذي دعا هذا الشاب لتعمد قتلنا .

– لم ينس مولاي باية ظروف قابلته منذ مدة في شارع الشجرة اليابسة .

– وما معنى ذلك ؟

– أنه مغرم بحب الفتاة التي تقيم في ذلك الشارع وقد فعل

ما فعله مدفوعاً بعامل الغيرة عليها .

– وهل تعتقد هذا الامر ؟

– انا على يقين مما اقوله .

فتبسم الملك وألقى نظرة على جوهان الذي كان واقفاً في مكانه لا يأتي حراكا فقابله باردليان بابتسامة مثلها وقال :

– لا ريب بأن كل الادلة التي يقيمونها لاتهام هذا الشاب تكون بمثل هذه الاهمية والحقيقة التي لا ريب فيها انهم يريدون التخلص منه بأي وجه كان .

– لعلك تكون صادقاً في قولك واظن بانه يجمل بنا أن نتحادث سوية في بعض الشؤون .

وهذا هو اعتقادي يا مولاي .

– اتبعني إلى عربتي .

وكان هذا القول بمثابة أمر لدى نوفي فتراجع إلى الوراء وقال باردليان لجوهان :

– لا تفارق هذا المكان وابق في انتظارنا فإن حديثنا لا يطول .

الفصل الرابع والخمسون

مكاشفة الملك بالحقيقة

وجلس الملك وباردليان ازاء بعضهما في العربة وقال الاول :

– تعلم ايها الصديق أني أثق بك كل الثقة فهل أنت تكفل حسن نيات جوهان الشجاع ؟

– نعم يا مولاي .

– إذا كان الأمر كذلك فلا يزعجه أحد بعد الآن فقل لي هل تعرفه بصورة خاصة ؟

– اجل ولولا ذلك لما كفلته .

– هذا ما اردت معرفته وأنك تستطيع ارشادي إلى ما أريده فمن هو هذا الشاب لأن اسمه لا يفيد معنى كبيراً والتقارير التي تقدمت بحقه ليست موافقة له .

– أنه ابني يا مولاي .

– لقد كنت مرتاباً بهذا الأمر إذن قد اهتديت إلى الغلام

الذي كنت تفتش عليه منذ عودتك من اسبانيا أي منذ عشرين سنة فلعلي اعمل للابن ما لم استطعه للاب .

– شكراً لك يا مولاي .

– أراه يجهل أنك ابوه .

– نعم يا سيدي وسيبقى جاهلا هذا الأمر إلى حـين من الزمن .

– وما سبب دلك ؟

– هي فكرة خطرت ببالي .

– لست اسألك الوقوف على اسرارك العائلية فهـل ابنك يعرف الذين يريدون موتي ويسعون لقتلي ؟

– نعم فهو يعرف بعضهم .

– وإذا سألتك أن تطلعني أنت أو ابنك على هؤلاء الاعداء فماذا تقول :

– لو طلب مني جلالة مولاي حياتي اقدمهـا بطيبة خاطر وأظن أني اثبت هذا القول اكثر من مرة ولكني لن اكون قط واشياً .

– وأبنك جوهان .

– لا اظنه يفعل ذلك ومولاي يستطيع تجربته .

– لا عجب إذا نشأ على اخلاقك فدعنا من هـذا الحديث ولعله يحتاج إلى مقابلتي في مثل هذه الظروف الحرجة فما عليك الا أن تذكر اسمك ففي أية ساعـة من النهار أو الليل تفتح امامكما ابواب القصر فقل لي الصدق ما السبب الذي دعا ولدك

الذهاب إلى جهات دير مونتمارتر ؟

– أنه ذهب لتخليص فتاة سجنوها عنوة في ذلـك الدير وأخذوها اليه بالحيلة .

– وهل عنيت بها الانسة برتيل دي سوجيس ؟

– نعم يا مولاي .

– ومن الذي جسر على سجنها عنوة في ذلـك الدير ولاي الاسباب ؟

– أني اجهل الذي سجنها أما الاسباب التي دعت لمعاملتها بهذا العنف فهي أنها تملك أوراق خطيرة لا يريـد البعض اظهارها .

– لماذا لم اتبلغ هذا الامر وهل حسبتم أني لا اهتم بامر هذه الفتاة واترك بلا عقاب الذين يجسرون على تعذيبها ايا كانوا

– لقد قلت يا مولاي منذ هنيهة أن لولدي ذات اخلاقي وطباعي فانه أحب انجاز امره بيده لأنه على يقين من استطاعته الدفاع عمن يحبه .

– وما الذي تتضمنه هذه الاوراق ؟

– فليكن مولاي مرتاح البال من هذا القبيل فليس فيها ما يتعلق بالملك .

– وهل اصبحت هذه الفتاة في مأمن على ذاتها بعد الآن ؟

– لا اظن أنها تكون في أمن تام الا بعد بضعة اسابيع أو بضعة اشهر غير أن لها ما يسهر عليها .

– ليس هذا ما اريده فاعلم يا باردليان أن هذه الفتاة تهمني

كثيراً وقد عرضت عليها الرتب والالقاب ولكنها أبت ما عرضته عليها وكن على يقين باني لا احجم عن المداخلة بشأنها لانها من دمي ... أما الآن وقد انجزنا مسألة ابنك فقل له أن يمتنع لمدة من الزمن عن الذهاب إلى دير مونتمارتر وضواحيه لئلا يحدث سوء تفاهم جديد يكون سيء المغبة .

فتبسم بارداليان ابتسامة المكر وبدلاً من مجاوبة الملك على طلبه قال له :

– لقد تنازل جلالة الملك واظهر اهتمامه بامري وأمر ولدي ولكنه لم يسألني عن أمه .

– صدقت فمن هي أمه ؟

– هي الاميرة فوستا .

– لقد قيل لي أنها كانت رائعة الجمال فلا يسعني إلا تهنئتك لحصولك عليها .

– صدقت يا مولاي اذ لم يكن لها شبيه بجمالها وكانت ذات ثروة طائلة وقد تمكنت من اخفاء ثمانين مليوناً في ضواحي باريس وخصصتها لولدها ومع ذلك لم ينقص ايرادها العظيم .

– وهل عرفت يا صاح أني كنت على وشك سلبك ؟

– أجل أني كنت عارفاً هذا الامر لأن جلالتك صدقت ورقة مكتوبة باللغة الايطالية وفيها تعليمات بغاية الصراحة فامر الدوق دي سولي باجراء الحفريات في كنيسة الشهيد .

– وكيف عرفت ذلك .

– كنت حاضراً لما أعطيت هذه الورقة للدوق .

– لم يذكر لي هذا الأمر .

– أنه جهل سماعي الحديث الذي جرى بينه وبين الرجل الذي اعطاه تلك الورقة .

– بعد أن عرفت المقصد من هذه الحفريات لم تقل شيئاً وتركت القائمين بها يفعلون ما يريدون فما الذي دعاك لهذا السكوت

– لأن الكنوز غير موجودة في المكان الذي يحفرون فيه والتعليمات التي اعطيت للدوق هي كاذبة فقد كنت امينا من هذا الأمر

– لقد اشار علينا الدوق بنصيحة كاذبة لم نكسب منها الا خسارة اموالنا .

– على افتراض وجود كنوز في ذلك المكان فان مساعي جلالته ستبقى عقيمة ولا تجد شيئاً مما تفتش عليه .

– زدني ايضاحاً لاني لم افهم قولك .

– اعلم يا صاحب الجلالة بان ابني ولد في سجن سانت انج في رومية ولم يخرج منه حياً الا لأن البابا سيكستوس كان عارفاً بوجود هذه الكنوز فسمح للطفل ومربيته بالخروج من السجن وفي ذات الحين اطلق في اثرها كل رهبان فرنسا وايطالية وكان يؤمل الاهداء إلى هذه الكنوز بواسطة الغلام أو مربيته .

– لقد بدأت تنجلي لي الحقيقة .

– مر على هذه الحوادث عشرون عاماً ولم يقطع رجال الكنيسة املهم من الحصول على الملايين التي يطمعون بها

للوصول إلى الكنز قبلك لأنهم اقوى منك في ذلك المكان وهذا من جملة الاسباب التي دعتهم للوشاية بولدي لدى جلالتك .

— فهمت الآن فهؤلاء الرهبان كثيرو الطمع وهم سيكونون سبباً لقتلي .

— لا اظنهم يدركون مأربهم السافل لأن لجلالتك اصدقاء مخلصون يسهرون عليك في الخفاء كما يسعى اعداؤك في الخفاء فهل عرفت الآن السبب الذي يدعو ولدي للذهاب إلى ديسر مونتمارتر فهو يريد السهر على كنوزه وذلك حق صريح لا يجادله أحد فيه .

— صدقت ولو كنت مكانه لعملت مثله .

— يسرني أن اسمع من جلالتك هذه الشهادة ولا ريب بان الوشاة قد نقلوا إلى الملك حادثة الدير بصورة مكذوبة لأن مقصدهم السرقة أما ولدي فدافع عن ما له ونفسه كما يدافع المرء عن ذاته لو اعترضه نفر من اللصوص .

— أنه احسن وايم الله بعمله وسأصدر أوامري للدوق كي يبطل هذه الحفريات .

— كلا يا مولاي بل دعه يداوم عليها وأني اسأل جلالتك أن تأمر الحاكم الاعظم ورجال البوليس بان لا يعترضوا ولدي جوهان بعد الآن الا إذا اتى عملا خالف القانون .

— سيكون ما تريده وأني اسألك أنت المطلع على كل هذه الاسرار كيف تمكن ولدك من الحصول على البارود وكيف نجا من ذلك الانفجار الهائل .

— الامر بسيط يا مولاي فهناك قبو لا يعرف وجوده احد من الناس وفيه خبأت الاميرة فوستا كنوزها العظيمة وكانت تحسب أن الاعداء سيحاولون الاستيلاء عليها فقد اتخذت تحوطاتها اللازمة وهذا القبو يؤدي إلى مغارة وضعت فيها الاسلحة والذخائر والبارود والرصاص ولما كنا في اشبيلية اعترفت لي بهذا السر واطلعتني على كيفية الدخول إلى هذا المكان فلما جئت إلى باريس تفقدت القبو فرأيته خالياً من المؤن فاتيت اليه بالمؤنة اللازمة وكانت كلما فسدت ابدلها بسواها .

فضحك الملك وقال :

— وقد تمكن جوهان من الثبات بسلاح امه ومؤونة أبيه حقاً أن هذا لمن عجب العجائب !

وأنتهى حديثهما على ما أحب باردليان لأنه حصل على عفو الملك التام عن ولده فلم يعد يبالي بسواه من الاعداء ونزل من العربة وابدى لجوهان اشارة فاقترب منه وكان الملك لا يزال في العربة فطلب من رجاله أن يتقدموا اليه وقال للحاكم الاعظم :

— لقد بلغك خطأ ما قلته لي فان جوهان الشجاع شاب نبيل يستحق كل كرامة واعزاز ولقد عرض حياته لتخليص حياتنا .

فساد على الجميع سكوت رهيب وبلغ الغضب والحدة مبلغهما بكونسيني فلم يعرف ماذا يعمل أو يقول فتقدم خطوتين إلى الامام وقال بصوت اجش :

- سيدي أن هـذا الشاب الشجاع للنبيل المستحق كل كرامة واعزاز كان في خدمتي وإذا سمح لى جلالة الملك اطلعته على حقيقة امره .

- ليس من موجب لذلك فقد عرفت عنه ما فيه الكفاية .

ولم يكن ابن باردليان من الذين يصبرون على الاهانة فتقدم بدوره إلى الامام وقال برباطة جأش :

- اسأل جلالة مولاي الملـــك بكل خضوع أن يأمـــر كونسيني بالكلام فهو الدعـــدو لي وشهادتــه ثمينة للغاية وأني اطلب ايضاً شهادة الدرق دوبرنون الذي هو من جملة اعـدائي أيضاً وإذا لم يكفي ذلك فاني اطلب شهادة احد الرهبان وهو ثالث اعدائي فتكلما وقولا ما تعرفانه لئلا اضطر لاحضار ذلك الراهب .

فادرك الملك مـا يتضمنه هذا القول من الوعيد ونظر إلى كونسيني والدرق دوبرنون الذي قال :

- لست انكر يا مولاي شجاعة هذا الشاب واستقامتـــه ولكني أنكر عليه قوله أني من أعدائه لأني لم انس بانه هو الذي انقذ حياة والدي .

ولم يسع كونسيني الا التغلب على عواطفه فكظم غيظـه وقال بصوت متهدج من التأثر :

- نعم أننا نكره بعضنا ولكن لا يسعني الا الاعتراف بشهامته وشرفه .

فاكتفى جوهان بهذه الشهادة وقال الملك :

- اصرح لكم ايها السادة بان جوهـــان الشجاع اصبح من عداد اصدقائي ولستم تجهلون أني ادافع بشده عن الذين احبهم فلا تنسوا هذا الامر .

فانحنت الرؤوس أمامه باحترام وهتف الجميع بالدعاء للملك الذي طلب من باردليان وجوهـان أن يرافقا مركبته إلى قصر اللوفر فلبيا هـذه الدعوة بمزيـــد الامتنان ووقف كل منهما في جانب منها وانطلقت خيلها تسابق الرياح .

ولما ابتعدت مركبة الملك افترق كونسيني والدوق دوبرنون والحاكم الاعظم عــن بعضهم وكل منهم يشعر بنيران الغضب تتأجج في فؤاده وظل كونسيني في مكانه حتى انصرف الجميع فاستدعى اليه رجاله وخاطب سان جوليان قائلاً :

- إلى اية درجة وصلت مسألة الخطف المعلومة ؟

- أنني اكون مستعداً على العمل غداً غير أني لا اجسر على تأكيد شيء لمولاي واظن أن الاوفق عدم التسرع بالامر

- صدقت فان التسرع مضر وارى تأجيل الأمر إلى اسبوع القادم ولكني احظر عليكم التجول حول البيت الصغير بل يجب مراقبته عن بعد وأني احذركم من التعرض لجوهان الشجاع خلال هذه المدة .

ثم أخذ يطلعهم بصوت منخفض على الخطة التي رسمها في فكرته لاجل الظفر بعدوه فبدت عليهم امارات الارتياح لما سمعوه .

وكان باردليان وجوهان قد وصلا في تلك الساعة إلى قصر

الوفير فاستأذنا الملك بالعودة واول شخص صادفاه كان الضابط فيتري فتقدم اليه باردليان وقال له بصوت سمعه الجميع :

— لقد ارجعت اليك جوادك يا سيدي وحقاً أنه فرس كريم فقد تمكنت بواسطته من اللحاق بعربة جلالة الملك بكل سهولة وبهذه الوسيلة تمكنت من توقيف خيول عربته الجامحة فجلالته مديون لك بالحياة ايضاً .

وسمع الملك هذا القول فلفت رأسه وقال :

— كن على يقين يا فيتري باني لن أنسى لك هذه المنة .

فتقدم الضابط فيتري إلى باردليان وقال له :

— أنك وايم الحق أكيس رجل وقع عليه بصري فتكرم بقبولي في عداد اصدقائك .

— بل تحق لي المفاخرة بهذه الصداقة ولم أقل ما قلته الا لأني رأيت الواجب يقضي علي باطلاع الملك على الذين اشتركوا بخلاصه .

وقال جوهان ضاحكاً :

— لقد ذكرتني يا سيدي باني استعرت هذا الجواد رغماً عن ارادة صاحبه .

— اسمح انكر عليك باني دهشت لما رأيتك على ظهره لأني لم أكن احسبك هيناً إلى هذه الدرجة .

وكان الضابط فيتري ينظر إلى جوهان لأنه لم يعرفه وقد رآه يخفر عربة الملك وهي نعمة لا تمنح الا لاقرب المقربين لجلالته ولاحظ باردليان انذهاله فعرفهما ببعضهما ولم يتمالك

الضابط أن قال :

— جوهان الشجاع ... عجباً هل هو بطل الحادثة الغريبة التي جرت في دير مونتمارتر ؟

— هو بذاته ولست اكتمك بان اعداءه قد وشوا به لجلالة الملك ولكنه تمكن بشجاعته واخلاصه من أثبات كذبهم فقدم لجلالته اعظم الخدم وبات بعد اليوم يعتبر من أوفى أصدقائه .

— لقد لاحظت هذا الامر ورأيت جلالته يخصه بعناية وعطف ممتازين وبما أنك استحسنت جوادي يا سيدي باردليان اسمح لي بأن أقدمه لك هدية محبة واخلاص .

فكاد باردليان يأبى هذه الهدية ولكنه عاد فعدل عن فكرته بعد أن نظر إلى مولده وقال للضابط :

— لا يسعني الا قبول هديتك شاكراً ولكني لست غنياً إلى درجة أتمكن بها من القيام بمثل هذه النفقات الطائلة فاسمح لي أن أقدمه باسمك إلى صديقي جوهان الشجاع .

— أن الجواد إصبح ملكاً لك وأنت حر التصرف به

— لي نصيحة أهديها اليك بطيبة خاطر وهي أن تفهم الملك باية طريقة كانت أنك أهديت جوادك إلى جوهان الشجاع فترى منه ما يسرك .

— شكراً لك يا سيدي فان نصائحك لا تقل قدراً عن شجاعتك التي لا مثيل لها .

الفصل الخامس والخمسون

نصيحة باردليان لولده

وسار باردليان مع ولده في طريق المنزل الذي كان يقيم فيه واقترح الفارس على جوهان مناولة الطعام فلبى طلبه بمزيد الارتياح لأن الجوع كان قد اثر عليهما اشد تأثير لما استوى بهما الجلوس امام المائدة التي أمر باعدادها قال جوهان

— يخيل لي يا سيدي بان نجم سعادتي قد بدا بالاشراق فمنذ أسعدني الحظ بمقابلتك لم ار الا ما فيه الخير .

— هل هذا أعتقادك ؟

— أجل لأنك كنت سبباً لحصولي على هذا الجواد الأصيل .

— لست افاتحك بامر الجواد بل اسألك إذا كنت تعتقد حقيقة أن نجم سعادتك قد بدا بالاشراق .

— الم احصل على عفو جلالة الملك بواسطتك .

— لقد قدمت له من الخدم الجليلة ما لا يسعه السكوت عنه فكم تقدر قيمة هذا الجواد

— أن أول صيرفي يهودي يدفع بثمنه وثمن عدته لا أقل من مائتي ذهباً .

— أنك عرضت حياتك لتخليص حياة الملك فلم ينلك من المكافأة الا هذا الجزاء وأظن بل انا على يقين من أنك لن تكرر مخاطرتك بحياتك مرة ثانية لقاء هذه المكافأة الزهيدة .

— اخطأت يا سيدي فاني أكره كونسيني كرهاً لا مثيل له ولو رأيته مهدداً بمثل هذا الخطر لما تأخرت عن المبادرة لنجدته أما فيما يتعلق بالملك فاني لي اسباباً خاصة تدعوني لاكون كثير الاخلاص لجلالته .

— هل لك أن تطلعني على ذلك ؟

— لقد كاشفته بالامر وقلت له أني مخلص لجلالته لأنه ابوها

— صدقت فاني نسيت ذلك والآن اذكر لي كيف عرفت بالخطر الذي كان يتهدد الملك .

فاخذ جوهان يخبر اباه بكل ما رآه وسمعه في منزل الدوق دوبرنون ولم يكتم عنه شيئاً من تفصيل تلك المقابلة الغريبة وكان باردليان يصغي اليه بمزيد الاهتمام والانتباه حتى إذا انتهى من حديثه سأله قائلاً :

— وهل أنت على ثقة من أن هذا الراهب يدعى كلود اكوافيفا .

— نعم يا سيدي ولكني لم افهم كيف يتمنى هذا الرجل موتي وأنا لا أعرفه ولا رأيته قبل هذه المرة .

– هل عرفت من هو هذا الراهب ؟

– كلا يا سيدي .

– هو الرئيس الاعظم لطغمة اليسوعيين .

– أهـذه هي الطغمة المتهمة بتحريض جان شاستل ودي كينار ودي فاراد وسواهم على قتل الملك ؟

– أجل وهي التي اعطت اليوم سلاحاً لرافالياك ليقتـل هنريكوس الرابع .

– لم أفهم لماذا يريد رئيس اليسوعيين قتلي .

فتأمله باردليان برهة وهو صـامت ولم يرض أن يذكر له السبب الحقيقي وهو لكونه مالك لذلك الكنز العظيم غير أنه رأى وجوب تحذيره من غير تنبيه ظنونه فقال له :

– أنه يريد قتلك لأنك مطلع على نياته .

وكان يحسب أن ولده يكتفي بهذا الجواب ولم يخطر بباله أنه يعترض عليه وما كان أشد أنذهاله حين سمعه يقول له :

– لما سمعت هذا الراهب يطلب موتي بالحاح لا مزيد عليه لم أكن عارفاً شيئاً من مقصده وكان يجهل أني سامـع حديثه ولولا ذلك لما تفوه أمامي بتلك الكلمات الغريبة .

– يا لك من غلام الم تكن مطلعاً على مقاصد كونسيني قبل أن تسمع هذا الحديث .

– نعم ولكن أية علاقة لهذا الأمر بتعمد الراهب قتلي .

– أعلم بان كونسيني وزوجته ليسا الا آلة بيد هذا الراهب

ولا ريب بانهما اطلعاه على ما تفوهت به من التهديد فسمح لهما بان يناصباك العداء ولم يتداخل بالامر الا في الساعه الملائمة .

– لعلك تكون صادقاً في ظنك .

– أني على يقين بما اقوله وقد تبدل الآن وجه المسئلة فان كلود اكوافيفا الذي كان يمثّل في طي الخفاء بينما كان رجاله يأتمرون بامره قد برز لعالم الوجود وأني أراهن بانه لم يعد في الساعة الحاضرة موجوداً في دير الكبوشيين حيث كان مختفياً ولم يعد الأمر يتعلق بكونسيني بـل بهـذا الرجل الذي يقضي عليه واجبه بالمحافظة على صالح طغمته فاحذر منه بعد الآن لأنه لا يترك وسيلة لاعدامك والتخلص منك .

– اظنك مازحاً يا سيدي لأني لا اظن هذا الخبيث قوياً إلى الدرجة التي توهمها لي .

– لست مازحاً يا ولدي بل إنا اكلمك بمنتهى الجـد وأنت تعرف أني لست من الرجال الذين يتوهمون من أقل الاشيـاء ويخافونها فاسمع ما اقوله لك ولصدق كلامي فهذا الراهب يحكم على الملايـين والالوف من اتباعـه وهم منتشرون في اربعة اقطار المعمور ويخافه الجميع حتى البابا على كرسيه والملك فوق عرشه ولست بالنسبة اليه الا كالدمية التي لا تذكر ازاء الجسم العظيم وإذا لم تحذر منه يسحقك سحقاً كما احطم هذا الكاس .

ورمى من يده الكاس فتناثرت اجزاؤها وقـال جوهان ضاحكاً :

– أرى يا سيدي أن حديثك سيدخل الخوف إلى فؤادي وأنا لم أعرف الخوف من قبل .

– لست احاول تخويفك بل قصدت تفهيمك وتحذيرك من هذا العدو الذي يعتبر كونسيني ودوبرنون الحاكم الاعظم شيئاً مذكوراً بالنسبة اليه .

– كفاك مبالغة يا سيدي .

سيسعى الحاكم الأعظم بالقبض عليك ويطلق كونسيني ودوبرنون عليك ورجالهما لاغتيالك وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يعرفونها للانتقام فلا يحاولون عنها وبقليل من الحذق والمهارة يتمكن المرء من اجتناب مكائدهم والتخلص منها .

– وما الذي يستطيع عمله هذا الراهب ؟

– أن اكوافيفا لا يكرهك كرهاً خاصاً ومع ذلك فالخوف منه عظيم لأنه مثال حي للسر الذي لا يدرك بل هو الموت الذي يأتي على غرة .

– يا ليَّ من شقي لأني اكتسبت عدوانه .

– يسرني ان أراك ضاحكاً في ساعة الخطر ولكنك إذا سرت على الطريق فجس بقدميك قبل أن تطأها إذ لربما تكون الأرض ملغومة وأنظر إلى ما خلفك لئلا ينقض عليك شيء من العلاء ويسحقك . تطلع إلى خلفك لئلا تصيبك رصاصة وترديك قتيلا وإذا اشتريت خبزاً فافحصه قبل أن تأكله ولا تشرب خمرة قبل أن تتحقق سلامتها وقبل أن تدخل منزلك

تأكد إذا كانت النار لم تضطرم في أحد جوانبه وانظر إلى سقف غرفتك لئلا ينقض عليك وأعمل بنصيحتي إذا كنت تود المحافظة على سلامتك ولا تريد التخلص من حياتك .

– امرك يا سيدي وأني اشكر لك هذه النصيحة واسألك أن تخبرني عن كيفية اطلاعك على الخطر الذي كان يتهدد الملك

– سأطلعك على ما تريده لعل تجني منه نفعاً .

وأخبره ما جرى له وكيف أنه تمكن بمراقبة الاخ كولار الكامل من اكتشاف هذا السر فصرخ جوهان قائلا :

– عجباً يكون هذا الراهب السكير أحد رجال اليسوعيين الذين يعملون في الخفاء ؟ ... لقد كنت احسبه مكلفاً بمهمة سرية لدى رافالياك المسكين ولم يخطر ببالي قط هذا الامر .

– أن كولار الكامل هو أحد الرؤساء العاملين لهذه الطغمة الرهيبة وذلك يؤيد لك قولي وأني لم اكن مبالغاً بتحذيري اياك .

– شكراً لك يا سيدي لأن من يعرف مكامن الخطر يسعى جهده لاجتنابه .

– ما الذي تنوي عمله هذا اليوم ؟

– سأذهب لأرى كرنكايل واطمئن منه على سلامة برتيل ثم اذهب لمقابلة رافالياك .

– اظنك تريد اقناعه بالعودة إلى انكوليم .

– نعم يا سيدي فقد كانوا يحاولون هذا الصباح اقناعه بالرجوع إلى وطنه وفي هذا المساء سيبذلون وسعهم ليعدل عن

هذا الرأي لذلك أريد أن أكون المتقدم عليهم .

وهل تنوي النوم هذا المساء في شارع الشجرة اليابسة ؟

– اجل .

– لا بأس من نومك فيه الليلة ولكنني أنصحك بان تغادر غرفتك منذ الليلة وتذهب فتنام في مغارة مونتمارتر لأنها المكان الوحيد الذي تكون فيه بمأمن على ذاتك وسأحضر في الساعة الواحدة بعد ظهر الغد لنذهب سوية إلى منزل خطيبتك.

– كيف اشكرك يا سيدي، فان الاب لا يعمل مع ابنه ما عملته معي .

ولاول مرة في حياته يشعر بتأثر يسري إلى كل جسده ولم يستطع احتمال النظرات التي سددها اليه ولده جوهان فودعه وانصرف شاكراً العناية الالهية التي أوجدت ولده بمثل هذه الاخلاق السامية .

الفصل السادس والخمسون

مراقبة جوهان الشجاع

لم يخطىء بارادليان بقوله لجوهان الشجاع انكلود اكوافيفا قد غادر دير الكبوشيين الذي كان مقيما فيه .

فانه بعد أن تحادث قليلا مع الاب يوسف فتح باب الدير وخرج منه بعد أن أنزل على وجهه قناعه .

ولم يكد يصل إلى شارع كايلون حتى ظهر أحد الرهبان من شرفة القديس روكس ونزل السلالم بخطى متعثرة ووقف في وسط الطريق متردداً بين الذهاب عن يمينه أو يساره .

ولما رأى اكوافيفا هذا الراهب ابدى اشارة سرية جاوبه عليها بمثلها وظل رئيس اليسوعيين سائراً من غير توقف حتى وصل إلى محاذاة الراهب فهمس قائلا :

– « رولي » :

ولم يكد ينطق بهذه الكلمة حتى بطل تردد الراهب فجأة وابتعد في الحال عن المدينة وقد سبق بمشيه بغلة اكوافيفا .

واجتاز اليسوعي المدينة من باب سانت هونوري إلى باب

سانت انطوان وهو يسير بتمهل حتى إذا وصل إلى ذلك الباب لكز بغلته بمهازيه فاسرعت بعدوها وبعد أن تجاوز ذلك الدير وصل إلى قرية رولى ولم يبق فيها غير عدد قليل من المنازل فوقف أمام واحد منها ودخل كأنه يدخل منزله الخاص وبعد ربع ساعة لحق بـه الاخ كولار الكامـل فجرى بينهما حديث سري طويل قال في ختامه :

– اذهب يا ولدي ولا تنسى شيئاً ما اوصيتك به وأن هذا الشاب يجب أن يموت في أقرب وقت لأن على موتـه تتوقف سلامة طغمتنا .

– سيموت يا سيدي !

وفي غروب ذلك اليوم ركب اكوافيفا بغلته وعـاد إلى المدينة فلما وصل إلى باب سان مرتين شاهد راهباً واقفاً بالانتظار فترجل عن بغلته وفي الحـال تناول الراهب زمامها وسار وهو صامت .

وكان قناع اكوافيفا لا يزال مسدولاً على وجهه يغطي عينيه فدخل باريس قبل اقفال ابوابها ببرهة وجيزة فسار في طرق متعرجة حتى وصل إلى الجسر الخاص بدير مونتمارتر فتقدم نحو الباب وكان الليل قد ارخى سدوله فقرع الباب وفتحه له الاخ كولار الكامـل الذي أخذ رئيسه إلى الطابق العلوي وادخله غرفة مفروشة فرشاً حسناً فالقى اكوافيفا نظراً دقيقاً على ما حوله وطلب من كولار أن يفحص المكان ففتح له نافذة كانت امامه فتطلع منها وقال له الراهب السكير :

– توجد من الخلف حديقة صغيرة ومن ورائها سور كثير الارتفاع ومن خلفه شارع النقود القديمة .

واقفل النافذة وفتح الباب فشاهد شبه رواق وسلماً شديد الانحدار وأمامه باب عليه قفل ضخم فقال :

– ليس لهذه الغرفة منفذ ولا يدخلها احد .

ثم ذهب إلى الحائط الكائن أمام الباب ورفع المصباح الذي كان بيده ودله على زر صغير موضوع بمهارة لا مزيد عليها فضغط عليه بخفة وفي الحال ظهرت امامهما فتحة دخلاها وإذا هي غرفة تشبه كل الشبه الغرفة التي كانا فيها وعلمه على طريقة فتح ذلك المكان وقفله ثم نزلا إلى قبية وكان فيها منفذ سري علمه على كيفية فتحه ودخلا بعد ذلك نفقاً واطئاً اضطر فيه اكوافيفا لأحناء رأسه كي يتمكن من المرور وبعد أن اجتازاه وصلا إلى السلم ونزلا منه وقال كولار الكامل :

– لقد وصلنا إلى الجهة الثانية من شارع النقود القديمة وفي هـذا المنزل الـذي يؤلف زاوية المنزل تتمكن أن ترى من نافذتك كل ما يجرى في الشارع فتستطيع أن تعطي من نافذتك الاشارات المتفق عليها للراهب الذي يكون ابداً واقفاً بانتظار أوامرك فينفذها في الحال بالسرعة المعهودة .

– حسناً فلنرجع إلى حيث كنا .

وبعد دقيقتين عاد الى المنزل السري فسأله كولار الكامل قائلاً ايريد سيدي أن ادله على الغرف المتحركة .

– لا لزوم لذلك فلنصعد .

وجلس اكوافيفا على الكرسي الوحيدة الكائنة في الغرفة وسأل كولار الكامل قائلا :

– ما الذي جرى لرافاليك يا ولدي ؟ فقد صرنا في حاجة اليه بسبب أبن باردليان فانك بعد أن اقنعته بالعودة الى وطنه مضطر لاستعمال الحيل كي يعدل عن عزمه فهل تتوسم النجاح في مسعاك .

أن ما استصعبته بالامر هو تمكني من جلبه الى هنا من غير تنبيه ظنونه وانا على يقين من نجاحي اذا توقفت لاحضاره معي وانا اكفل عدم سفره بمجرد دخوله هذا المنزل لأني امرت باعداد ما يلزم في الغرف المحركة التي كنت أريد أن تلقي نظرة عليها .

– وما الذي جرى بجوهان الشجاع ؟

– لقد اطلقت في اثره نفراً من رجالنا يلازمونه ليل نهار ولا يفارقونه طرفة عين وسيكونون اتبع له من ظلة الى أن ننجز امرنا معه

– احرضك على سرعة العمل لأن وجوده مضر كثيراً بصالحنا

– اربما يكون أنتهى امره في الساعة الحاضرة .

– ليتقبل الله طلبك وما الذي تم بمسألة الحفريات ؟

– أنها سائرة سيراً حسناً وقد اكتشفنا المذبح الوارد ذكره في التعليمات السرية وعما قليل نكتشف الزر السري ونقارب الغاية المنشودة .

– وفقك الله الى ما فيه النفع العام .

الفصل السابع والخمسون

الموت يلاحق جوهان الشجاع

بعد أن فارق جوهان الشجاع باردليان خرج من باريس من مونمارتر فمر امام منزل بيريت الحسناء ولم يتوقف ولما وصل الى قصر بورشرون لحق به كرنكايل الذي كان مختفياً هناك فسأل عن بيريت وبرتيل فطمأنه عليها وامره أن يزهد اهتماماً مع رفيقه بالمراقبة ووعده بان يخلصهم عما قريب من هذه المهمة المتعبة .

وبعد أن ارتاح باله من هذا القبيل ذهب للتفتيش على رافاليك فقيل له من في المنزل الذي كان مقيما به أنه سافر إلى وطنه فسر لهذا الخبر وعاد إلى المدينة من باب سانت هونوري ولما وصل إلى شارع بيتسي سمع من خلفه حركة خفيفة فقفز في الحال إلى الجهة الثانية ومرت رصاصه بجانب رأسه واعقبتها رصاصة ثانية فسقط إلى الارض صريعاً وبعد أن تخبط قليلا بقي في مكانه لا يأتي حراكا وسمع في ذلك الليل البهيم صوت يقول :

– لقد قضي الأمر .

– أظن أنه قد مات .

– كيف كانت الحال يجب علينا التثبت من الامر فان الاجرة التي تقاضيناها تستحق العناء .

وكان جوهان ممدداً على الارض لا يتحرك وهو أما ميت أو مغمى عليه فاقترب منه الرجلان بتحرس وفي يد كل منهما خنجر لامع ولكنهما لم يكادا ينحنيان عليه حتى صرخ صوتاً واحداً دل على مزيد الالم .

ولم يكن جوهان قد اصيب بالرصاص ولكنه لما سمع دوي الرصاصة الثانية من فوق رأسه تظاهر بالاصابة والموت ورأى الرجلين يقتربان منه وكان قد سمع كلامهما فلما انحنيا عليه رفس كلا منهما في صدره فالقاه بعيداً عنه وهم واقفاً وقد عزم على اكراههما على الكلام .

وقبل أن يتمكنا من القيام كان قد قبض على عنق كل منهما بيد حديدية وضغط بشدة فجحظت عيونهما في ارقابهما وسألاه العفو بصوت مختنق فقال لهما :

– أني اعفو عنكما بشرط أن تخبراني باسم الذي استأجركما لقتلي .

– أمرك ولكن خفف ضغطك فقد كدت اخـ ...

– تكلم ايها اللئيم فمن الذي استأجركما لقتلي .

– لست اعرفه يا مولاي .

– لقد كذبت ولئن لم تعترف بالحقيقة بتمامها فودع الحياة

– اقسم لك على خلاص نفسي الابدي اننا لسنا نعرفه .

– سمعتكما تقولان بانكما قبضتما اجرة حسنة جزاء قتلي فاذا كنتما لا تعرفان الرجل فصفاه لي .

– لم نر وجهه لأنه كان مسدلا قناعاً سميكاً على وجهه غير أن ملامحه تدل على أنه راهب لأن ثيابه كانت سوداء شبه ثياب الرهبان .

– حسناً فاني اعفو عنكما أيها الشقيان فاذهبا من حيث اتيتما واياكما أن تقفا مرة ثانية في طريقي .

فانطلق الشقيان يعدوان وهما لا يصدقان بنجاتهما من تلك القبضة الحديدية أما جوهان فانه دخل غرفته وقفل عليه بابها وهو امر لم يتفق له قبل الآن وارتمى على مقعد وقد استغرقته الافكار العميقة وهمس قائلاً :

– لقد بدأ عمل اكوافيفا وكان باردليان صادقاً في قوله ولسوف نرى كيف تكون العاقبة .

وفي صباح اليوم الثاني بينما هو يستعد للخروج من غرفته قرع بابها فنظر من الثقب ورأى أحد خدمة النزل الذي يقيم فيه الفارس باردليان وهو يحمل سلة كبيرة ففتح بابه وقال له الخادم بعد التحية :

لقد ارسل اليك سيدي الفارس باردليان هذه الهدية فتكرم بقبولها :

وكانت هذه الهدية عبارة عن ست زجاجات من الخمر المعتقة وبعض قطع من الحلوى الفاخرة فشكر له في سره هذا التلطف وصرف الخادم بعد أن اجازه بمكافأة مالية وأراد أن يفتح

إحدى الزجاجات ولكنه عاد عن هذه الفكرة لأنـه فضل أن يشربها مع باردليان الذي وعد بأن يأتي لزيارتـه في الساعـة الواحدة بعد ظهر ذلك اليوم .

وفي الساعة الواحـــده بعد الظهر قرع الفارس باب ولده جوهان فبادر لاستقباله وشكره للهدية التي ارسلها اليه فقال له باردليان بقلق :

– لم ارسل اليك شيئاً ولعلك لم تتناول شيئاً منها .

واخذ جوهان يقص عليه ما جرى له بالامس وكيف نجـا من الاعتداء عليه فقال له باردليان :

– الا تزال تعتقد أني بالغت لك لما اخبرتك ما اعرفه عن اكوافيفا .

– كلا وايم الحق فما هذا الراهب الا شيطان قذفه الجحيم

– لم تر حتى الآن إلا المقدمة فانتظر النتيجة .

– سوف ترى والله وقسم تحت يدي أعرف كيف انتقم واريح الارض منه .

فتبسم باردليان وأخذ زجاجات الخمر وحطمها ولم يحفظ الا واحدة منها والقى الحلوى وذهب مع جوهـــان إلى النزل الذي كان يقيم فيه فصادف الخادم الذي حمل لجوهان تلك الهدية فناداه وقال له :

– لقد حملت هذا الصباح هدية إلى جوهان من قبلي وهي عبارة عن ست زجاجات من الخمر فخذ واشرب من هذه الزجاجة فتناول الخادم الكأس وادناه من فمه ليشربها ولكنه قبل أن

يزدردها امره باردليان بالامتناع عن شربها لأنها خمر مسمومة فذعر المسكين ومن فرط خوفـه سقط الكأس من يده وتحطمت وهمس قائلا :

– يا له من راهب شرير !

فاكتفى الفارس وولده بهذا القول وقد فهما منه ما يريدانه وذهبا تواً إلى حيث كانت تقيم الآنسة برتيل وقد اتخـذا كل الاحتياطات لئلا يؤاخذا غيلة .

وفي المساء عاد جوهان إلى منزله في شارع الشجرة اليابسة بناء على نصيحة باردليان ولما دخل غرفته تمدد على سريره لينام فتمطى وتثاءب وبعد أن وضع رأسه على المخدة نظر إلى السقف فقفز عن سريره إلى الارض واصغى بمزيد الانتباه فسمع حركة خفيفة لا تكاد تسمع فتناول سيفه ورداءه وخرج مسرعاً من الغرفة بعد أن اطفأ مصباحه .

ولم يكد يصل الطريق حتى سمع ضجة هائلة فالتفت إلى جهة بيته وإذا بالغرفة التي كان ينام فيها قـد تهـــدم وارتفع غبارها إلى عنان السماء فصرخ قائلاً :

– حقاً أني نجوت من موت محتم وقد طال مزاحـك معي يا اكوافيفا حتى بات ثقيلا فاين اقضي ليلتي يا ترى .. ليس لي الا أن أذهب واطلب ضيافة من كرنكابل .

وأخذ يسير في طريقه وهو يتوقع في كل خطوة أن يصادف ما يذهب بحياته ولكن ظنونه لم تصدق هذه المرة فوصل إلى رفاقه ونام معهم حتى شروق شمس اليوم الثاني .

وفي الساعة التاسعة ترك رفاقه ولم يكد يتخطى عتبته حتى وقعت بجانبه صخرة كبيرة كادت تسحقه سحقاً لو لم تحد عنه بضع شعرات فعاد إلى المنزل وهو يسخط ويلعن في سره اولئك الاعداء غير المنظورين .

ولما سكنت قليلا ثورته وحدته سأل كرنكايل قائلا :

– الست تستطيع أن تجد لي مكاناً اميناً آوي اليه بضعة ايام سواء كان خارج المدينة أو داخلها .

– أن صهر مرتين وصيفة بيربت يملك منزلاً في قرية فيلنوف وهو يدعى سيمون الاعرج ويتمنى أن يؤجرك غرفة فيه

– أني أعهد اليك انجاز هذه المهمة .

– امرك ايها الرئيس .

ولما استراح باله من هذا القبيل ذهبا لمقابلة باردليان فركب كل منهما جوادة وسارا يتنزهان في الغابه وقد صادف باردليان على ما ارتآه ولده من وجوب تغيير منزله وقال له :

– سوف ترى أن مغارة مونتمارتر خير مكان تستطيع الالتجاء اليه وتكون آمنا فيه .

وعادا الى المدينة عند حلول الليل ثم ذهب جوهان إلى منزله الجديد الذي دله عليه كرنكايل ولما وصل اليه قرع بابه ففتحته امرأة عجوز وقالت له :

– لقد كنت بانتظارك يا سيدي بفارغ صبر فاذا احببت ادلك على الغرفة المختصة بك .

– عفواً فقد كنت أتوقع أن أرى هنا سيمون الاعراج فاين

هو الآن ؟

– لقد اسعده الحظ ببيع منزله هذا اليوم وقد خصصنا لك هذه الغرفة فاذا احتجت الى شيء اقرع الجرس ابادر مسرعة لخدمتك .

فتفقد المكان بدقة وبعد أن وطد عزمه على النوم تمدد في في سريره واطبق عينيه ولم يلبث أن غط غطيطاً عالياً .

وفي منتصف الليل استيقظ مذعوراً وفتح عينيه فاذا هو في ظلام حالك وشم رائحة قوية تكاد تخنقه وشعر بوخز اليم في كل جسده وسمع من حوله دوياً شديداً كاد يصم اذنيه وكان في يقظة تامة ولكنه حسب ذاته يحلم حلماً قبيحاً فحاول النهوض من سريره ولكنه لم يستطع ذلك رغم الجهد الشديد الذي بذله .

وفي تلك اللحظة سطع نور فجائي وانار الغرفة فادرك في الحال الحقيقة الرهيبة وانحلت الربط الغير منظورة التي كانت تمنعه عن الحركة وصرخ قائلا :

– النار

واتجه بصره الى النافذة فرآها قد فتحت ودخل منها الهواء فبدد الذي كاد يخنقه ونظر منها الى الاسفل فعرف الخطر الذي يلحق به اذا قفز منها ولكنه لم يكن يستطيع اضاعة وقته بالتفكير فقفز منها الى الحائط القريب من غرفته وقصد مغارة مونتمارتر وهو يناجي نفسه بقوله :

– ارى أن الحق بجانب باردليان وسأضطر رغماً على النوم في هذه المغارة .

الفصل الثامن والخمسون

اليونورا واللصوص

وفي صباح اليوم الثاني غادر المغارة عند بزوغ الفجر ولم يكن عنده ما يدعوه للتسرع ولكنه رأى ذاته قريباً من ذلك السلم المدفونة تحته تلك الكنوز الطائلة فأحب أن ينجو من التجربة .

وقبل خروجه من النفق تأكد بأن المكان خال من الرقباء فسار قاصداً المدينة وهو ينوي زيارة الفارس بارادليان ولكن الساعة كانت باكرة جداً فأحب أن يضيع الوقت وأخذ يتمشى على غير هدى حتى أشرقت الشمس فسار الى النزل الذي يقيم فيه الفارس وتراه على أهبة الخروج منه فقص عليه ما جرى له بالأمس وكيف نجا من موت محتم .

وودعه الفارس بحجة أنه يريد القيام بمهمة خطيرة تستدعي غيابه كل ذلك اليوم وليلته ولم يخبره انه ذاهب للتفتيش على الأخ كيلار الكامل الذي يؤمل الوصول بواسطته إلى اكوافيفا وقضى جوهان الشجاع ذلك اليوم وحده حزيناً ولما أقبل

الليل اسرع نحو باب مونتمارتر من طرق متعرجة ليصل الى مخبأه بأسرع ما يمكن ولما وصل الى شارع اللحامين خيل له أنه يسمع عن بعد صوت عراك ونداء استغاثة وتصور انه يعرف صاحبة ذلك الصوت فلم يتردد بأمره وهرول نحو ذلك المكان حتى وصل الى شارع ضيق فرأى سبعة او ثمانية من اللصوص يحيطون برجل واحد وهم يقاتلونه وهو يدافع عن نفسه بمنتهى الشدة ومن خلفه امرأة كانت تصيح طالبة النجدة والمعونة وعلى مقربة منها شبح يشبه الرهبان بملابسه .

وبأسرع من لمح البصر امتشق جوهان حسامه وانقض به على اللصوص يصليهم طعناً دراكاً فسقط ثلاثة منهم صرعى وفر الباقون وقد تولاهم الذعر العظيم فأعاد جوهان سيفه الى غمده ونظر الى الرجل الذي بادر لنجدته فعرفه في الحال وضحك ضحكاً عالياً لأنه كان مربيه ساتيا .

وتقدمت المرأة التي كانت تصرخ مستنجدة ودنت من جوهان الذي كان مديراً لها ظهره وقناعها مسدول على وجهها فلما رآها ساتيا تدنو من الشاب أخذ يبدي لها اشارات سرية لم تفهمها أو لم ترها وقالت لجوهان :

– لقد انقذت حياة هذا الأب المحترم وحياتي وإذا كنا لا نستطيع مكافأتك على جميلك فلا أقل من اظهار عواطف امتناننا ونسألك ان تذكر اسم الشجاع الباسل الذي عرض حياته لانقاذنا لنذكره دائماً في صلواتنا .

فالتفت جوهان الى المرأة وقال لها بصوت متهـدج من الغضب :

- تريدين معرفة اسمي افلا ترين ساتيا يبدي لك الاشارات السرية افلا تزالين تجهلين من أنا ؟

- جوهان الشجاع !

ومن الغريب ان هذه المرأة التي اظهرت بسالة فائقة حين هاجمها اللصوص جزعت اشد الجزع لمصادفتها جوهـان غير أن تأثرها لم تطل مدته ولحظ منها جوهان هذا الأمر فقال لهـا ساخراً :

- أراك قد عرفتني فابتعد من هنا يا ساتيا إذ يجب ان أكلم هذه السيدة ورفيقهـا المحترم ... قلت لك ان تبتعد في الحال لأني تعلمت كل طعناتك وعرفت الصاعقة وكيفية الوقاية منها وزدت عليها معرفة كثير مـا تجهله ولا اراني في حاجـة لأخبرك اسم الشخص الذي علمني .

فزمجر ساتيا من فرط خجله وحنقه وتذكر مبارزته مع باردليان فخاف خوفاً عظيماً ولم يكن خوفه ناجماً عن الموت لأنه لم يكن يرهبه بل عن العار الذي يلتحق به اذا ظفر بـه تلميذه فأطاع أمر جوهان وابتعد عنـه فتقدم من اليونورا غاليكاي و كلود اكوافيفا وقال بصوت أجش :

- لقد عرفتك في الحال كما عرفت رفيقـك المحترم أو المعظم وإذا أراد أن اذكر له اسمه فلم يبق من موجب لتكتمكما على بهذين القناعين الكثيفين .

ولم يكادا يسمعان هذا القول حتى انزل كل منهما قناعه عن وجهه وقال جوهان بسكينة :

- لقد شاءت الاقدار ان اكون واسطة لتخليص حياتكما فكونا مطمئنين لأني لست من الوشاة وأظنك يا سيـدي لم تنس انك حاولت تحريضي على قتل الملك وبذلت جهدك أكثر من مرة لتجعلني قاتلاً ولم ابق في قيد الحياة حتى الآن إلا رغم انفك وأما انت أيها المحترم فقد حاولت قتلي بالرصاص فلم تنجح وعمدت الى تسميمي فلم تفلح وهدمت علي منزلي فلم تنل مبتغاك ورميتني بصخرة كادت تسحقني لو لم تسعدني العناية الالهية بالخلاص منها ثم حاولت احراقي حياً فخانك الحظ فهـل أنا صادق في قولي ؟

- نعم .

- الا أكون محقاً إذا قابلت ضرركما بمثله وسحقتكما الآن تحت قدمي ؟

- بلى ولكنك لا تفعل ذلك .

- وما الذي يؤخرني عنه ؟

- أنت لأنك لا تضرب هذه السيدة لأنهـا أمرأة ضعيفـة وليس لها من معين ولا تضربني لأني عجـوز هرم صرت على ابواب القبر ومثل ذراعك القوي لا يرفع إلا على الأشداء فهل صدقت بحكمي عليك ؟

- انك تتكلم حسب هواك فأنت أيتها السيدة غنية وعظيمة السلطة وأنت رئيس لا راهب جمعية دينية ولك سلطة هائلة

يرتجف أمامها ملك فرنسا بذاته ولست بالنسبة اليك إلا هباء منثوراً لأني لا اعتمد على غير ذراعي .

— صدقت ولكن ذراعك قوي البطش وأنا الآن وحدي بلا سلاح ولا معين وليس اسهل عليك من الفتك بي ولكني قلت لك بأنك لا تقتلنا لأننا لا نستطيع الدفاع عن ذواتنا .

— صدقت فاذهبا الى حيث اردتما لأني اعفو عنكما .

— اني أقبل منك هذه النعمة شاكراً ليس لتعلقي بالحياة لأن من وصل الى عمري أيها الشاب لا يصبو لغير الراحة الابدية ولكنني ارغب البقاء حياً بضع سنوات أيضاً لأتمم الأعمال العظيمة التي ابتدأت بها لمجد الله المعظم .

وقالت اليونورا برباطة جأش مدهشة :

— لست انكر اساءتنا اليك ولكنك قد لاحظت ولا ريب بأن زوجي لم يعد يتعرض للاساءة اليك وسأخبره بما جرى لنا وانك انقذت حياتي فيتخذك بعد الآن صديقاً له .

وذهبت قاصدة منزلها وسار اكوافيفا مع جوهان الى المنزل السري الذي كان يقيم فيه فقرع بابه بطريقة خاصة وفتح له في الحال ولكنه لم يدخله بل خاطب جوهان قائلاً :

— لا بد لي من الاعتذار اليك لأني حسبتك بعد أن عرفتني تسعى للوشاية بي وما ارتبت بك إلا لاني لم اكن اعرفك حق المعرفة ولولا ذلك لما أتيت الاعمال التي ارتكبتها والتي أنا آسف عليها لأنها كانت بلا فائدة أما اليوم فلست اتردد بارشادك على المكان الذي اقيم فيه وانك بسببي قد تأخرت حتى هذه الساعة

التي قفلت فيها ابواب المدينة فاريد التكفير عن الضرر الذي الحقته بك من غير تعمد فقل لي من أي باب تريد دخولها ؟

— من باب مونتمارتر .

— خذ هذا الريال ومتى وصلت الى الباب الذي تريد الدخول منه استدع الضابط المأمور بالحراسة وأره اياه وقل كلمة رولي فيفتح لك الباب في الحال وتذهب الى حيث تريد وتنام في النفق الذي لجأت اليه بعد الحريقة الاخيرة .

فلم يسع إلا أن دهش من السلطة العظمى التي كان متمتعاً بها هذا الراهب الذي قال له :

— لقد انقذت حياتي أيها الشاب وهو عمل لا يذكر بحد ذاته ولكنه عظيم في نظري لأني سأتمكن من اتمام الاعمال السامية التي بدأت بها ولا بد لي من مقابلتك على جميلك بمثله .

— لست اقبل منك عطاء وأنت غير مديون لي بشيء .

— اني على يقين بأنك لم تعمل ما عملته معي إلا اراحة لضميرك فاسمح لي ان اقتدي بك وكن على ثقة بأني منذ هذه الساعة لم اعد احاول الاعتداء على حياتك .

— شكراً لك يا سيدي المعظم .

— افقه ما اقوله لك أيها الشاب ولا تعاكسني في بعض اعمالي وإذا كنت اعدك بالامتناع عن السعي وراءك فحذار ان تقع تحت قبضتي .

— وإذا خانتني الاقدار وحصل هذا الامر فما الذي يجري لي؟

— تموت من غير شفقة ولا رحمة .

الفصل التاسع والخمسون

الرؤية المذهلة

لا بد لنا من الرجوع حديثاً الى باردليان الذي ذهب للتفتيش على الاخ كولار الكامل الذي كان يعلم علم اليقين انه من أهم رجال اكوافيفا بل هو الرجل الوحيد من طغمة اليسوعيين الذي كان يعرف مقر رئيسه الاعظم .

— وبعد تفتيش دقيق رآه في حانة يتناول مسكراً فلم يعد يفارقه طرفه عين .

وادرك في الحال بحدة بصره ان للمنزل منفذاً ثانياً يؤدي الى شارع النقود القديمة فاختار حانة كانت على زاوية الشارعين وكان من مكانه يستطيع مراقبة المنفذين وطلب زجاجة خمر وجلس أمام طاولة وأخذ يتظاهر بالشرب وهو لا يفارق ما يراه ببصره .

وفي اثناء ذلك ذهب كولار الكامل من النفق إلى المنزل السري الذي يقيم فيه اكوافيفا وبعد نصف ساعة خرج من باب السجن وكانت عندئذ الساعة الحادية عشرة صباحاً .

وظل سائراً الى الامام لا يلوي على شيء حتى وصل الى

فندق حقير يدعى فندق الاهلة الخمسة ولم يكن يرتاده غير الجند والطبقة العامة من الشعب وفيه كان قد أقام رافالياك ولم يعد الى وطنه كما اخبروا بذلك جوهان الشجاع لما افتقده في فندق الحمامات الثلاث وكان كولار الكامل قادماً للتفتيش عليه .

لا يعلم أحد ما جرى بينهما من الحديث السري حتى اقنعه على المجيء معه وغاية ما نعلمه ان رافالياك كان بعد برهة يسير بجانب الاخ السكير ودخلا سوية الغرفة التي اراها الاخ كولار الى اكوافيفا وهي غرفة صغيرة للغاية ليس لها من نوافذ ولا يدخلها النور من غير الباب ولم يكن فيها من متاع غير سريرين موضوعين ازاء طاولة خشبية وكرسيين وعلى الطاولة طعام بسيط فأخذ رافالياك ورفيقه يتناولانه باشتهاء زائد .

أما كولار فقد اظهر نفرته من شرب الماء القراح وذهب فارتمى على أحد السريرين وطلب من رفيقه أن يقتدي به فأجابه رافالياك الى طلبه وهو يبتسم ولم تمر عليه خمس دقائق حتى أخذ يغط بنوم عميق عندئذ انتصب كولار واقفاً وأخذ يفتش بيده على المحرك الذي يفتح الباب السري وفي الحال ظهر راهبان قويا البنية للغاية فقبضا على النائم من رجليه وكتفيه وحملاه وكان كولار الكامل يتبعهما وهو صامت .

وبعد خمس دقائق ثانية كان الرجلان قد أقاما في غير المنزل الأول والغرفة الأولى وكانت هذه الغرفة التي كانا فيها شبهاً لا مزيد عليه بالحجم والرياش فظل رافالياك نائماً نحو ساعة ثم استيقظ ولم يشعر بشيء من هذا التغيير وكان يشعر بثقل في

رأسه ولكنه لم يبال به فاستوى جالساً وتأمل رفيقه الذي كان يغط في نومه فهمس قائلاً :

– اهكذا تقام الصلاة وتصير الندامة على الخطايا ولا ريب بأن هذا الراهب رحيم على ذاته كما هو رحيم على الغير وعلى كل حال فهو حسن الطوية وسأصلي بالنيابة عنه .

وقام واقفاً فشعر بأن رجليه لا تقويان على حمله واضطر ان يستند على الطاولة لئلا يقع على الارض وشعر بحرارة قوية تحدق به وان مصدرها الحائط الذي كان أمام الباب فتناول الابريق وشرب منه جرعات كثيرة وأخذ العرق يتصبب غزيراً من جبهته فعاد الى سريره وخر جاثياً على الأرض بين السرير والطاولة وقد أدار ظهره الى الباب وأخذ يصلي ويقرع صدره ضارعاً بحرارة .

وبينما هو كذلك ارتجف فرقاً من رأسه الى اخمص قدميه فاغمض عينيه ولما فتحهما رأى ذاته وسط ظلام دامس فزادت افكاره قتاماً وهمس قائلاً :

– الظلام الابدي .. ظلام الموت والهلاك حيث ستسجن نفسي الشقية الى الابد فارحمني يا إلهي واشفق عليّ .

واغمض عينيه مرة ثانية ثم فتحهما كأنه يريد التحقق بأنه لم يكن عرضة للاوهام ولكنه تأكد لسوء الحظ بأن ما رآه كان الحقيقة التى لا ريب فيها وكان الظلام الدامس يحيط به من كل جهة وصورت له مخيلته المضطربة اشباحاً مخيفة كادت تذهب بالبقية القليلة من عقله .

وأخذت الحرارة تتزايد حتى لم تعد تحتمل وتوهم أنه يدوس على بلاط مضطرم فصرخ بوجل لا مزيد عليه .

– الظلام .. النار .. الجحيم .. لقد احترقت .. أني هالك . هالك لا محالة .. ارحمني يا الهي فاني لا استطيع قتله لأنه ابوها .

فتحرك كولار الكامل قليلاً على سريره وضغط بخفه على زر صغير وفي الحال ظهرت فتحة صغيرة بجانبه فانحنى عليها وهمس بعض كلمات سرية وعاد كل شيء إلى مكانه .

واشتدت حرارة المكان إلى درجة لا تطاق فشعر المسكين بان ركبتيه تحترقان وبات يعتقد الاعتقاد الوطيد أنه اصبح في الجحيم ولم يبق له مفر من النار الابدية فاخذ يبكي وينتحب وفجأة ظهر مكانه نور يعمي الابصار ولهيب مختلف الالوان فانتصب رافالياك واقفاً وقد اصفر وجهه ووقف شعر رأسه وصرخ صوتاً عظيماً كالثور المذبوح فتظاهر كولار أنه استيقظ من نومه فجأة وقال له مؤنباً :

– ما بالك يا جان فرانسوا تزأر كالثور ؟ الا يمكن للانسان أن ينام براحة معك ؟ وما بالك تنظر إلى هذا الحائط بوجل كأنك ترى فيه الشيطان ؟ اعمل مثلي ونم مستريحاً .

فاعاد هذا الصوت قليلاً من شجاعته ولكنه ظل يبصر النور واللهيب ويسمع الدوي الهائل الذي اقلقه فاراد أن يكذب حواسه ويتثبت من الامر فاسرع إلى سرير كولار وضغط عليه بمنتهى قوته وسأله قائلاً بصوت متهدج :

– هنا .. هنا .. ألست ترى شيئاً ؟

– أرى الحائط .

– كلا بل هو نور يعمي الابصار .

– أنك لمجنون لأن الظلام حالك في هذه الغرفة .

– الست ترى النار الم تشعر باننا نكاد نحترق ؟

– أني احس بقليل من الحرارة الناشئة عن الزوبعة .

– كلا بل هي نار الجحيم وإذا كنت لا ترى شيئاً ولا تشعر بشي، فما ذلك الا لأني هالك وحدي فاني اشعر بالحريق وأرى أمامي هوة لا قرار لها وهي شبه اتون عظيم .

وكان رافالياك صادقاً بقوله فقد ظهرت مكان الحائط حفرة عميقة للغاية وهي توازي بحجمها الغرفة التي كانا فيها وفي اسفلها اتون مضطرم فاصبح منظرها رهيباً .

وتراجع المسكين إلى الباب وأخذ ينظر إلى النار بوجل واضطراب وفي تلك اللحظة دوى الرعد القاصف فارتجف لصوته وهمس رافالياك قائلا :

– الم تسمع هذا الصوت الرهيب ؟

– لم اسمع شيئاً لأن ما تراه ناجم عن مخيلتك المضطربة فانت حر بان لا تنام ولكن دعني استريح لأني وعدتهم بمرافقتك .

وارتمى الراهب مرة ثانية على سريره وانزل قناعه على رأسه كمن لا يريد أن يرى أو يسمع شيئاً وفي تلك اللحظة اخذت اصوات بعيدة تنادي قائلة :

– جان فرنسوا .. جان فرانسوا هل أنت هنا .

– نعم .. نعم .

– انظر يا جان فرانسوا واصغ لما هو معد لك لأنك جبنت عن قتل الظالم فستصبح من حزبنا وتأتي الينا .

وظهر في وسط الاتون الذي كان يتقد بلهيب احمر وأزرق وبنفسجي اشباح كثيرة تتراكض وتصرخ من فرط الالام التي كانت تعانيها واخذت كلها تتفرس به كأنها لا تصدق بحلول الساعة التي تأخذه اليها وانتصبت بين هذه الاشباح امرأة حدقت به مليا وقالت له :

– أنظر إلي يا جان فرانسوا فانا والدة برتيل التي لم تجسر بسببها على قتل الجاحد الهرطوقي الملعون لأنه ابوها فيالك من مجنون ... اعلم أني هنا وسط النيران اقاسي عذاب الجحيم بسببه لأنه هو الذي فضحني واصبح والداً لابنتي بطريقة تعجز عنها الابالسة فهل يمكن اعتبار مثل هذا الاب ؟ وهل عرفت ما أقوله يا جان فرانسوا ؟

وصمتت برهة كأنها تتوقع أن تسمع منه جواباً ثم اردفت كلامها قائلة :

– كلا لا يجب اعتباره بمثابة والد وابنتي تكرهه وتحتقره وقد كنت اؤمل أن تنتقم لنا وتأخذ بثار جميعنا ولو فعلت ذلك لكان أنتقامك يخفف آلامنا ولكنك جبان لم تقدم على العمل بل تراجعت عنه فانا وسائر الذين ذهبنا ضحاياه نلعنك وستكون من عدادنا يا جان فرنسوا لأنك جبان .

فوقف شعر رافالياك من فرط ذعره وصرخ قائلاً :

— ساقتله .. ساقتله ... أني أقسم بالله وبالعذراء باني كنت أحسب ذاتي أحسنت صنعاً بعملي ولكن بما أنه ابوهـا بالاثم فـسيموت لا محالة !

وسمعت في تلك الساعة زمجرة قوية وغابت تلك المناظر الجهنمية وانطفأ ذلك النور الساطع الذي كاد يعمي بصره وعاد الحائط إلى مكانه الاول .

وكان رافالياك واقفاً في منتصف الغرفة فاخذ يتساءل إذا كان لم يحلم حلماً مزعجاً ولكن الحرارة الشديدة والحائط الناري اثبتا له بانه لم ير غير الحقيقة فاخذ يصلي ضارعاً إلى الله ليغفر ذنوبه ويقبل توبته .

واخذت الحرارة تتناقص تدريجياً وحلت محلها رطوبة منعشة وأنتشرت الروائح الذكية فعقبت الغرفة واستبدل جزع المسكين وخوفه بنشاط داخلي لا يوصف .

وبينما هو كذلك وصلت الى مسامعه انغام الموسيقى السماوية من بعد فرفع رأسه إلى العلاء مبهوتاً وعاودته الافكار العميقة فارتجف مرة ثانيه ولكن ارتجافه كان ناجماً عن سرور .

وغاب الحائط فجأة وانار الغرفة نور اصفر ضئيل فضم يديه الى بعضهما لانه كان لا يزال يرى الهاوية أمامه ولكنها لم تكن هذه المرة مضطرمة بالنيران بل كانت مزدانة بالخضرة والزهور التي لا مثيل لها فكانت تنتشر روائحها الذكية وتعطر بها سائر الارجاء فخر جاثيا على ركبتيه وقد أخذه هذا المنظر البديع الذي يأخذ بمجامع القلوب .

وشاهد عن بعد كثير عرشاً ذهبياً عليه ذو الجلالة كما كان يراه مرسوما في الصورة المزدانة بها الكنائس وعن يمينه كرسي فارغ ومن حوله ملائكة لا يوصف جمالها يروحون ويجيئون مترنمين بالتسابيح الملائكية التي كانت تصحبها انغام موسيقية ليس اطرب منها .

وكان كل ملاك لابسا ثوبا طويلا من الحرير الناعم وفوق رأسه اكليل ذهبي مكتوب عليه اسم صاحبه وهم ينشدون تسبيحة المجد ولما انتهوا منها قال ذو الجلالة :

— اذهب يا جان فرانسوا وتمم المهمة المقدسة التي نيطت بك فان مكانك محفوظ هنا .

— ساطيع ساطيع يا ربي والهي .

وصعقه الفرح الزائد فاغمي عليه ولكن اغماءه لم يطل كثيراً فانه لما عاد الى وعيه وجد ذاته في ذات المكان الذي وقع فيه على بعد خطوتين من الحائط ورأى الاخ كولار الكامل يبذل مجهوده للاعتناء به وقال له بفرح زائد وقد عاد الى وعيه

— لا يتطلب الله منا اكثر مما نقوى عليه ومن الخطأ الفادح ما نأتيه من الاعمال الجنونية التي تنهك قواك الجسدية فضع حداً لتورعك .

— الم اكن نائما .

— كلا ولم تغمض عيناك لحظة واحدة ولو نمت لما اغمي عليك من فرط تعبك وما عانيته من الجهد في صلاتك .

الم تر ولم تسمع شيئا مما رأيته وسمعته ؟

– عجبا هل عاودتك افكارك الغريبة . .

– اذا كنت لم تر ولم تسمع مثلي فانت لست بمختار فاعلم باني عدلت بتاتا عن العودة الى وطني ولا افارق العاصمة بعد الآن الى أن يقضي الله امراً كان مفعولاً لأني اذا سافرت يقضي علي بالهلاك الابدي وهذا امر لاتريده لي ولا يسعني الا الأمتثال للاوامر التي تلقيتها .

-- من الذي بلغك هذه الأوامر .

-- الله جل جلاله فهل استطيع الذهاب الآن .

– ومن الذي يحجز عليك حريتك ايها الصديق ؟

– وكانت الساعة السادسة مساء لما خرج كولار الكامل من مكمنه وكان بارديليان لا يزال بانتظاره وفي الحانة التي تركناه فيها فاخذ يتعقب خطواته الى أن رآه دخل حانة وطلب طعام اخذ يلتهمه بنهم لا مزيد عليه ويتجرع الخمرة التي يقدمونها له الكاس تلو الآخر فتركه هناك بارديليان وعاد على أعقابه الى المنزل الذي كان يقيم فيه فتناول طعامه وتمنطق حسامه ووضع رداءه على كتفيه وخرج بقدم ثابتة وهو يناجي نفسه قائلاً :

– هيا بنا الى حيث الملايين لأني متشوق لمعرفة ما يمكن أن يحدث من الأمور الجديدة التي لا تكون بالحسبان .

الفصل الستون

جوهان والكنز

لما غاب اكوافيفا عن نظر جوهان الشجاع ابتعد مسرعاً وقد اثرت عليه اللهجة التي خاطبه بها اليسوعي .

وكان قد وصل إلى باب مونتمارتر فاظهر الصحيفة التي اعطاها له اكوافيفا إلى الضابط وقال له كلمة رولي وفي الحال تقدم الضابط وفتح الباب له بذاته وهو يبدي له من ضروب الاحترام ماملأه دهشة .

وتقدم إلى النفق المؤدي إلى المغارة السرية بمزيد الانتباه والتحذر وهو يجس الارض عند كل خطوة متوقعاً مصادفة العراقيل الهائلة ولم يتنهد تنهد الارتياح الا بعد وصوله إلى المغارة حيث شعر أنه اصبح في مأمن على نفسه .

ولما وصل إلى المغارة اثار مشعلاً وجلس على صندوق وظل برهة طويلة مفكراً وكان قد ملاء زجاجتين من الخمر فشربهما من غير انتباه لأمره ثم قال وأخذ يتمشى ذهاباً واياباً ويمر من حين

إلى آخر أمام السلم المدفونة تحته تلك الكنوز الطائلة وكل مرة يحول نظره عنه إلى أن توقف أمامه فجأة وهمس قائلا :

– ما الذي يمنعني عن فعل ذلـك ؟ وأي جرم أرتكبه إذا فشلت في هذا الأمر ؟

وتناول المشعل بيده ووقف أمام السلم وظل برهـة لا يأتي حراكاً وبعد أن تفحص ملياً الدرجة الاولى وهمس قائلا :

– تحت هـذه الدرجة توجد الكنوز والتعليمات التي بيدي هي الصحيحة وألقى على ما حوله نظراً دقيقاً فشاهد معـولاً ومجرفة ومنجلا ففحص كل واحدة من هـذه الآلات ورأى الصدا يعلوها فاعادها إلى مكانها ورجع فنام على القش ولكن نومه كان متقطعاً مضطرباً ولما استيقظ في اليوم الثاني احس بثقل في راسه وخدر في سائر اعصابه ولكنه لم يترك المغارة مسرعاً كما فعل بالامس بل ظل برهة يفكر بامره ثم قام وأنار المشعل وشرع بالحفر وبينما هو كذلك وإذا بمعوله قـد اصاب جسماً صلباً فنزعه من مكانه فرأى حفرة فيها تابوت من خشب السنديان فاخذ يحاول رفع غطاءه برأس المعول وإذا به توقف فجأة وجمـد الدم في عروقه لأنه رأى رجلاً يراقبه وأمارات الحزن الشديد بادية على محياه فعرفه في الحال أنه الفارس باردليان وقفز من مكانه الى القبو وتطلع إلى سائر الجهات ولم ير احـداً فجمجم قائلا :

– حقا أن ذلك لغريب !

واندفع إلى الباب السري وفتحه وتطلع الى الامام فلم ير من

كان يفتش عليه وقال لا ريب أن ما رأيته كان من الأوهام

وعاد إلى المغارة وقفل الباب وأخذ يعالج التابوت ولو رفع رأسه في تلك اللحظة لابصر باردليان ينظر اليه وهـو يبتسم ابتسامة التهكم .

ولم يلبث أن رفـع غطاء التابوت الخشبي فرأى فيه تابوتا رصاصيا قضى لفتحه مدة طويلة فرآه مملوءاً بالنشارة ولما رفعها من مكانها رأى صندوقاً لم يستطيع تحريكه لفرط ثقله فكسر في الحال القفلين اللذين كانا على بابه وتراجع مدهوشا !

كان الصندوق مقسوما الى ثلاثـة أقسام متساوية ففي القسم الاول اكـداس الذهب وفي الثاني الحـلى على اختلاف أنواعها واشكالهـا وفي الثالث الجواهر والاحجار الكريمـة النادرة المثال .

ومد يده الى القسم الذي كانت فيه الاحجار الكريمة وتناول قبضة منه وكان باردليان ينظر اليه بمنتهى الحزن والاسف فانتصب واقفا وقبض على السارق وهو متلبس بجريمته .

الفصل الحادي والستون

سقوط جوهان في الحفرة

لا بد لنا من العودة إلى سان جوليان جاسوس اليونورا غاليكاي فقد وعدنا القراء الكرام أن نريهم اياه وهو قائم بعمله وبتنفيذ الاوامر السرية التي تلقاها من زوجة كونسيني الرهيبة .

وفي اليوم الثاني في ذات الساعة التي احب فيها جوهان الشجاع أن يتحقق وجود الكنز ذهب سان جوليان وهو مصحوب بأربعة رجال اشداء مقنعين الى الطريق المؤدية للنفق وسأل رجلا كان هناك عما جرى فقال له :

— لقد دخل النفق ولم يخرج منه بعد وقد اتممنا المعدات اللازمة .

— فليخرج متى أراد فقد صار في قبضتنا .

وابدى اشارة للاربعة الرجال الذين كانوا يصحبونه وسار معهم الى سفح الجبل وكانوا قد تلقوا تعليمات سرية فظلوا سائرين

الى أن وصلوا الى مكامن أعدوها خصيصا فاختفى كل واحد في مقره وسار سان جوليان نحو الدير ولا ريب بانهم كانوا ينتظرونه هناك اذ رغما عن الساعة الباكرة ادخلوه في الحال غرفة ماري دي بوليفار رئيسة الدير .

ولما خرج من الدير كان معه نائب الرئيسة يصحبه ستة من رجـاله فتركهم في الكنيسة وذهب فاحضر عشرة من رجال اكترام خصيصا للغاية التي كان يتوخاها وذهب بهم الى المنزل الذي تقيم فيه بيريت وأمرهم بان يتولجوا حراسته ولما انجز هذه المعدات كانت قد ازفت ساعة فتح ابواب المدينة .

ولما فتحت الابواب خرج كرنكايل واسكركاس من باب مونتمارتر القريب من المنزل الذي كانوا يقيمون فيه وذهبا لحراسة الفتاتين كما كانا يفعلان كل يـوم فتقدم اسكركاس الى الباب الخلفي الذي كان يدخل منه جوهان وباردليان ولكنه قبل وصوله اليه عثرت قدمه بجـذع شجرة فسقط على وجهه وقبل أن يتمكن من القيام انقض عليه اربعة رجـال اشداء وباسرع من لمح البصر قيدوه ووضعوا كامة في فمه واخذوه الى قبو مظلم بجوار كنيسة الشهيد .

واصاب كرنكايل مـا أصاب رفيقه فقد سقط في قبضة رجال سان جوليان الذين كانوا كامنين له فقيدوه وكمموه والقوه بجانب رفيقه .

وبعد أن اتم سان جوليان هذا الخطف المزدوج أمر رجاله زيادة الانتباه في مراقبة المنزل وعاد الى مدخل النفق فصادف

الرجل الذي حادثه أولا وسأله عما جد معه فقال له :

ـ أنه لا يزال داخل النفق . ولم يخرج منه .

ـ عجبا ايكون قد فر من ايدينا .

ـ مهلا يا سيدي فلا بد له من الخروج .

ـ وهل أنت على يقين بانه لا يوجد للنفق غير هذا المخرج ؟

ليس من أحد يستطيع الحكم على هذه الانفاق السرية ولا معرفة الاماكن التي تنتهي اليها والذين اشتغلوا فيها قد ماتوا ولم يبق منهم أحد على قيد الحياة ولكني لم اسمع بان لها غير هذا المنفذ .

وقاد الرجل سان جوليان الى حفرة خبأه فيها مع الستة رجال الذين صحبهم معه ولو مر وقتئذ باردليان الذي لم تكن تخفاه خفية لما استطاع رؤيتهم .

ولنعد الآن الى جوهان الشجاع الذي تركناه قد أخذ من الصندوق حفنة من الجواهر وباردليان الذي كان مستعداً للقبض عليه وهو متلبس بجريمة السرقة .

تأمل جوهان يده بنظر مشتت وابدى اشارة كالسارق الذي يتساءل عن المكان الذي يخفي فيه سرقته ثم ابدى اشارة عنيفة وطرح ما كان بيده في الصندوق وصرخ قائلا :

ـ لا لست افعل هذا الامر .

وقفل جوهان الصندوق بشدة واعاد البلاطة الى مكانها واهال عليها التراب وقال :

ـ أني اجهل صاحب هذه الكنوز واذا لم يكن سواي من

متعمد لسرقته فانه يستطيع الاطمئنان على ماله .

وكاد باردليان يصرخ به ويؤكد له أنه هو صاحب تلك الكنوز ولكنه رأى أن الوقت لا يسمح له بالحديث الذي لا جدوى منه وأنه يجب عليه أن يقوم بما افترضه على ذاته من العمل الهام لينقذ ولده من الخطر العظيم الذي يتوقعه فخرج مسرعا نحو المدينة وقد ارتاح باله من ولده بعد هذه التجربة الشديدة .

وجرت هذه الحادثة في الساعة التي عاد فيها سان جوليان الى النفق بعد قبضه على كرنكايل واسكركاس وكانت عندئذ الساعة السابعة من الصباح .

وبعد أن أعاد جوهان كل شيء الى مكانه تناول طعامه في القبو وبقي فيه الى الظهر فخطر بباله أن يذهب لزيارة حبيبته برتيل فسار في الظلام بتحرس ويده على قبضة سيفه وكان كلما اقترب من المنفذ يزداد اطمئنانا حتى وصل اليه فالقى على ما حوله نظراً دقيقا ولم يرما يدعوه للريب فاسرع في مشيته ولكنه لم يكد يتقدم بضع خطوات حتى فتح ذراعيه فجأة وصرخ صوتا عظيما لأن الارض خلت تحت قدميه ووقع في حفرة عميقة تشبه البئر .

واحس بشدة تلك السقطة وخيل له أن ساقيه قد دخلتا في صدره فظل برهة لا يأتي حراكا وقد استولت عليه دهشة لا توصف واصاب رأسه صخر ناتئا وسال الدم من جرحه وبعد قليل اغمى عليه وغاب عن الصواب .

وكان سان جوليان ورجاله يراقبونه فخرجوا من مكانهم كالاشباح الرهيبة وتقدم الجاسوس من البئر ونظر الى داخلها وقال لرجاله .

قوموا بما يجب عليكم عمله .

وتركهم هناك وذهب الى كنيسة الشهيد حيث كان نائب رئيسة الدير ورجاله بانتظاره وسار معهم في الطريق المؤدية إلى قرية مونتمارتر .

**

الفصل الثاني والستون

بيريت وبرتيل في السجن

لندخل المنزل الذي كانت تقيم فيه بيريت الحسناء والانسة برتيل فقد كانتا جالستين تتحادثان بسرور وهما غافلتان عن حوادث الايام وغير بما تخبئه لهما الاقدار .

وبينما هما كذلك قرع الباب فحسبتا أن القارع هو جوهان الشجاع أو باردليان واسرعت الخادمة مارتين لفتحه ولكنها في الحال صرخت صوتاً عظيماً لأنها ابصرت أمامها رجلا متقدماً في العمر عليه ملابس سوداء قد دخل البيت كما لو كان منزله ومن خلفه اربعة من الحرس عليهم شعار رئيسة دير مونتمارتر وهذا الرجل هو نائب الرئيسة .

فذعرت الفتاتان لدخولهما عليهما بهذه الصفة ومن غير سابق استعداد وتقدم النائب منهما وقبعته على رأسه وقال لهما بصوت جهوري .

– باسم الكلية القداسة والعظيمة السلطة والفائقة السمو

رئيسة دير مونتمارتر اقبض عليكما ايتها الفتاتان فافعلوا واجباتكم أيها الحرس .

فتقدم الحرس بخطى متماهلة وأحاطوا بالفتاتين وكانت برتيل كما عرفها القراء ذات جأش رابط فتخلصت من بيريت التي كانت تضمها بين ذراعيها وقالت بلهجة ملؤها العظمة .

– ما الذي عملته لرئيسة الدير حتى تريد القبض علي وما هو الذنب الذي ارتكبته ؟ حذار لنفسك ايها الرجل فانك تسيء معاملة فتاة نبيلة هي بحد ذاتها قوية وتعادل التي ذكرتها والتي تعمل باسمها فليس لي والحالة هذه من علاقة معها ولا لاحد سلطة علي غير الملك وسأشكي امري لجلالته .

فلم يتأثر النائب لهذا التهديد وقال لها بمنتهى السكينة

– سيصير التحقيق عن هذه النقطه متى جاء دور دعواكما أما الآن فيجب أن تتبعاني إلى سجن الدير .

– وإذا أبيت اطاعتكما ؟

– لا تلومي عندئذ الا نفسك إذا استعملت العنف معك وبذلك تضاعفين جرمك .

– حسناً وأني اخضع مرغمة للقوة ولكني اؤكد لك باني ساشكو أمري لجلالة الملك .

فهز النائب كتفيه كأنه لا يبالي بهذا الوعيد ووضعت كل من الفتاتين رداءها على منكبيها وسارتا مخفورتين بهذه القوة إلى سجن الدير .

وكان كاركان قادماً في تلك الساعة ليساعد رفيقيه بحراسة

المنزل وهو يعرف كل صنف من الحرس فلما صادف هذا الجمع في طريقه رفعت إحدى السجينتين قناعها عن وجهها فتراجع مذعوراً إلى الوراء حتى مر الحرس ولم يلاحظه احد وأخذ يسير من خلفهم متعقباً آثارهم حتى وصلوا إلى سجن الدير فاعتقلوا فيه الفتاتين .

وبعد قليل خروج النائب ورجاله وساروا قاصدين الدير فاخذ سان جوليان من منطقته كيساً مفعماً بالدراهم واعطاه لرجاله صرف كلا منهم إلى شأنه وانتظر قليلاً حتى تفرقوا وجاء فقرع باب السجن بدوره ودخله

وكان كاركان يتبعه كظله وبعد طول التفكير عزم على التفتيش على رفيقيه ليعلم ماذا ألم بهما من الكوارث .

ووضعت برتيل وبيريت في احسن غرف السجن وأخذ السجان يتلو عليهما محامد رئيسة الدير وأنها أمرت بتخصيصهما بهذه العناية التي لم تحصل لسواهما فظهرتا عدم الاكتراث لهذا الامر ولكنهما كانتا مسرورتين لعدم افتراقهما عن بعضهما لأن اعتقالهما في غرفة واحدة خفف عنهما اثقال السجن وآلامه .

الفصل الثالث والستون

موت سان جوليان

وكانت الساعة الرابعة قد انقضت لما خرج سان جوليان من سجن الدير فانتظر الى الساعة السادسة وهي الساعة التي وعدته اليونورا بمقابلته فيها لأن زوجها لا يكون وقتئذ في قصره .

فذهب الجاسوس إلى الموعد المضروب وأمرت اليونورا بادخاله إلى غرفتها وابتدرته بسؤالها عما عمله فقال لها :

– لقد تم كل شيء على وفق مرامنا .

– وهل قبض على الاثنين ؟ وهل مات جوهان ؟

– نعم يا سيدتي ولكن جوهان لا يزال حياً يرزق .

– يمكنك الآن أن تخضع للاوامر التي يبلغك اياها زوجي بشأن هذين الشابين فاذهب واعلم باني راضية عنك .

ولم يكد يصل إلى شارع أورليان حتى شعر بيد قد وضعت عليه فتراجع إلى الوراء مضطرباً ويده على قبضة حسامه ولكنه سمع صوتاً يقول له بمنتهى السكينة .

– ايه ياسان جوليان ماذا اصابك ولماذا كل هذا الاضطراب

وكان محادثه هو كونسيني بذاته الذي كان يتبسم له فقال الجاسوس متلعثماً :

– عفواً يا مولاي فاني لم اعرفك وقد اثرت علي هذه المباغته التي لم اكن اتوقعها .

– لا أرى مباغتتي لك تستحق هذا الجزع ومن يراك مرتجفاً يحكم عليك بانك غير مرتاح الضمير وأني ذاهب الآن إلى قصر اللوفر فهل تود مرافقتي اليه ؟

– امرك يا سيدي .

– وفي اثناء الطريق تقص علي ما عرفته وتطلعني على ما اعددته لحملة الغد لأن صبري قد فرغ ولم أعد استطيع الانتظار ويجب أن يكون الشقي وحبيبته في قبضتي يوم غد .

– أنت الذي أمرتني بتأجيل العمل إلى الغد .

– صدقت فان فروغ الصبر قد ذهب بعقلي .

– أني بدأت اليوم في العمل وقد قبضت على الشقيين اللذين يحرسان منزل الفتاة ولا اتركهما الا مساء الغد بعد أن أكون قد انجزت كل ما هو مطلوب مني .

– كنت أعتقد أن رفاق جوهان كانوا ثلاثة .

– نعم يا سيدي ولكن ثالثهم كان نائماً لما قبضت على رفيقيه فلم أر من الصواب أن اذهب وامسكه في منزله خصوصاً وأني رأيت الانسب تركه وشأنه حذراً من أن يسعى جوهان للتفتيش على غير هؤلاء الرفاق إذا لم ير أحداً منهم .

- صدقت وأحسنت .

وترك ذراع سان جوليان وأخذ يمشي أمامه وقد أخرج من وسطه خنجراً صغيراً اخذ ينظف به اظافره بينما كان رفيقه يشرح له ما عمله قائلاً :

- لقد استأجرت عشرة من الرجال الذين اعرفهم وأثق بهم كل الثقة واحتطنا بالمنزل وقبضنا على الفتاة وسيأخذها رجالك إلى حيث تريد ونبقى محاصرين المنزل إلى أن يأتي الشقي لزيارة حبيبته فنقبض عليه بكل سهولة .

ولما وصلا الى شارع سان توما رفع كونسيني الخنجر بيده واهوى به على صدر سان جوليان بطعنة قاتلة صرعته ولم يتلفظ بكلمة شكوى فاقترب منه وقال له :

- لم تمت بعد يا سان جوليان وأنك سامع ما أقوله لك فقد اتفقت معها على خيانتي وأخذت بتقيل الى السجن الخاص بدير مونتمارتر حتى إذا ذهبت غداً الى المنزل أراه خاليا ممن فيه فانصرف الى يأسي ولكني وقفت على خيانتك وهذا جزاء الخونة عندي فمت هنا ككلب أكلب .

الفصل الرابع والستون

ورقة التصريح بدخول السجن

ولم يذهب كونسيني إلى اللوفر بل ذهب وقرع باب المنزل الواقع في شارع الكتاب بطريقة خاصة ففتحه له الاخ كولار الكامل وقال له بات كلود اكوافيفا متغيب في تلك الساعة وجرى بينهما حديث طويل خرج بعده الايطالي من ذلك المنزل مسروراً .

وخرج الاخ كولار بدوره من المنزل ومر من أمام السجن وسار نحو باب سان دنيس وإذا بباردليان قد تعقب خطواته وبينما هو كذلك رأى ورقة كبيرة ملقاة على الارض فالتقطها ووضعها في جيبه ولما وصل إلى غرفته في النزل فتحها وقرأ فيها ما يلي :

« امر من رئيسة دير مونتمارتر بان يسمح لحامل هذه الورقة بدخول سجنها متى أراد وأن يطاع بكل ما يامر به » .

فسر باردليان سروراً عظيما من هذه اللقيا وهي الورقة التي كان يحملها سان جوليان ودخل بموجبها السجن وتحادث مع

مديرة الدير وسنخبر القراء بكيفية وجودها على قارعة الطريق حين نعود في حديثنا إلى سان جوليان الذي تركناه على وشك الموت .

ولما ابتعد كونسيني تقدم رجـــل كان يتبعهما منذ شارع أورليان وانحنى على سان جوليان وفحص جرحه بدقة وتمتم قائلا

– طعنة نجلاء وأيم الحــق ولست اطلب الا أن يبقى حياً ساعة واحدة لاقناع السيدة .

واحتمله بين ذراعيه كما لو كان يحمل طفلا وفي أثناء الطريق سقطت الورقة التي كانت في وسط سان جوليان ووقعت في المكان الذي رآه فيه بارديليان .

ودخل ساتيا غرفة اليونورا ووضع الجريح بلطف على مقعد فلما عرفته اليونورا التي سألت ساتيا قائلة :

– هل مات .

– كلا يا سيدتي فهو لا يزال في قيد الحياة .

– من الذي جرحه ؟

– لست أدري !

– يجب أن أعرف ذلك .

وأخذا يبذلان للجريح كل عناية حتى فتح عينيه فسألتـــه اليونورا باهتمام عن الذي جرى فاخبرها بانـــه زوجها كونسيني ولم يعد يقوى على الكلام فاسلم الروح .

فقرعت جرساً كان على مقربة منها وأمرت الخادم بان يحمل الجثة ويلقيه في مكان بعيد عن القصر وخاطبت ساتيا قائلة :

– أتعتقد أننا بارسالنا الفتاة إلى بيت منفرد نصيب بحجر واحد هدفين ونتخلص في وقت واحد من جوهان والملك !

– نعم يا سيدتي .

وأخذ يشرح لها الخطة التي رسمها في فكره وعول على العمل بمقتضاها ولما انتهى من حديثه قالت له :

– أظنك مصيباً في رأيك فعد إلى هنا في الساعة العاشرة من صباح غداً ابلغك تعليماتي بهذا الشأن .

الفصل الخامس و الستون

تعذيب جوهان وبرتيل

ولنعد في حديثنا إلى جوهان الشجاع فقد عرفنا أنه جرح في رأسه جرحاً طفيفاً واغمى عليه فجردوه من سلاحه ونقلوه وهو فاقد الرشد الى سجن الراهبات ومنه الى المنزل السري الذي كان يقيم فيه كلود اكوافيفا .

ولما عاد إلى رشده راى ذاته محاطاً في ظلام دامس فظل برهة لا يجسر على الحركة وقد شعر بتحطيم جسمه وانتهاك قواه واخذت الذاكرة تعود اليه تدريجاً .

وقام من مكانه لأنه أحس بالارض تحته تتقد كالنار وأخذ يقفز بخطى واسعة على أمل أن يخفف حرارة الحروق التي كانت تلسعه في رجليه وتحقق أن المكان قرب الباب أخف حرارة من سواه .

ثم خيل له أنه يرى عن بعد حبيبته برتيل تظهر وتغيب عن المكان الذي هي فيه ثم رأى كونسيني وشاهدهما سوية في مكان لم يعرفه فجمد في مكانه وقد كاد يجن لهذا المنظر الرهيب

وغاب الحائط فجأة وظهر بدلاً منه نور محمر كانه صادر من هوة نارية وشاهد خلف ذلك النور بكل وضوح غرفة صغيرة فيها طاولة خشبية و كرسي وسرير وانحنى إلى اليسرى فابصر كانها تراقب حركات عدو غير منظور وهي واقفة بجانب السرير . وكونسيني يخاطبها بتهكم ظاهر :

— لم تكوني تتوقعين مقابلتي بعد أن حسبت ذاتك قد تخلصت مني بتاتاً فها قد وقعت في الشرك الذي نصبته لك وهيهات تستطيعين الافلات من يدي بعد الآن . ولكن هل تريدين أن أخبرك أين هو الشقي الذي تحبينه . أنه موجود في قبر حميت حرارته إلى درجة البياض وليس ذلك فقط بل هو موجود في مكان بعيد تفصله عنا هاوية من نار ومع ذلك فهو يرانا ويسمع اقوالنا ... فهل تعرفين ما الذي نويت عمله ؟ ساخذك عنوة أو برضاك ويرى حبيبك اذلالك بعينيه ولا يقوى على نصرتك بل يقاسي عذاب الموت إلى أن تذهب روحه الشقية إلى سقر وبئس المقر فما رأيك بهذه المكيدة التي انتجتها فكرتي الوقادة ؟ وهل تشهدين لي بحسن الانتقام ؟

وشعر جوهان حين سماعه هذه الكلمات بان الدم يجمد في عروقه والقى على ما حوله نظراً مشتتاً وأخذ يمزق صدره باظافره ويزمجر قائلاً :

ليس هذا الانتقام ... ليس هذا الانتقام ... أنه لفظيع ورهيب .. اسألك العفو عنها .. برتيل .. برتيل .. رباه كيف العمل لانقاذها من هذا الشيطان الذي يريد اذلالها .

ورآه جوهان يتقدم نحوها ورأته برتيل يدنو منها فتراجعت إلى الوراء ولما لم يعد لها مهرب منه قبضت بيديها النحيلتين على الكرسي ورفعتها فوق رأسها واهوت بها على رأس كونسيني الذي كان يراقبها فخطف منها الكرسي ووضع يده الثقيلة على كتفها وقال لها ضاحكاً :

– لا تنسي بانه يرانا وأنك صرت لي .

فصرخت برتيل صوتاً عظيماً كمن لسعتها افعى وقالت :

– إلي يا جوهان . ! إلي يا جوهان .

وسمع جوهان هذا النداء فصرخ قائلا :

– هأنذا ايتها الحبيبه .

ونسي موقفه الرهيب فقفز إلى الامام ولكنه لم يعد يرى الا هوة عظيمة من النار لا يمكن تجاوزها فتوقف عند حافتها بمعجزة الهية وتغلب عليه حب الحياة فتراجع الى الوراء مذعوراً والتصق مرة ثانية بالباب وتطلع منه فخر جاثياً على ركبتيه وصرخ قائلا :

– مجداً لله فقد نجوت .

الفصل السادس والستون

برتيل في قبضة الملكة

وكان جوهان لا يزال جاثياً على الصحيفة المعدنية التي لم يعد يشعر بحرارتها واليك ما راه ولم نذكر للقراء بعد :

ولما وضع كونسيني يده على كتف برتيل فتح الباب فجأة ودخلت منه امرأتان وكانت ملامح احداهما تدل على السكينة وهي اليونورا غاليكاي زوجة كونسيني والثانية تدل هيئتها على العظمة وقد سدلت قناعاً من المخمل الاسود على وجهها .

ولما رأى كونسيني هاتين المرأتين توقف فجأة ولم يكن قد رأى في بداية الأمر غير زوجته فتقدم نحوها بخطى ثابتة وعيناه تتقدان كالجمر وقد وضع يده على قبضة خنجره ورأت هيئة زوجها التهديدية وأن حياتها متوقفة على التقارير ومع ذلك ظلت ثابتة في مكانها ولم يبد عليها شيء من أمارات الجزع .

ولما رفع كونسيني يده بخنجره ليطعن به زوجته رأى المرأة الثانية فعرفها رغماً عن القناع السميك المسدول على

وجهها فتراجع الى الوراء مذعوراً وقد شابه الاموات بلونه وانحنى الى الارض باحترام لا مزيد عليه .

وكانت عينا المرأة الثانية ترسلان من تحت قناعها اشعة غريبة من الحنو وأبدت بيدها اشارة تحبب الى كونسيني فانتصب واقفاً وقالت اليونورا بسكينة مدهشة :

– رباه . . رباه ... أن هذا عار يشق على احتماله .

فصادقت المرأة المقنعة باشارة من رأسها على قول اليونورا وخاطبت برتيل التي كانت واقفة في مكانها منتصبة القامة بشجاعة زائدة وقالت لها :

تعالي ايتها الانسة وستكونين معي في مأمن على ذاتك .

– سأتبعك الى حيث تريدين يا سيدتي على أن أكون بعيدة عن هذا المكان الجهنمي وهذا الشقي اللئيم .

– ما معنى قولك أيتها الانسة ؟

فتداخلت اليونورا بالامر وسبقتها بالجواب قائلة :

– تذكري ماقلته لك يا سيدتي فهذا هو العار الذي كان كونسيني معرضاً له ذاته وهذا ما أرادت بيانه هذه الانسة .

– صدقت يا سيدتي وأني أشكر لكما مداخلتكما لانكما خلصتماني من أعظم المصائب .

ولم تنتظر المرأة المقنعة جواباً فطلبت من برتيل أن تتبعها وأبدت برأسها اشارة الى كونسيني وزوجته فانحنيا أمامها وخرجت من الغرفة تتبعها برتيل .

وظلت اليونورا برهة واقفة قرب الباب المقفل ولما تأكدت ابتعاد المرأة المقنعة قالت لزوجها .

كن مرتاح البال يا كونسيني فان الملكة لم تطلع على شيء وهي تحسب أن الملك مغرم بهذه الفتاة وأنه يحبها حباً يقارب العبادة فحركت في فؤادها عوامل الغيرة وأثرت بخوارقها واكدت لها ظنها اشد خطراً من مدام دي فورنيل وحسبت أنها تسيء إلى الملك بخطفه حبيبته فهل فهمت مقصدي ؟

ولم تكن الامرأة المقنعة غير الملكة فلما ابتعدت عن الغرفة التي كان فيها شعر بغضب زائد يستولي عليه وبدت على وجهه أمارات التهديد الرهيب فقبض على خنجره بيده وزمجر قائلاً :

– وأنت التي أتيت بها في الساعة التي . . .

– نعم أنا التي جئت بها لخلاصك يا زوجي المحبوب فاعد خنجرك في غمده ولا تدع غرامك يستولي عليك وأعلم باني لم اخطف هذه الفتاة الا لأننا لا نستطيع الاستغناء عنها في نجاح مسعانا الذي تصبح به سيداً على هذه المملكة . . لا تصرف اسنانك بغضب لأنك قد بدأت تفهم قولي وأن الساعة قد اقتربت فلا تدع هذه الفرصة الثمينة تفلت من يدك لئلا ترمى بالجنون فالاقدار تساعدك مساعدة لا مثل لها والملكة بذاتها تهيء لك سبل غرامك على غير علم منها ولست تحتاج الا إلى القليل من الجرأة والفطنة فتصبح الحاكم المطلق .

وأن هذه الفتاة ستسير على طريق رولي لتقيم في القصر الذي كان ملكاً للملك فيما مضى واصبح الآن في حوزة كلود اكوافيفا

وقبل ظهر اليوم يذهب لاجابة دعوة ابنته ويسارع لنجدتها وبما أن جوهان الشجاع غير موجود هذه المرة لانقاذه من الموت المحتم فيعودون به قتيلا إلى قصر اللوفر وعنـــد الظهر تبتديء ساعة ملكك السعيد فهل ادركت الآن السبب الذي دعاني لخطف هذه الفتاة ؟

نعم .. نعم .. ولكن هل أنت واثقة من النجاح ؟

– لقد اتخذنا كل التحويطات اللازمة وأني أؤكد لك موته هذه المرة فهو لا ينجو من ايدينا ومـــتى صرت السيد المطلق تصبح ابنته في حوزتك أني أحبك إلى درجة اغتفر لك فيها هذه التسلية وناجت نفسها بقولها :

– ولكنك لا تجدها الا جثة هامدة .

هذا ما راه وسمعه جوهان الشجاع الذي كان ملصقاً على الصفيحة المحترقة فقد تأكد نجاة برتيل ولكن خلاصها لم يكن إلى عهد طويـــل ففي اليوم الثاني يعود الوحش فيقبض على فريسته ولا يعود بامكان أحد تخليصها من مخالبه .

وعاد الحائط إلى مكانه الاول وساد الظلام مرة ثانية على غرفته وانتشرت الحرارة إلى كل الصحيفة المعدنية ولم يبقى له الا قسم صغير للغاية يستطيع الوقوف عليه بكل صعوبة .

وبينما هو كذلك شعر بأن الحائـط الذي كان مستنداً عليه يغور من خلفه فالتفت إلى ورائه ورأى خرقاً فيه يظهر منه نور اصفر فلم يتردد في امره ودخل في الخرق وفي الحال قفل الحائط عليه .

وكان هذا السجن مـدوراً وهو يشبه بئراً عظيمة الحجم وكان سقفه وأرضه وجدرانه من قطعة معدنية واحدة صقيلة تلمع تشبه المرآة ولم يكن فيه باب ولا نوافذ ولا امتعة .

ولم يمض بضع دقائق الا ورأى كرة هائلة قـد سقطت في ارض الغرفة واتجهت نحوه فاخذ يركض بمنتهى قوته وهو كلما ازداد سرعة في عدوه تقتدي به الكره .

عندئذ بدأت تلك المطاردة الجهنمية الـتي لا تخطر ببال الابالسة لأن تلك الكره كانت تدور حيثما دار جوهان ولا تترك له لحظة واحدة للاستراحة فاخذ يلهث من فرط تعبه واعيائه وشعر بخوار في عزيمته ورأى الخطر يدنو منه سريعاً .

الفصل السابع والتسعون

اقتحام سجن الدير

وعاد كاركان إلى منزل بيريت الحسناء وقرع طويلا بابه فلم يفتح له احد فذهب واستعار سلما وتسلق بواسطته سور الحديقة ودخل المنزل فرأى الخادمة مارتين مختبئة تحت السرير من فرط خوفها

وذهب عدة مرات إلى حيث كان يقيم رفيقاه اسكركاس وكرنكايل لمراقبة المنزل ولكنه لم يراهما ولما يئس من مقابلتهما عاد إلى المدينة وأخذ يطرق الاماكن التي يترددان اليها ولكن الجهه ظلت عقيمة وذهبت اتعابه أدراج الرياح .

وعاود في اليوم الثاني تفتيشة ولكنه لم يتوصل للاهتداء إلى مقر رئيسه جوهان ورفيقيه حتى كاد يقنط من الاهتداء اليهم غير أنه صادف في الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم رفيقيه في شارع مونتمارتر فكاد يجن من فرحه باجتماعه معهما .

وساروا سويه إلى منزل بيريت الحسناء فاخبرتهم مارتين كيفية القبض عليها وعلى الآنسة برتيل فقال لهما كرنكايل :

– اذهبا إلى سجن الدير وراقباه إلى حين عودتي أما أنا فذاهب إلى مغارة مونتمارتر لعلي أرى رئيسنا فيها .

وأسرع نحوها ولكنه رأى عند مغارتها البئر المفتوحة فدهش لرؤيتها لأنه لم يكن عارفاً بوجودها وخطرت بباله فكرة فجائية ارتاح لها وهي أنه اعتقد سقوط رئيسه جوهان في هذه البئر .

وذهب تواً إلى المحطة المجاورة وأعطى عاملين من عمالها ريالا فوافقاه على مساعدته فيما أراد واحضروا معهما حبالا طويلة تدلى بواسطتها إلى البئر فوجد فيها سيف رئيسه وخنجره ومهازيه فتأكد صدق فكرته .

وأخذ الاشياء التي عثر عليها في البئر وعاد إلى المغارة فوضعها جانباً وذهب تواً إلى صندوق الاسلحة فاختار منه احسنها وذهب لمقابلة رفيقيه اللذين كانا ينتظراه في المكان الذى أرسلهما اليه وساروا سوية وباعوا تلك الاسلحة .

وقضوا ليلهم وهم يطوفون الضواحي ويتبادلون الافكار

ولما عادوا إلى مقرهم لم يبق معهم شيء من ثمن الاسلحة التي باعوها وكانت علائم السرور بادية على وجوههم وفي الساعة التاسعة في اليوم الثاني ذهبوا الى سجن الدير وكان معهم خمسة عشر رجلا من الرجال الاشداء استأجروهم لفتح باب السجن ودخلوه عنوة .

وكان باردليان لا يزال يتعقب كولار الكامل بغية الاهتداء

بواسطته الى مقر اكوافيفا فلما ابصره لم يعد يفارقه ورآه داخل السجن ثم شاهده خرج من شارع الكتاب فلم يبق عنده شك بصدق فراسته .

وظل سحابة يومه يتعقب هذا الراهب بصبر عجيب فكان يروح ويجيء في المدينة من طرق مختلفة ولكنه يعود دائماً إلى شارع الهومبري وإذا دخل من باب السجن يخرج من شارع الكتاب وإذا دخل من هذا الشارع يخرج من باب السجن فلم يبق عنده ريب بوجود اكوافيفا في ذلك المكان .

وذهب لتفقد السجن بذاته فجلب انتباهه عن قرب ذلك البيت الصغير الواقع على مقربة منه فأخذ يسأل عنه الجيران وعرف منه أنه مهجور وأن بابه لا يفتح قط ونوافذه تظل مقفلة فاكتفى بما سمعه .

وفي اليوم الثاني عزم على الذهاب الى السجن لعله يهتدي الى الطريقة الحسنة بمباغتة اكوافيفا فرأى مهاجميه يحملون جسراً كبيراً يريدون تحطيم باب السجن بواسطته فتقدم الى الأمام وعرفه كرنكايل فاسرع اليه وقال له :

– لقد أرسلتك السماء يا سيدي باردليان لتنصحنا بما يجب عمله . وقصوا عليه باختصار وصراحة ما كانوا يعرفونه فلما سمع باردليان باختفاء ابنه زمجر قائلا :

– علي أن لا أكون وصلت متأخراً . وأمر بطرح ذلك الجسر العظيم وأن يتبعه ثمانية رجال ويظل الباقون في انتظاره

وأخذ الثمانية الرجال إلى شارع الكتاب وقد قلنا أن للمنزل منفذاً ثانياً من طريق النقود القديمة فاقام اربعة على كل باب وقال لهم :

– إذا أراد أحد الدخول فاسمحوا له وامنعوا أياً كان من الخروج .

وعاد إلى السجن فاقام السبعة الباقين أمام باب المنزل السري وأمر كازكان وكرنكايل واسكركاس باتباعه وذهب إلى الباب فطرقه بالطريقة التي كان يفعلها كولار الكامل ففتح الباب في الحال وتنهد تنهد الارتياح لأنه كان يخشى عدم فتحه ودخل مع رفاقه إلى حيث كان مدير السجن فاراه الأمر الذي لقيه في الطريق فقبله المدير باحترام وسأله عما يأمر به فقال له :

– لقد احضروا اليك أول من أمس بامر رئيسة الدير فتاتين

– نعم يا سيدي .

– وجاؤا أيضاً بشاب جريح أو قتيل .

– بل كان مغمياً عليه يا مولاي .

– يجب أن تذهب بي إلى حيث الفتاتين .

– يستحيل علي يا سيدي تنفيذ هذا الأمر .

– أظنك تحسن القراءة فهذا أمر من الرئيسة المحترمة .

– لست اعصى أوامر امنا المقدسة ومعاذا الله أن ارتكب هذه الجريمة ولكن السجينتين ليست هنا أو بالحري قد ذهبت واحدة منها والثانية باقية .

– خذني اليها في الحال .

– أمرك يا سيدي .

وصعدوا إلى الدور الثالث وفتح السجان باب السجن فامره باردليان بالوقوف في آخر الرواق لأن حديثه مع السجينة يجب أن يكون سريا وأشار بعينيه إلى الرفاق لكي يراقبوه بدقة اثناء غيابه .

ودخل باردليان الغرفة التي كانت مسجونة فيها بيريت الحسناء وبعد عشر دقائق خرج الفارس مع السجينة .

الفصل الثامن والستون

السم لبرتيل

بينما كان باردليان يخلص بيريت الحسناء من سجنها كان اكوافيفا جالساً قرب النافذة المفتوحة .

وكان يتحادث مع كولار الكامل الذي كان واقفاً أمامه باحترام وكان هذا الحديث بغاية الاختصار أو هو عبارة عن سؤال وجواب فسأل اكوافيفا .

– رافالياك ؟

– في الطريق .

– وكيف أنذر بالأمر ؟

– سمع حديثاً من الجند لم يشترك به .

– حسناً والملك ؟

– تلقى الكتاب وأصدر أوامره وهو سيسافر لا محالة .

– من الذي سلمه الكتاب ؟

– العجوز كولنيكل وهي ترجو مكافأ حسنة .

– والحاكم الأعظم ؟

- لم أهتم به لأن ساتيا قد تكلف بهذه المهمة لحسابه الخاص

- و كونسيني ؟

- هو ايضاً أتخذ احتياطاته ليكون في المكان المعلوم وقت الظهر وقد زاد عشقه للفتاة .

- هل هو صادق بحبها ؟

- أنه يكره جوهان الشجاع فوق كل شيء .

فقام اكوافيفا يتمشى في الغرفة ذهاباً واياباً وهـــو يفكر بالامر ويناجي نفسه بقوله :

- أن كونسيني رجل أحمق فهو يريد اعادة الحرية لجوهان الشجاع كي يرسله إلى رولى وقد نسي أن ابن باردليان مثل ابيه غريب الطباع وليس كسائر البشر ومتى توفق المرء إلى القبض على واحد من هذه الفئة يجب سحقه في الحال ولو أمهله دقيقة واحدة تكون هذه الدقيقة كافية لخلاصه ... لا ... بعد أن قبضت على جوهان لمضايقته اياي فلا يبلغ بي الجنون إلى درجه لتركه واطلاق سراحه وخاطب كولار قائلا :

- يجب أن يموت هذا الشاب قبل ساعة فاعمل مما هو متوجب عليك في الحال .

- لقد ذكرتني يا سيدي بان كونسيني اصدر أوامره وأنا نسيت ابطالها .

- اتعني بذلك أنهم اطلقوا سراح جوهان ؟

- كلا يا مولاي ولكني اخشى أن يكونوا اخذوه إلى الغرفة المتحركة .

- ليس من موجب لهـذا العذاب الفارغ فـاذهب واوقف هذا التعذيب إذا كان لم يفت الوقت .

- أمرك يا سيدي .

واسرع إلى الباب وفتحه ولكنه توقف مذعوراً لأنه رأى باردليان منتصباً أمامه وقد اكرهه للرجوع إلى الغرفة .

خرج باردليان من سجن بيريت وهو ممسك بذراعي بيريت وقال للسجان بلهجة الأمر .

- خذنا إلى الطابق الثاني .

فاطاع السجان هذا الامر من غير اعتراض وفتح له بـاب الغرفـة التي سجنت فيها برتيل وبيريت في الليلة الأولى وسأل باردليان رفيقته همساً .

- أي السريرين يا ابنتي .

فدلته على السرير الذي عرفته في الحـال وتقدم كلاهما إلى الحائـط وأخـذ باردليان يجسه باصابعه بمنتهى التدقيق حتى عرف ما كان يريده فعاد إلى الباب وفتحه وادخل الرفـاق الثلاث وقال للسجان :

- اجيز لك قفل الباب والانصراف فلم أعد في حاجة اليك

ولما أقفل الباب وابتعد الحارس تقدم باردليان إلى الحائط وضغط على زر صغير ففتح باب صغير دخلوه واجتازوا رواقاً ضيقاً حتى انتهوا إلى باب الغرفة التي كان اكوافيفا فيها يحادث كـولار فتقدم اليه باردليان واصغى باهتمام إلى الحديث الذي كان يسمعه ولما فتح كولار الكامل رأى باردليان واقف أمامه

وهو كتمثال حي للانتقام الرهيب .

وكان اكوافيفا يتمشى بتمهل في غرفته فرأى هذا الغريب وابصر ملامح كولار منقلبة فادرك ما جرى وأنه قد حدثت أمور ذات بال أوجبت رجوعه الفجائي فلم يفقد سكينته بل اسرع نحو النافذة .

وكان باردليان قد لاحظ هذه النافذة المفتوحة وابصر راهباً واقفاً في زاوية شارع النقود القديمة فسبق اكوافيفا واقفلها وارخى ستارها .

وأراد اكوافيفا التظاهر بالسكينة فسأل باردليان برباطة جأش قائلا :

— ما معنى هذا العنف يا سيدي مع راهب لم يسيء إلى أحد ومتى كانوا يدخلون المنازل بهذه الصفة .

— اعلم يا سيدي باني ادعى الفارس باردليان واريد منك أن تقودني في الحال إلى حيث يقاسي جوهان الشجاع عذابكم البربري فسر أمامي لأن الدقائق ثمينة .

فرفع اكوافيفا رأسه ونظر إلى باردليان بثبات وقال له بمنتهى السكينة .

— أنت الفارس باردليان وانا أمتنع عن الامتثال لطلبك العنيف ويشوقني أن أعرف إذا كان باردليان الشجاع المضروب المثل ببسالته وشهامته يجسر على قتل عجوز ضعيف مثلي .

فادرك باردليان مقصد اليسوعي المحتال ولم يقع في الشرك الذي نصبه له وابدى اشارة إلى الرفاق الثلاثة فقبضوا على

كولار الكامل وقبض باردليان على اكوافيفا وجره إلى السلم وقال له بلهجة تشف عن الغضب الذي لا يوصف .

— أن الشجاع الذي ذكره لا يتدانى لقتل رجل عجوز ضعيف مثلك ولكنني أنذرك منذ الآن بما أريد عمله فاذا كنت لا تصغي إلى طلبي وتعمل ما أقوله لك وقتل ولدي جوهان بسبب عذابكم فاقسم بالله على صدق قولي يا اكوافيفا أني أقودك ورفيقك إلى اللوفر وأقول للملك « هذا هو يا جلالة الملك اكوافيفا رئيس اليسوعيين ونائبه كولار الكامل وهما اللذان يعملان سراً على قتلك وهما اللذان سلحا المتعصب رافالياك لقتل جلالتك » عندئذ يأمر بقتلكما وقطع رأسيكما .. أني على يقين من شجاعتك وأنك لا تبالي بالموت غير أن الطغمة التي أنت رئيسها يقضى على أمالها الواسعة التي وضعتها قريحتك الجهنمية فهل فهمت ما الذي أنوي عليه يا سيدي إذا لم تطاوعني .

فادرك اكوافيفا أن باردليان ينفذ وعيده بالحرف الواحد إذا لم يلب أوامره فقال لكولار الكامل .

— خذنا أيها الاخ المحترم إلى حيث ابن باردليان .

ونزلوا إلى القبو فاخذ الراهب يفتح ابواباً غير منظورة ودخلوا رواقاً ضيقاً وكانوا كلما تقدموا في سيرهم يسمعون دوياً كدوي الرعد القاصف وصدمات شديدة ترتجف لهولها الجدران وضجيجاً يصم الاذان يتقطعه صراخ اليأس وقبض الراهب بيده على عتلة كبيرة واهوى بها بمنتهى قوته واسرع إلى زر

ضغط عليه فظهر باب اسرع اليه باردليان ورفاقه كالبرق الخاطف .

وكان هناك جوهان الشجاع يركض كالمجانين لينجو من الكرة الحديدية التي كانت تندفع إلى الامام بقوة سرية مهددة اياه بسحقه إذا لم يفر من طريقها .

ولم يرى جوهان اباه ورفاقه الذين كانوا ينظرون اليه بوجل لا مزيد عليه وظل يركض بمنتهى سرعته حاسبا أن الكرة الحديدية لا تزال تتهدده وأن الأرض لا تزال تتحرك تحت قدميه لأنه لم يشعر بانها اصبحت ثابتة .

وللحال امتدت اليه اربعة اذرع قوية وخطفته اثناء ركضه وحملته بعطف وقد اغمى عليه .

ولم يطل اغماء جوهان الشجاع ففتح عينيه وتنهد تنهداً قوياً فقال اكوافيفا .

– حمداً لله فقد نجا .

وادرك باردليان ما في هذه الكلمات من المفاخر فاحني أمام اليسوعي وقال له :

-- لست أريد أن اتذكر الا امراً واحداً هو أن لا دخل لك بالعذاب الذي عاناه جوهان لذلك فانا اعفو عنك وأني انصحك نصحية خالصة بان تعدل عن السعي في الاستيلاء على كنوزه لأني اضمن لك عدم نجاحك وخيرلك أن تعود الى وطنك ولنا اكفل لك صمتي وكتماني أمرك ولكني لا اكفل صبري .

– ساعمل بمقتضى نصيحتك .

وخرج صامتاً فنظر جوهان إلى ما حوله كانه يفتش على شيء فقده فرأى باردليان منحنياً فوقه وبيريت تذرف دموع الشكر لخلاصه وبالقرب منها الرفاق الثلاثة فادرك الحقيقة ولم يعجب لما جرى ولا شكر منقذيه ولا سألهم ايضاً بل انتصب واقفاً وقال بلهجة تشف عن الوجل الزائد :

– في أي يوم نحن من الاسبوع ؟

– يوم الخميس .

– وما هي الساعه الآن ؟

-- العاشرة ونصف من الصباح .

فبدت على محيا جوهان امارات الفرح والسرور فصرخ قائلا

– لقد كنت على يقين من وصولي في الوقت الملائم فاسرعوا باللحاق بي .

وهرول نحو الباب الذي فتحه له كولار الكامل فنظر اليه باردليان ورفقاؤه بدهشة لا توصف حتى صاروا في الطريق فاستوقف الفارس ولده وسأله عما يريد عمله فقال له بسكينة :

– بما انها الساعة العاشرة ونصف الآن فاريد الذهاب أولاً إلى قصر اللوفر .

واسرعوا في سيرهم نحو قصر الملك وأخذ جوهان يقص على ابيه الحديث الذي سمعه من كونسيني وزوجته ولما كان في الغرفة المضطرمه فعرجوا في طريقهم على النزل الذي كان يقيم فيه باردليان فاسرج جوهان بيده جوادين وسلم باردليان بيريت الحسناء إلى عناية صاحبة النزل واسر إلى الرفاق بعض أوامر

• رية فاندفعوا من النزل كالسهم المارق وركب باردليان وجوهان جواديهما وأسرعا إلى قصر اللوفر فوصلا اليه بعد قليل .

* *

لم يكن قصر الملك في رولي يشبه قصور الملوك بل هو اشبه بمنازل القرويين ويؤلف من قسمين تفصلهما حديقة كبيرة ومن خلفها برج كثير الارتفاع وقد سجنت الانسة برتيل في ذلك البرج .

وفي ذلك اليوم في ذات الساعة التي سار فيها باردليان وجوهان إلى قصر اللوفر فتح باب الغرفة التي كانت مسجونة فيها الانسة برتيل ودخلت اليونورا غاليكاي فوقفت أمام الفتاة وتأملتها برهة وهي صامتة فشعرت برتيل برعشة الموت تسري إلى عروقها فتراجعت وقد استغرقتها الافكار العميقة ولكنها لم تلبث أن تمالكت روعها وقالت :

— لقد خلصت لي يا سيدتي بالامس ما هو اعز من حياتي فشكرت لك عملك وباركتك واليوم أرى أني لم اتوافق الا بتغير سجني وقد بت أشعر أني سجينة بأمرك وصرت في حوزتك وتحت أمرتك وأرى من عينيك أنك تكرهينني كرهاً عظيماً وتريدين موتي فما الذي عملته معك وأي ذنب جنيته ومن أنت يا سيدتي ؟

— عفواً يا سيدتي فقد اسأت بك الظن منذ هنيهة لأني

رأيتك في مقتبل العمر ذات جمال باهر وأنا ايضاً فتية ولكني قبيحة الصورة للغاية فلم اتمالك أن شعرت نحوك بعاطفة تشبه البغض .

ولست ادري السبب الذي دعاني أشعر بهذه العاطفة وعلى أني أنا زوجة كونسيني الذي يلاحقك بغرامه الحيواني منذ مدة بعيدة ولما جئت الى هنا لاطمئن عليك رأيت هذا المنهل محروساً ومن خلفه رجال كونسيني وهم يقتلونني من غير شفقة ولا رحمة إذا حاولت تهريبك ولا ريب من مجيئه الى هنا لاذلالك ولعله يصل عن قريب أو بعد بضع دقائق .

— رباه أني هالكة .. ليس أمامي سلاح ولا شيء استطيع به الدفاع عن نفسي وحماية شرفي .

— نعم أنك هالكة ولكن بامكاني انقاذ شرفك فهل تقبلين مني ذلك ؟

— بربك تكلمي يا سيدتي فقد اعدت الراحة لنفسي .

فمدت اليونورا يدها الى صدرها واعطتها زجاجة صغيرة وقالت لها :

— نقطتان من هذه الزجاجة تخلصانك من كونسيني وليتني كنت استطيع المزيد في نفعك .

فاخذت برتيل الزجاجة من اليونورا وقد ارتاح بالها وتأكدت أنها ستنجو من كونسيني بالموت وقالت برباطة جاش مدهشة .

– أن الخدمة التي قدمتيهـا لي لا تقدر بثمن فاشكرك عليهـا .

– الوداع الان يا عزيزتي .

وانسلت اليونورا بخفة من غرفـة الفتـاة المنكودة الحظ وخرجت من حديقـة المنزل فرأت عربـة بانتظارهـا ركبتها وسارت بها جيادها تسابق الرياح .

الفصل التاسع والستون

فشل قتل الملك

وكانت الساعة تقرع اذنه بانتصاف النهار والشمس ترسل اشعتها المحرقة على تلك البطاح وكانت السهول مقفرة والسكوت مخيماً عليها لان تلك الساعة كانت مخصصة المراحة من عناء الاعمال .

وكان قـرب باب ذلـك المنزل شبه هضبة اختبأ خلفها رافالياك وقد وضع يـده داخـل ردائـه واخذ يلاعب قبضة خنجره وكانت عيناه تتقدان كالجمر وهـو ينظر الى الطريـق بتلهف وتشوق كأنه يستدعي اليه ضحية .

وكان سانيا مختفياً قرب باب سان دنيس وبجانبه جواد مسرج وهو يداعب مثل رافالياك خنجره بيده .

واجتازت عربة تجرها ستة من الجياد المطهمة ذلـك الباب بسرعة البرق وهي ذاهبة في طريق رولي فهمس سانيا في نجواه قائلا وقد ظهرت عليه أمارات السرور :

– هذا هو الملك ... والويل لكونسيني اذا كان قد سخر مني ولم يأت جوهان في اثره .. لا انه صادق في وعده فهذا هو

وكان قد خرج فارسان من الباب وهما يعدوان بجواديهما بسرعة لا تقل عن سرعة موكبة الملك وكانا رغماً عن حرارة ذلك اليوم رافعين ارديتهما على وجهيهما ولا تظهر منهما غير العيون فلم يعجب سانيا لهذا الامر لأنه كان مقنع ومتنكراً مثلهما والظاهر أنه عرف الفارسين لأنه لم يكد يراهما حتى تزايد فرحه .

واسرع الى الباب وتجاوزه ودار خلف الباستيل حتى وصل الى شارع سانت انطوان فرأى نفراً من الجند يتقدمون بسرعة فعاد الى حيث كان وركب جواده وانطلق به يسابق الرياح حتى وصل اول منزل صادفه على طريقه فرأى كونسيني ورفاقه مختبئين وراء سوره مع عشرين من قطاع الطرق فسأله كونسيني بنظره عما عرفه فقال له :

لقد مر بي عربته وكان جوهان وابوه يتبعانه على جواديهما وسيصلون في ساعة متأخرة وقد خرج الحاكم الاعظم من المدينة وسيصل في الوقت الملائم للقبض على جوهان واني اكفل لك هلاكه هذه المرة .

– لننتظر النهاية لنرى النتيجة .

ولم يطل عليهم الانتظار اذ بعد قليل اقبل فارس ينهب الارض بجواده وهو يلهث من فرط تعبه وقال :

– لقد قضي الامر يا مولاي وكفت طعنة واحدة

واصبحت الطريق حرة .

وطلب كونسيني من الرجل ايضاح ما يعرفه ولكنه لم يكن رأى الشيء الكثير بل ابصر عربة وقفت امام باب المنزل فهجم عليها في الحال رجل قوي البنية طويل الهامة وطعن بيده اليمنى طعنة نجلاء كفت لقضاء الأرب لأنه سمع عقب هذه الطعنة صوتاً يخترق الفضاء فبادر بموجب الاوامر التي تلقاها لاخبار سيده بما شاهده .

وكانت هذه الايضاحات مهمة في حد ذاتها ولكن كونسيني اكتفى بها فاستنار وجهه بعلائم الكبر والخيلاء وأمر رجاله بان يتبعوه على الأثر .

وبعد بضع دقائق وصل إلى الباب الذي خرجت منه زوجته قبل ساعات قليلة فأوقف امامه خمسة من رجاله وأمرهم بان يعتنوا بالخيول ودخل المنزل مع الباقين .

وكانت برتيل منذ ذهاب اليونورا تتوقع من دقيقة إلى أخرى مفاجأة كونسيني لها ولكنها كانت رابطة الجأش لذلك لم ترتعب لما رأته داخلاً غرفته لأنها تناولت الزجاجة الصغيرة التي اخذتها من زوجته ووقفت مستعدة لمقابلة الطوارىء .

ووقف كونسيني أمامها وأخذ يضحك ضحكة السخرية والامتهان وكان منظره مرعباً لأنه شف عن الوعيد والتهديد ثم انقلبت ملامحه وتحولت إلى قسوة لا مزيد عليها ، فدنا من الفتاة ووضع يده على كتفها وكانت تشابه الأموات باصفرارها وقال لها بلهجة لا توصف :

– لم يعد لك مفر من يدي يا برتيل

فلم تجبن الفتاة ولا جزعت بل تمتمت قائلة .

– الوداع يا جوهان ... الوداع أيتها الحياه ... الوداع يا حبنا الطاهر .

وباسرع من لمح البصر وقبل أن يتمكن كونسيني من منعها عن عملها اخذت الزجاجة الصغيرة التي وصلت اليها من اليونورا ووضعتها على فمها .

رأينا العربة الملوكية تجتاز بسرعة البرق باب سانت انطوان وكان ينقلها ستة جياد مطهمة وظلت سائرة بتلك السرعة حتى وقفت أمام الباب الذي كانت مسجونة داخله الآنسة برتيل وفي الحال خرج رافالياك من مكمنه ووضع رجله على كرسي المركبة التي كانت نافذتها مفتوحة وامتشق خنجره بيده وأهوى به بشدة تكاد تكون غير اعتيادية .

وفي تلك اللحظة دوى صوت عظيم وهو الصوت الذي سمعه رسول كونسيني وأعاد ما شاهده على مولاه ولو أنه تمهل هنيهة لكان بلاغه غير ما رواه وكان قص على كونسيني حقيقة ما جرى واليك البيان

لم يكد رافالياك يرفع يده بخنجره حتى شعر بيد حديدية تقبض على ذراعيه وتمنعه عن الحركة وسمع صوتاً يسأله بمنتهى السكينة :

– أيه يا جان فرانسوا الا تزال مصمماً على قتلي ؟

فذعر رافالياك لهذا السؤال وأخذ يفتش بنظره داخل العربة على الرجل الذي كان يريد الفتك به فلم ير غير باردليان

الذي كان قابضاً على ذراعيه بشدة وكان جوهان الشجاع الذي كان ينظر اليه بسكينة لا مزيد عليها فلم يتمالك المسكين أن صاح قائلا :

– سيدي جوهان الشجاع .. لا ريب بأني رجل ملعون .

ووقف في مكانه وهو ينظر إلى جوهان نظرات المجانين فتركه باردليان وهو على يقين من عدم هربه وفي تلك اللحظة وقف والفارسان اللذان حسبهما ساتيا جوهان واباه مع أنهما لم يكونا في حقيقة الأمر إلا كرنكايل وكاركان اللذين كانا مرتدين ملابس جوهان وباردليان فترجلا عن جواديهما وقال كرنكايل

– أن الفرسان يحدون في اثرنا وسيلحقون بنا بعد ربع ساعة وفتح جوهان باب العربة ونزل منها مع رفيقيه فتراجع رافالياك أمامهم ولكنه لم يحاول الهرب بل قال بلهجة تشف عن اليأس الذي لا يوصف :

– هذه هي ثاني مرة ارفع بها يدي على المحسن عليّ فأنا ملعون .. أنا ملعون .

– وهل كنت تريد قتلي يا رافالياك ؟

فحملق رافالياك عينيه وهو لا يفقه ما يسمعه ولكنه ابدى اشارة دلت على احتجاجه على هذا القول واردف جوهان حديثه قائلا :

– لقد اردت قبل هذه المرة قتل الملك فجاء الحاكم الاعظم وقبض علي لأنه توهم أني أنا الذي تعمدت قتل الملك فاسمع الآن هذه الضوضاء من خلفنا فهي صوت الفرسان المقبلين من

الحاكم الاعظم وقد اسرعوا للقبض علي لأن الذين تخدمهم قد قرروا عقابي بالجريمة التي ترتكبها وإذا كررت جنايتك مرة ثانية اجازي بجريمتك ويحكم علي بالقتل .

– وهل يصح ما تقوله ؟ أني سأعترف بالحقيقة كما جرت ولا اكتم عنهم سراً اعرفه .

– وهبك أعترفت بالحقيقة فيقبض عليك وتزج في أحد السجون ولا تتمكن من تخليصي .. وإذا كنت صادقاً في ودادك فالوسيلة الوحيدة لانقاذي هي أن لا تحاول فعلتك الشنعاء مرة ثانية أما الآن وقد انذرتك بالعاقبة فقل لى ما الذي تنوي عمله يا رافالياك ؟

– أني رجل ملعون ولا ريب بان الهلاك الابدي سيكون جزائي العادل وأني ذاهب إلى انكوليم من غير تردد فالوداع وداعاً ابدياً .

وذهب بارداليان إلى باب المنزل الذي كان ينفتح لذاته فمد يده اليه ليفتحه وإذا به يرى ساتيا أمامه فقال له ساخراً :

– عجباً أني ارى كيدولوبيني .

وصرخ جوهان بحدة لا مزيد عليها :

– لا عجب من رؤيتك هنا وقد تألب سائر القتلة في هذا المنزل للفتك بي .

ودخلا المنزل ولم يدعا لساتيا وقتاً كافياً ليعود من دهشته وكان رجال كونسيني مختبئين داخل البرج فلم يتمكنوا من

مشاهدة ما جرى عند الباب وكان ساتيا يعلم هذا الأمر حق العلم وأنه إذا استنجد بهم يسمعون صوته فيلبون نداءه .

ولهذا شهر سيفه بيده فقابله جوهان بالمثل وبأسرع من لمح البصر اشتبك الحسامان بطعنات متوالية غير أن جوهان كان ارشق من خصمه وأقوى منه عضلا وأثبت جناناً فلم يلبث أن اطار السيف من يد ساتيا وقال له :

– لأن تحركت من مكانك فانت مقتول في الحال .

– ليس من يمنعك عن قتلي فافعل ما تحبه .

فهمس جوهان في اذن كرنكايل بعض كلمات وترك ساتيا وشأنه واسرع إلى المنزل ومن خلفه بارداليان وهو ينادي قائلا باعلى صوته :

برتيل .. برتيل .. ها انذا قد جئت لنجدتك .

الفصل السبعون

انتهاء المؤامرة

وكانت برتيل في تلك اللحظة قد رفعت الى شفتيها الزجاجة الصغيرة التي اخذتها من اليونورا غاليكاي . ولو مر ربع ثانية على نداء جوهان لكانت جرعت ذلك السم الزعاف وقضي عليها في الحال .

ولكنها سمعت صوت حبيبها فعادت اليها قوتها ودفعت من كان يحاول اغتصابها بمنتهى الشدة وصرخت قائلة :

– إلي يا جوهان ... إلي يا جوهان .

– لبيك ايتها الحبيبة فها قد اقبلت اليك .

وسمع كونسيني صوت جوهان ايضا فزمجر قائلا :

– يا للجحيم ألم يقبض عليه الى الآن .

واسرع نحو الباب وفتحه بعنف لا مزيد عليه وقد أشهر سيفه بيده فرأى جوهان وباردليان يتقدمان جنباً إلى جنب بخطى ثابتة وكل منهما ممتشق حسامه بيده فتقدم اليه جوهان واكتفى أن يبعده من أمامه باشارة من يده فألقاه بعيداً عنه

ولم يعد يبالي به فهطلت على وجنتي كونسيني دمعتان من الخجل والحقد .

ولم يلبث أن عاد جوهان وهو متأبط ذراع حبيبته برتيل التي خلصها من سجنها وكان كلاهما يبتسمان بسرور .

وفي تلك اللحظة سمعت طرقات شديدة على باب المنزل كادت تزعزعه من اركانه وبعد قليل دخل فارس معفر الثياب بالغبار ووقف أمام كونسيني وقال له بعد أن حياه باحترام :

– لقد ارسلتني مولاتي اليونورا لاخبرك يا سيدي بان الملك قد غادر قصر اللوفر عند الظهر وسيكون هنا عن قريب .

فألقى كونسيني على جوهان الذي كان يصغي إلى هذا الحديث نظرة تائهة كالمجانين ونظر بجزع لا يوصف إلى باردليان الذي قال له بمنتهى السكينة .

– انج بنفسك يا كونسيني فقد عفوت عنك .

– أما أنا فلست أعفو .

– هذا ما كنت أؤمل سماعه منك ولكني انصحك بالهرب في الحال وأن تنجو بنفسك .

فأسرع كونسيني بالهرب ليس خوفاً من الموت بل فراراً من هذه الاقوال التي كانت تؤثر عليه اشد تأثير فأخذ جوهان برتيل بيدها وتبعته بثقة لا مزيد عليها فوقف عن يمينها وابوه باردليان عن يسارها وتقدموا نحو الباب الذي كان رجال الحاكم الاعظم يحاولون تحطيمه .

وكان كاركان وكرنكايل واسكركاس يسيرون من خلفهم

وسيوفهم مشهرة في ايديهم وملابسهم مضرجة بالدماء وممزقة تمزيقاً ومنظرهم مخيفاً رهيباً يدعو للوجل .

وفتح جوهان الباب بيده فلم يتمالك دي نوفي عند رؤيته مع رجاله إلا أن تراجع بضع خطوات وكانت عربة الملك لا تزال هناك فتقدم اليها جوهان وباردليان واركبا فيها الفتاة .

وعاد الحاكم الأعظم فتمالك روعه ووقف أمام العربة وهو يبتسم ابتسامة الفوز ومد يده نحو جوهان وقال له :

– باسم الملك أقبض عليك .

وكان جوهان ممسكاً بحسامه بيده اليمنى فلم يجاوبه على قوله بل نقل السيف إلى اليد اليسرى وفعل معه كما فعل مع كونسيني فدفعه بشدة فسقط بين رجاله وقال جوهان لبرتيل التي كانت تنتظره بكل سكينة .

– اركبي يا سيدتي العربة .

فأطاعت برتيل هذا الأمر وابتسمت لحبيبها ابتسامة ملائكية وأخذ دي نوفي يسخط ويزمجر قائلا :

– هذه هي المرة الثانية التي يجسر فيها هذا اللئيم على مد يده علي فاقبضوا عليه ايها الحرس .

وتظاهر جوهان بانه لا يرى شيئاً مما هو جار حوله وأخذ يساعد برتيل على الصعود إلى المركبة بسكينة ادهشت اعداءه فكأنه لم يكن يرى غيرها في عالم الوجود .

ولم يكن باردليان ليسهى عن الخطر المحدق بولده فانه

اشهر حسامه بيده ووقف في وجه الحاكم الاعظم كالأسد الرئبال الذي يدافع عن عرينه وقال له بلهجة الآمر :

– ارجع إلى الوراء يا دي نوفي لئلا تندم على عملك .

– وما معنى قولك يا سيدي ؟

– الا تسمع صوت المركبة القادمة من طريق شارنتون فاعلم أنها مركبة الملك وحرسه وهم قادمون إلى هنا ولجلالته وحده حق الحكم بهذه المسألة .

فتراجع دي نوفي مذعوراً وقال :

– الملك فاذن هو لم ...

فهز باردليان كتفيه باستهزاء وكانت برتيل قد جلست في العربة فتركها فيها جوهان وقد اطمأن باله عليها وتقدم إلى الحاكم الاعظم وسأله برباطة جأش قائلا :

– ما الذي تريده مني يا سيدي ؟

فتضاعف غضب دي نوفي لهذا السؤال الذي كان يشف عن السخرية وزمجر قائلا :

– أريد أن أقبض عليك فامسكوه أيها الحرس .

وكان دوي المركبة التي اشار اليها باردليان يدنو بسرعة فحكم جوهان في فكرته أنها لا تلبث أن تصل اليهم عن قريب فأعاد سيفه إلى غمده وقال بمنتهى السكينة :

– لا بأس فيما تريده ولست أمانعك في عملك غير أني اطلب منك أن تأمر رجالك بان يبقوا بعيداً وأنا أقسم لك بشرفي

بأني لا اتحرك من هذا المكان حتى يصل الملك ويصدر الأوامر التي يريدها .

فاجابه دي نوفي الى طلبه لأنه كان واثقاً من عدم استطاعته الهرب ودخل المنزل فوجد فيه ساتيا مقيداً ومطروحاً في أحد الجوانب فسلمه لرجاله .

ووصلت العربة في تلك اللحظة ووقفت أمام المنزل وكان فيها جلالة الملك هنريكوس ومعه الدوقان دي ليانكور ودي بلغراد والمارشال دي باسومبيير والدوق دي مونتبازون ومن خلفها الضابط دي فيتري مع فرقة من الحرس .

فترجل الملك واصدقاؤه وصف دي فيتري رجاله كأنه يعدهم للقتال فتقدم هنريكوس الرابع تواً إلى باردليان وجوهان اللذين كانا واقفين بجانب العربة ونظر الى ثيابهن الممزقة والدم الذي كان يسيل منها فلم يتمالك أن قال :

– يظهر لي أن المعركة كانت حامية .

فلم يجاوبه جوهان على هذا السؤال الذي كان موجهاً اليه بل نظر الى باردليان باحترام لأنه كان قد اطلع في قصر اللوفر على حقيقة نسبه فادرك باردليان مقصد ولده فقال له بعطف :

– تكلم يا ولدي اذ يحق لك التمتع بالهناء بعد أن ذقت مزيد العناء .

– لقد كانت المسألة طفيفة في حد ذاتها ولم تدم المعركة اكثر من بضع دقائق هرب بعدها اللصوص .

– وأين هي الفتاة ؟

– أنها بانتظار جلالتك في العربة .

– وماذا جرى بحادثة الاعتداء ؟

فقال باردليان متهكماً :

– لقد فشل الخونة وبامكان الحاكم الاعظم اخبار جلالتك أنه وصل في الوقت الملائم للقبض على القاتل .

– اذن لقد توفق بمسك أحد هؤلاء الاثام فسأتوج سؤاله بذاتي وأعرف منه تلك العصابة الشريرة التي تريد هلاكي .

– أن الذي قبض عليه دي نوفي الحاكم الأعظم يتشرف بالانحناء أمام جلالتك .

ما معنى هذا المزاح البارد يا دي نوفي فقد خاطر هذا الشاب بحياته قبل هذه المرة لخليصنا واذا بك جئت تقبض عليه لو لم نمنعك عن هذا الأمر واليوم تريد تكرير هذا الاعتداء عليه بعد أن تحققت اخلاصه لنا وأنه لولا رغبته بانقاذنا لما وجد في هذا المكان فحقاً أنك تفهم واجباتك بشكل غريب فاذهب الآن والتزم منزلك الى أن تصدر لك أوامري الجديدة .

فصعق الحاكم الأعظم لهذه النكبة وكاد يقع على الارض لو لم يتداخل جوهان بشأنه وقال الملك :

– لي نعمة التمسها من جلالة الملك

قل ما تريده وإذا لم تكن مغالياً في سؤالك فطلباتك مقضية منذ الآن – أني التمس العفو عن دي نوفي فهو اراد القبض علي وقد حسب أنه يحسن صنعاً واؤكد لجلالة الملك أنه يجهل كل الجهل ما كان جارياً .

– لا يسعنا رفض هـذا الطلب الذي يزيدك رفعة ولكن حذار يا دي نوفي من العودة الى مثل هذا الخطأ .

وأخذ جوهان بيده وقال له بصوت عال سمعه الجميع :

– اقدم لكم ايها السادة صديقنا جوهان الذي انقذ حياتنا اربع مرات في بضع اسابيع والذي احبه واحترمـــه اكثر من سائر الناس بعد ابيه الفارس باردليان فقدمـــوا لهما فروض الاكرام والاحترام ، فعلت اصوات الجميع بالدعـــاء للملك وامرهم بالرجوع الى قصر الوفر .

★ ★

الفصل الواحد والسبعون

زواج جوهان من برتيل

وبينما هم في العربة اخذ الملك يد ابنته برتيل ووضعها في يد جوهان الذي كاد يطير من فرحه وسعادته وقال لها .

– اظن انني اكفر عن ذنوبي معك بتزويجك للرجـل الذي اخترتيه والذي هو وحده جدير بالحصول على مثل هذا الكنز الثمين .

ولما وصل الى اللوفر ارسلوا الآنسة برتيل الى قصر الدوق والدوقة دانديلي فعرفا من جوهـــان الشجاع واستقبلا هذين العاشقين كما لو كانا ولديهما .

وفي اليوم الثاني اخـذ باردليـان ولده الى نفق مونتمارتر فأخبر جوهان اباه بما جرى له لما اكتشف ذلك الكنز الدفين فقال له باردليان ضاحكاً :

– أني اعرف ذلك فقد رأيتك وسمعتك وهذه الكنوز التي حسبت أنك تسرقها هي ملك لك فما الذي تنوي عمله بها ؟

– لقد قيل لي أنك لما جملت كونتاً لمارجنتس تنازلت عن

ايراد هذه الكونتية البديعة الى فقرائها وأنك ورثت من زوجتك مائتي الف ذهب تخليت عنها لفقراء سان دنيس .

– صدقت يا ولدي – وقيل لي أنـــك لم تقبل من الملـك المديون لك بعرشه وحياته لا هدية ولا لقباً ولا وظيفة .

أنك والحالة هذه كنت سبباً لسعادة الالوف بل الملايين من المساكين فما الذي يمنعني من الاقتداء بك .

اني اكتفي بمئة الف ذهب من هذه الكنوز واعطي كلا من رفاقي الذين نعرفهم مثل هــذا القدر والباقي اتنازل عنه للفقراء

فضم بارديلان جوهان الى صدره بعطف وقال له :

– حقاً انك ولدي وارى بك ذات اخلاق .

*

وبعد شهر تم زفاف جوهان الشجاع على برتيل الحسناء في سوجيس ولم يحضر تلك الحفلة احد من الاصدقاء حتى ولا الملك وفي ذاك اليوم زفت بيريت إلى كاركان واعطى جوهان كلا من رفاقه الهبة التي وعدهم بها .

بقي علينا أن نعرف ماذا جرى لباقي الاشخاص الذين مثلوا الادوار الهامة في روايتنا فقد عاد كوافيفا الى روميه ولحق به كولار الكامل ويئس ساتيا من الحياة لأنه فشل في انتقامه من جوهان فانتحر وسجنت كولنيكل ولم تخرج من السجن الا على آلة حدباء ولم تسعد الا رئيسة دير مونتمارتر التي اصبح ديرها مورداً للزوار يقصدونه من كل مكان لزيارة مذبح القديس

الذي اكتشفوه عليه .

أمـا بارديلان فبقي ثلاثة اشهر مع ولده وعاودته فطرة التجول فودع جوهان وعروسه ولم يصغ لتوسلاتهما ليبقى معهما بل قال لهما

– سأعود بعد عشرة اشهر لاعمد حفيدي فلا تخيبا ظني بكما .

* *

واهنأوا الآن بحياتكما الزوجية واحرصا على ما خصكم الله اخيراً من هناء بدل ما تعبتموه من فراق وعناء واني معكما اينما كنتم فلا تخيبا ظني بكما واعفو عمن اساء اليكم .

فالله وحده مجازي الخاطئين

تمت الرواية